رواية

RAPHAELA EDELBAUER

رافائيلا إيدلباور

الأرض المائعة

DAS FLÜSSIGE LAND

مكتبة 1662

عصير الكتب

ترجمة: شيري منتصر



رواية

RAPHAELA EDELBAUER

رافائيلا إيدلباور

الأرض المائعة

DAS FLÜSSIGE LAND

ترجمة: شيري منتصر







Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: Das flüssige Land
- العنوان العربي: الأرض المائعة
- طُبِع بواسطة: Greenwillow books

- ترجمة: شيري منتصر
- تحرير: أحمد إبراهيم إسماعيل
- تدقيق لغوي: أسماء أبو المجد
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: مارس/ 2023م
- رقم الإيداع: 4392/2023م
- الترقيم الدولي: 978-977-992-235-5

3 2 2024



انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

محمد خطاب

الأرض المائعة



1

في ساعات الصباح الباكرة في 21 من سبتمبر 2007 سكبتُ نحو 200 مل من القهوة فوق هاتفي، الذي يرن بشكل لا ينقطع برقمٍ مخفيٍّ، وظل يهتز فجأةً طالبًا مني أن أُجيب، بشكلٍ لم يتسنَّ لي معه وضع كوب القهوة جانبًا. مشتتة من انقطاعي عن العمل، فهمتُ بعد عدة دقائق من كان معي على الهاتف، كان شُرطيًا، بلا ثرثرةٍ كثيرةٍ من التحيات المسهبة أخبرني أن والديَّ ماتا الليلة الماضية في حادث سيارة.

سألتُ: «ماتا؟».

رغم إدراكي للأمر مباشرةً. وبينما كنتُ أحدق من جديد إلى مقالي عن الفضاء الاتجاهي[1]، كانت الأسهم[2] تتراقص أمامي، وكان حينها الشرطي يخبرني بما حدث: أودي الحمراء، وبها -من خلال رقم السيارة- تُعُرِّف على والديَّ، انحرفت عن الطريق، وتدحرجت مثل كومة من الطين مُنجرفةً في منحدرٍ جبليٍّ من الحصى بالقرب من «سورنتال». وضح لي الشرطي، أن الشيء الغريب هو أن أيًّا منهما لم يظهر عليه أي علامات للجروح أو آثار للكدمات، ولكن كان هناك بالفعل جزء مُحطم من السيارة نتيجة للتصادم مع الحاجز المروريِّ، كما يتحدث الكثيرون عن أن هذا لم يكن سبب الوفاة.

وفقًا للشرطي، فبعد التصادم ظلت تتدحرج العربة ببطء لا متناهٍ على المنحدر، ببطء استدارت واستلقت على ظهرها مثل حشرة تحتضر، لكي تنزلق

(1) الفضاء الاتجاهي: شيء أساسي في دراسة الجبر الخطي. هو مجموعة من عدة متجهات، التي هي كائنات يمكن إضافتها مع بعضها بعضًا وضربها بأعداد، والتي يطلق عليها كميات قياسية في هذا السياق.

(2) في الأصل جداء ثلاثي: وهو حاصل ضرب ثلاثة متجهات.

في النهاية من على قمة الجبل مصنفَرة برقة من الجبل إلى أن وصلت للقاع. فالنهاية المحتملة الصامتة للمنحدر على الطريق السريعة لـ «سيمرينج[1]» هي شجرة السنديان، هذا المنحدر الذي لا يُرى تمامًا للسائقين بسبب كثافة الضباب.

كنتُ جالسة في سريري ببنطلون بيجامة وحمالة صدر، وعلى ركبتي اللابتوب بالنص المفتوح لمحاضرتي الافتتاحية[2]، وشعرتُ فجأةً بأنني في منتصف لوحة ذات منظور خاطئ: زوايا شقتي تجلس في صخب، زوايا الحديقة أمام نافذتي، زوايا كل كرسيٍّ، كل رف، كلها تجلس في حركةٍ صاخبة، مندفعةً بعنفٍ تجاه بعضها بعضًا. واستمر الرجل على الهاتف يكمل حديثه بلا تأثر، لكي يُنهي مهمته كونه مبشرًا، ومن ثم فمن المؤكد أن التصادم لم يكن سبب الموت، ولا حتى الإجراءات المختصة ببناء الطرق -وقد أكد على هذا- لها يد في الحادثة التراجيدية. أما اليقين التام لسبب الوفاة سنعرفه خلال أيام حينما يصلنا التقرير الطبيُّ، هكذا أخبرني الشرطي، الذي سمعتُ في نبرة صوته، المتأرجحة بين أسلوب منظمي حركة المرور وموظف في البوليس الجنائيِّ، أنه هو أيضًا كان لأول مرة يواجه مثل هذا الموقف. ثم ودَّعنا بعضنا بعضًا بشكلٍ آليٍّ، وأغلقنا.

طوال فترة ما قبل الظهر اللانهائية اضطجعتُ صامتةً في ملابس النوم على سريري، متقلبةً بين جنبي وبطني وظهري، وعيناي تراقبان خارج النافذة إشارة المرور المتراقصة، حتى فقدتُ الأمل بشكل متزايد في حدوث أي انقلاب في داخلي، وبدلًا من ذلك داهمني شعور، الذي منه شيئًا فشيئًا كانت تظهر الحقيقة. من الواضح أنني كنتُ ولمدة طويلة جزءًا من الحِسبة، جزءًا من طقوس مُخطط لها بالفعل من قبل ولادتي، التي ستتكشف الآن. الأرغن اليدوي[3] الغريب قد بدأ في الدوران. الأدوار كلها مقسمة، التروس

(1) طريق سريعة في النمسا تربط بين الشمال والجنوب.

(2) محاضرة يُلقيها من يتعين جديدًا في جامعة ما، فهي البداية الرسمية لنشاط التدريس.

(3) الأرغن اليدوي هي آلة تعزف موسيقى عندما تُحرَّك من يد العازف، وكان يعزف عليه موسيقيو الشارع قديمًا.

تشابكت مع بعضها بعضًا وكل الأسطوانات في آلية الحركة تنتظر أن يُطلب منها أن تؤدي واجب العزاء، وأنا بالطبع، من تُنظم تشييع الجنازة.

بمجرد تفكيري في تلك الجملة، استطعتُ التصرف. ارتديتُ ملابسي، تألق جوربي الجديد كالحرير بمجرد أن أخرجتُه من عبوته، أعددتُ القهوة وفتحتُ مستند أكسل. في الساعات التالية وضعتُ قائمة بالمتطلبات، وجمعتُ أسماء المراد إعلامهم في قائمة البريد الإلكترونيّ للإرسال، كما جمعتُ عناوين وكالات الدفن، والجمل المناسبة لبطاقات التعزية. وضعتُ الأشياء كلها في حالة حركة، وأجلتُ واجباتي المهنية، هذا يعني أولًا إلغاء المحاضرة، وتأجيل اللقاء مع مشرف أطروحة التأهيل[1] خاصتي.

قالت سكرتيرة المعهد بلطف: «لا مشكلة، يا روت، سأرسل لكِ على الفور السماح بإجازة خاصة. سنبلغ الطلاب أن محاضرتك ستبدأ بعد أسبوع».

في أثناء ذلك كانت الساعة الثانية عشرة، ولأن اليوم هو الجمعة، قفز الطلاب من المبنى الجديد للمعهد المقابل ودخلوا بخطوات استعراضية إلى عربات الترام، في أياديهم الحقائب التي تحوي الملابس المتسخة والجاهزة للتخلص منها، حيث والداتهم اللائي من «ستيريا» أو «النمسا العليا[2]»، سيضعنها في خلال ساعات قليلة في الغسالة. على الناحية الأخرى كنتُ أشعر بالخنق، وكأن منزلي الأبكم يلتف من حولي ويضغطني. تنفستُ بإيقاع، أغلقتُ عيني لبضع دقائق وانتظرتُ حتى استعادت ضربات قلبي توازنها من جديد، ومع ذلك انفجر العبء، بكيتُ بصوتٍ عالٍ ولكن لمدة قصيرة، فكرتُ في والديَّ، في العناق القويِّ لوالدي، وعطر أمي، والجلوس معًا إلى مائدة الطعام طوال تلك السنوات، وغناء أغاني عيد الميلاد، في المشاجرات، فكرتُ في ألف لحظة صغيرة، التي اندفعت فوقي في فوضى تامة، بينما كنتُ أتكئ على فراشي. كل هذا دام للحظة، كما لو أن جسدي لم يستطع حبس الألم في داخله، فقد تبخر وطار من تلقاء نفسه، وحجز العدم مكانًا. صمت تام من جديد، فقط صوتٌ منسل من سخان المياه.

---

(1) أطروحة التأهيل للحصول على الأستاذية والتدريس في الجامعة.

(2) ولايتان في النمسا.

أصبح من الضروري فعل شيء ما حيال هذا الشعور بالتعب، من خزانة الأدوية تناولت حبتين من «زانكس[1]»، واستلقيتُ على الأريكة، لففتُ جسدي ببطانية خفيفة، خلال الساعات الماضية كنتُ منهكة بشدة إلى أن غفوتُ أخيرًا. كانت الأريكة تتسرب ببطء خافت إلى جدار غرفة المعيشة وبداخل الجو الملبد بالغيوم الرمادية لفترة بعد الظهر.

وعندما عدتُ إلى نفسي من جديد، شعرتُ بظهري مُحمَّلًا بعبء متحرك. أيادٍ تهبط على كتفي، كان دليلًا على صدمتي العصبية. بالفعل كانت ذكرى: كنتُ قد فتحتُ الباب لخالتي ومعها اثنتان من بناتها، اللتان تلقَّتا مني منذ قليل خبر الوفاة. كل واحدة منهما أحكمت شعرها على شكل كعكة في مؤخرة رأسها، وارتديتا السواد، بحيث بَدَتا متطابقتين تمامًا. لفت خالتي ذراعها حولي، ووضعت أمامي فوق المنضدة الأكل الذي أحضرته معها، كانت متأكدة بأنني لم أتناول شيئًا طوال اليوم.

التفتت إليَّ خالتي: «روت، أنتِ تعلمين، يمكننا أن نساعدكِ في إدارة المنزل وباقي الأشياء الأخرى. هذا على الأقل».

ولكن ما نطقت به قد وصل إليَّ متأخرًا. سرعان ما انخرطنا في حديث جاد حول كيفية تشييع الجنازة، عندما أفلت الكوب من يدي، كان شخصٌ -في شرودي- قد ملأه بعصير برتقال. رأيتُ السائل يتدفق بحرية تحت الأريكة، ولم يكن هناك شيء يعرقله. انزلقت الطاولة من تحت يدي، كان الأثاث قد صار بالنسبة إليَّ غريبًا عني، على الرغم من أنه يخصني.

المناديل التي تُخرجها بنتا خالتي، والهواتف المهتزة بانسجام، قرص الشمس المتجول في القبة السماوية، والدموع المتساقطة بإيقاع من غدتي الدمعية[2] بينما تتكفل بقيةُ الغدد الدمعية بضبط الإيقاع، ومنفاخ رئتي يُدوِّي في الفضاء الفارغ. فكرتُ في أن الأحداث قد خرجت عن الترابط المنطقيِّ. كررت بيأس واحدة من بنتَي خالتي: «أنتِ في صدمة».

---

(1) دواء لعلاج القلق، فهو يعد مهدئًا ومنومًا.

(2) الغدة الدمعية: لها شكل اللوزة، وتفرز الدمع.

ومسحت على شعري بعكس اتجاهه، فأصبحت خصلات شعري بداخل مرمى بصري، بدلًا من أن تكون خارجه.

بين دوي الأبواق من أنفها المملوء عن آخره أوضحت لي خالتي أن رغبة والديَّ الدائمة التي لا جدال فيها كانت دفنهما في «جروس أينلاند[1]». «جروس أينلاند»، رددتُها عدة مرات لكي أتذكر هذا الاسم، الذي ولمدة طوية قد غاب عن ذهني: «جروس أينلاند، جروس أينلاند، جروس أينلاند».

قالت خالتي: «جروس أينلاند».

وكأنها آمين الختامية[2]، ثم وثبتُ على قدمي.

(«جروس أينلاند»: آخر مرة سمعتُ بها هذا الاسم كان منذ خمسة وعشرين عامًا، واكتشفتها في تلك الليلة من خلال وخزة سريعة من الديچاڤو اقتحم عقلي. كان والداي، مثل العديد من الأشخاص الذين ارتقوا بالعمل وهم من بيت متواضع، طوال حياتهم حريصون على إخفاء أصولهم الريفية. والحق يقال ذهب ذلك معهما إلى أبعد بكثير عن الآخرين، بقدر ما أستطيع التذكر، فإننا لم نزُر ولا مرة قرية والديَّ، ولأن خالتي أخت غير شقيقة لأمي، قد نشأت في «غراتس[3]»، كما انقطعت أي علاقة بأقارب والدي منذ البداية، فلم أعرف مطلقًا أي شخص قد كان يومًا ما في جروس أينلاند).

شرحتُ ضرورة البدء فورًا، وضرورة أن أهتم بالتجهيزات في جروس أينلاند. سأذهب وحدي وعلى الفور، فطلبتُ من خالتي بألا يكون هناك المزيد من المناقشات. شرحتُ لهن رغبتي في الحصول على قبر في مقبرة حسنة، وإلا فلن نتمكن من البدء في نقل الجثمان. أنهيتُ كلامي بأن لا بد من تنظيم نزل، بنسيونات في الطابق الأرضيّ للجيل الأكبر سنًا، ولا محالة أيضًا من وجود بعض من موسيقى آلات النفخ[4]، وتماثيل من الرخام لملائكة صغار، ودفعتُ كلا الجسدين لبنتَي خالتي إلى الباب. فلدي الحاجة المُلحة لأكون

(1) Groß-Einland: لا وجود لها في الواقع، مكان اخترعته الكاتبة.

(2) آمين: تقال في نهاية الصلوات عادة.

(3) ثاني أكبر المدن النمساوية بعد فيينا.

(4) تسمى بموسيقى الرياح، لأنها تعتمد على النفخ.

وحدي. أُمسكتُ من كتفيَّ ولكني خلَّصتُ نفسي من تلك القبضة وتحدثتُ بكلامٍ ليُطمئنهن، الذي سرعان ما تبدد.

سمعتُ: «هاتفينا صباح غد رجاءً وإلا فإننا سنقلق عليكِ».

ثم رأيتُ خالتي وبناتها يختفين في السلم. على الفور رحتُ أحزم حقائبي للسفر وتجاهلتُ هاتفي، الذي يرن بلا انقطاع تقريبًا. فقط أقارب يرغبون في مواساتي أو انتزاع المعلومات الدقيقة لظروف الوفاة مني، حتى قررتُ، بعد الاتصال الخامس تقريبًا، أن أغلق الهاتف. حل الظلام وحدد معالم خشب الباركيه، حيث فوقه تكدست ملابسي. والآن حقيبتي تتكون من: خمسة قمصان، بلوزتين، فستانين، أربعة بناطيل، (واحد منها قصير)، معطف، سبعة شرابات، خمسة من الملابس الداخلية، أربع حمالات صدر، منشفتين، حذاءٍ يوميٍّ، حذاءٍ رياضيٍّ، حذاءٍ ذي كعبٍ عالٍ، حذاء هاف بوت، لاب توب، «زانكس»، «فينوباربيتال[1]»، «مودافينيل[2]»، «أوكسيكودون[3]»، MP3-Player، عشرة كتب: («فيتجنشتاين[4]»، «سيرنر[5]»، «ماكس برود[6]»، «تريستان تزارا[7]»، وستة كتب متخصصة في علم الفيزياء)، كما حقيبة صغيرة بها أدوات التجميل. هذا كل شيء، كل ما يمكن أن يكون لدي في السنوات الثلاث المقبلة. في تلك اللحظة رغبتُ في التخلص من شقتي كما لو أنها حذاء قديم. نزلتُ عدة درجات من السلم على مرة واحدة، سقطتُ من الطابق الخامس إلى الأرضيِّ، ثم ركبتُ سيارتي. فكرتُ بحماس عندما أدرتُ العربة: *هكذا يجب أن يكون الأمر*، فقد كان من واجبي ترتيب جنازة كريمة على الفور.

---

(1) مهدئ ومنوم ومضاد للاختلاج، يعمل بشكل أساسي لمرضى الصرع.

(2) عقار منشط.

(3) مادة أفيونية شبه اصطناعية، تُعَد مسكنًا للألم الشديد.

(4) فيلسوف نمساوي.

(5) أديب ومن رواد الحركة الدادائية، له مانيفست عن الدادا.

(6) أديب وناقد مسرحي.

(7) شاعر ومن المؤسسين لحركة الدادا.

عندما غادرتُ فيينا، تملَّكني ارتياح أبدي، تحرر صدري من ضغط مُقبض. بدا لي أن المصير حوضٌ ينفتح أمامي في آلاند[1]، وأنا أتحرك في مسار حلزونيٍّ بعمق بداخل الكواليس المظلمة. فكرتُ لمدة قصيرة في إذا ما كان من الضروريِّ إخبار أحد أصدقائي بالأمر، ولكني كرهتُ الفكرة. الشوارع كانت مهجورة، وفي نحو الساعة الثانية صباحًا احتضن الأوتوبان[2] المناظر الريفية، بالطبع هذا فقط ما استطعتُ تخمينه في الظلام المخيم من حولي. فقط عندما ظهرت أمامي اللوحة الحجرية الضخمة لـ «سيمرينج»، حدث التغير. كان غوصًا وكأنه تحت غطاء، عمق لا نهائي من أوراق الصنوبر ينفخ أثيره في عقلي، فتحتُ كل النوافذ، وشعرتُ بعربتي وقد تشبَّعَتْ بهواء الخريف. كانت الرائحة طيبة وجميلة لدرجة أن رائحة الفانيليا المنبعثة من معطر الجو[3] أزعجتني مرة واحدة، ما دفعني لنزعها من المرآة وإلقائها خارجًا.

أخذتُ عشوائيًّا مخرج الطريق السريعة يسارًا، لم يكن لدي أي فكرة إلى أين أنا ذاهبة. بلى، كل ما أعرفه هو جروس أينلاند، فقط بدأت بالقيادة بلا أي فكرة لدي عن مكان جروس أينلاند. رفعتُ صوت الراديو عاليًا وكأنني أحمي نفسي، كانت أغنية لـ «جانيت جاكسون»، وسرعان ما ابتلعت أصوات الرياح المندفعة بداخل السيارة صوتها. كان الهواء المشبع بالرطوبة يُصفِّر من خلال النافذة. في الظلمة المتهاوية رأيتُ فقط المزيد من الأطياف، كانت قمم الأشجار تنحني. لم أكن قط السائقة الأفضل، إذ أواجه الآن مشكلة في التحكم في سيارة فورد قديمة، لا بد أنني اتجهتُ سهوًا إلى طريق الغابة، فالإطارات تنزلق أحيانًا كما لو أنني فوق أرض جرداء، لكن لم تكن هناك مساحة كافية للانعطاف. ثم أصبحتُ على طريق مسفلتة، اعتقدتُ للحظة بأنني رأيت عن بُعد لافتة إرشادية للطريق، التي كانت مجرد قطعة خشبية ضخمة عند الاقتراب، ثم أصبحت على طريق مائلة قليلًا مرة أخرى. شعرتُ

(1) قرية تقع في النمسا السفلى.

(2) طريق سريعة ذات اتجاهين.

(3) Little tree: معطر جو مخصص للسيارات، يكون على شكل شجرة خضراء، وتعلق عادة على المرآة الأمامية.

بنفسي محمومة، مدفوعة من الطبيعة، التي على جانبَي الطريق تتحرك مزحزحة بعضها بعضًا. ثم صعدتُ التل في طريق متعرجة. لأول مرة أدركتُ ماذا يعني بالضبط أن يكونا كلاهما ميتَين، كلاهما ماتا في الوقت نفسه، على طريق ما ملعونة في اللامكان.

كلما ازداد ظهور جبال الألب، صارت حركة الموج أنعم وممتدة في الصخور الوعرة، وصارت الطرق أكثر انحدارًا، والغابات أكثر خطورة. في كل مكان عندما أنظر إلى المروج الخضراء أرى ظهر موجة تظهر وتنكسر ثم تختفي من جديد. وبدت الرياح وكأنها تزحزح الغابة، والغابة تضغط على الضباب، والضباب فوق العشب، الذي يتزاحم مرتفعًا ناحية السحب، لكي يدفعها إلى اليأس. وأنا لم أكن أقل تأثرًا من الطبيعة. الشيء الذي أبقاني إلى اليوم في العالم، قد صار مفككًا. نهضت البلدة كلها من تحتي، سرتُ فوق موجة سطحية[1] لشيء مائع. ارتعشت يدي فوق عجلة القيادة، انقباضات جسدي المتوتر جعلت العربة تتأرجح بعنف. وجب عليَّ الفرار من قبضة المدينة، وفي هذه اللحظة ظهر مكان للاستراحة، كان إشارة من السماء.

ريثما أصبح في مكان مغطى بالخرسانات، يفر مني كل ما يؤثر في القلب. أعادني المرحاض العام لسائقي السيارات، (المكان الأكثر ابتذالًا)، إلى أرض الواقع. وراء الجدار السميك من المطر المتزايد رأيتُ مجموعة من الكراسي تتناثر فوقها المناديل المستعملة والأطباق والملاعق البلاستيكية. البناء المصنوع من الإنسان، مهما كان مثيرًا لأقصى درجات الاشمئزاز، (يمكن رؤية قطع السجق، كراسات الإباحية المقروءة، والكثير من التامبون ملقى بها فوق السياج النباتي المغطى نصفه بفضلات وأقدام الإنسان)، فقد حررني في تلك اللحظة، إذ توقفت الأرض عن التأرجح.

كنتُ قد أطفأتُ المحرك ولم تكن دقيقة مرت بعد، عندما شعرتُ بالبرد، ولأنني خمنتُ بأن المرحاض سيكون دافئًا[2]، فقد حزمتُ كيس النوم، وسرتُ عبر المرج الطريِّ إلى المرحاض. بلا شعور بالتقزز، أو أن هذا الفعل غريب

---

(1) في الفيزياء الموجة السطحية هي موجة ميكانيكية تنتشر بين الأوساط المختلفة.

(2) في أوروبا يوجد بمعظم الأماكن المغلقة نظام التدفئة.

أو غير لائق، فقط كل ما تبقى لدي من رغبة هو دفع نفسي في القوقعة والغرق في النوم.

***

عندما استيقظتُ فجأةً في الصباح التالي، شعرتُ وكأن لحظة واحدة فقط هي ما مرت، كان هناك شخص يقرع بحذائه على الحائط الفاصل بيننا، لدرجة أنه اهتز. احتجتُ عدة دقائق لأشعر من جديد بقدمي، والمزيد من الدقائق لتحريك ظهري المُسمَّر، والمزيد أيضًا لأصل للباب، حيث العديد من الأصوات تشتمني. وأخيرًا فتحتُ الباب. اندفع رجلٌ سمين يرتدي سالوبت زرقاء بقوة إلى الكابينة لدرجة أنني طرتُ من الطريق بلا أي حاجة لمساعدة إضافية وغادرت المرحاض في الحال. الطابور كان ضخمًا، بالإضافة لذلك كنتُ قد نمتُ في حمام الرجال. وسط صيحات الاستهجان والغضب وصلتُ إلى السيارة، رقبتي متصلبة، والليلة الماضية لم تعد أكثر من مجرد ذكرى غريبة في عقلي.

ولكن على الأقل كان الهواء ناعمًا، وبينما كنتُ مدهوشة من طوفان الحرارة المفاجئ، الذي كان ممزوجًا برائحة المرج الأخضر المروي، وجدتُ نفسي وسط الغابة. حول كابينة المرحاض، الذي قضيتُ فيه الليلة، في وسط المروج البرية، كان هناك مجموعة صغيرة من الأشجار، متحدة مع المحيط في الأفق.

«فيكسل»، خطرت لي فجأةً، وبالفعل عندما نظرتُ أخيرًا إلى الخريطة وتعقبتُ رحلة البارحة، اكتشفتُ أنني ولا بد قد وصلتُ إلى وادٍ ضيق بالقرب من «فايستريتس». كانت السيارة مخربة بشكل ملحوظ، ما يعني أن كلًّا من ماسورة العادم والإكصدام قد تلفا بشكل ملحوظ، مثبتين بسلكَين ضعيفَين فوق الأرض مباشرةً. أخذت الخريطة الموضوعة في الباب الجانبيّ، لكي أبحث عن المكان الذي يجب التوجه إليه. جروس أينلاند، لم أجد هذا الاسم في فهرس الكلمات، وعلى ما يبدو أنني بعيدة للغاية عن أي اتصال متاح بالإنترنت. راجعتُ من جديد كل جزء في الخريطة يخص منطقة جبال «فيكسل» بعناية شديدة، ولكن لم أنجح أيضًا في إيجاد القرية. إذن مكالمة

هاتفية، أطلعني مكتب الاستعلامات عن رقم مكتب الحكومة الإقليمية «النمسا السفلى»، وهو أحد المكاتب البلدية.

قلتُ: «مساء الخير. أبحث عن قرية تسمى جروس أينلاند في منطقة جبال «فيكسل»».

سألتِ السيدة: «جروس أينلاند؟ (وطرقت بأصابعها فوق لوحة المفاتيح في الهاتف)، لا، لا يوجد في النمسا السفلى قرية بهذا الاسم».

- ذلك مستحيل!

- ولكن منطقة جبال «فيكسل» تقع أيضًا على حدود «ستيريا»، ربما تقع تلك القرية هناك، سأعطيكِ الرقم.

هكذا اقترحت عليَّ السيدة، فاتصلتُ هذه المرة بالإدارة الفيدرالية النمساوية طارحةً السؤال نفسه، وقالت أيضًا الموظفة بالإدارة، بأن لا وجود لهذا المكان في قائمتهم. سألتُ وكُلي أمل: «ربما انضمت جروس أينلاند إلى بلدة ما؟ حدث توحيد، اندماج، ربما؟».

لحظة صمت.

- كلا، لا وجود أبدًا لجروس أينلاند في النمسا.

أغلقتُ المكالمة دون أن أنطق بكلمة، وجلستُ للحظة بصمت فوق غطاء المحرك. الآن فقط، بعد أن اضطررتُ إلى البحث عن جروس أينلاند لدفن والديَّ، أدركتُ مدى جهلي بهذا المكان، فقط أعرف أنه موجود في مكان ما في منطقة جبال «فيكسل»، هذا على الأقل ما سمعتُ والديَّ يقولانه ردًّا على استفسارات الآخرين. ولكن في النهاية لم أتحدث معهما منذ عدة سنوات عن هذا الأمر. ليس لأن هذا الموضوع لم يكن مريحًا بالنسبة إليَّ أو لأنني اعتبرتُه من التابوهات؛ ببساطة الماضي كان شيئًا ليس له أي أهمية بالنسبة إلينا. كانت العطلات فرصة للانطلاق السريع، فرصة الهروب من القارة مغمضي العينين في طائرةٍ ما، دون أن نغوص عميقًا فيما يسمى بالوطن أو في الذهاب إلى التزحلق على الجليد مثل كل الآخرين، الذين كنا في أعماقنا نحتقرهم لهذا السبب.

أدركتُ بعمق ما بين السطور، تذكرتُ ما كانت تحكيه والدتي لي، أن الناس في جروس أينلاند كانوا يستطيعون النزول إلى تحت الأرض من خلال سلم.

«في كهف رطب، تحت سطح الأرض ربما على عمق عشرة أو خمسة عشر مترًا، هناك أجزاء من طائرة قديمة، استخدمناها نحن الأطفال لنبني لأنفسنا الكهوف. أبواب من الصفيح، شرائح من الزجاج المضاد للرصاص، كنا نستطيع التأرجح فوقها بحرية».

لطالما حكت لي ذلك.

أو قصة والدي التي لا تقل سحرًا: «في أيام الابتدائية، كنا نلتف كلنا ونقف أمام النار الغامضة المُجرجرة[1] في موقد الحطب في غرفة المعيشة. تحدث عن شخص اسمه «هانز قطَّاع الخشب»، اشترى حجرة خشبية بجانب منزل والديه. كان شتاءً، وكان والدي كلما رفع كوبًا إلى فمه في نصف الحكي، يسكب القليل من الشاي الأسود على لحيته، التي بدورها تُسقط قطرات منه كحجر هابط على رجلي».

همس أبي في أذني: «كل ليلة في تمام الساعة العاشرة كان «هانز وقاد الخشب» يغلق باب حجرته على نفسه، كان يجمع قلوب كل الثدييات، مرتبًا كل واحد بجانب الآخر في برطمانات الفورمالديهايد[2]، وبين كل هؤلاء: قلب بشري، ولم يعرف أحد مطلقًا من أين جاء به».

وقال: «وكوننا أطفالًا أشقياء كنا نلقي الأحجار على النوافذ، في رعب صامت وحماس مُلح لترقب ظهور «هانز» وفي يديه أحد البرطمانات».

كانت تلك من اللحظات النادرة التي أسمع بها والدي يحكي لي شيئًا يخص طفولته، ولكن ماذا تقول هذه القصة المروعة، كنتُ أشعر بالضياع.

---

(1) صوت النار الصادر من الموقد.

(2) مادة كيميائية تساعد على الحفاظ على الأنسجة الحية من التحلل.

2

قضيتُ الليلة الثانية راكعة على أرض أحد البنسيونات في قرية «كيرخبرج» في منطقة «فيكسل». كان السرير والكومودينو منتصبَين فوق أرضية خشبية متينة وذات لون غامق، والكتاب المقدس في صندوق، وتقويم للأحداث[1] من جمعية السياحة الألمانية مُعلق على الحائط يرجع إلى عام 1998. أحضرت لي صاحبة النزل حساء الغولاش[2] وبيرة، كنتُ الوحيدة في النزل وكان الظلام يحل ببطء، بالكاد استطعت التعرف على الأشياء التي صنعتها في الساعات الماضية، والموضوعة على الأرض أمامي: سجادة من عدد لا يحصى من الورق، من كل جانب فيها تتشعب قصاقيص مكتوبًا فوقها، وبطاقة تذكارية. بدأت في رسم تخطيطي على ورقة A4، يجب أن يكون فيه ربط لكل الأشياء التي أخبرني بها والداي عن جروس أينلاند. سرعان ما تجاوز الرسمُ الحواف فوق الورقة التي كانت صغيرة جدًا، ولما تضخَّمَ الرسم للغاية، احتجتُ إلى وضع المزيد من الورق باستخدام شريط لاصق، على الرغم من هذا لم أشعر بأن التوسع المفرط ذاك لما أفكر فيه سرعان ما سيدفعني إلى العشرات من الورق. في خضم ذلك دفعتني ذكرى أخرى إلى المزيد، ولم أستطع كتابة شيء آخر دون أن أضع ثلاث ورقات أخرى. وفجأةً أدركتُ أن ست ساعات كانت قد مرت، الزمكان مضغوط بجاذبية الأفكار.

بعد ظهر اليوم شعرتُ فجأةً بقدوم الخريف، الهواء كان رطبًا وباردًا. في المناطق المرتفعة كان الثلج الناعم معلقًا على الأغصان ويقطر فوق التربة

---

(1) تقويم مكتوب فيه الأماكن السياحية المقترحة للزيارة.

(2) ينتمي إلى المطبخ التقليدي للمجر.

التي ما زالت دافئة، بينما كنتُ ذاهبة من جديد إلى الاتجاه الأول الصحيح خارجة من كابينة المرحاض التي نمتُ بها.

أي مسافر قادم من فيينا ويرغب في عبور الممر الجبليّ إلى «ستيريا» يرى جبال منطقة «فيكسل» منتشرة أمامه، وتحت قمم الجبال أرض مجعدة تشبه أرض القمر. حيث ترتفع الأرض الصخرية باعوجاج وتنحدر إلى أودية صغيرة ضيقة بها أنهار صغيرة من جبال الألب تنحت بعمق في الأرض منذ ملايين السنين. ومنحدرات جبلية من البيريت[1] تلتمع بطريقة مميزة متدفقة إلى المراعي الناعمة لجبال الألب. كانت ستبدو منطقة جبال «فيكسل» كما لو كانت سطح كوكب معزول، لو لم تكن تلك الفنادق المنتشرة فوق كل صخرة من جبال الألب، ومنه يتدفق السياح الألمان في الصيف كما في الشتاء، مجموعة من المتقاعدين مُحمَّلين بالمؤن كما لو أنهم يرغبون في تسلق جبل «كي 2[2]» يتنقلون من مطعم لآخر طوال اليوم. والأغنياء الجدد والقدامى مرتدو قمصان الجولف يضطجعون على الأرض المستوية، التي قد حفرتها في الحجر شركة ما خارجية، ثم بُنيت وأُطلق عليها «فندق الطبيعة». توقفتُ في واحد من تلك الأماكن لكي أسحب المال، خائفة -كما هو الحال دائمًا في الأسبوع الأخير من الشهر- بألا يخرج أي شيء من ماكينة السحب، على الأقل لا يزال ما يقرب من 200 يورو.

في الظهر دفعني الجوع إلى الذهاب إلى واحد من كافيهات الفنادق، ذكرتني غرفة المطعم بأماكن الاستراحة على الطريق. كانت الصالة مكتظة بالسياح اليابانيين، الذين خرجوا في وقت محدد من الأتوبيسات وسيعودون إليها في وقت محدد أيضًا، وبينهم القليل من أهل البلد، بدا أنهم موضوعون بطريقة صحيحة في الفاترينة الزجاجية للواقع. جمود الليل القابع خلفي جعل كل شيء لبرهة بلا أي معنى. استسلمتُ بلا إرادة لتيار البشر المتدفق ودخلتُ معهم إلى الصالة. كنا في طابور يتحرك ببطء مُرهق للأعصاب نمُر على واجهة زجاجية لمحل خبازة، لكي ينتهي بنا الأمر إلى دكك نجلس عليها.

(1) معدن يشتهر باسم الذهب الكاذب ويدخل في تركيب بعض الصخور الرسوبية، ويتميز بأنه أصفر اللون وله بريق معدني.

(2) ثاني أعلى جبل في العالم بعد جبل إيفرست.

كنتُ مصدومة بشكل خاص من بيع كعكة «بونشكرابفين[1]» بوجه «لودفيج فيتجنشتاين».

- ماذا تطلبين يا سيدتي؟

كانت النادلة ترتدي الزيَّ الأبيض الشهير لمطعم (K.u.K-) Hofzuckerbäcker الذي كنا نراه في الصور القديمة، ذُهلت من السرعة التي لوحِظتُ بها، طلبتُ فطار فيينا الشهير، إحدى كعكات فيتجنشتاين، ثم بسبب الإحراج عندما جيء به، تركتُه أمامي، لم أمسه كما لو كان أيقونة دينية.

بإرهاق إثر السهر الطويل حملتُ فنجان القهوة وتتبعتُ طريق البارحة على الخريطة. كنتُ قد تحركتُ في الطريق الموازية لشارع «سيمرينج» ثم ابتعدتُ عنها وعدتُ من جديد إلى طريق أخرى وهكذا، إلى أن سرتُ في دائرة تمر عبر «رامساتل[2]» ثم جبل «ستيريا» إلى «ليسلينج». رميتُ كل شيء في حقيبتي وسط زعيق الأطفال المتواصل على المائدة المجاورة، الذين كانوا يصوبون على بعضهم بعضًا بالمناديل الورقية، وركضت نحو سيارتي. فوق قمم الجبال تزمجر الرياح التي تهب في دفعات قوية وغير مستقرة، كل جذع يتأرجح، وهذا التأرجح يسري بدوره إلى آلاف من فروع الشجرة في رقصة غريبة من التداخل فتُورِّثها الفروع بدورها لكل ورقة شجر، دون أن تعرف هذه الوريقة مطلقًا عن الهزة الأولى. كان هذا التوتر الغريب موجودًا في العالم، يُظهر نفسه قبل أي انكسار بقليل، وهناك في السماء تهدد السحب الضخمة المحتكة ببعضها بعضًا أن تُسقط شيئًا في أي لحظة.

تبللت قدماي حتى ركبتيَّ، وقد عزمتُ أمري على إيجاد مبيت مناسب. في القرية التالية «تراتينباخ» وجدتُ ما كنتُ أبحث عنه، قد دلتني لافتة على الطريق العامة إلى صاحبة نزل قليلة الكلام، ناولتني مفتاح ما يسمى بغرفة الضيوف. بمفردي في الغرفة الكئيبة والضيقة لدرجة تثير الذعر، في وسط اللامكان، عدتُ من جديد لتقييم الأمور التي ربما تكون إشارات مفيدة تدلني على جروس أينلاند، ولكن في كل مرةٍ كنتُ أعود إلى حقيقة أن كل ما لدي هو حكايات والديَّ. منذ ذلك الحين وحتى وقت متأخر من الليل كنتُ منعكفة

(1) قطعة حلوى نمساوية.

(2) ممر جبلي في النمسا السفلى.

على رسم ما يشبه خريطة ذهنية، التي سرعان ما غطت أرضية الحجرة وظهر كل ما قد حكاه والداي ذات مرة عن أصولهما. ربطتُ كل قصة بالقصة الأخرى مثل تجمُّع من الخلايا العصبية المتشابكة وأخيرًا بدأ الدم يتدفق من خلالها في الساعات المتأخرة من الليل. حقيقة أن والديَّ لم يحتاجا لترك قريتهما لكي يدخلا مدرسة الثانوية تبين شيئًا عن أبعاد المكان. بالإضافة لذلك تذكرتُ بشكل طفيف كلام أمي عن دخولها حضانة كانت تحت رعاية راهبات، وأبي لم يدخل في مثل تلك الحضانة، لهذا السبب من المرجح أن هناك نوعين من الحضانات. ثم أظن أنني سمعت والدي مرة يحكي عن أنه ضُبط يومًا في صباه يشعل مفرقعة نارية على سلم كنيسة إنجيلية. الكنيسة الإنجيلية، ماذا يعني هذا في ريف النمسا، يمكن للواحد أن يتخيل. لذا بدأتُ بتقدير نسبة السكان في جروس أينلاند وكان 10000 نسمة. ثم أدركتُ أنني تسرعت في الاستنتاج، إذ يمكن دحض ذلك بسهولة. كان خيطًا ضعيفًا للغاية للوصول لأي شيء.

يجب أن أبدأ بالعمل من عُقد أخرى ذات طبيعة شخصية أكثر، هناك، حيث بالكاد توجد مساحة للتأويل. كان عيد القيامة، وكنتُ في قمة رفضي لمرحلة البلوغ، ولا يزال الاندفاع إلى الخارج والبحث عن البيض يغويني، سحر البحث هذا الذي لم ينتهِ. وجدتُ في انتظاري «أسطورة زيلدا: جزيرة الأحلام»[1] معلقة على شجرة التفاح، أنا وأبي كنا لا نزال جالسَين على كرسي تحت شجرة البلوط في حديقتنا، التي أطلقنا عليها اسم «الحديقة الإنجليزية»[2]، فقط كي لا نضطر إلى تشذيبها كل أسبوع.

كنتُ منحنية بصمت فوق لعبتي، وأبي منكب على أحد كتب البيولوجيا الجزيئية، كانت ألفة صامتة في الحديقة التي يفوح منها الربيع. في وقت ما وقفنا مضمومَين تحت الشجرة عندما بدأ رذاذ خفيف من المطر في الهبوط.

---

(1) ذا ليجند أوف زيلدا: لينكس آواكينج: لعبة فيديو أكشن ومغامرة، أنتجت عام 1993.

(2) نمط من الحدائق ظهر في القرن الثامن عشر وكانت فكرته القضاء على الجماليات المبالغ فيها مثل حدائق فترة الباروك المزينة بالكثير من الزهور، وعلى العكس نادرًا ما توجد زهور في الحدائق الإنجليزية.

غطى أبي بشجاعة جهاز الجيم بوي[1] بكتابه بينما كنتُ أبذل كل جهدي في اللعب.

- هل تعرفين، لمَ زرعتُ هذه الشجرة؟ (أغمضتُ عيني، كنتُ على أرضية الحجرة، مؤمنةً بأنني أستطيع تذكر ما قاله بالحرف) لما كنتُ طفلًا، كنا نذهب كل يومين في ذلك الوقت إلى حانة[2] محلية لرؤية شجرة بلوط تمتد لآلاف السنين. وكان لديهم شجرة قديمة قدم الزمن، وكانت أسمك من شجرتنا على الأقل بعشر مرات، فاضطروا إلى بناء الحانة من حولها في وقت ما، لأن تلك الشجرة منذ سنين كثيرة كانت تستمر في النمو. شجرة بلوط تمر عبر منتصف المنزل.

قلتُ: «لا يمكن لشجرة بلوط واحدة أن تصير ألفًا».

- خلف النزل يوجد مخزن للحبوب، مَزارع كروم، أنابيب خرسانية، التي لا يعلم أحد إلى أين تؤدي. إضافةً لوجود «هافلينجر[3]». كانت شجرة البلوط واحدة من الأشياء القليلة التي أفتقد وجودها في فيينا، لهذا السبب زرعتها.

وإذًا توجد حانة محلية، حانة محلية وليس مطعمًا، ماذا تسمى، آه جروس أينلاند تقع في الجانب السفليِّ من النمسا لمنطقة جبال فيكسل. مجرد حقيقة أن الشجرة هناك قد ازدهرت للغاية قد ضيَّق عليَّ مجال بحثي أكثر، لأن دليل الطبيعة الذي يخص النزل قد أكد بشكل واضح أن أشجار البلوط تتضرر عندما تكون على ارتفاع 700 متر فوق مستوى سطح الماء. ولكن تلك مَزارع الكروم، كيف يمكن لمَزارع الكروم أن تكون في منطقة فيكسل،

(1) مشغل ألعاب محمول يدوي يسمى بالعامية المصرية «أتاري».

(2) Heuriger: هو مكان لشرب النبيذ المحلي الذي يزرعه كل مزارع في منطقته الخاصة، وعادة تكون الحانات هذه بالقرب من أرضهم الزراعية.

(3) سلالة من الخيول طُورت في النمسا وشمال إيطاليا، وهي صغيرة نسبيًا ودائمًا ما تكون كستنائية ولها مشية مميزة.

حيث لا يوجد مُزارع للكروم والمنحدرات تنحدر رأسيًا في العمق؟ أو أنني قد تذكرت خطأ؟ هل كان يقصد نبيذ التفاح[1]؟

كنتُ راكعة على الأرض لفترة طويلة لدرجة أن قدميَّ قد تخدرتا، لذا تحججتُ بهذا وذهبت للأسفل لإحضار زجاجة من البيرة. كان حساء الغولاش الموضوع منذ فترة طويلة على الكومودينو قد أصبح باردًا. فاضطجعتُ على بطني مواصِلةً نسج خيوط ذكرياتي.

حُكِيَ لي آلاف المرات عن الطريقة التي تعارف بها والداي، وكنتُ أستمع بعقل شارد إلى الحكايات الهادرة أمامي، وتتوقف القصة عند الرومانسية الريفية ذاتها مثل قطارٍ يتحرك ببطء مُضنٍ ويتوقف عند كل محطة. نشأ والدي «إيريش شڤارتز» منذ أن كان في الثانية من عمره في منزل عائلة أمي «إليزابيت شالا». أما السبب الدقيق لهذا الأمر فقد أُخفِيَ بشكل كبير، لأن له علاقة بشكل ما بأن جدتي -والدة أبي- التي كانت تعتني به وحدها، قد حُرِمَتْ من أن يظل ابنها بجانبها بعد سلسلة مِن ما يسمى بالانهيارات الهستيرية. ربما حدث هذا في 1944 أو 45، على أي حال كانت الأمراض النفسية لا تُعالَج من قِبل الأطباء في هذا الوقت، والأطفال اليتامى لا يتمتعون بالأمان مع الأسر الحاضنة التي توفرها الدولة. ولإنقاذ «إريش» الصغير من النشوء في بيت اليتامى التابع للرايخ الألماني الذي كان بصدد الانهيار[2]، انتشلت عائلة أمي -التي كانت جارة لعائلة شڤارتز- أبي واستضافته. دائمًا ما كنتُ أشعر بالنفور حيال هذه القصة، كلاهما نشأ كما الأخوان، ثم بعد ذلك رفضت محكمة الأسرة موضوع التبني، لكي يتجنبوا زنا المحارم. على الرغم من عدم وجود صلة قرابة بالدم بالطبع، فإن هناك شيئًا غير مريح في هذا الأمر.

كان «جوزيف شالا» قطّاع الخشب، والأب لمرتين، قد دمج بقوةٍ وبالكامل الطفل في عائلته لدرجة أنه بدأ في تربيته ليكون المدير من بعده في شركته. هذه الذكرى لا تزال واضحة في عقلي لأن والدي كان يكررها على مسمعي في كل مرة نتمشى بها على الثلج المتساقط حديثًا، ولأن قبل كل شيء كانت

(1) Most: نبيذ محلي يصنعه القرويون من التفاح أو الكمثرى أو العنب، ويختلف من منطقة إلى الثانية، فمثلًا في سويسرا وأجزاء من ستيريا يعني نبيذ التفاح.

(2) 1945 كان وقت انتهاء ألمانيا النازية والمعروفة باسم الرايخ الثالث.

دومًا قصص أبي عن طفولته شيئًا خاصًا بالنسبة إليَّ، حكى لي أن جوزيف كان يحمله وهو صبي على كتفيه إلى الغابة، على منحدرات رطبة شديدة الانحدار، التي كانت تزفر في الربيع كل عفونة الشتاء. كان يعرف من نظرة إذا كان جذع الشجرة قويًا أو ضعيفًا. يجب تجنُّب الجذع الضعيف، وعندما تكون الشجرة مستقيمة، كان يشعر بفرحٍ عظيم. ثم يستند بظهره إلى لحاء الشجرة ويميل برأسه إلى الوراء لدرجة أن فروة رأسه تحتك بالملمس الخشن للخشب، وينظر إلى السماء ويقول: «هذه الشجرة لها بناءٌ قويٌّ».

عندما كان يحكي لي أبي هذا، كان عادةً ما يحملني حينها فوق كتفيه، ويستند بظهره إلى لحاء شجرة ما، التي على الأغلب ما تكون مائلة، كما أتذكر الآن. رسمتُ خطوطًا صغيرة تشبه فروع الشجر من الأفكار التي سرعان ما قادتني إلى طريق بعيدة عن القصة الأصلية. عندما كان يحاول جدي أن يُفهِّم الصبي معايير قيمة الخشب كسلعة، كان اهتمام الصبي يتزايد بشكل ملحوظ لمعرفة تصنيف النباتات، وعلاقتها ببعضها بعضًا كما البنية الداخلية للنبات، وكانت أمنيته تتمثل في شحن تلك النباتات إلى دول أخرى. منذ طفولته، كانت دومًا تقول لي أمي: «لا يستطيع أحد المشي معه في شارع به أشجار أو السفر معه لبلادٍ أخرى دون أن يكون هناك ساعات إضافية لكل طريق، إذ كان يتوقف عند كل فرع وكل برعم وفي يده كتاب دليل النباتات المحلي[1]».

شطبتُ على تلك التفصيلة، فهي لا تعني شيئًا. رسمتُ سطرًا بعيدًا عن هذا وأضفتُ أربع ورقات صغيرة. في هذه الأثناء ورثت أمي روح المبادرة، عندما كانت في العاشرة أو الثانية عشرة من عمرها كانت تذهب للعب في أي سوق للأدوات المستعملة، واغتنمت كل فرصة يُسمح لها فيها بجز عشب أي شخص. كانت أمي متعددة اللغات، تستلقي طوال اليوم في السرير وفي يدها كتاب لتعليم لغةٍ ما، أجادت الفرنسية بطلاقة، وتعلمت اللغة النرويجية، فعلتْ كل شيء، فقط لكي تحجز مكانًا في سوق التصدير.

خطر لي عدد لا يحصى من الذكريات التي تمنيتُ لو أنني حينها كنتُ قد استمعت إليها بشكل أفضل. ذكرى حفلة الشواء على سبيل المثال، كنتُ في الخامسة عشرة من عمري، وحولنا في كل مكان في حديقة فيينا الصغيرة كان

(1) كتاب يكون فيه تصنيف لشكل وسمات كل نبات يخص منطقة محددة.

الأصدقاء القدامى لوالديَّ دائمًا ما يقفون في الخارج أمام الباب في أمسيات الصيف. بشكل ما تحول الحديث إلى قصص عن الحب الأول، ثم بدأ كلٌّ منهم بسرد القصص بالتناوب. ما زلتُ مدركة تمامًا للرغبة الملحة في الهروب التي اجتاحتني يومها. كنتُ دومًا أتجنب أي حوار يخص هذا الموضوع، وكنت أحاول توجيه المحادثة الظريفة لمواضيع أخرى أو الانزواء في حجرتي باللجوء لحجج واهية آملةً ألا يلاحظ أحد توتري. ولكن في تلك الليلة كان أيٌّ من هذا مستحيل الحدوث، كنا في منتصف الغداء وكنتُ مأخوذة بفكرة أن أحدًا ما يمكنه استجوابي. كان الدور على والديَّ، وبدأت يدي بالتعرق.

كانا تقريبًا في سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، على أي حال كان تقريبًا في الوقت الذي قررا فيه الذهاب إلى فيينا، واكتشفا حينها اهتمامهما ببعضهما بعضًا. عرفتُ أن هذا قد حدث في أثناء دراستهما، أمي تدرس الاقتصاد، وأبي علم الأحياء، عاشا معًا في شقة بطابقَين بمساحة تقريبًا خمسة وعشرين مترًا مربعًا: مرحاض وحمام في الممر، غرفة بها سرير، مكتبان، كرسي فوتيه[1]، الذي لم ينفصل أبي عنه لعقود. وفَّر والداي هذه الشقة بورق الحائط المتهدل وسجادة الأرضية المزينة بالوسَخ من خلال نوبات ليلية في أحد مطاعم السجق. لا بد أن ذلك كان بين عامَي 1965 و1970، في تلك السنوات حيث كان يتضامن الجميع مع الجميع، ويخبئون المنشقين في منازلهم، ويجعلون من الطاقة النووية شيطانًا، كما كانوا يحتلون المنازل المهجورة، بشكل عام صنعوا ثورةً، بينما كان الناس يسعون سرًّا نحو حياة ناجحة بصورة تقليدية، إذ كان هناك أطفال في طريقهم إلى الولادة بكل مكان. هكذا كنتُ أنا أيضًا. شطبتُ على هذا مرة أخرى، لقد كانت طريقًا باتجاه واحد، كل شيء متعلق بفيينا، وليس جروس أينلاند.

انتشرت أمامي شبكة كثيفة من الأفكار المتدفقة والخطوط والإشارات. كل عقدة متقاطعة تمر عبر خيط عصبيٍّ من طرق غير مباشرة صغيرة ومثيرة للسخرية وتصل إلى قصة أخرى، لهذا السبب سرعان ما سيكوِّن نسيجًا من قطع الماضي المتفرق. لم أفكر في ذلك قط، ولكن الآن، وبعد أن نظرتُ إلى كل تلك القطع، شعرتُ بحتمية وجود حطام ما، بأن في كل تلك القصص

(1) كرسي مُنجد مريح بذراعين.

الوحشية والمملوءة بالنشوة، ذات الروح الاحتفالية والمتعددة ثقافيًا كان يقبع في الوقت نفسه شيءٌ ما كئيب. في كل مكان، حيث لا وجود لجروس أينلاند، كانت لا تزال موجودة، كفراغ، كوطن غائب. ولكن لماذا؟

كنتُ مشوشة من إرهاق التذكر هذا، من كل هذه التفاصيل: التل خلف منزل والديَّ، حيث يستطيع الناس في الشتاء التزحلق عليه. أو الندبة على رقبة أمي التي لمستُها بينما كنتُ أتعلم السباحة والتي قيل إنها من رفسة حصان، كانت تزيل له حوافره. وكيف أن والديَّ تعلما قراءة الكوكبة[1] في حجرة الأطفال لأن بها نافذة ضخمة في سقف الحجرة، تطل منها سماء الليل.

الأسوأ كان يتمثل في الصغير والرقيق والحميمي: لمسات خاطفة وعلى شعري يدان تربِّتان. تذكرتُ الصفات المريبة لوالديَّ التي كانت تحرجني بشدة، والآن أشتاق إليها. أحداث قابعة بين السطور، لا أقدر أبدًا على صياغتها بشكلٍ كافٍ، أحداث معلقة على كل ذكرى بشكل لا يمكن فصله. أيام مفتوحة إلى المستقبل، قُبلة مطبوعة بأحمر الشفاه على خوذة دراجتي، وحلوى الجرانولا التي وجدت طريقها إلى حقيبتي. وأخيرًا استطعتُ البكاء، كما لو أن صمامًا قد انكسر.

بعد وقت طويل من الثالثة صباحًا طويتُ ورقة الرسم. لخصتُ الدلائل التي أملكها، لكي أقرر في الصباح التالي بعد الإفطار أي الأماكن يجب أن أذهب إليها. لدي أفكار عن المناظر الطبيعية هناك، لذا فلدي حدسٌ تقريبيٌّ عما يمكن أن يكون عليه حجم البلدة، إضافة لأن لدي بعض القصص الطريفة. لا تقود لأي شيء.

***

إذا لم يكن هناك وقت، يجب أن يكون هناك قاعدة -ما مستقلة عن التمدد الآلي للأشياء- التي تربط مسار العالم. وفقًا لباربور (أوكسفورد، 2008).

(1) مجموعة من النجوم التي تكون شكلًا أو صورة.

يتكون هذا فيما يسمى الكبسولة الزمنية، إرشادات الطريق[1]، التي تبعث بإشارة إلى عقولنا عن أي طريق في هذه الطبيعة الضخمة لكل الموجودات يجب أن نأخذه. هذه الكبسولات الزمنية ما هي إلا مجرد لعبة سولتير[2] في عالمنا، الوحدات المتفردة التي تشير إلى ماضٍ. الوثائق، الصور، وكتب التاريخ جزء من مواضيع الذكريات الشخصية، التي تبدو وكأنها تبرهن على شيء غير موجود في الحقيقة: ماضٍ سببي. بجانب ذلك توجد إرشادات زمنية مرتبة بتسلسل ما في النظام العقليّ للكائنات العضوية، نسخ مصغرة من الكون، التي بطريقة ما متجمدة، توهم الإنسان بوجود وطن. هذه الإرشادات الزمنية تتظاهر بالاستمرارية، بينما في الحقيقة هي مجرد سلسلة مترابطة منطقية، وليست سببية. لأن عالمنا مكون فقط من الحاضر، وبينما لا يزال العقل معلقًا في الفراغ على الكبسولات الزمنية، يغرق كل شيء في الصمت.

***

كان هذا هو اليوم الرابع من رحلتي في جبال الألب، وجلستُ عند الخبز المقسم بدقة لكي أضع خطة لرحلة اليوم. كما لو أن هذا الإيقاع العبثيّ للتوقف عند كل نزل، والعشاء، والنوم، وبوفيه الإفطار يقودني إلى حالة من الجمود التام، قررتُ أن أحافظ على هذه الحالة كل صباح. ما زلتُ لا أقدر على فقدان الأمل في إيجاد جروس أينلاند. أحببتُ بساطة الأوضاع من حولي: فندق بغرف للضيوف يشبه أي فندق آخر بغرف للضيوف، غرف متساوية الحجم بمفارش السرير نفسها المنقوشة بالزهور وأناجيل في درج المكتب، وحساء ليبركنودل[3] وسيقان البقدونس نفسها المطبوخة بإفراط، موضوعة في أطباق مرسوم عليها مشاهد من الريف في الأزرق. وتجلس بجانب الرجال السكارى نفسهم بوجوههم المحمرة وقبضة اليد ذات الأصابع الضخمة التي تهوي على الأطباق الخشبية مُصدِرةً دويًا، بينما تشرب النبيذ المتطابق

---

(1) اللافتات الإرشادية.

(2) السولتير هي لعبة فردية، حيث لا وجود لتضارب مصالح حقيقية، وفي هذه اللعبة فإن الحظ أو الصدفة هي بنية اللعبة الأساسية.

(3) طبق تقليدي من المطبخ الألماني، ويصنع من الكبد الملفوف على شكل كرات.

بالكامل: «تسفايجيلت[1]» و«الفيلتلينر[2]» الموضوع في الكؤوس المقوسة نفسها، ثم تنحني زجاجات الخمر عميقًا في الكؤوس كما في رقصة باليه. وأخيرًا تستلقي في غرفتك المغطاة بالخشب ذات السقف المائل، على السرير المزدوج ذي الفجوة المتشابهة دومًا في منتصفه وتضطجع للنوم المفروض عليك، قبل أن تأتي صاحبة النزل، التي دومًا ما تكون سمينة وفي الأربعين من عمرها، في الساعة السابعة صباحًا مُحدِثةً ضجة بأطباق الفطور. ودائمًا الفندق نفسه من بداية الطريق إلى «سالزبورج[3]» وعبر مدينة «بافاريا»، حيث ينحسر تدفق الفنادق في أي وقت.

في ذلك اليوم استكملتُ رحلتي، مرورًا بـ «مارينزى» ونزولًا إلى «كامبتل»، ثم إلى محجر[4]، شق في البلد، حيث الصفيحة التكتونية[5] قد انفصلت عن نفسها في رهبة. هنا أخيرًا بدا لي أنه المكان المناسب. يتصاعد الخريف كبخار من باطن الأرض المتعفنة، التي بالكاد يمكن ملاحظتها، ولكن كان الهواء دافئًا بشكلٍ كافٍ لترك نافذة سيارتي مفتوحة. كانت الأرض متعرقة فوجب عليَّ خفض سرعة السيارة. كان يعذبني منذ أيام أن هاتفي كان يرن في كل الأوقات، بدت هذه الرسائل كزوار ثقيلي الدم، وغير مرحب بهم يقفون أمام الباب. يجب أن آخذ خطوة متطرفة، أي الوقوف هنا، عند هذا الشق في الأرض الحجرية، الذي يؤدي إلى أسفل بجانب طريق البلدة.

في هذه الهوة ألقيتُ بهاتفي. رأيتُه يسقط بحماس من ارتفاع مئة متر إلى الوادي، شعرتُ كما لو أني تحررتُ من مُطارد فضوليٍّ. رغبتُ في الإصغاء إلى صوت ارتطامه بالجوائط الحجرية المتعرجة وأخيرًا الاستلقاء بصمت. منتشية بهذا الصوت، وألقيتُ نظرة أخيرة في هذه الهوة ثم عدتُ إلى سيارتي.

(1) نوع نبيذ أحمر هو الأكثر انتشارًا في النمسا.

(2) نوع نبيذ أبيض في النمسا.

(3) رابع أكبر مدينة نمساوية.

(4) مكان في الجبل يقطع منه الحجارة.

(5) تصف حركة غلاف الأرض الصخري، إما بالتباعد وإما التقارب.

3

على الرغم من أني أرتعد بردًا، فإنني قدتُ بعزمِ الطريق كلها، التي عزمتُ في هذا الصباح أن أقطعها. والآن ندمتُ على نسياني أن عدم وجود هاتف يعني عدم وجود خرائط. كنتُ أعبر بلدة تسمى «بوكسبرج»، حيث ملأت عيني لافتة طريق، فرملتُ فجأةً، وركنتُ بالسيارة على جانب الطريق، وسرتُ ناحية اللافتة المنحوتة يدويًا، المعلقة على شجرة، لكي أتأكد من حقيقة انطباعي البدائي: فندق «***شجرة البلوط ذات الألف عام***».

يقع الفندق على هضبة تبعد فيما لا يقل عن خمس دقائق من هذه البلدة. أجريتُ أربع محاولات، حتى استطعتُ إيجاد مساحة كافية لركن السيارة، الأخيرة كانت في البقعة الفارغة أمام النزل. رأيتُ من الخارج أن شجرة البلوط شقت البناء، كما لو أنه صُعق من برقٍ خشبيٍّ. وقفتُ للحظة في المطر وسألتُ نفسي لمَ لمْ يُمتلأ بالكامل هذا المنزل بالماء، إذ كانت تبرز قمة الشجرة من السقف الخشبيِّ. كان المنظر تمامًا كما اعتاد أبي أن يصفه لي.

ربما بسبب رطوبة الجو كان بداخل النزل أناس كثر، يمكن لأي أحد ملاحظة ذلك من الاستقبال: كل الطاولات كانت محجوزة، وحتى عندما كان كل شيء مملوءًا، كان ثمة كرسيان أو ثلاثة من الكراسي القابلة للطي في الجوار. على مقاعد خشبية متينة كانت تجلس عائلات ضخمة بأكملها يصيحون بكلام ما لبعضهم بعضًا وعلى حِجرهم، عندما اقتنعوا أخيرًا بصعوبة الحصول على مكان فارغ، انتشر بعض الأطفال. في زاوية الفناء كان الموقد السويدي يُصدِر صوتًا، والناس تتحرك في الغرفة الحيوية، المملوءة بالحرارة.

قلقتُ لبرهة بألا يكون هناك غرفة فارغة. قالت موظفة الاستقبال، عندما سألتُها بنبرة قَلِقة، لا بالطبع، سيكون هناك بعد ساعات قليلة غرفة فارغة،

وإن من الممكن أن أطلب شيئًا للأكل في أثناء ذلك. كانت تقودني نادلة أمسكت بيدي كما لو أني طفل صغير في أثناء دخولنا الغرفة، تحركتُ بخفة ملحوظة في مساحة ضيقة بين الناس. حتى مع أفضل تصوُّرٍ لم أستطع أن أتخيل كيف لهذا المكان أن يستوعب شخصًا آخر. وضعتني أخيرًا على طاولة صغيرة بجانب رجل كان منغمسًا في سلطة الكولسلو.

بقدر ما كنتُ قليلًا ما أتقبل حميمية العلاقات العشوائية، بقدر ما بدا الرجل الذي بجانبي مثيرًا للاهتمام، لا بد أنه في الأربعين من عمره، كان يرتدي رداءً غريبًا للغاية، كان أرجوانيًا ويشبه الرداء القبطيَّ، الذي كان مختلفًا بشكل واضح عن باقي ملابس زوار المطعم، لدرجة أنني تعجبتُ لمَ لا يحدق إليه أحد. بعدما انتهى من سلطة الكولسلو كتب شيئًا في دفتر ملاحظاته، وبطريقة كتابة، لم أكن قط قد رأيتها من قبل. بشكل ما كانت تتشابه مع الخط الكوريِّ، ثم سرعان ما نمت القبعات والفؤوس من هذه الأحرف، لدرجة أنه يمكن اعتبارها منتميةً لإحدى اللغات السلافية[1]. طلبتُ وجبة خفيفة وشربتُ بسرعة أول ربع من زجاجة النبيذ وسألتُ نفسي، كيف يمكنني إخفاء نظراتي الواضحة للرجل. من الوعاء وإلى طبقه وُضِع الأكل أمامه، وكانت أكثر أكلة غير شهية على الإطلاق تسمى بالفطور الدسم، وبدأ بالبحث -كما افترضتُ- عن السمك في الكتلة الصفراء لرغوة البيض.

التقت أعيننا لثانية لاذعة. قال فجأةً لنفسه: «القدر لم يكن جيدًا معك».

ولكن عندما نظرتُ إليه من جديد، وجدتُ إصبعه موجهة نحو صدري مثل اتهام ما. قال: «لقد بدلوا طلبكِ».

ولاحظتُ أخيرًا أن أحدًا وضع أمامي شريحة من اللحم.

تحدث للمرة الثالثة: «أنتِ هنا لأول مرة؟».

وشعرتُ في تلك المرة بأنه يجب أن يكون لي رد فعل على الرغم من التقزز الشديد: «نعم، هذه أول مرة. وأيضًا مجرد صدفة وكونه مكانًا مؤقتًا للعبور. في الحقيقة أنا أنتظر الغرفة التي ستصبح فارغة، فأنا مرهقة للغاية

---

(1) مجموعة من اللغات المتقاربة، ولها ثلاثة أفرع ويندرج تحتها عدة لغات مختلفة مثل الروسية.

من الرحلة الطويلة وأكثر ما أريده هو الاستلقاء على السرير، ولكن النزل مملوء للغاية».

شعرتُ بأنني تحدثتُ كثيرًا، كما أفعل دائمًا عندما أرغب في حقيقة الأمر بإنهاء المحادثة. بينما كان الرجل يستمع إليَّ، كان قد اكتشف أخيرًا السردين ودفعه إلى فمه، وكان لا يزال يتدلى من زاوية فمه ذيل السردين. سأل في تعجب وبصق ذيل السمكة: «أترغبين في الذهاب إلى غرفتك الآن؟».

كان على حق، كان لا يزال النهار مضيئًا.

قلتُ متهربةً، وكأن الكلمة تقدم تفسيرًا: «مرور. (ثم أضفتُ بسبب الإحراج) وأنت دائمًا ما تكون هنا؟ هذا فندق جميل».

- صلب للغاية. (وسحب منديلًا متسخًا من القماش من بنطلونه التشارلستون الضيق) السمك هو ما أعنيه.

وسعل بفظاعة في منديله لدرجة أن الطاولة اهتزت. وبمجرد أن استرد قواه، وضع مرفقيه باستبداد على سطح الطاولة. تابع: «وأنتِ في الخارج لأجل عملٍ ما؟ أنا بائع متجول، هل سمعتِ ذات مرة عن بائع الأقنعة المتجول؟».

قلتُ ولا أعرف عن أي سؤال قد أجبتُ: «لا. أنا عالمة فيزياء ولستُ هنا للعمل».

- عالمة فيزياء، كم هو ظريف. وما هو المجال الذي تتخصصين به؟ نظري، عملي؟ ميكانيكا، الترموديناميك، النظرية النسبية؟

تحرك الرجل قليلًا بشكل مقلق، بينما وجهه ما زال مثبتًا نحوي.

- أعمل على بحثٍ علميٍّ، بالتحديد على نظرية الأبدية، وفي الوقت الحاضر أكتب أطروحة التأهيل، أعني كانت هذه خطتي على الأقل قبل عدة سنوات، وقد توقفت عن هذا من وقت قريب.

على الرغم من أنه لم يطرح أسئلة أخرى، فإنني واصلتُ الكلام.

- نعم، ماذا يعني هذا التوقف؟

قلتُ ووجهي محمر من الخجل، كما لو كنتُ قد صرختُ من أجل تبريرٍ ما: «لقد تعثرتُ نوعًا ما. عندما بدأتُ بالعمل على الأبدية قبل سنوات، فكرتُ بأنه يعني التحرر من شيء ما. بالتأكيد تمردت على أساتذتي، الذين كانوا بالكاد

يعرفون شيئًا عن الأمر. ولكن كلما تعمقتُ، كلما... كيف يمكن قوله؟ والآن فلنفترض أن أطروحتي توسعت بداخل حياتي، لدرجة أنها بدت مثل ورم ما اتخذ طريقه لزحزحة باقي الأنسجة».

ظل يهز رأسه بإيماءة مفهومة بينما كنتُ أنطق بذلك الكلام، وكانت المجوهرات الهندية الثقيلة الموضوعة على صدره تهتز في كل مرة مُصدِرةً صوتًا، كما لو أنه يرغب في استعجال قطيع من البقر.

تابعتُ: «لم يعد ثمة وجود لشيءٍ آخر، أتفهمني؟ اثنتا عشرة ساعة من العمل بدت لي قليلة للغاية، أربع عشرة، وأخيرًا ست عشرة ساعة كان متوسط عملي في شهر يوليه. بالطبع لا يمكن فعل هذا إلا بمساعدة الأدوية. بالكاد أتواصل مع أحد، طوال أربعة أشهر، لم أذهب إلى المعهد. لم أذهب إلى أي احتفال يخص رأس السنة، لا شيء. (ولمزيد من التوضيح أضفتُ بشكل أخرق) لم أعد منذ مدة طويلة في منزل والديَّ. لم أرغب في رؤية أحد على الإطلاق».

كنتُ مصدومة من المونولوج المتدفق مثل دم من شفتي لا يمكن تفاديه.

قال الرجل بأدب وبدأ بحفر أسنانه العلوية بخلة سنان: «أتسمحين لي بسؤال. ما هي بالضبط نظرية الأبدية تلك؟».

تنحنحتُ، على الرغم من أن صوتي لم يكن مبحوحًا: «اعذرني، بالطبع، إنها نظرية بديلة عن الوقت. تخيل معي هذا: عندما يكون الوقت شيئًا وهميًّا، كما نعلم نحن اليوم، يكون الماضي والحاضر والمستقبل موجودين في الوقت نفسه. شبيهة بكتلة ثلاثية الأبعاد فبدلًا من أن تُقرَأ الأحداث على أنها متعاقبة -وهذا وهمي- تُقرَأ على أنها قريبة من بعضها بعضًا. هذا يعني أن الوقت يصبح اتجاهًا في الفراغ بدلًا من شيء يغير الأشياء. هذا معقد».

ارتجلتُ وشكلتُ منديل السفرة على هيئة مكعب. ثم تابعتُ: «كما ترى، يحتوي هذا البناء على كل الأحداث التي حصلت في وقت ما أو التي سوف تحدث. والحوائط هنا، (أشرتُ إلى منديل السفرة) هي حدود الإمكانات المادية. والآن يُقاس الوقت كونه مسافة، ويحدث هنا كل شيء، هل فهمتَني؟ والآن نستطيع أن نخوض في كل المسارات التي في هذا البناء من خلال وعينا. نحن نسميها مسارات لأن بالنظر من أعلى ينشأ نوعٌ من المناظر

التي يمكن رؤيتها، والتي من خلالها يبحث العقل عن المسارات التي تناسبه وذات الاحتمالية الأكبر، ليس شيئًا مهمًّا أن يكون ما قلتُه مفهومًا بالنسبة إليك. (استطردتُ مسرعة، إذ تخوفتُ من توقف إدراكه لقولي منذ وقت طويل) بعيدًا عن مقالاتي، الشيء المهم قد حدث. في تلك اللحظات، على سبيل المثال: عندما كنتُ أذهب إلى المعهد أو أجلس مع زملائي في كانتين الجامعة، لاحظتُ بأن حالة اضطرابي النفسي، التي لم تكن محسوسة بشكل واضح، كانت تزداد عنفًا. كما ترى، هذا الإدراك المتحقق قد أضاء من تحت حساباتي في المكتب بإشعاع لا يتغير. لا وجود للوقت».

في منتصف جملتي سقطت مني أدوات المائدة. اضطررتُ إلى الغوص تحت المائدة بتكلف لكي أرفعها. رددتُ مرة أخرى، وغرستُ شوكتي الموسخة في قطعة اللحم: «لا وجود للوقت. بدأ كشعور غريب ظهر خفية بداخلي، كما لو أن تلك الشوارع، التي أعرفها جيدًا، كانت مزيفة. كما لو أني أتمشى بداخل كواليس صنعها بإتقان واحد من منتجي هوليوود لخداعي. ولأني أعرف أنه لا يمكن أن يكون للوقت وجود. ولكن لمَ كل شيء يتصرف وكأن للوقت وجودًا؟ (وجهي احمرَّ مرة أخرى عند هذا الكلام). كان شعورًا مؤلمًا، حالة مستمرة من تبدد للواقع[1]. وكلما بقيتُ فيه أكثر، فقدتُ إيقاعي الحيوي أكثر، النهار والليل أصبحا الشيء نفسه، ولم أشعر بالتعب مطلقًا. قط. ولهذا كنتُ في أثناء النهار عصبية للغاية، كما لو أني أمام امتحان يتقدم نحوي بلا توقف. أترى، فقدتُ بالكامل الإحساس بمرور الزمن، وكان لدي هذا الإحساس الأكيد بالكون الغارق في الصمت، يوم مطابق للآخر، ساعة مثل التالية. بالطبع ذهبتُ إلى طبيبٍ نفسيٍّ، ولكن لم يكن هناك تشخيص. على الأقل لا وجود لشيء يُصلح من شأني. لذا لجأتُ إلى العلاج الذاتيّ[2]. سرًّا كان يمرر طلاب الدكتوراه «الريتالين[3]»، ولاحظتُ أنه ساعدني في التخفيف من الأفكار القهرية. لذا وسعتُ من مجموعتي الفنية، إذا كان يستطيع المرء أن يسمي الأدوية بذلك. «أفرغتُ ثُمن زجاجة النبيذ».

(1) مصطلح يصف تغييرًا في إدراك الواقع، فيبدو العالم الخارجي وكأنه غير حقيقي.

(2) استخدام الأدوية من خلال التشخيص الذاتي.

(3) دواء لعلاج اضطراب نقص الانتباه مع فرط النشاط.

ثم تابعتُ: «على أي حال بدأتُ منذ خمس سنوات تناول دواء «مودافينيل» لتهدئتي، قرصين في المساء. ومع ذلك عادةً ما أكون في التاسعة صباحًا مغيبة عن العالم، لدرجة أنني كنتُ أنام في مرحاض الجامعة. أو أنني أرتدي ملابسي وأركض خارج المنزل ثم ألاحظ أنه لا يزال ظلامًا كالحًا. وفي كل هذا مع ذلك كنتُ أتمالك نفسي، وأذهب إلى الطبيب، وأنجز محاضراتي. هكذا يمر المرء بالتجارب».

حاولتُ بأكبر قدر أن أكون موجزة، ولكن لم أنجح في هذا. ربما لأني لم أتحدث مع أحد منذ أربعة أيام، فتدفق كل شيء بسلاسة خارجًا مني، وربما أيضًا لم أتحدث مع أحد بمثل تلك الطريقة منذ سنوات. للحظات ساد صمت مروع. ثم وجَّه إليَّ كلامًا وحدق إليَّ بمثل المرة الأولى التي خاطبني فيها: «تعلمين، كنتُ أعمل منذ وقت طويل بائعًا للأقنعة في «أرض أرنهيم[1]»».

كررتُ بلا معنى: «بائع للأقنعة».

- عشتُ هناك مع السكان الأستراليين الأصليين، بالطبع كنتُ هناك من أجل الأقنعة، ولكن ولمدة طويلة لم يرغب أحد في بيع شيءٍ لي بسبب الأجداد. (كان يسعل سعالًا خفيفًا عند كل توقف) على أي حال هناك عرفتُ الكثير عن زمن الحلم[2]. على الرغم من أنه لم يسمح لي بالمشاركة في الطقوس. زمن الحلم يقول لكِ شيئًا، هل أكمل؟ جيد، إذًا أنتِ تعلمين ما أقصده.

قال على الرغم من أنني أجبتُ عن سؤاله بهز رأسي بالنفي.

رفع يده وكأنه سيبدأ بإلقاء خطاب شعري: «يتحد عالم الأرواح والأجساد في خلق مستمر للحاضر، أي زمن الحلم، في المكان الذي نستطيع من خلاله التواصل مع أجدادنا. الأسلاف يؤثرون في العالم من خلال أفعالهم، ونحن بدورنا نستطيع تغيير زمن الحلم من خلال أفعالنا».

سألتُ بصوت مرتفع: «ولكن كيف؟».

---

(1) منطقة تاريخية من الإقليم الشمالي لأستراليا.

(2) أحد المفاهيم في ثقافة السكان الأستراليين الأصليين، وهي مجموعة من القصص تشرح وتحكي أصل الخلق ومنشأ الأرض والطبيعة والحيوانات. تختلف القصص من قبيلة إلى أخرى وتتهدد آلهتهم، أو كما يسمونها بالأرواح.

قال واستند بهدوء على الطاولة: «وفي الواقع، يحدث هذا فوق الطبيعة. الذي يفعله الأسلاف -وهذا يشمل أيضًا الاستعارات- كما أقاربنا الحقيقيون في زمن الحلم، يُشكِّل الطبيعة من حولنا، يبني جبلًا ويجعل الأنهار تتدفق. النكتة هي أننا نتغير أيضًا مع هذه الأشياء، بل وبشكل سريع للغاية، بالكاد بأثر رجعيٍّ، لدرجة أننا مقتنعون بأن الطبيعة كانت دومًا ما تملك هذا الشكل. أصبحنا غير قادرين على ملاحظة التغيرات. أليست فكرة رائعة؟».

قلتُ: «فهمتُ ما ترمي إليه».

ولكن لم يعد يعني شيئًا. رغبتُ فجأةً بأن أكون وحدي، وشعرتُ بغرابة ما قد أخبرته به منذ قليل من تفاصيل حميمية.

- تمامًا مثل نظريتكِ، توجد شبكة كونية تربط بين الطبوغرافيا[1] والوقت، فقط عند «الأبوريجنيين[2]» الطبيعة بأكملها هي ما تفعل هذا.

قلتُ: «استمِر في إخباري بالمزيد من القصص، سأحاسب فقط لفترة وجيزة، من الممكن أن تكون غرفتي في أي وقت جاهزة».

- ولكن ما لا يرغب في فهمه معظم الناس عن زمن الحلم هو أن العالم الماديَّ في حد ذاته مركب من الروح والجسد. إن الطبيعة من حولنا مباشرةً تتدفق مثل إدراكنا الحسي، كل شيء من قالب واحد. لذلك يصبح العالم كله مجرد استعارة. أنتِ استعارة وأنا استعارة في جسديَّتنا كلها.

بدأتُ مرة أخرى: «معذرةً، حان الوقت للتحرك».

رغبتُ بشدة في إنهاء هذا الحديث ولكن لم أعرف كيف. تجاهل بائع الأقنعة ما قلتُه. أفضى بمونولوجه بجمود كما كنتُ أفعل من قبل.

- تحكي قبيلة «والبيري» أن بعض طيور النهير حاولت عبور النار الضخمة، ولكن احترقت في أثناء ذلك ورغبت في تبريد أنفسها في نهر «الواريانا». وعندما هبطت في ذلك النهر، بدأت أوراق الشجر في

(1) علم التضاريس: هو تمثيل دقيق لسطح الأرض بعناصره الطبيعية والبشرية.

(2) هم نفسهم سكان أستراليا الأصليون.

النمو منها ثم تحولت إلى أشجار «يتيليابا»، التي لا تزال موجودة إلى اليوم.

أشرتُ إلى النادلة بأني أرغب في الحساب، ولكنه قبض عليها عندما كانت بالكاد قريبة منا. قال، قبل أن أستطيع الكلام وأمسك يدي للحظة كما لو كان عليه أن يمنعني من الهرب: «سنأخذ نصف لتر من نبيذ أحمر. ما قلتِه سابقًا كان مألوفًا جدًّا بالنسبة إليَّ، لأن أيضًا «الأبوريجنيين» يُعرِّفون الزمن بكونه مسارًا، (اتخاذ مسار في الطبيعة التي بدورها تتشكل من خلال هذا المسار)، في اتصال دائم مع الأسلاف. فلا يمكننا أخذ خطوة دون الاشتباك مع الماضي الخاص بنا. الإمكانية الوحيدة لرفض الوقت في حد ذاته هي أننا لا نتخذ أي خطوة أخرى».

نظرتُ بارتياب إلى الطريقة التي تمتلئ بها كأسي مرة أخرى إلى الحافة، في أثناء الصب المندفع لبائع الأقنعة.

قال في ثوران مفاجئ إلى النادلة المارة بالقرب منا: «كما ترين، لم أعد أشعر بالجوع مطلقًا».

وشد يده من الطاولة، وبدلًا من دفع الطبق جانبًا، كما كنتُ أفترض، أو أن يسلمه للنادلة، مد يده إلى قطعة خبز أخرى ودفعها بأكملها إلى فمه. تمنيتُ للحظة بألا يكون يقظًا كفاية لمنعي من الذهاب، ولكن سرعان ما فقدتُ الشجاعة على الذهاب، لأن على الرغم من فمه المفتوح على اتساعه بسبب قطعة الخبز فإنه كان يكمل حديثه بحماس لم يتغير.

قال واستند إلى الطاولة تجاهي: «أريد أن أكون صادقًا معكِ. أشعر وكأننا لم نتقابل صدفةً. هذا العزم الذي أتيتِ به لتجلسي بجانبي إلى الطاولة. (وفعل حركة مفتعلة من يده كما لو أنه يقود أوركسترا) لا، إنه لشيءٌ مصيريٌّ أن نتقابل هنا. يقول أيضًا «أوغسطين[1]» أن لا وجود للزمن في حد ذاته، بل إن المستقبل والماضي مجرد إسقاطات من الحاضر. كل شيء يصب في محادثتنا التي نخوضها الآن وينشأ منها. ويرمز إلى شيء. (ومن جديد أمسك

(1) يعد من الفلاسفة المسيحيين في العصور الوسطى وصاحب التأثير الأعمق والأطول على الكنيسة الغربية، وكان له آراء تخص الزمن، فكان يرى أنه لا وجود له، فالماضي قد توقف عن الوجود، والمستقبل لم يوجد بعد، والحاضر لا امتداد له.

بيدي وعلى الرغم من تقززي من هذا الأمر، فإنني افتقدتُ الإرادة لسحب يدي) يقول «الأبوريجنيون» إن الاستعارة تكون ناجحة عندما تلمع بدايتها ونهايتها. يجب عليها تغيير الماضي لأنها تعطي للماضي معنىً آخر، وكذلك المستقبل، لأنها توجه توقعاتنا ناحية ما هو آتٍ. وبهذا الصدد فإن الأسلاف ليسوا سوى استعارات أو بالأحرى فنحن استعارات عن أسلافنا. فكري في هذا من ناحية جينية».

طيلة الوقت كان بإمكاني النهوض والمشي ببساطة، لكني لم أفعل ذلك.

قال بائع الأقنعة بإلحاح متزايد باستمرار: «في سياق مشحون مثل هذا، يصبح كل شيء استعارة. أنتِ، أنا، الناس في هذا النزل، كما كل الأحداث نفسها. (اقشعر جسدي كما لو كنتُ واقفة بلا حماية في هواء الخريف) أنتِ بنفسك تلاحظين أنك لستِ هنا بلا سبب وأنك قصدتِ شيئًا عندما أخبرتِني منذ قليل عن حياتكِ. ولكن ما هو؟ ربما ما زلتِ لا تعرفين هذا الشيء. ولهذا السبب أريد أن أعرض عليكِ شيئًا. بل، (أمال نفسه عميقًا إلى الأسفل كما لو كان يعتذر وأخرج شيئًا إلى الأعلى) بعضًا من الأقنعة الرائعة من تشكيلتي».

وفجأةً انكسر التوتر. كان التبشير الفلسفيُّ كله مجرد مقدمة لصفقة مبيعات. وفي ثوانٍ قليلة كانت الطاولة مكسوة بالأقنعة.

- هنا لدينا -على سبيل المثال- قطعة باهرة، أقنعة «بريمر[1]»، صُنعت في «بامبرغ[2]» من قِبل عائلة من النحاتين تعيش هناك منذ آلاف السنين. مثالي لحفلة تنكرية.

وأشار إلى رأس الطائر المنحوت حتى الأنف، كان بشعًا.

- جيد، سأشتريه.

- وربما هذا أيضًا. قطعة رائعة ومميزة من «مالي[3]»، عين الحقيقة. مصنوعة من البرونز والنحاس الأصفر، بالتأكيد لأغراض تخص

(1) قناع على شكل طائر أبيض مستوحى من لعبة «أسطورة زيلدا: قناع ماجورا».

(2) مدينة في ولاية بافاريا في ألمانيا.

(3) دولة في غرب إفريقيا.

العبادة، ولكنه يبعد رهاب التلامس الجسدي[1]. من الممكن وضعه فوق مدفأة، ربما؟

أجبتُ ولم أكن أنظر إلى الأقنعة على الإطلاق: «حسنًا، أضِفها إلى الأولى».

- بالتأكيد. (قال بائع الأقنعة على عجل) هذا سيكلف 100 يورو.

شعرتُ بالسعادة لأن كان لدي هذا المبلغ، وعلى الرغم من أنه في الحالات العادية كان سيبدو سعر الأقنعة مرتفعًا بشكل يثير السخرية فإنني استطعتُ وضع المبلغ بسرعة كافية على الطاولة.

قال بائع الأقنعة وهو واقف: «أشكركِ وآسف على هذه الليلة».

أجبتُه: «كانت محادثة لطيفة».

ولكنه كان في عجلة من أمره لوضع أقنعته من جديد وترتيبها، لدرجة أنه أجابني فقط بإيماءة من يده كانت من المفترض أن تكون تلويحًا، ولكنها بدت وكأنه يبدد رائحة مقرفة. ثم أسرع إلى طاولة وأجرى محادثة قصيرة مع صاحبة النزل بطريقة جعلتني أخمن أنه ولا بد مديون لها. وبالفعل استردتْ منه جزءًا كبيرًا من المبلغ الذي كنتُ قد دفعتُه له من قبل. ترك النزل دون أن ينظر مرة أخرى حوله.

بعد قليل أتت النادلة إلى طاولتي وأخبرتني أن غرفتي جاهزة.

***

استيقظتُ بعد ليلة من النوم العميق والخالي من الاضطراب ونظرتُ لأول مرة إلى الأسبوع الفائت وما جرى فيه، كان وهمًا متواصلًا لأيام. إنه أحد أغرب جوانب الحياة، كيف أن ما بدا لنا فيما مضى أكثر صور الأفعال طبيعية يغرق الآن بداخلنا خاضعًا لانجراف غامض ومفاجئ. الأيام الأخيرة كانت محاطة بالهذيان، مثل شخص عاد إلى رشده وأدرك أنه في الليلة الفائتة كان يرقص سكران فوق الطاولات. والأهم من ذلك: شعرتُ بالقوة لأعترف بأخطائي ولأصححها. في خيالي كنتُ أرغب في أن أحزم أشيائي بعد الإفطار، أهاتف أقاربي وأعود إلى فيينا لكي أُجري الاستعدادات اللازمة

---

(1) حالة من عدم الارتياح عندما يلمسهم أي شخص، ويتجنبون أي تواصل باللمس مثل المصافحة أو العناق.

لتشييع الجنازة. كان هذا هو الشيء الوحيد الصحيح الذي يجب أن أفعله. وبينما كنتُ أرتدي جوربي، أعددتُ خطة بكل شيء: سآكل البيض مع لحم الخنزير المقدد والموزلي[1]، وأبتلع مع الأكل عدة أكواب من المياه لكي أبدد صداع الشرب المزعج هذا، وأسرع لأقرب هاتف في أقرب وقت ممكن لكي أخبر أقاربي بقراري. قفزتُ بداخل بنطلوني، بشكل مفاجئ استطعتُ أن أكون سريعة كفاية. مجرد التخيل بأني سأكون في فيينا قبل الغداء كان فيه شيء مهدئ في حد ذاته النوم في سريري، التحدث أخيرًا مع أصحابي عما حدث لي. بعشوائية ألقيتُ بكل شيء في حقيبتي، مثلما يفعل أي شخص في أثناء رحلة عودته الأكيدة، وهبطتُ السلالم بمرونة إلى صالة الفطور. كان كل شيء فارغًا عندما دخلتها.

أمام البوفيه وقفت فقط نادلة واحدة وكانت تقرع بالكؤوس في إيقاع كما لو كانت في أحد أفلام «هانز موزر[2]» وترتبها بداخل نصبٍ تذكاريٍّ ضخمٍ على شكل الهرم لأجل الصباح التالي.

- هل يوجد فطور؟

أجابت مباشرةً متجاهلةً سؤالي، ولكن بابتسامة ودية: «لا».

- كم الساعة؟ كان عليَّ الاستيقاظ نحو الساعة السابعة.

- 11:30. (قالت النادلة، وكما لو أن قد وقع عليها مصيبة ما في تلك اللحظة، أدارت نفسها بعيدًا عن المكعب الزجاجيِّ) آه يا للهول. سيدة «روزينتالر» قد ذهبت مع زوجها إلى المستشفى في هذه الليلة. كان يعاني من انسداد أوعية القلب.

تذكرتُ بصعوبة أن السيدة «روزينتالر» صاحبة الحانة، قد أودعتُ عندها مساء أمس رغبتي المُلحة في الاستيقاظ في المعاد المحدد. أظهرتُ تعاطفي للنادلة، تلك التي وعدتني بأن تجلب لي على الأقل فنجان قهوة، وأما الأكل فلم يتبق منه شيء.

---

(1) رقائق الشوفان مع منتجات الحبوب الأخرى والفاكهة موضوعة في اللبن.

(2) كاتب سيناريو وممثل مسرحي.

وبينما كنتُ أرتشف رغوة الحليب، شعرتُ بحركة غريبة داخلي: الصور القوية لرحلة عودتي إلى المنزل، لوصولي المبكر في فيينا، تلك الصور التي كنتُ أتخيلها منذ استيقاظي والزخم المرتبط بها قد بهتت جميعًا. جهد لا يوصف تكوم أمام مهمة الجلوس وراء عجلة القيادة. لا يهم، فقد كان عليَّ تجاوزه. نظرتُ إلى الساعة، لو أصبحتُ الآن على الطريق، سأكون في المنزل على الأقل بعد الظهيرة.

بمجرد ما شغلتُ السيارة وانطلقتُ إلى أول طريق سريعة، سمعتُ صوت إنذار خزان الوقود، تذكرت بأنني البارحة في أثناء القيادة إلى البنسيون كنتُ أستخدم احتياطي البنزين. حاولتُ تذكر الطريقة التي يقود بها الشخص متمكِّنًا من توفير الوقود، وتركتُ سيارتي تنحدر على الطرق المنحدرة، حتى إنني ضغطتُ بجسدي إلى الأمام لأنتفع من وزني المثير للسخرية على الأقل لبضعة أمتار. أخذتُ التقاطع التالي، واجتزتُ قرية «شلاوخ» ووصلتُ إلى دار استراحة صغيرة على الطراز القديم.

كانت محطة البنزين نموذجًا للكآبة الشاملة: كوخ من طابق واحد مع روح ألمانيا الشرقية وخلفه مباشرةً ملحق به كوخ خشبيٌّ للقهوة، وفيه لوحة لكوكاكولا من الصفيح قد اصفرَّت. كان عامل البنزين وهو شاب صغير في السن يرتدي جاكت لدوكاتي[1] يدخن بثقة مفرطة أمام مضخة الوقود، وكان مسؤولًا عن تلبية كل الاحتياجات، إذ رأيتُه يجلب كوبين من الإسبريسو لعميلَين آخرين ووضعهما فوق سطح سيارتهما.

تنفستُ الصعداء، عندما وضعتُ خرطوم الوقود الموجود في هذا النموذج القديم والبائس للغاية لمحطة الوقود في السيارة. كانت هذه نهاية لرحلتي الطويلة والمملوءة بالمغامرات، آخر توقف في هذا البعد الموازي للأرض النمساوية المقفرة. في ساعات قليلة سأكون من جديد في بيتي، في روتين يومي المنظَّم، وسأجلس على مكتبي وأخطط في هدوء تام لتشييع الجنازة. وبينما كنتُ أنتظر امتلاء خزان الوقود، لفت انتباهي رجلان في البناء المجاور. هذا ما انتشلني من خيالاتي: واحدٌ منهما كان رجلًا ضخمًا مع لحية مدببة

(1) شركة مصنعة للدراجات النارية.

وجسده يملأ بدلته الضخمة، ويضع على عين واحدة المونوكل[1]. وعرض على الآخر، الذي كان يفك غطاء الخزان، سيجارًا من صندوقٍ خشبيٍّ لحفظ السجائر من الرطوبة، الذي رفضه الآخر بحركة من يده. هو أيضًا جذب انتباهي: كان النسخة المضادة للآخر، نحيفًا، يمكن القول بأنه رجل قصير مثل قزم، كان منهمكًا في السيارة، يصقل النوافذ ويتفقد مستوى البنزين، ثم أخيرًا أشعل سيجارة الرجل السمين. كان يرتدي بنطلونًا من الحرير وقميصًا قذرًا كان يمسح به من وقتٍ لآخر زجاج نظارته.

بدأ الرجل الضخم في التحدث: «إذا استطعنا فعل ذلك -وبلا شك سنفعل ذلك- في غضون أسبوع نضع الأساس، ونبني ثلاثة من الحوائط، وأخيرًا يجب أن تكون الواجهة مصنوعة من الرخام، يجب أن تكون عارفًا بهذا، وفور انتهائنا من ذلك، سوف أقول لـ «بلومنكرانتز» أن ينشئ الرواق المقنطر[2]، وحفرة الأوركسترا[3]، وسبعًا وثلاثين غرفة لتغيير الملابس للفنانين، وألفَي مقعد وما إلى ذلك بسرعة، كما أنني أريد منك شيئًا. (ألقى رماد سيجارته على الأرض قبل أن يواصل حديثه) باختصار: عندما نحافظ على وعدنا بأننا سننتهي من الأوبرا بحلول شهر أكتوبر في «جلاتزلالم»، كما تخصيص مئتَي مكان موقفًا للسيارات على مساحة ألف ومئتَي متر، سيكون عليك الدفع لي ولـ «كاينرمولر» -مدير شركة الإنشاءات- بالذهب الخالص».

ضحك بصوتٍ عالٍ بينما كان قميص صاحبه مفتوحًا في أثناء محاولته لتعديل إيريال العربة من جديد بعد غسل السيارة. أجَّلتُ بقدر الإمكان مرحلة التزود بالوقود لكي أستطيع متابعة الحوار لمدة أطول. بدا الرجل الذي يمسح السيارة وكأن به شيئًا باهتًا، حتى إن أزرار سرواله كانت تالفة، بينما كان الرجل الذي يرتدي قبعة كبيرة الحواف يظهر كرجل أعمال، بدا وكأنه مصقول بلمعان ونظيف.

---

(1) عدسة مفردة توضع على العين متصلة بسلسلة.

(2) من فنون العمارة اليونانية، ويكون في الطابق الأرضي، وهو ممر من الأعمدة.

(3) هي حفرة في المسرح ومصممة خصيصى لتوفير أفضل صوتيات ممكنة.

- ما زال لدينا المعيار الذهبي[1]، وضَّحت له ذلك، وفي هذه اللحظة فقد توازنه، ليس بشكل حقيقيٍّ بالتأكيد ولكنه ارتد واقعًا على الأريكة. قلتُ الحقيقة! أخبرته نحن لن نفعل هذا بسعر 3 ملايين. وإلا فسوف أكون فقيرًا.

عند هذا الكلام ضرب بيده على الزجاج الأماميِّ للسيارة تاركًا بصمة دهنية، التي يجب على الرجل الآخر أن يمسحها من جديد.

سأل الآخر بابتهاج والخرقة في يده: «وهل كان هوبر متوقعًا الصدمة؟».

- لا أملك ثلاثة ملايين، شلاف، أرجوك أرجوك، التضخم المالي، الحالة الاقتصادية، الشيلينج لا يزال معلقًا في دمي[2]. (قلَّده بينما يتحدث) جيد، قلتُ، إذًا مئة ألف. مصافحة! تم. ثم قبعة مصنوعة خصيصى وصندوقان من قصافات الأظافر فوق البيعة.

قال القزم: «عبقري. هل ستضيف واحدًا من التلفريك[3]، الذي يرتفع هناك؟».

على الرغم من أن سيارتي لم تكن موحلة بالقدر الضخم، بدأتُ أنا أيضًا في غسل الزجاج، كنتُ مفتونة بشدة بهذه الصدفة الغريبة. صفع الهواء المغطى برائحة الطحالب باب سيارتي بقوة. وللحظة نظرا كلاهما إليَّ ونظرتُ أنا إلى الأرض.

تحدث الرجل متفلسفًا، تاركًا سيجاره الغالي يحترق في يده اليمنى كما لو كان إكسسوارًا: «أنا أتعامل مع كل شيء. يا فريدي، يوجد القليل من الناس في هذه الأيام الذين يتعاملون مع كل شيء. الناس مقتنعون بأنهم يحتاجون للمعرفة لكي يبدؤوا شيئًا. سأقول لكَ شيئًا: المعرفة هي لا شيء على الإطلاق!

---

(1) مصطلح مطاط، لا يوضح شيئًا، ولكنه عادة ما يستخدم في الإعلانات أو ما شابه لجذب العملاء.

(2) انخفض الشيلينج (الشلن) بشكل متزايد ليصبح عملة بلا قيمة.

(3) وسيلة نقل على شكل عربة معلقة في الهواء وتعمل بالكهرباء، وهي مهمة في الأماكن الوعرة مثل الجبال، وتستخدم وسيلةً للترفيه لمشاهدة المناظر الطبيعية من الأعلى.

التفكير هو الخطأ الأول. كل شيء يتكون من صفقات، والتجارة هي أصل أحداث العالم. وبالتحديد تجارة التجزئة[1] النمساوية».

صاح فريدي بصوت مكتوم، لأن رأسه كان محشورًا تحت غطاء المحرك المفتوح: «أنت فقط عبقري، تستطيع حتى أن تنجح في أميركا».

- هكذا أصبحنا منذ وقت أغنياء في المدينة. علَّمتنا الكونتيسة[2] هذا، ونحن سنفعله من بعدها. (قال الرجل الضخم ورمى سيجاره المنتهي بعيدًا) انظر، أنا مجرد رجل مختلف عنك.

على الرغم من الإهانة الواضحة أغلق فريدي النشيط الأبواب وغطاء المحرك بعناية فائقة، صافحا بعضهما بعضًا وتبادلا الأظرف.

طوال هذا الوقت كنتُ أخمن أن الرجل القصير كان مُورِّدًا أو خادمًا للرجل الأول، لأنني لم أستطع التفكير فيما يمكنه أن يجمع بين هذين الاثنين. لكن لا يبدو أن هذا هو الوضع.

قال فريدي على الهامش: «من الجميل دائمًا أن أعمل معك».

كانت تصرفاتهما كلها تشبه لغزًا مثيرًا، ولكن للأسف الشديد كلٌّ منهما ذهب في طريقه.

سأل الرجل القصير: «على أي حال. هل يجب عليَّ أن أوصلك إلى منزلك؟».

قال الآخر: «لا، أنا مضطرٌ إلى العودة إلى جروس أينلاند».

- هذا جيد، سأوصلك إلى هناك، ليس لدي شيء آخر لأفعله.

- حسنًا إذن.

وترك الاثنان محطة الوقود.

«جروس أينلاند»، سمعتُها بوضوح، ومع ذلك احتجتُ للحظات حتى أدرك ذلك. لم يكن وهمًا. ألقيتُ لعامل البنزين خمسين يورو، وتبعتُهما إلى موقف السيارات. وبسبب ترددي لم أستطع اللحاق بهما قبل أن يصلا إلى سيارتهما،

(1) تشتمل على بيع السلع من مكان محدد مثل متجر أو كشك، جاهزة للاستهلاك المباشر من قبل المشتري.

(2) لقب يطلق على النبلاء أو الشخصيات ذات الثراء البالغ.

وعندما كنتُ على وشك ركوب سيارتي لاحظتُ أن عامل البنزين كان قد ترك خرطوم الوقود معلقًا بسيارتي. اضطررتُ أولًا إلى سحبه ببطء وبتعقيد بيديَّ المرتعشتين قبل أن أصعد للسيارة وأستطيع تشغيل الموتور، مذعورة لأن الرجلين قد انحرفا عن المخرج بالفعل. زوَّدتُ من سرعتي دون الالتزام بالحد الأقصى من السرعة، وفقدتُهما بالفعل عند أول تقاطع. كنا في وسط المدينة والمنازل كانت قريبة للغاية من بعضها بعضًا بحيث لا يمكنني رؤيتهما. ثم التقطتهما عيناي مرة أخرى، عندما كانا ينحرفان على طريق الغابة البعيدة للغاية. اضطررتُ أولًا إلى وضع ترس الحركة الخلفية[1] لأتبعهما، ولكن عند هذه اللحظة كانا قد رحلا، ووقفتُ ضائعةً على ممرٍ ترابيٍّ يؤدي إلى حقل وتل. لم يكن هناك تفرع من هذا الممر، لهذا يمكن للعربة أن تسير في اتجاه واحد فقط، ولكن لم تكن الطريق المتجهة لأعلى مناسبة للقيادة السريعة. انتهت الطريق المطلوبة عند جانب منحدر من الغابة. الخيار الوحيد كان ممرًا ضيقًا لا يمكن تسميته بالطريق، على أسفل الجانب الآخر من المنحدر، وحتى هذا الممر الذي كان سينتهي قريبًا، ربما كان في الواقع مخصصًا للمتجولين. كانت الطريق الوحيدة التي يمكن القيادة فيها هي فتحة تقود عموديًا بين الأشجار.

(1) Reserve: تسمح للعربة بالرجوع إلى الخلف.

4

أتذكر بوضوح كيف كنتُ أقود في الممر الضيق الوعر المتمايل في المرآة الخلفية كما لو كان معلقًا بين الأشجار. بدت الطريق الصاعدة المرتجلة ليست سوى إجراء متخذ لبناء الطرق، قُطعت أشجار التنوب بالمنشار الكهربائيّ وكانت قريبة للغاية من الأرض للدرجة التي يستطيع بها أي شخص دفع سيارته الضخمة فوقها. كانت الفروع تندفع من الأرض، على الرغم من تجهيز الجذوع بهذه الطريقة لاستخدامها بالفعل. وسرعان ما فقدت الإكصدام، على الرغم من أنني كنتُ أسير ببطء شديد. كان المضي قدمًا مرتبطًا بصعوبات خطيرة لأن الأرضية التي كنتُ أستمر بالتحرك عليها، كانت تتزحزح في جميع الاتجاهات المكانية الثلاثة[1]. وبينما كنتُ أحاول النجاح في هبوط المنحدر، اصطدمت سيارتي بالزخم الزاوي[2] لأحد جذوع الشجر. وبينما كنتُ أدفع عربتي إلى خارج الحفرة التي كنتُ فيها، قطعتُ بعضًا من أوراق شجيرة ما كانت قد انتزعتْ مرآتي اليسرى. وعلى الرغم من أن الساعة كانت الثالثة عصرًا فإن ضوء النهار كان ضعيفًا، وأصبحت الغابة كثيفة للغاية. وعلِقت سيارتي بين شجرتَي تنوب. اضطررتُ إلى النزول من السيارة ودفعها من الخلف بين هذا الممر الضيق، انزلقتْ قطعة أخرى من السيارة بينما كنتُ على وشك الجلوس بداخلها. ساعة مرت وكنتُ بالكاد أتابع المسير.

وأخيرًا انتهت الغابة عند مرج، ولا يزال يتبقى المزيد: رأيتُ طريقًا ممهدة تبدأ على مسافة ما، وتؤدي إلى مكان ما. تركتُ سيارتي، التي كانت تصر من

(1) الكاتبة استخدمت لفظًا يخص الفيزياء والرياضيات drei Raumrichtung وتقصد به نظام الإحداثيات ثلاثي الأبعاد «النظام الديكارتي».

(2) الزخم الزاوي هو بُعد فيزيائي، وهو إحدى أهم خصائص حركات الدوران.

كل الجوانب مثل حشرة واقعة على ظهرها، تخرج من آخر مئة متر من الغابة مقطوعة الأنفاس. كانت الفروع محشورة في كل مكان على غطاء المحرك، والانبعاجات في الأبواب جعلتني أشك في ما إذا كنتُ سأقدر على الترجل من السيارة. كان من المستحيل تحديد الوقت المنقضي بين الغرق في الغابة والوصول إلى الطريق. وأخيرًا عندما وصلتُ إلى الطريق المسفلتة، رأيتُ لافتة باسم القرية منتصبة أمامي كما لو كانت قد أُنشئت للتو: جروس أينلاند.

***

في كون بلا وقت، تقع كل العوالم الممكنة بجانب بعضها بعضًا في تزامن تام، حيث تتجول عقولنا بداخل نسيج أبديّ من فضاء الاحتمالات، وما تختبره عقولنا كحاضر، يتأثر بخواص تشبه الضباب، التي تقع في بناء فضائيّ منظم. هذا «الضباب»، وفي الأدب يسمى بالسديم، يجب أن يُفهم كونه شيئًا مجازيًا بالطبع، ويعني توزيع الاحتمال[1] *بأن يُعاش الشيء على أنه الحاضر، الدالة الموجية المتقلِّبة*[2]*، التي تتنبأ بوقوع الحدث في فيزياء الكم. السؤال الرئيسي هو ما الذي يجعله يتكثف في بعض المناطق، وفي مناطق أخرى يضمحل، لمَ يبدو أن هناك معقولية سلسة تسود تعاقب الأفكار؟ يخمن «هيراخ» و«توكر» بأن السديم يتجمع بشكلٍ أساسيّ في المكان حيث يمكن إيجاد الكبسولات الزمنية، ولهذا السبب يرتبط كل بناء منظم مع بعضه بعضًا، لأنه يوجد بداخله عدد ضخم من الإشارات*[3] *المتبادلة. لذا فإن مكان الإقامة المفضل للوعي يقبع حيث يتذكر نفسه كما يتذكر أشياء أخرى كثيرة.*

***

في تلك اللحظة لم أدرك قط بهذه القوة الصورةَ التي قد تكون عليها مدينة نمساوية قديمة، عندما تركتُ سيارتي المحطمة تتحرك عبر فتحة مستطيلة في سور المدينة. بعد نحو مئة متر من مستوطنة صغيرة عبرتُ جسرًا حجريًا وأصبحتُ في وسط المدينة. في مثل هذا التنظيم الجيد، الذي فقط يستطيع

---

(1) وصف رياضي لاحتمالات الأحداث.

(2) تحدد احتمال وجود الجسيم في أي نقطة من الفراغ التي يمكن للجسيم الوجود فيها.

(3) الإشارات هنا مقصود بها أنها تشير إلى شيء ما.

تحقيقه سوق من العصور الوسطى، تجلى النشاط المحموم للأحداث اليومية من البوابة الضخمة للمدينة وخارجها. ساحة رئيسية مستطيلة تجاورها مبانٍ رائعة: مدرسة ابتدائية تشبه بيت الدمى، مكتب بريد مطليٌّ باللون الأحمر مع قرن ذهبيٍّ، مخبز وعلى أبوابه يتأرجح الكعك اللامع، نزل مُغرٍ للمبيت فيه ينضح بضوء دافئ، كشك اللبن المظلم في ضوء الليل الخافت. ولأني لم أكن في منطقة مدنية كبيرة حافلة بالبشر منذ أسبوع، فالنظر إلى المباني، والأرض المرصوفة بالحجر والفوانيس المضاءة كما لو كانت من يد بشريٍّ، هذا كله جعلني في حالة من الفرحة الغامرة. أزقة صغيرة ومتعرجة ممتدة في جميع الاتجاهات، تختفي بغموض وراء زوايا المباني الحجرية. كل شيء كان مضيئًا ونظيفًا بشكل لا يُعقل، نوعًا من الكمال لم أعرفه مطلقًا في أي متر في فيينا. على اليمين، بعيدًا وراء المدينة على حافة صخرة شديدة الانحدار كان هناك قصر منير وبه أربعة أبراج، واقف بفخر.

في وسط انطباعاتي سمعتُ فجأةً نقرًا هادئًا قد خرج من ظلمة دامسة على زجاج النافذة الجانبية. خارج العربة لم أكن أر شيئًا سوى وميض مرتعش بجانبي. عندما فتحتُ النافذة رأيتُ شخصًا في رداء قديم وغريب واقفًا أمامي. كان رجلًا قصيرًا وعريضًا، وله شارب وشعر خشن، ويرتدي زيًّا أسود مغطىً من قمة رأسه حتى أخمص قدميه ويحمل في يده اليسرى مصباح غاز قديم الطراز، ملائمًا لعباءته وقبعته، وفي يده اليمنى رمحًا.

قلتُ وأنا مقتنعة من أنه وُضعت الشرطة في زيٍّ تنكريٍّ لجذب السياحة: «هل ممنوع القيادة هنا، أيها المفتش؟».

أجاب: «أنا حارسٌ ليليٌّ[1]. وهنا لا يوجد قانون لمنع القيادة».

من الواضح أن الرجل لم يكن في مزاج للمزاح، لأنه دوَّن رقم سيارتي في النوتة.

سألني باقتضاب: «إلى أين تتجهين؟ الأشخاص الغرباء لا يبتعدون على أي حال».

(1) الحراسة الليلية كانت مهنة شائعة في العصور الوسطى.

وخبط بحذائه على الرصيف مُحدِثًا قعقعة معدنية ورأيتُ أن حذاءه كان من المعدن في الجزء الأماميّ.

أجبتُ: «أبحث عن مكان للنوم في هذه الليلة».

واستدار الحارس بعيدًا عن سيارتي وتمخض بشدة، لم يتحدث أيٌّ منا لمدة خمس عشرة ثانية.

حاولتُ مرة أخرى: «هل تعلم أين أجد واحدًا منها؟ ربما بنسيون أو ما شابه؟ كما أنك بالتأكيد ترى أن عربتي صالحة فقط لتكون خردة، لقد ضعتُ حينًا في الغابة».

- أعرف مكانًا، ولكن لن تحصلي هناك على غرفة.

- لمَ إذن؟

ضحك الحارس الليليُّ وهز رأسه يمينًا ويسارًا، ثم رفع منكبيه أربع مرات بالتتابع، وهز رأسه مرةً أخرى وتأرجح ذهابًا وإيابًا: «لأنك لستِ من أصحاب البلد، لم تسجلي في جروس أينلاند».

قلتُ بهدوء: «حسنًا. هذا صحيح. ولكن لمَ قد أحتاج لغرفة في أحد البنسيونات إذا كنتُ من سكان البلدة؟».

بدا أن هذا كثير جدًّا عليه؛ كان الحارس يتلوى ويتألم كما لو كان شخصًا يُعذَّب من جميع الاتجاهات.

- انظري، هذا فقط تصريح ينص على أن أي شخص يحتاج لاستمارة تسجيل في البلدة حتى يستطيع بصفته سائحًا الحصول على غرفة في أحد البنسيونات. يمكنك المحاولة، ولكن ستسمعين منهم ما قلتُه نفسه. هذه مسألة تخص التنظيم.

- ولكن هذا لا يمكن أن يكون قانونًا. مَن وضع هذا القانون؟

جعل السؤالُ الحارس الذي أتحدث معه يتصبب عرقًا. قال أخيرًا: «الكونتيسة».

سألتُ، متيقنةً من أنني قد أخطأتُ السمع: «الكونتيسة؟».

- بالطبع الكونتيسة. حسنًا. أنصتي لي. أنا أرى أنك في مأزق ولا أرغب في أن أكون قاسيًا معكِ. اذهبي إلى بنسيون «تسوم فروليشن

كوربِس» وقولي إن الحارس الليليّ قد أرسلكِ وإنك ستقدمين لهم غدًا استمارة تأكيد التسجيل وتذكرة دخول خاصة.

- تذكرة دخول خاصة؟

- وثيقة تسمح بتأريخ الأوراق الرسمية لليوم، وتصبح سارية حتى قبل موعد تحرير الوثيقة.

كانت جروس أينلاند بالفعل من أغرب الأماكن التي قد زرتُها من قبل، لكنني قبِلتُ بالتفسير. بالإضافة لذلك طمأنني لطفُه تمامًا، لأنني عندما ترجلتُ من العربة، رأيتُ مدى الضرر الذي في السيارة: انفجرت عجلتان، وكان غطاء المحرك مثقوبًا من الجوانب ومعلقًا في مفصلة واحدة، ثلاث من أربع نوافذ جانبية متشققة، وتدلت ماسورة العادم باعوجاج فوق الأرض.

أغلقتُ سيارتي وذهبتُ إلى الاتجاه الذي أشار إليه الرجل. تؤدي الطريق إلى النزل إلى أسفل سلم ضخم، حيث تتشابك الأكشاك الصغيرة بجانب بعضها بعضًا مثل حلقات في سلسلة. وبينما كنتُ أسير تحت الرواق ذي الأعمدة اليونانية في جزء لا يقل روعة عن البلدة القديمة، تخيلتُ والديَّ في طفولتهما يجريان طوال هذه الطريق. هكذا كانت جروس أينلاند، لقد وجدتُها، وتخيلاتي لم تكن مثل ما وجدتُه، ووجدتُ صعوبة في رؤية وجهيهما وهما في الصبا في خيالي، وجهاهما الشبابيان ظلا بالنسبة إليَّ شيئًا مجردًا وبعيدًا.

استمرت الانطباعات الناعمة تتدفق فيَّ: محل لتصفيف الشعر بتمثال معدنيٍّ لمقص في فاترينة العرض، محل نظارات وفي نافذة العرض دببة تشرب الشاي وترتدي نظارات، محل جزارة وبه سلم خشبيٌّ يؤدي إلى معرض منحوت برقة عذبة. فيما بينها، كما لو كان موجودًا بينها بالصدفة، كانت هناك فاترينات غريبة: «كشك التنشين[1]» أول مكان أتعثر عند اسمه، محل بواجهة عرض مؤقتة وفوق الأبواب توجد شبكية يمكن من خلالها رؤية ظلال الأشياء التي سيُطلق عليها الرصاص. «**محل منتصف الليل**» لافتة على محل آخر، «**مفتوح 24 ساعة في أيام الأسبوع والعطلات الرسمية، مسموح بالشرائط المسجلة والأفلام**». وجدتُ هذا على أي حال لا يستحق

(1) كشك ألعاب لإطلاق النار على هدف متحرك.

الملاحظة، لأن حتى أكثر المدن تنظيمًا تحتوي -وبلا شك- على أشخاص غريبي الأطوار ومنعزلين. على العكس، ما أسرني كان شيئًا آخر: أن بجانب كل هذه المحلات، بجانب تجارة التجزئة التي من الواضح أنها مزدهرة، كان الأسفلت غير موجود عند مدخل شارع بالكاد يمكن رؤيته. كان الرصيف يرتفع إلى مكان ضائع تمامًا في الظلام كما لو كان قد خرج فم ضخم من باطن الأرض وابتلع الشارع بأكمله.

في نهاية صف من البيوت المتعاقبة وجدتُ بنسيون «تسوم فروليشن كوربِس»، الذي بدا من الخارج أنه نزل أكثر من مكان للمبيت. عند دخولي النزل استقبلتني رائحة قوية لبخار الحساء، كما لو كان لحم البقر قُطع إلى أجزاء وتركوه يغلي مع عظامه، وتحول هذا الحيوان بأكمله إلى هيئة بخار دافئ واضطجع متفرقًا في الهواء بين الناس. بالطبع بمجرد التنشق تشعر بالشبع. مرت نادلة من أمامي وهي تحمل صينية بها دستتان من أكواب البيرة، مشهد مبتذل بصورة مريعة. كنتُ سعيدة أن الاستقبال كان في زاوية ميتة من النزل، إذ كان يسود تلاحم ملموس بين الضيوف لم أره من قبل في أيٍّ من الفنادق التي زرتُها. كانت شدة الصوت الفائقة توضح أن الكل يتواصل مع بعضه بعضًا في أنحاء المكان.

كنتُ أقرع على الجرس الموضوع على طاولة الاستقبال برفق قدر ما أمكنني، لكي لا يلاحظني باقي النزلاء. وربما لم يكن يوجد فيَّ ما يجذب النظر، لأنه وببساطة لمدة عشر دقائق لم يأتِ أحد، وازداد بداخلي التخوف من الدخول إلى الغرفة المزدحمة. من خلال اللوح الزجاجيِّ الملبد بالبخار بإمكاني رؤية خيالات اللحم البشريِّ المتكدس، الأطراف الجسدية[1] المتدلية مثل نقانق حمراء منتفخة فوق الأطباق. ثم حدث اصطدام بين الحشود: مصافحات، وترنح، وخبط فوق الأكتاف.

صرخ أحدهم عبر الغرفة: «العمدة! أنت لم تُصلِّح بعد الطريق المؤدية للطريق السريعة، هل يحثك «فاستل فون آل هوه» من جديد على عمل شيء ما؟».

قهقه الجميع عند سماعهم هذا السؤال.

---

(1) تقصد الأذرع والأرجل.

صاح آخر قائلًا: «يجب أن يتولى هذا «هوتماخر[1] شلاف»، فهو يعرف كيفية إدارة المحلات».

وتحدث رجل سمين يرتدي بذلة وقبعة عالية فخمة بصوتٍ عالٍ.

رد العمدة بصوت بالكاد مسموع: «سأفعل ذلك قريبًا».

لمحتُ لفترة وجيزة ملابس الرجال عند زوايا الغرفة التي كانت غير مفهومة، أظن أنني رأيت سُترة من الصوف[2]، ولكن تحتها قمصان من الحرير وتلمع عند الأساور أزرار من الذهب. فقط البيرة هي الشيء الذي لا يثير الريبة، وكانت أكواب البيرة الفارغة متزاحمة بجانب قطعة الكُراع المأكول منها. كل شيء كان شنيعًا في هذا المشهد. للحظة فكرتُ في النوم في سيارتي. ولكن يجب أن تكون في الورشة غدًا على الأكثر. لحسن الحظ ظهرت في تلك اللحظة موظفة الاستقبال خلف طاولة التسجيل.

عند قرعي للجرس ظهرت امرأة رشيقة في الخمسين من عمرها، ترتدي -كما كنتُ أتوقع- بلوزة منقوشة بالأحمر والأخضر، مطرزة عند الصدر «فراو إيرنا» بحروف الرقعة[3]. لا وجود لشيء غريب في كل ما رأيتُه خلال الأيام القليلة في كل هذا التنوع الهائل، سوى أنها نظرتْ مرة واحدة فقط إلى وجهي ثم ثبتت نظرها إلى الأسفل. لا أعلم إذا كنتُ أستغرب للغاية المحادثات لليوم الأول لأني فقط ما زلتُ لا أعرف الطريقة التي يتحدثون بها هنا في جروس أينلاند، أو حتى إذا كنتُ أبالغ بشدة في عاداتهم وأسلوبهم. ولكن بدا لي في هذه الأثناء أن التصرف كان غريبًا بشكل لا يُعقل.

سألتُ: «لديكم غرفة فارغة؟».

قالت «فراو إيرنا» دون رفع بصرها نحوي: «كل الغرف محجوزة».

- الحارس الليليُّ هو من رشح لي هذا النزل.

---

(1) يعني اسمه صانع القبعات، من الممكن أن يكون لقبًا.

(2) Janker: سُترة تنتمي إلى الأزياء القديمة.

(3) Kurrentschrift: طريقة لكتابة الحروف بحيث تكون متشابكة وقد كانت تتطور بمرور الوقت بسبب تغير الأقلام المستخدمة في الكتابة.

قالت المرأة وكأنه شيءٌ بديهيٌ، كما لو كانت لم تقل عكس ذلك منذ قليل: «بالطبع لدينا غرفة فارغة، اسمكِ؟».

كانت أسارير وجهها الصامت قد انقلبت في هذه الأثناء لصورة ملغزة كما لو كانت تُخفي وجهًا متذللًا بين ملامحها.

قلتُ بارتباك: «روت شڤارتز، ولكن لدي مال نقديٌ، وأيضًا ليس بالكثير».

- لا مشكلة، ستدفعين عند الخروج. اسمي دوروتي، عندما تحتاجين شيئًا قولي لي.

نظرتُ إلى صدرها: «ولكن هنا مكتوب «فراو إيرنا»».

- لا، هذا اسم النزل.

- أليس هذا بنسيون «تسوم فروليشن كوربِس»؟

- بلى، بلى إنه هو.

على الرغم من أنني لم أفهم شيئًا، أخذتُ المناشف المقدمة لي، ثم بعدها أخيرًا تسلمتُ المفتاح. على السلم في الطابق الأول استعدتُ رباطة جأشي من جديد وواجهتُ نفسي لأول مرة بفكرة أنني الآن أخيرًا أصبحتُ في جروس أينلاند. لا يوجد في الغرفة سوى سرير مزدوج ريفيٍّ، القليل من الصلبان المُسمَّر فوقها المسيح، طاولة للحمام الصباحيّ، وحمام مغطى ببلاط منقوش بالورود، والغريب أنه لا وجود لكتاب مقدس، حتى ولا أي شيء مطبوع. النوافذ كانت صغيرة بشكل هزليٍّ بالمقارنة بباقي الغرفة، بالكاد أستطيع أن أتخيل الهروب منها في الحريق، ولكن لم يكن هذا مهمًا في حالة تعبي الحالية. كنتُ مشتاقة إلى حمام ساخن، خلعتُ ملابسي وفتحتُ الدش، كانت هذه هي اللحظة التي أرى فيها المياه البيضاء، التي بلا طعم، لأول مرة. عندما لم يُمسح لون الصبغة بعد خمس دقائق عندما لم يُمسح لون الصبغة، كما أنه لم يكن له رائحة غريبة، فقد ذهبتُ إلى الغرفة.

اضطجعتُ على السرير بعد الساعة الثامنة مساءً بقليل. كان ينسل من الأسفل الأصوات المكتومة لنزلاء البنسيون، التي كانت تجذبني إلى حالة من السبات. قبل أن أقبض على فكرة واضحة أخرى كنتُ قد تجردتُ من ملابسي حتى آخر قطعة ولففتُ جسدي العاري بالملاءة. وعندما أغلقتُ عيني

وكنتُ على وشك الدخول في النوم، رأيتُ فجأةَ الهوة السوداء وهي تنفتح في الأسفلت من جديد أمامي وظننتُ للحظة بأنني سأسقط ثم أخيرًا انجرفتُ بعيدًا وارتفعت.

***

كانت الهوة تخرج من عمق مجهول، من تشعب ما، ورطوبة ما. تتمدد مثل خيوط فطرية تحت الأرض، مطاردة كل ما تحت قمم الجبال والمستوطنات، وتتدفق فوق سطح الأرض إلى الأنابيب والشِّباك، وتدفع مثلما تزحف القارات، بالتربة المتوترة معًا مكونةً منحدرات جبلية تزفر حبيبات خشنة، وتحتها بُنِيَ التحلل الشبكي النابض والمتعفن عشًا. أصبحت القشرة العلوية من التربة[1] أكثر رقة ونعومة: رواسب متمطِّقة[2] منجرفة تحت المنازل والشوارع وتسترسل في الذوبان إلى أن تصبح سائلة، هذا السائل المتحقق في أصغر عمل دقيق للندى، ولرذاذ المطر، وليالي الخريف الرطبة، وخرطوم الحديقة الصغير. لا وجود لهطول المطر الكثيف، الذي يشبه نزيفًا داخليًّا مفاجئًا لشريان منتفخ حامٍ تحت المدينة وعلى وشك الانفجار.

كانت الهوة في الأساس غير قابلة للسيطرة عليها. كانت زفيرًا أبديًّا للمدينة، حيث القفص الصدري للمدينة يهبط إلى الضلوع، يخترقها ويزيح الأعضاء. كانت النعمة الوحيدة هي أن كل هذا يحدث ببطء أبديٍّ، أن القلق كان مقسمًا جيلًا بعد جيل، وكونها ذريعة استطاعوا صب الخرسانة في الفجوة الأرضية كل أسبوع، وأن يملكوا الوقت الكافي لاستبدال حواف النافذة المحطمة المستسلمة للسقوط، قبل مجيء الأطفال من المدرسة.

الوهدة[3] الأساسية: فجوة لا يقل عرضها عن خمسين مترًا وعمقها مئتا متر، فتحت فاها تحت السوق وعرَّضت سكون المدينة للخطر، حيث أساس المدينة لا يزال مضطجعًا فوق رغوة مسامية مثل قشرة الشكولاتة فوق رغوة اللبن. هذه الفجوة التي لم تكن موجودة صدفةً، ولكن طوال مئات السنين

---

(1) قشرة التربة العلوية هي أقدم مجتمع حي على وجه الأرض، وهي تحمي التربة، وتعيش فيها البكتيريا والفطريات.

(2) إحداث صوت باللسان والشفاه لاستطابة الطعام.

(3) هوة في الأرض.

من سوء الإدارة كانت تُحفر في قلب المدينة، أصبح لديها بمرور الوقت مدخلٌ رئيسيٌ مُسمَّرٌ ومحميٌ مباشرةً وراء الكنيسة، ولكن أيضًا سبعة أو ثمانية مداخل جانبية، في المدرسة، في الحديقة، وبجانب أطلال القلعة التي تعطي دليلًا على أنه لقرون وقرون كانت تُحفر أعمق وأعمق وتُفرَّغ. كل عمل جانبيٍّ ومواز للهدم، والاستكشافات المنظمة سرًّا، والانخراط التجاري في الحرب الخاطفة[1] جعل حوائط الكهف على مر القرون رقيقة للغاية وغير مستقرة، لدرجة أنه سهلٌ للطبيعة أن تغلق قبضتها حول هذا البناء. على العكس لم يلاحظ أحدٌ أيًا من تلك التغيرات في أثناء مرور الأيام، كل الحيوية واليقظة المحمومة وجدت نهايتها هناك في السكون المطلق التكتوني كما في الظلمة الدامسة. فُقئت أعين الأحصنة[2]، التي كانت قبل مئتَي عام تجر تحت مشقة مستمرة الجير من الصخور، الحصان الذي يرى، لن يهبط أبدًا بإرادته في الظلام. عشرون عامًا أو أكثر، هذا يعني حياة حصان كاملة، اضطرت الحيوانات إلى الاحتمال تحت هذه الظروف، لكي تستخدم ناقلاتٍ للمعادن.

لم يكن صعبًا اكتشاف تاريخ الاستغلال البشع للأرض. يقولون: كل شيء متاح للاستخدام.

في عام 1890 بدأ رجل أعمال كبير صاحب مصانع يُدعى «فينفريد كنايس» باستخراج الحجر الجيريّ، الذي كان معروفًا بالفعل بوجوده منذ العصور الوسطى، وفي أثناء ذلك انتشرت إشاعة أسطورية عن اكتشاف الذهب تعلَّقت بالمشروع. لذا جهَّز نفسه بكتيبة من عمال مستأجرين من «بورغنلاند[3]» وغرب المجر، الذين كانوا يُنقَلون بالقطار إلى «جلوجنتزِ[4]» كل يوم اثنين، ومنها تسير قافلة العمال مسافة قدرها ثلاثة وعشرون

(1) مفهوم عسكري يستخدم في العمليات الهجومية، ويعتمد على عنصر المفاجأة والهجوم السريع لمنع العدو من الصمود، وقد استخدم هذا التكنيك في الحرب العالمية الثانية لغزو فرنسا.

(2) لكي لا يتشتت انتباه الأحصنة أو تتعرض للتوتر تُغطى دومًا عيونها لأن مستوى رؤيتها يشمل مساحة عالية.

(3) ولاية تقع في شرق النمسا.

(4) مدينة في النمسا السفلى.

كيلومترًا إلى جروس أينلاند من الساعة الرابعة صباحًا حتى الساعة التاسعة صباحًا. في هذه الساعات تنتفخ الشوارع بالناس، وتعود الحياة داخل البيوت المستأجرة المقسمة على قطع أراضٍ صغيرة من خلال القافلة البشرية تلك، ثم يُعفى عنهم في أيام الجمعة عند الساعة التاسعة مساءً، وبحلول عطلة نهاية الأسبوع تصبح القرية مدينة للأشباح. استُخرجت أطنان وأطنان من الحجر الجيريّ من الجبل وضُخَّ في الشريان الأبهر[1] للجهاز العصبيّ المشترك بين «مملكة المجر والإمبراطورية النمساوية»، حيث كان ضروريًّا لصناعة الحديد المزدهرة في «براغ»، «كراكوف» و«لفيف».

لم يحدث شيء بين الحربين، وهذا يعني، بالطبع حدوث كل شيء، لأنه وبعد التوقف الرسميّ للعمل في المنجم بسبب البيع المتدفق[2]، بدأ السكان الذين في حالة تأهب في الانغماس من تلقاء أنفسهم في الأعمال المرتجلة. مارست الهوة عنفًا ساحرًا، شهوة جماعية نحو اختراق غشاء بكارة الاقتصاد، الذي فصل البلد عن سكانها. في وقتٍ قليل خلال هذه الأيام أُنشئ مكانٌ ترفيهيٌّ، كازينو، ثم بعد سنة من ذلك بيت للدعارة.

لكن كانت هذه الفجوة العميقة مثيرة للشهوة سرًّا، هناك دخلت مجموعة من الشباب في الفجوات الأرضية الجانبية كونها اختبارًا للشجاعة، سارت عائلة مفتقرة وراء حدسهم الذي مثل حكة متواصلة في الجسد، بأن هناك في قاع البطن الحجريّ يوجد ذهب ينتظر استكشافه، شوهد رجال هَرِمون يسيرون في أثناء نومهم عند مطلع الفجر بجانب نفق المنجم ويختفون بلا أثر.

---

(1) أكبر شريان في جسم الإنسان، ويوزع الدم المؤكسد إلى جميع أنحاء الجسم.

(2) الكاتبة ذكرت لفظ Spontanverkauf، ولكن لا وجود للمصطلح في عمليات البيع، بل في عمليات الشراء Spontankauf وهذا يعني أن المستهلك يشتري المنتجات دون تخطيط سابق، ويستغل تجار التجزئة هذه الدوافع التي ترتبط بالإشباع الفوري لدى المستهلك.

في عام 1939 استولى الفيرماخت[1] على الفجوات الأرضية المحفورة بعمق أربعين مترًا في بعض المناطق من الجبل، مكان غير مرئيٌ ولا تؤثر فيه القنابل لإنتاج الذخيرة. وأُنشئ مكتب فرعيٌ لمعسكر اعتقال «ماوتهاوزن[2]»، والآن أصبح أكثر الصور طبيعية، كما كان منذ خمسين عامًا مع العمال الهنجاريين، أن نرى الرجال والنساء الذين بالكاد لديهم ما يؤكل يسيرون وسط المدينة، قادمين من أكشاكهم الخشبية الموجودة وراء الغابات مُساقين إلى نفق المنجم.

عُولِج كل شيء ووُضع له إطار، ثم جُمع في لوحة معلومات حُفرت في الأرض، يوجد نصب تذكاريٌ مخصص بدقة للذكرى في حيز نصف قطر دائرة، في مداره البيضاويّ يمكن زرع دستتين من ورود الغلاديلاس[3]. لدى الفجوة أيضًا سيرة ذاتية واضحة المعالم تمامًا، وكل شخص قد تورع عن المساس بها، فقط هذه البلد المسامية بأكملها التي تشبه قرص العسل مهددة بالانهيار نتيجة هذه اللمسة.

(1) اسم القوات المسلحة الموحدة لألمانيا، من عام 1935 إلى عام 1945 وتشمل كلًا من الجيش والبحرية وسلاح الجو.

(2) أكبر معسكر اعتقال نازي في النمسا.

(3) ويعني اسمها زهرة البهجة وتسمى أيضًا بزهرة السيف، لأن غصنها الواحد يحوي على 6-8 براعم وتزهر في اتجاه واحد.

5

في اليوم التالي لم يحتج لعشر دقائق من الفحص الدقيق لكي يخبرني الميكانيكي أن من المستحيل أن يُنهي تصليح العربة سريعًا. وبسبب الوقت لإنجاز أجزاء العربة كما الوقت لتقييم عمليات ما لم تكن مفهومة بالنسبة إليَّ، وجب عليَّ الحجز أسبوعًا آخر في فندق «تسوم فروليشن كوربِس»، وهو ما جلب السرور لقلبي. اشتريتُ على الفور مجففًا للشعر، كراريس ملاحظات وأقلام جاف، بُرنس حمام وأشياء أخرى ضرورية، توحي وكأني سأستقر هنا لمدة عام. شيء ما في جروس أينلاند دعاني للبقاء، بعد الإنجاز الجبار لإيجاد البلدة، شعرتُ برغبة جامحة للبقاء لعدة أيام أخرى. التصور بأنني ما زال بإمكاني تناول الطعام في النزل مما سيوفر لي شراء سخان كهربائيٍّ والتعرف على بعضٍ من السكان الأصليين، قد جلب لي سرورًا لأول مرة في حياتي.

عندما غادرتُ ورشة تصليح السيارات جلستُ في مقهى كان بجانب كنيسة صغيرة على بُعد مسافة قصيرة من الساحة الرئيسية. عُلِّق على المقهى «كافيه تسوم أينتوبف[1]» هذا الاسم الذي بدا منحرفًا قليلًا. كانت واجهة الكنيسة

---

(1) Eintopf تعني اليخنة أو (الدمعة) حساء يحتوي على الكثير من الخضار واللحوم. ولكن هذا المصطلح لم يعد مجرد وصف لنوع من الأكل، بل ارتبط بفترة النازية، حيث ظهر هذا المصطلح في هذا الوقت كونه طعامًا يجب على السكان أن يلتزموا بأكله توفيرًا للإمكانات المادية حيث سمي «بطبق التوفير الألماني»، وعُملت بروباجندا كاملة لهذا الطبق الألماني، لأن الطبق يضم الكثير من أنواع الطعام، فشُبِّه في هذا الوقت بالمجتمع الألماني الذي يجب أن يتكاتف معًا في أوقات النضال. والآن توجد محاولة لتحسين صورة اللفظ فبدلًا من إساءة تفسيرها على أنها كلمة نازية، يجب أن يُنظر إليه بأنه يشير إلى زمن الحرب العالمية الأولى، وإلى ضحايا الحرب العالمية الثانية الذين ظلوا دون أجر.

مرئية بوضوح من النافذة، تهاوت متشابكة شلالات من اللبلاب وتجمعت في إطار من النقش المعدنيِّ، لهذا السبب كان على المشاهدين الجهلاء أن يخمنوا طويلًا، إذا كانت الكنيسة في «كلوني[1]» أم «أوكسفورد». أمام تلك الكواليس كنتُ غارقة في الجرائد المحلية.

تعرَّفت في هذا اليوم الأول على فرديناند، الذي أصبح لاحقًا واحدًا من أصدقائي المقربين في هذا المكان، دخل في هذه اللحظة من الباب. يلهث بشدة تحت ثقل بطنه الضخم، وارتقى سُلمًا ليضع ملصقًا لإعلان، قبل أن ينزل إلى الأرض غارقًا في عرقه. كل الطاولات في المقهى كانت مشغولة، وبعد أن نظر لبرهة طويلة حوله في المكان، أتى إليَّ أخيرًا. لم أكن قد أكملت خمس صفحات من الجريدة عندما جلست حزمة من البلل، واللحم، والهواء المتسرب بإيقاع، على طاولتي بلا تحية.

قال كما لو كنا قد صمتنا منذ قليل في أثناء المحادثة: «سأُنهي الباقي غدًا. للأسف لا أستطيع حمل أشياء ثقيلة، أعاني من فتقٍ سُريٍّ».

عند هذا الكلام أشار إلى بطنه الذي كان به انتفاخ كروي الشكل، الذي ولا بد بسبب ضمادة ما.

- يجب أن نصب هذا الأسبوع خمسة آلاف كيلو في الحفرة، وإلا ستهبط ساحة السوق بمقدار متر بحلول شهر مارس. الأسبوع الفائت بعد المطر هبطت المدينة بمقدار قدم.

قلتُ بنبرة هادئة: «فهمتُ. والآن... من الأفضل عدم حمل أشياء ثقيلة».

على الرغم من أنني اجتهدتُ في الحفاظ على هدوئي، ولكن عندما ذكر الحفرة ساورتني إثارة لحظية، رغبة مُلحة لاكتشاف المزيد عن هذا الموضوع. سألتُ: «هل يساعد الشعب هنا في هذا الشأن أم إنه يخص المسؤولين؟».

أجاب ورفع كتفيه الضخمتين، وارتفعت معه فانلته فوق سُرته: «حسنًا، في واقع الأمر لا يفعل أحد شيئًا بخصوص هذا الأمر، إلى الآن».

كان رجلًا في الأربعين من عمره يرتدي قبعة مسطحة زرقاء فوق رأسه، وجسده المستدير للغاية يملأ ملابسه، لدرجة أنني لم أجرؤ على تخيُّل كيف

(1) مدينة في وسط فرنسا، كانت مركزًا ثقافيًا ودينيًا مهمًا في العصور الوسطى.

لا تزال باقي الأعضاء تجد مكانًا بداخل جسده بجانب معدته وأمعائه. لم يكن مفاجئًا حقًّا أن يطلب بيرة في الساعة العاشرة صباحًا، ومع ذلك كان متوقعًا بأي سرعة سيصب فيها بيرته في بطنه. تناول الكؤوس مثل لاعب في مسابقة الحواجز، دون الحاجة إلى التوقف في أثناء انطلاقه في مسابقته. أكثر ما كان يدهشني في أثناء ذلك أنني استلطفتُه على الفور.

سألتُ بحذر: «كيف إذن يمكن للسوق أن تهبط؟».

- الحفرة. (كرر وكأنها معلومة بديهية تمامًا) إنها تتسع. كنا نظن في البداية أنها كانت سيئة للغاية فقط في المكان الواقع بين الكنيسة والجمعية الثقافية، أي من عشرين سنة. ولكن الآن حتى مبنى البلدية به شقوق، في كل مكان به فجوات، في الطلاء على المبنى، في الباركيه، وكل هذه التجديدات مجرد محاولات للتجميل. (أخذ كومة من ثلاث أو أربع من الورق المقوى وقطعها بدقة إلى نصفين) والآن صببنا مئات الأطنان من الخرسانة، ولكن هذه الهوة تحت جروس أينلاند مجوفة بأكملها، هل يمكنك تخيُّل هذا؟ لقد قلتُ دومًا: هذا الشيء بلا قعر. في وقتٍ ما سوف يخرج منها «بيرجر هانس».

- من هو «بيرجر هانس»؟

في الحال أجاب فرديناند: «لا أحد. الحفرة ستزداد اتساعًا كل يوم على أي حال».

كررتُ هامسةً حتى لا ينقطع تدفُّق المعلومات من فمه: «حفرة تحت البلدة».

- على أي حال كنا نرمي منذ سنوات بداخلها كل الطوب والنفايات. ويجب أن يتم كل هذا يدويًا ويخلق بهذا الكثير من الغبار بشكل مفزع. وأعاني الآن من مشكلات في الظهر بسبب هذا، أتفهمين، كما الانسداد الرئوي المزمن (COPD) منذ خمس سنوات. ولا يدفع التأمين الصحيُّ مقابل العلاج، ولكن ما دمتُ أُجري جولة كل يوم في البلدة وأكتب تقريرًا، فإن الكونتيسة تدفع لي مقابل هذا.

سألتُ: «أي كونتيسة؟».

- يا لها من كونتيسة! حسنًا، مَن هي. إنها الوحيدة. كونتيستنا. (كان يكح بشدة بسبب الضحك) على أي حال فأنا لدي شعائري الخاصة مع هذه الحفرة، كما لدى كل شخص أيضًا طقوسه الخاصة هنا. عندما يوجد شيء يجعلني مهمومًا، أكتبه فوق ورقة وأضع فوقها قطرة دم ثم أُلقي بها في الحفرة. (قال وغمز بعينيه) إنه لجلب الحظ.

سرعان ما علمتُ أن فرديناند كان في الأصل سائق سيارات نقل، «مدربًا ومعلقًا» على حد تعبيره، وبسبب الأوضاع السيئة للشوارع لم يعد يقود عربات النقل لمدة تسع سنوات بالتمام والكمال. كما كنتُ لاحظتُ البارحة بشكل جليٍّ تمامًا عدم وجود شارع سليم يؤدي إلى خارج البلدة، فقط طريق سريعة وحيدة التي نتيجةً للتصميم السيئ المأسوي مجرد دائرة، أي أن مخرج البلدة يؤدي إلى مدخل البلدة مباشرة.

وبدلًا من قيادة عربات النقل الثقيل، بعد أن اضطر إلى العودة إلى منزل أمه من جديد، فتح صالونًا للحلاقة، الذي كان «أيضًا مخصصًا للسيدات بالتحديد». هكذا أخبرني: «هناك أحلق شعر كل الناس بيدي من الساعة الثانية مساءً وحتى الساعة الخامسة مساءً مقابل أربعة يورو. أربعة! ثمانية يورو مقابل شخصين. اثنا عشر يورو مقابل ثلاثة أشخاص وهكذا».

بجانب جولاته كان هذا ما يؤمِّن رزقه كما مصاريف علاج الانسداد الرئوي المزمن الذي يذهب لأجله مرتين سنويًّا. ومع ذلك منعتُ نفسي في الحال عن وعده بزيارة، على الرغم من أنه كان ينتظر مني هذا بوضوح. كان يعاني من رعشة ملحوظة لدرجة أنه بالتأكيد كان على كل شخص أن يخاف على حياته في أثناء الحلاقة.

- بالطبع يستطيع أي شخص أن يحلق لنفسه، ولكن يكره الكثيرون هذه الفكرة حيثما يمكنهم الاستعانة بمصادر خارجية لهذه الأعمال. البشر يرغبون ولا بد في التخلي عن بعض من مسؤولياتهم، هذا واضح تمامًا، نحن نعيش في حقبة من سمو الجسد.

بالنسبة إلى شخص بروليتاري مرتبك مرتدٍ سُترة جلدية وبداخلها شال كرة القدم وحول رقبته سلسلة صدئة من النحاس موضوعة بها المفاتيح، فهكذا عبر فرديناند عن نفسه بتفرد مدهش. لكن منذ فترة طويلة كان لدي

رغبة جامحة في رؤية الحفرة، وكلما كان يمر الوقت، قلَّت مقدرتي على مقاومة هذا الضغط، لذا سرعان ما دفعت الحساب.

سألتُ متظاهرةً بنية كاذبة: «هل تعرف عن مكان يمكنني التمشية فيه قليلًا؟».

قال فرديناند: «في تلك الناحية تقبع حدود البلدة. هناك تستطيعين التجول داخل البلدة لعشرة أو عشرين كيلومترًا. ربما نرى بعضنا بعضًا قريبًا في صالون الحلاقة».

شكرتُه وتركتُه مع زجاجة البيرة الثالثة.

قبل أن أتجه إلى الطبيعة كما اقترح فرديناند كنتُ قد قررتُ أن أتمشى متفحصةً كل زاوية في المبنى المركزيِّ المُغلَّف بالسور. كان وسط المدينة بأكمله متفرقًا مثل كعكة مقسمة إلى أربعة أرباع مفصولة عن بعضها بعضًا من خلال الأسوار. إذن توجد أربعة أرباع، التي كانت مختلفة عن بعضها بعضًا لدرجة واضحة للغاية للعين والآن أستكشفها مع اتجاه عقارب الساعة. كانت جروس أينلاند ذات جمال غامض، شبيهة بكواليس فيلم من العصور الوسطى، حيث تتجلى ذروة الحرفية على الواجهات المثالية، التي لا تشوبها شائبة. في كل مكان كانت الناس تجلس في الشوارع المرصوفة بالحجر، يتحدثون بسعادة، ويشربون الشبرتزر[1]، على الرغم من برودة الخريف. لا يمكن الهرب من المشاهد الريفية الرقيقة والجذابة. بالطبع كان للمحافظين[2] وقْع سيئ في روحي، كما يحدث دائمًا، الكثير من التنظيم الاجتماعيِّ كان يشبه الدعاية الانتخابية: عائلات تجلس لتناول الغداء، وطبق المياه تحت الطاولة لكلبهم، أزواج صغار في السن، لغة أجسادهم تبدو أنها لا تكف عن القول: «لا تقلق، نحن لا نزال في فترة الخطوبة». ولكن ها قد وصلتُ إلى منتصف الساحة الرئيسية بالضبط.

في ضوء النهار لاحظتُ أخيرًا ما لم أستطع رؤيته في غسق البارحة: من عند الحواف كانت السوق بأكملها قد هبطت بمقدار متر في شكلٍ بيضاويٍّ

---

(1) Spritzer : مشروب بارد يُصنع من النبيذ الأبيض والمياه الغازية.

(2) أي أصحاب الأيدولوجية المحافظة، والالتزام بالقيم التقليدية.

ووصلت أخيرًا إلى أدنى نقطة لها تجاه المركز بشكل مقعر. ولا يزال هناك الأسوأ: وراء سور المدينة يمكن رؤية برج الكنيسة، الذي كان متمايلًا بزاوية خَطِرة ناحية اليمين. *الحفرة*، فكرتُ في حالة من الإثارة.

الفسيفساء[1]، التي استطعتُ الآن رؤيتها، كانت مع ذلك لا تزال سليمة. وسرعان ما يُفهم أن الخطر لا يحدق بأحد من خلال السكون، لأن هنا توجد عملية مستمرة لعشرات السنين، ولكن الحذر الذي منع أحدهم من السير بثقة فوق الجسر الزجاجيّ، هو نفسه الذي دفعني بعنف بعيدًا عن هذه الحفرة. لم أرغب في عبور هذا الشيء، شعرتُ بالاشمئزاز، بدا أن شيئًا تحت الأرض قد سحبه للأسفل بشفتيه الترابيتين اللتين تحتكان وتعتصران قلب المنازل بعضلتيهما العاصرتين[2]. في حقيقة الأمر لم يمشِ أحد من المارين في وسط هذا المكان، كل شخص كان يأخذ الطريق على الحافة مدفوعًا بحسه الطبيعيّ. قرأتُ لافتة بها معلومات، كانت موضوعة على ناصية المكان، ولكن فجأةً بدأت الأحرف تتداخل وتمتزج أمام عيني.

هنا يوجد -عندما ينظر إليها من علو- فسيفساء أرضية يمكن أن تثير الإعجاب تُظهِر صورة لرئيس الملائكة «ميخائيل» في أثناء هبوطه في الهاوية وهو يخنق الثعبان الشيطانيّ ويقذف به بسيفه إلى المطهر. وهي نسخة من الأصل الفنيّ الذي كان موجودًا في السوق القديمة، والذي أُعيد ترميمه في عام 1946 ضمن نطاق التوسع وفقًا للصور. لأن الفنان والمُرمم للوحة الفسيفساء الأصلية «جورج شبرينجنسفيلد» قد استُشهد في الحرب، أنشأ تلميذه «كارل فايجاند» النسخة الجديدة، التي صُنعت بمهارة فنية أقل من الأصلية وبسبب المواد الرخيصة فهي لا تستطيع التصدي للطقس بصورة جيدة، لهذا السبب يفسر أولئك الذين ليس لديهم أي معرفة تخص المكان

(1) نوع من أنواع الفن، حيث تُستخدم قطع صغيرة من الحجارة أو الزجاج لزخرفة وتزيين الفراغات الأرضية والجدارية أو لصنع لوحة فنية.

(2) العضلة العاصرة هي عضلة أسطوانية تحافظ على تضييق ممرات الجسم وترتخي عند الحاجة، وتوجد في أجزاء كثيرة من الجسم ومنها الفم.

بأن الثعبان الشيطانيّ هو كلب بُنيٍّ غامق قصير القوائم، ورئيس الملائكة بقميصه الحديديّ الأخضر[1] *يرونه امرأة ببلوزة قصيرة.*

في وضح النهار انسل بداخلي شعور بالوحشة، الأشخاص القليلون الذين كانوا في طريقهم: ربات بيوت وموصلو الجرائد الشباب، كانوا يلقون بظلال عميقة، التي بدت لي غير ملائمة لحالة الشمس. القصر هو ما لفت نظري، كان منسابًا في دوامة رمادية. ومع ذلك وجدتُ فيه الكثير من التفاصيل التي تعثرتُ بها، في الجزء العلويّ، على واحدة من الجملون[2] الثلاث، بدأ أحدهم بوضع أشكال. حصان نابليون القوي في المنتصف، وعلى يمينه ويساره اثنان من الملائكة الصغار متوجان على قمة السطح. بدا البرج لامعًا منتصبًا بشموخ في المنتصف كما لو كان قد انتُصر في معركة كانت خاسرة.

في لحظة مضيئة أدركتُ أنني وقفتُ لأكثر من ساعتين، لذا عدتُ إلى الطريق على الأرض الطرية مثل الشمع وذهبتُ إلى النزل، وطحنتُ آخر نصف قرص معي من «الأوكسيكودون» وتنشقتُه بعمق عبر أنفي. زيِّقت الطاولات معًا متأوهةً في زواياها القائمة، وانتصب عمودي الفقري من جديد، صار العالم مسطحًا وناعمًا واضطجعتُ فوق الأرض متصببة عرقًا.

نظرتُ في حقيبة أدوات التجميل التي كنتُ قد أخرجتُ منها قرص الدواء، بعد أسبوع من هذه السفرية وصلتُ إلى نهاية مخزوني ولم يكن لدي أي فكرة من أين يجب عليَّ الحصول على الإمدادات. جررتُ جسدي إلى السرير للحظة، حتى تأكدتُ أنني في الدورة الدموية لاضطراب التمثيل الغذائيّ الموروث، ثم نهضتُ وهبطتُ السلم وحييتُ صاحبة النزل وكأن شيئًا لم يحدث.

استأنفتُ سيري برصانة أكثر. وعندما اجتزتُ البوابة الجنوبية رأيتُ لافتة تعلن عن مقبرة في هذا الاتجاه فتبعتُها مدفوعةً بأثر حكمة ما مفاجئة. على أي حال يجب عليَّ زيارة المقبرة ورؤية القبر والاستعداد للجنازة. هذا الجزء من البلدة يناسب أكثر بكثير تلك الصورة العامة للمنطقة السكانية التي تخص

---

(1) درع يمكن ارتداؤه.

(2) جملون هو الجزء العلوي من المثلث. وهو شكل من أشكال الأسقف.

المواطنين. كان الشارع محاطًا بأشجار الكستناء المشذبة بعناية وتدفقت الأسر المثالية البريئة من كل الجوانب من خلف الأسوار الخشبية المحيطة بقطع الأراضي الخاصة بهم. كنتُ قد سِرتُ بالكاد لمدة خمس دقائق، يؤدي ممشى شاق على هضبة مُسيَّجة رابضة مثل قلعة في محجر مجوف إلى المقبرة. وتوجد كنيسة صغيرة بنوافذ زجاجية ملونة تشبه الماندالا[1]، وعلى اليسار كان محل الزهور -الذي لا بد من وجوده- رابضًا بخجل على بُعد بضعة أمتار، لكي يُخفي نشر الحداد غير المناسب للوهلة الأولى.

شعرتُ بشيء غامض، أنني يجب عليَّ الآن، عندما وصل هذا إلى أقصى الحدود، أن أكون في مواجهة مع الموت، وأنه سيحدث اشتباك عنيف بيني وبين مشاعري، التي إلى الآن لم أواجهها في هذه البلدة. وقفتُ بين شواهد القبور بثبات تام، في حالة من البعد الأبديِّ عن آلاف من الموتى الذين يضطجعون هنا جنبًا إلى جنب مع والديَّ.

مشيتُ بخطوات بطيئة طوال صفوف القبور باحثةً عن مثوى أجدادي، لكن اتضح أنه كان أصعب من توقعي، إذ كان فوق كل شاهد عشرة أسماء على الأقل. عادةً كان المتوفون يحملون اسم العائلة نفسه وقد وُضعوا بعناية في مجموعة عائلية، ولكن في بعض الأوقات يختلطون بعشوائية وينفصلون عن بعضهم بعضًا بخط فاصل، مكدسين بشكلٍ إلزاميٍّ على حسب تاريخ وفاتهم. ما يصل إلى عشرين شاهدًا من الأحجار الطويلة المستوية والمنصوبة على ارتفاع، ومن هذه يُقرأ، أن ما وحَّد كل الموتى هو موتهم الذي حدث في تتابع سريع. تخيلتُ كيف أن هذه القبور تمتد إلى عمق عشرين مترًا في التربة، كيف اختُرق سطح الأرض من خلال تجاويف متكدسة حيث فيها يستريح الآن جنبًا إلى جنب غُرباء قد عاشوا لفترة ما.

سرعان ما رقصت أسماؤهم أمام عينيَّ. أولًا حل الليل، ثم صار من الصعب الحفاظ على تركيزي. «شڤارتز» أو «شالا»، «شڤارتز» أو «شالا»، كنتُ أبحث وكأني ممسوسة، ولكن كلما تأخر الوقت، أصبح من المستحيل إيجادهم. اضطررتُ إلى الانحناء على شواهد القبور لكي يظل في مقدوري قراءة

(1) مجموعة من الرموز استُعملت من قبل الهندوسيين والبوذيين للتعبير عن صورة الكون الميتافيزيقي.

الأحرف المنقوشة بخط صغير. كان شيءٌ غير مريح عندما سمعتُ خطوات شخص يمشي على طول الممر المفروش بالحصى وقفزتُ إلى الخلف بعيدًا عن زهور الجربارة، ولكن الرجل حدثني من بعيد.

- عمن تبحثين؟

- قبر عائلتي. أجدادي، «بيترا» و«جوزيف»، و«شالا»، بالتحديد.

ضربتُ بمقدمة حذائي في الحصى، متظاهرةً بأنني لم أكن واقفة على موقع القبر.

صاح قائلًا: «تعالي معي».

نظفتُ ركبتي من التراب. وعندما اقتربتُ منه لم أستطع معرفة عمره، بدت الشمس وكأنها التُهمت من قِبل الجبال القريبة.

- أنا من المشتل هناك، وأعمل أيضًا حفَّارًا للقبور. ما اسمكِ؟

- عمل جانبي كونك حفَّار قبور؟ روت شفارتز. (قلتُ بذهنٍ شارد) وأنتَ؟

أجاب: «لا يهم».

لم أتفاجأ ولا لثانية واحدة من هذا الرد، لأنه كان فعلًا لا يهم تمامًا. قادني أمام قبر مزروع بشكل جميل مع مونوليت أسود. في منتصفه انبثق قضيب حديديٌّ مع اثنين من الملائكة الصغار بجسدين سمينين يرقصان حول فراشة، بشاعة لا مثيل لها.

قال: «هنا، أهذا هو القبر، أليس كذلك؟ ليوبولد شفارتز. بيترا وجوزيف شفارتز. هاينتز شالا، راينهارد ماركوفيتش، بيتر وليزا شفارتز. ريشارد شالا، إرنست شالا».

قلتُ مؤكدةً كلامه على الرغم من أن سبعة أسماء لم تعنِ لي شيئًا على الإطلاق: «نعم، إنه هو».

- إذن أنتِ الحفيدة؟ حسنًا جيد أنك هنا. لقد قلتُ لوالديكِ إننا يجب أن نزيل اللبلاب قريبًا.

- لا، لقد خلطتَ بيني وبين شخص آخر، منذ سنوات لم يكن والداي هنا. والداي هما... كانا[1]، أعتذر. إليزابيت وإريش شفارتز.

- ماذا تقصدين بـ «كانا»؟

قلتُ كما لو كنتُ آمل في توضيح سوء تفاهم غير مريح: «إنهما قد ماتا. لهذا السبب أنا هنا».

- لا، هذا فظيع. ماذا حدث؟ لقد كانا في أحسن حال عندما كانا ينظمان القبر الأسبوع الماضي.

وسحب طاقيته من فوق رأسه وقطب حاجبيه في المنتصف على هيئة سقف مدبب، وهو ما رأيته فقط لأنه اقترب بصورة خطيرة من وجهي على نحو مفاجئ. فكرتُ: *إنه لشيء مثير للسخرية، الطريقة المثالية التي تمرَّن بها ليعبر بوجهه وجسده، من المحتمل أنه يتلقى مثل هذه الأخبار يوميًا.*

- ماذا تقصد بـ «الأسبوع الماضي»؟

أُصبتُ بالشلل، ولكن الرجفة مما قد عايشتُه اقتحمتني كعزلة تشبه القطن، هكذا، كما لو كان المستحيل يضطجع بيني وبين ما يجب تنفيذه. فكرتُ: *الآن لم يكن الوقت المناسب لهذا*، ودفعتُ بأفكاري بعيدًا.

- هل أنتَ متأكد بأن كليهما كانا هنا؟

- تقريبًا كل خميس، طوال المدة التي عملتُ بها. صحيح كانت زيارة عابرة، ولكن حقًا كان القبر جميلًا على الدوام، مُعتنًى به بشكل دائم في كل فصول السنة. من هذا يعرف الواحد الأشخاص المخلصين، من احترام الموتى. بالمناسبة خالص التعازي. ألم يحكِ والداكِ إذن عن الزيارات؟

قلتُ: «لم نكن نرى بعضنا بعضًا كثيرًا».

- خسارة. أتعيشين إذن بعيدًا.

قلتُ شاردة الذهن: «لا. فقط كان لدينا خلافاتنا».

- ربما فقط لم تكن هناك فرصة لذكر زيارتهما.

---

(1) استخدمت أولًا الفعل في المضارع، ثم صححت كلامها واستخدمت الفعل في الماضي دلالةً على أنهما لم يعد لهما وجود.

قلتُ: «ربما».

- كنتُ أعرف بالفعل جدتك وجدك، كنتُ أصغر منهما بسنتين في المدرسة الابتدائية. كانا طوال حياتهما لا يفصل بينهما شيء. تعمَّدا معًا عندما كانا بعمر أسبوعين، ومنذ هذا الوقت أصبحا صديقين مقربَين. ثم ربى جوزيف والدكِ كما لو كان ابنه، عندما مات ليو. حسنًا، وتستمر القصة القديمة. عندما تحتاجين مساعدة في موضوع الدفن، فأنا هنا دائمًا.

قلتُ، ومرة واحدة رأيتُ من الضوء المنبعث من الكنيسة أن الرجل كان كهلًا: «نعم أحتاج. سأمُر غدًا مرة أخرى. (قلتُ ببطء وارتديتُ كبوت المعطف) تصبح على خير».

كانت التربة تُصدر صوتًا تحت خطواتي، كان مستحيلًا معرفة ما إذا كنتُ أسير فوق قبور أم ممشى. كانت الأرضية تضغط على نعليَّ وشعرتُ بحركة ناعمة تحتهما وفجأةً ظننتُ أنني قبضتُ على مسارات نمل، ديدان الخرطونيات وخنافس في أثناء وجبة الأجساد المدفونة حديثًا. مرة أو اثنتين تعثرتُ في الطريق واستطعتُ بالكاد أن ألحق نفسي قبل أن أغطس في الأرض الطازجة مثل حمام سباحة مظلم وناعم.



6

منذ يومي الأول في جروس أينلاند وقدرتي على العمل قد تفجرت. في اليوم الثاني بعد وجبة فطور دسمة جلستُ على المكتب ولاحظتُ كيف أن كل شيء قد حاول عبثًا في السنوات الماضية أن يشق طريقًا، قد سال من نفسه فوق الورق. اشتغلتُ لمدة عشر أو اثنتي عشرة ساعة، بينما نسيتُ عَدَّ دقات ناقوس برج الكنيسة القريب، حتى حل الظلام.

لا يزال يتبقى الكثير قبل أن يكون لدي تصور واضح عن كيفية بدء الاستعدادات لتشييع الجنازة، ولكنني وجدتُ طريقة أتصرف بها[1] بأقصى درجة من الدقة مثل آلية عمل الساعة. نظام كنتُ أتوق له طوال حياتي عبثًا: صباحًا بعد ليل هادئ، سماوي خالٍ من أي اضطرابات نهضتُ في الساعة السادسة، وجدتُ طريقي إلى الغرفة الدافئة والمضاءة دائمًا بشكل جميل، حيث هناك صاحبة النزل إيرنا التي سرعان ما كنَّت لي حُبًّا جمًّا، تضع لي سلطانية الطعام وبها عصيدة دقيق الشوفان الساخنة بالمكسرات والتفاح والزبيب. بعد ما أكلتُ جريتُ نحو 45 دقيقة إلى قلعة «كاستل» التي تبعد بالضبط أربعة كيلومترات وعدتُ من جديد، حيث كنتُ أنعش نفسي بانتظام في بركة المياه المخصصة للإطفاء عندما كان الطقس جافًا. عند الساعة الثامنة جلستُ على مكتبي، كنتُ نشيطة ومنتعشة من البرودة وعملتُ على مسوداتي التي ظننتُ في حالة من الوهم الجريء أنني أستطيع التعرف فيها على الملامح الأخيرة لأطروحة الدكتوراه خاصتي. كنتُ مغيبة عما حولي مشغولة بالكامل بين أكوام الورق واللابتوب وكتب الفيزياء التي قد أحضرتُها

(1) في الأصل باللاتينية modus operandi وتشير إلى الطريقة التي يتصرف بها المرء، ويستخدم المصطلح في سياق الجريمة، وتشير إلى طريقة عمل المجرم.

معي، وكنتُ قد اتفقتُ مع إيرنا أن تطرق عليَّ الباب عند الساعة الواحدة ظهرًا لكي تجلب لي الغداء. لم أضطر إلى مقاطعة عملي لدقيقة، لأن أحدهم قد أحضر إلى غرفتي آلة قديمة لصنع القهوة لم يحتاجوها، ومنها كنتُ أعد كوبًا وراء كوب. كانت الآلة تحول المزيج العَكِر المائل إلى البياض بسبب طبيعة التربة الجيرية الذي كان يتدفق من الوصلات إلى قهوة ساخنة يتصاعد منها البخار. هدوء تام، بساطة ممتعة. لذا أجَّلتُ الجنازة وكل متطلباتها لبضعة أيام أخرى حتى لو كانت مدخراتي المتواضعة على وشك الانتهاء قريبًا.

دائمًا ما كنتُ أُنهي العمل في نحو الساعة السادسة مساءً، مرهقة من التعب ولكن سعيدة، أذهب في نزهة في الغابات، التي كنتُ أعشقها يومًا وراء يوم. كنتُ أجلس فوق جذوع الشجر المكسورة، بعقل فارغ أنظر إلى الأودية المغمورة بالضباب، وأنبش بيدي في الطحالب وأبحث عن الروائح والكائنات الحية المخبأة في قشور الأرض السوداء. جرفتني مثل هذه القوة الحيوية التي تشكلت بها الطبيعة في هذه الجبال بمرور سنين مضت. حتى الآن لم أكن أعرف عن هذا إلا من خلال الكتب العلمية البسيطة، كانت ولادة الجبل يسبقها انخفاض ضخم لرواسب في المحيطات ودُفعت ملايين من الأطنان من المواد العضوية السائلة بنعومة إلى الأسفل وتراكمت في الأعماق على هيئة غلاف صخريٍّ. والآن استولى البحر على جسدي لأول مرة، قبل زمنٍ غابر كانت الجبال لا تزال سائلة متحركة ذهابًا وإيابًا، واحتاجت لزمن أبديٍّ حتى بدأت الطبقات المتكدسة في الارتفاع من خلال اصطدام الكتل القارية ببعضها بعضًا. أي قوة احتجتُها حتى تتفتح أمامي الطبقات الأرضية مثل جوارب متكدسة فوق ركبتيَّ، ويا لها من كائنات حية دقيقة كنتُ على العكس منها وحدي في تمشيتي بداخل الغابات. مع الوقت اصطدمت قمم الجبال بجبال أخرى ونشأت نماذج متداخلة، كما لو أن أحدهم قد ألقى بحصى في البحر. وتشكلت الشلالات الحجرية، تنطلق منها العباءة الأرضية مسرعة في سقوطها الحر إلى الأسفل. رمشة من عين الكوكب، ثم أصبح هذا البحر الفضفاض نصبًا تذكاريًا غامضًا من الحجر. في المساء أصِل من جديد إلى المنزل لاهثةً من السعادة.

على الرغم من أنني قد بدأتُ هذا الروتين منذ أيام قليلة، فإنه بدا لي كما لو أن الأمور كلها كانت موجودة بالفعل بشكل دائم على هذا النحو أو أن هذه الصرامة التي تخص مسار الأحداث كانت مغروسة بداخلي منذ وقت ما وكانت تنتظر هذا المكان لتنطلق خارجةً مني. وقتذاك فكرتُ أنها ستكون إجازة بطريقةٍ ما، وأن بقائي في هذه الحرية مجرد شيء مؤقت. كان الدافع الوحيد الذي أتمسك به كل مرة هو وصولي إلى النزل في الوقت المناسب للعشاء في الساعة الثامنة مساءً، وهناك لا مفر من مقابلة أبناء البلدة كل ليلة.

***

فهمتُ القانون على الفور: إما أن يكون الشخص معروفًا بأنه يظهر كل يوم في حانة محددة، وإما لا. في الحالة الأولى يظهر الشخص على الطاولة نفسها في الساعة نفسها مع القانون الطبيعيِّ للأمانة، وحوله الآخرون الذين يتوقعون منه بالفعل بألا يكونوا مصدر قلق له. في الحالة الأخيرة لا يدخل الشخص أبدًا المكان المناسب. فلم يقم أحدٌ ما بتغيير تعسفي من أجل التغيير. في كل نزل توجد قرى بداخل قرية، عوالم صغرى، حيث فيها تتشكل المجتمعات الموازية بصورة منظمة.

في الساعة الثامنة كان الأشخاص مصطفين واحدًا تلو الآخر كالأشكال الموجودة في صندوق الساعة الموسيقية[1]، وفيها تُسحب الأشكال المصنوعة من الورق المقوى مُصدِرةً لحنًا صغيرًا فوق القضيب الفولاذيِّ. أنا أيضًا جئتُ في معادي كما لو كان ذلك واجبًا مقدسًا. كنتُ أدرس بعيني التفاعلات الاجتماعية بأقصى قدر من التركيز، حتى لقد دوَّنتُ بعناية في البداية العلاقات البشرية: الناس صاروا موضوعًا للمراقبة، وبعد أيام قليلة تعلمتُ تقدير تفاعلاتهم المتبادلة مع بعضهم بعضًا. على الرغم من خطورة ديناميكية هذا النظام فإن كل عنصر من عناصره كان يحقق غرضه المحدد.

في البداية لم يكن مفهومًا بالنسبة إليَّ هذا المزيج من الأشخاص: بروليتاريون يجلسون على المنضدة نفسها يتصرفون كما النبلاء الأرستقراطيون، الذين يظهرون في حُلل السهرة الرسمية مع ربطة العنق العريضة لكي يتحدثوا عن أملاكهم الزراعية بينما يأكلون الوجبات غير

(1) آلة تُظهر الوقت من خلال موسيقى.

المُكلفة، أو لكي يتصرفوا ببساطة كأشخاص ذوي أملاك لا يحتاجون للعمل. البعض الآخر كانوا يوميًا بلا استثناء من قمة رؤوسهم حتى أخمص أقدامهم بملابس تشجيع نادي كرة القدم المحلي Tsv Einland. وبينهم يوجد هنا وهناك أنماط شخصية تقليدية: قسيس، كاتب البلدية، ممرضة، بروفيسور وهكذا. أناس، أدركتُ بشكلٍ عقلانيٍّ حتمية وجودهم، ومع ذلك كان فيهم شيءٌ كوميديٌّ مرتجل[1] بابتذال في مجموعتهم بالنسبة إلى أهل المدن. ما كان تقريبًا مشتركًا فيما بينهم كانت الصفة المميزة لكونهم شاربي خمر نهمين. بشكل ما كانت كل منضدة هي ركن لزبائن دائمين، حتى أنا كوني مسافرة خُصص لي مثل هذا الركن منذ اليوم الثالث.

في واحدة من الزوايا كان هناك هوتماخر شلاف، تعرفت عليه على الفور، الرجل الذي كان في محطة الوقود. كان رجل أعمال صاحب مصانع من النوع القديم بأساليب حديثة، الذي كان يحافظ على استمرارية رأسمالية مانشستر[2] بصورتها الجديدة في مملكة المجر والإمبراطورية النمساوية. كان من الصعب تخمين عمره، مع أنه تحدث بحماس عن الخمسينيات، عندما حلق لم يكن يبدو أكثر من الأربعين من عمره. شحن كل بضاعة ممكنة وغير ممكنة إلى الصين، ويصحبه دومًا كوبه الكريستالي، حيث كانت تملؤه له صاحبة النزل بنبيذ ماديرا باهظ الثمن الذي بلغ من العمر مئة عام، كان يخبر حشدًا يتزايد باستمرار من المحافظين مرتدي قمصان البولو عن تخفيف الضرائب. كان يمجد الشيلينج وكأنه تاج، ولكن في الوقت نفسه مجَّد إنشاء المتاجر الضخمة على الإنترنت.

بالقرب من البار جلست الحاشية الخاصة بمدير شركة الإنشاءات «كاينرمولر»، الذي كان أكثر الرجال فظاظة وجهلًا من بين كل الذين رأيتهم

---

(1) Commedia-dell'Arte نوع من المسارح انتشر في إيطاليا، وكان يعتمد على الارتجال والكوميديا الشعبية، فكانت لا تهتم بإيصال قيمة أخلاقية أو ما شابه، وحُجِّم هذا المسرح بعد أن احتك بالطبقة الأرستقراطية.

(2) تصف رأسمالية مانشستر مرحلة تاريخية اقتصادية خلال الثورة الصناعية في بريطانيا العظمى، ويُنظر إليها كونها مثالًا للاستغلال والجشع من أجل الربح.

من قبل، لم يستطع حتى قراءة عروض قائمة الطعام ولذا اضطرت واحدة من صديقاته أن تتهجى له الكلام.

هو نفسه كان من أشد المعجبين بعامل البناء «لاري فورتنسكي»، الزوج السابع لـ «ليز تايلور»، وكان مهووسًا بفكرة أن تُكتب قطعة موسيقية عن حياة «لاري فورتنسكي»، وهي مخاطرة، لأجلها يخطط لاستخدام كل أرباحه.

إلى طاولتي تجلس الممرضة إلفريده التي تذكرني بشخصية «الأرملة بولتي[1]»، كانت ذات رغبات ظريفة، إذ كانت تطلب مني كل بضعة أيام شرحًا لمعادلات ماكسويل[2] أو ما شابه. كانت شغوفة بما يخص مجالات العلوم، والشيء الذي كان لافتًا للنظر هو إدارتها في النهار لمطعم متنقل للفقراء[3] وكانت مهمتها بشكل أساسيٍّ تقطيع الجزر والكرفس إلى قطع صغيرة. لقد أساءت فهم كل واحدة من المشتقات التي كتبتها على مناديل الطاولة بين أدوات المائدة وعادةً ما كانت تجلب معها في المساء التالي بعضًا من الصيغ العجيبة الخاصة بها، أرانب مجنحة[4] من النظرية النسبية ومبدأ اللايقين، التي -على سبيل المثال- تنص على أن بمساعدة بكرة فضية والقليل من محلول الكلور يمكن السفر عبر الزمن إلى المستقبل.

قُبِلتُ بسرعة في دائرة هذه الشخصيات الفريدة، ولأنني أيضًا كان ينقصني أدوات الطبخ في غرفة عملي، فكنتُ أضطر يوميًّا إلى الظهور عند وقت العشاء. الشيء المريح أن أحدًا لم يتجاهلني بشكل مقصود ولم يكن منهم من نظر إليَّ على أساس أنني شخصٌ غريبٌ، بل كانوا يعاملونني وكأنني كنتُ مهاجرة قبل بضع سنوات ثم عدتُ من جديد إلى موطني.

---

(1) Witwe Bolte: شخصية ضمن قصة مصورة Max und Moritz للرسام والشاعر الألماني فيلهلم بوش.

(2) مجموعة من المعادلات التفاضلية.

(3) مطعم الفقراء أو مطبخ الطعام هو مكان يُقدَّم فيه الطعام للفقراء بسعر قليل أو مجانًا، وعادةً يقدم الحساء فقط أو معه خبز.

(4) Wolpertinger: من الكائنات الأسطورية في دولة بافاريا، وهو مزيج من حيوانات مختلفة.

فرديناند الذي عرفتُه منذ أيامٍ قليلة، أخذني في حمايته خلال هذه الأوقات الأولى.

- تعالي معي، يا عالمة الرياضيات.

كان يقول هذا كل مساء، بينما كنتُ آكل آخر قضمة من الحلوى، وبالطبع غير مُبالٍ بالكامل من أنني في حقيقة الأمر عالمة فيزياء، ثم يأخذني من طاولة إلى طاولة، حيث دائمًا توجد مجموعة صغيرة جديدة من الناس يمدون أيديهم نحوي. كلما زاد مرور الوقت، أصبحتُ أكثر شجاعة في استكشاف نظام هذه البلدة. وحين لم يكن معي مال نقدًا ذات مرة، واعتذرت لـ «إيرنا»، أجابت بغموض قائلة: «آه، لا توجد مشكلةٌ بالنسبة إليَّ، يجب أن تبرري هذا أمام قاضي المقاطعة».

قلتُ بارتباك: «ولكن فندق «كوربِس[1]» يخصكِ وحدك!».

أجاب شلاف الذي كان يجلس بجانبها قائلًا لأن إيرنا كانت مختبئة خلف البوفيه من الإحراج: «نعم ولا. لا تزال إيرنا تدين للكونتيسة بنزل «كوربِس». كانت هذه مشكلة ضخمة في العام الماضي عندما عُرف أن أم إيرنا لم تعمل لأجل المبنى لأكثر من عشرين عامًا. الخنزيرة الكسولة. (قال هامسًا) ثم وُرِّث النزل إلى إيرنا باعتباره قرضًا».

سألتُ مدهوشة: «وُرِّث باعتباره قرضًا؟».

- دين موروث. والآن يجب على إيرنا أن تجعل النزل مفتوحًا طوال الـ 365 يومًا في السنة. (قال شلاف وارتشف حساء اليوم) على أي حال هذا أفضل بالنسبة إلينا، كما أنه منطقيٌّ.

- ولكن لا أحد يتحدث بهذا في الخارج. (قال فرديناند ووضع ذراعه حول كتفي) ما يحدث في «الكوربِس» يظل في «الكوربِس».

وكأنه اقتبس شعارًا سريًا، وردد الجميع بانسجام كما في غناء: «ما يحدث في «الكوربِس» يظل في «الكوربِس»».

بالطبع، حقيقة وجود بعض من محاولات التفسير لم تعنِ أن الأشياء الجوهرية الأخرى أصبحت واضحة بالنسبة إليَّ، إذ بدا أنه توجد أسرار لم

(1) Kürbis: تعني اليقطين.

أستطع متابعة التسلل إليها، معانٍ خفية بين السطور، همسات، شعرتُ بها بوضوح تخشخش وتؤز في الهواء، كما علمتُ أنه لن يوجد معنى في السؤال. الموضوع الأهم وما يصاحبه، الذي بدا لي في الوقت نفسه خلال الأيام الأولى أنه أكبر لغز كان فقط: الهوة.

***

أدركتُ يوم الثلاثاء التالي أنني قضيتُ أسبوعًا كاملًا في جروس أينلاند. لاحظتُ ذلك فقط عندما قاربت أدويتي على الانتهاء ولولا هذا لكنتُ أقسمت إنني أتيتُ فقط منذ ليلتين، كان كل شيء يسير بلزوجة ممتعة. والآن أدركتُ الضرورة المُلحة للاهتمام بالجنازة.

على الفور هاتفتُ دار الجنازة وحددتُ معادًا لهذا المساء لكي أُنهي ما قد جئتُ لأجله. بعدما وضعتُ السماعة احتجتُ للحظة حتى أستعيد رباطة جأشي. ومن جديد شعرتُ بالسقوط والحبس، خربشات في مؤخرة حلقي تتصاعد مع خيالي. الطريقة التي سيتحد بها التابوت الذي يغوص إلى الأسفل بواسطة الكرنك مع التربة. عندما هدأ قلبي من جديد، كان كل ما تبقى لدي من مشاعر هو الشعور بالمسؤولية، الرغبة الضرورية لتنظيم أفضل جنازة لوالديَّ، مملوءة بالعواطف والوقار، حتى لو لم يكن لدي أي فكرة عن الطريقة التي من المفترض أن تكون عليها. كنتُ بحاجة إلى اكتشاف المزيد عن ارتباطهما الوثيق بداخل هذه البلدة، هذا الشيء سيكون بمنزلة مفتاح لكلتا حياتهما بأكملها. كنتُ ثملة بوعيي بالمسؤولية الضخمة في أثناء ذهابي إلى دار البلدية، الشيء الذي كنتُ قد خططتُ له منذ أيام. كان مبنى أبيض بُنِيَ على طراز العمارة التركيبية[1]، أعمدة يونانية، ولكن أعمدة يونانية صغيرة جدًّا، كما لو كانوا قد رغبوا في بناء واحدة من أبنية شارع «رينجشتراسه[2]» ثم فكروا في آخر ثانية أنه لا يجب تدمير الأبعاد بهذا الشكل.

قلتُ: «إلى أرشيف البلدة».

قالت المرأة عند المدخل: «إلى المكتبة؟ واسمك؟».

---

(1) يشير إلى عمل فني يتضمن أنماطًا مختلفة من الماضي.

(2) تتميز المباني بأساليب فنية مختلفة، منها العصور القديمة اليونانية، وأواخر العصور الوسطى، والباروك.

- بالضبط، أبحث عن وثائق تاريخية للبلدة، شڤارتز.
- إليزابيت؟

تعطلتُ للحظة. قلتُ سهوًا جملتي في المضارع: «لا، روث. والدتي هي إليزابيت».

قالت، بينما كنتُ أبتسم ابتسامة خاوية وهززتُ رأسي متفهمة: «آه، عفوًا. إنه فقط، يبدو أنها كانت تأتي بانتظام، إنها مؤرخة حقيقية للبلدة. أعتذر، لقد بدأت بالعمل هنا منذ أسبوع».

وُجِّهتُ إلى غرفة تحت الأرض بها أرفف مثبتة على الحائط، وعلى الأرفف طبعة واحدة من مجلدات بأغلفة زرقاء. كانت الإضاءة تنبعث من أنابيب من النيون، مما منحت الغرفة الخضراء الضيقة جمالية ملجأ الغارات الجوية.

قلبتُ بصري في المكان للحظة: يوجد مئات ومئات من الكتب عن جروس أينلاند، كتب تاريخية محلية عن القرية في تحولاتها اللانهائية، وأيضًا كتب تاريخية يعود محتواها إلى العصور الوسطى. مجلدات ضخمة من سجلات عقارية تاريخية، كتب أطلس كاملة، التي تُعطي لكل قطعة من الغابة اسمًا وخرائط ضخمة لكل بيت بُنِيَ ذات يوم في هذه البلدة. وبينما كنتُ أقلب بنظرات عابرة في الطبعات الفاخرة، تساءلتُ في داخلي، *مَن يا ترى في قرية الألف روح قد كتب كل هذا؟* كانت هناك صور منحوتة على النحاس في الموسوعات وفي أول صفحة في الكتاب ثمة ختم مرسوم، وفيه تعرفتُ على صورة القصر.

الشيء الأكثر وضوحًا هو البحث عن منزل جدودي من ناحية أمي. في قائمة الفهرس لعام 1946، أي سنة ميلادها، ولكن كان في حقيقة الأمر يوجد ترتيب أبجديٌّ لأسماء العائلات. ولكن بطريقة عمل هذا المجلد فإن هذا يشير إلى وجود قوائم أخرى يمكن العثور عليها في مجلد آخر، تمامًا كما لو كان مقصودًا أن نحصل على المعلومات البسيطة بجهد أكبر. لم يُرتِّب المؤلفون أبجديًّا، بل بعدد حروف الاسم الأخير، لذا أمضيتُ ساعة في عد الحروف مرارًا وتكرارًا.

كنتُ أفكر في إنشاء حقلٍ حيويٍّ أنسجُ فيه تفاصيل أصول والديَّ وحبهما الجارف الذي ظهر بعد ذلك في حكاية متجانسة. وبدلًا من ذلك وجدتُ نفسي بداخل كتاب ضخم يحتوي على تفاصيل تافهة ليست مهمة على الإطلاق في معرفتها. فعلى سبيل المثال: عندما اعتقدتُ أنني وجدتُ ملفًا به قائمة

فصول المدرسة الابتدائية، توقف عن سرد الباقي عند المنتصف وأدرج بدلًا منها أسماء عمال النظافة في المؤسسة التعليمية، وعلاقتهم مع أقاربهم كما بروتوكول للتجديدات التي أجروها. مثل هذه الكمية من المعلومات، هذا الطوفان من العمومية، لديه بالضبط تأثير عدم الوصول نفسه إلى المعلومات، كان من المستحيل قراءة أي شيء محدد عنهما.

قلتُ أخيرًا للمرأة عند المدخل، التي كانت بدورها تتدلى فوق أحد الكتب: «معذرة. هل يوجد كتابٌ محليٌّ أكثر اختصارًا من تلك الكتب التي لا نهاية لها في الأسفل؟ تلك المواد كثيرة للغاية».

قالت: «متأسفة. هذه يحصل عليها فقط عند التسجيل الرسميّ في البلدة، ليس مسموحًا لغير السكان المحليين فقط قراءتها».

سألت: «حقًّا؟ لمَ؟».

- أظن لا يوجد سبب محدد لهذا الأمر. باستثناء غرابة السلوكيات المحلية، ولكنك ستجدين ما يكفي من الموضوعات، حتى خارج الكتب التاريخية المحلية.

يجب أن تكون المرأة في عمري نفسه، وهي أول شخص أراه هنا يضع شارات شرف الشابة الجامعية اليسارية: نظارة عصرية، وحقيبة مصنوعة من قماش النايلون وكوب من منظمة مساعدة اللاجئين. أثارت اهتمامي كونها شخصًا في حد ذاته ذلك أنها بدت لي بشكل واضح لا تتناسب مع صورة البلدة وبطريقتها الخاصة أيضًا بدت أنها تنسجم مع هذه الصورة.

- إنني أتساءل، لا، لا تستطيعين بالطبع عمل أي استثناءات. لا أستطيع أن أطلب هذا منكِ. بالمناسبة ما اسمك؟

قالت وهي تمد يدها نحوي بطريقة مهذبة: «أنيتا».

- أنيتا، أظن أن بإمكاننا مخاطبة بعضنا بعضًا بضمير المفرد[1]، (وافقت بإيماءة حذرة) أنتِ تقصدين إذن، أنه غير ممكن حتى ولو

(1) في اللغة العربية لا يوجد تصريف الأفعال بصيغة الكلام الرسمي أو صيغة الاحترام، في الألماني يُخاطب الآخر بـ Sie وهي صيغة الاحترام وتعادل كلمة حضرتك، ولكن تلك الكلمة لا علاقة لها باللغة العربية. لذا فكنتُ أستخدم في كل الكلام صيغة أنتَ وأنتِ، في هذا الحوار تطلب منها أن تتحدثا بـ Du وهي صيغة الكلام بأنت أو المفرد.

للحظة قصيرة النظر في الكتاب التاريخيِّ للبلدة، لمعرفة ما قد حدث في جروس أينلاند بين عامَي 1944 و1962؟ سوف أسلمك الكتاب على الفور. هذا شيء مُلح.

قالت: «حقًّا هذا غير ممكن».

ولكن بشعور بالذنب رهيب تجاهي، وشعرتُ برغبتها الحقيقية في تحقيق رغبتي، ولكنها لا تستطيع. والآن ستدفعها كل قطعة من المعلومات الشخصية، كل محفز للتعاطف بصورة أقرب إلى طريقي.

قلتُ: «الأمر هو أنه... إن والديَّ قد ماتا منذ وقت قريب. كلاهما».

وصمتُّ، تاركةً جملتي هكذا، بينما كانت أنيتا تذوب تحت ضغط مشاعرها الطبيعية.

- يا إلهي! تعزياتي.
- والآن يتعلق الأمر بمنحهما وداعًا يستحقانه. لقد حدث كل شيء بشكل مفاجئ، حتى لم أستطع توديعهما.
- ذلك مفزع.

ثم قالت وهي تترك الكتاب الذي كانت تحتفظ به ينزلق من يدها لتُظهِر اهتمامها وانشغالها بكلامي. كان كتاب «ثلاثية نيويورك لبول أوستر»: «أنا أيضًا فقدتُ والدي منذ أيام قليلة».

قلتُ: «شيء رهيب. (وأضفتُ لكلامي) الواحد يفكر دائمًا عن آخر شيء قاله. ليس لدي إخوة والآن يجب أن أنظم كل شيء وحدي».

راقبتُ ملامح وجهها بدقة، من السهل المبالغة في مثل هذه الأشياء. ومع ذلك لقد حددتُ الجرعة المناسبة تمامًا لها، حاجباها كانا مسحوبَين إلى الأسفل بفعل ثقلٍ ما غير مرئيٍّ. كانت تتصارع مع نفسها.

- والآن أحتاج إلى الكتاب، إذ لا يتبقى لي وقت كثير لعمل أبحاث لأكتشف... أقصد في الأساس لا أعرف الكثير عنهما. لم أكن هنا من قبل قط، والآن في حالتي العاطفية الحالية هذه سيكون ثقيلًا عليَّ النظر في هذه الكمية الهائلة.

كانت أنيتا في حالة انقسام، بدا جسدها وكأنه يتمزق من كل ناحية.

سألت بصوت هامس مرة واحدة: «هل أنتِ مُخبر؟».

- مُخبر لمن؟ لا، بالتأكيد لا.

احمرَّ وجهها ونظرت حولها: «أحيانًا ترغب الكونتيسة في اختبارنا إذا كنا نلتزم بالقوانين. وأنا أيضًا قد أخذتُ ذات مرة كتابًا دون تحرير استمارة الاستعارة».

والآن مالت بجسدها نحوي على الطاولة، وفمها في أذني، قريبة لدرجة أنني شعرتُ بأن خطتي قد نجحت. في الوقت نفسه شعرتُ بالذنب بشكل مفاجئ. ثم تابعت: «أنتِ لن تخبري أحدًا أبدًا بهذا، اتفقنا؟ لو اكتشفت الكونتيسة هذا سأطرد وسأكون مشردة».

أخذتُ الكتاب معي إلى القبو ووضعتُه فوق الطاولة، حيث جمعتُ فوقها أهم المجلدات من أجل هدفي، رغبتُ في معرفة الكثير عن المكان الذي قضى فيه والداي طفولتهما وكيف نشآ. وبمساعدة هذا الكتاب الجديد لا بد وأن أكتشف أين يقع الشارع الذي فيه منزل عائلة أمي. بدلًا من ذلك كان أول شيء صادفتُه هو فقرة عن موضوع يخص أسماء البيوت[1].

يُفهم اسم المنزل أو الاسم المتداول في جروس أينلاند، كما في معظم المناطق الريفية الناطقة باللغة الألمانية، على أنه اللقب الذي يشير إلى مكان السكن، والذي يُمنح لكل الساكنين في هذا المنزل، حتى المتزوجين منهم، والخدم، والمتعهدين، الأطفال، والأطفال الذين رُعُوا من قِبل أسرة ما، وأحيانًا أيضًا الحيوانات. في لغة التواصل الشفهية يطغى اسم المنزل معظم الوقت على اسم العائلة. نقول: ««آل هوفر»، والشهير بـ «إيشن إيرباور» أو «المزارع اليهودي يجلس عند آل شتوكرهوف» أو «لوكاس ميرتنر هو نفسه آل شفاينريجلباور، أي آل لوكاس شفاينريجل»».

تطلَّبت ماهية العقلية هذه تفسيرًا. في مختلف المجتمعات الشعبوية الصغيرة يُفهم الإنسان كونه كائنًا منتميًا إلى الطبيعة. فلا يمكن أن يُقال إن البيئة ستحذو حذو الإنسان ذات يوم، بل يجب على الإنسان أن ينمو في الطبيعة وأن يتكيف معها وينتمي إليها.

---

(1) كان يُشار إلى الأماكن بأسماء المنازل أو الشخصية التي عاشت في المنزل، وينتشر هذا بالتحديد في المناطق الريفية والقرى. وعندما يباع المنزل أو ما شابه فيحمل الشخص الجديد الاسم القديم نفسه للمنزل.

ففي هذا المعنى تبدو علاقة التملك في الحقيقة معكوسة، كما أسماء الأماكن فلا يمكن إلا الافتراض، بأن الإنسان يعمل لأجل البيت، فهو باقٍ، أما الإنسان المستثمر في أرضه، فهو زائل.

ولكن هذا يعني أيضًا: فقط مَن يعرف الاسم يستطيع أن يستولي على الأرض، وأولئك الذين لديهم اسم محدد، يستطيعون الانتماء إلى الطبيعة من حول أرضه. وعلى العكس إذا لم يكن الشخص ينتمي إلى اسم ما، فلا بد وقتها من أن يظل شخصًا غريبًا. وفقط مَن يعرف ما قد حدث في الطبيعة هنا، يقدر على النمو بداخلها، ومَن لم يكن مرتبطًا بماضيه، فليس من حقه أن يأمل في وجود مستقبل له فيها. فمن المعروف أن بعد موت مالك البيت يرث الأشخاص ليس فقط أملاكه، ولكن أيضًا يصبحون حاملي لقب البيت، ويأخذون هويته كما علاقاته مع أقاربه.

عندما كانت المسميات التقليدية عبارة عن خيوط السَّدى الأفقية[1]، إذن فإن تلك التي أُنشئت حديثًا فوقها هي فقط خيوط اللحمة[2] المنسوجة عموديًا، والتي تضم كل الخيوط معًا بمساعدة مكوك حديديٍّ مُشكِّلةً قماشًا متماسكًا. هذا النسيج النهائي كان يُفهم هنا كونه شيئًا أسطوريًّا تمامًا، عند المسمى حاليًّا بـ «آل أيشهوف[3]»، سابقًا كان «آل براندهوف[4]»، وُثق هذا جيدًا، لأنه شاعت نسختان مختلفتان عن قصتهم: الأولى أنه قيل إن البضائع النادرة قد ذابت على أحد الجوانب للفرن المستخدم في حرق الفخار. أما النسخة الثانية فكانت تحكي عن بائعة من القرية تُدعى «آنا هالفر» أُدينت عام 1656 بممارسة السحر، وحُبست هي وابنتها ذات الثلاثة عشر عامًا في مخزن للتبن، ثم حُرق قبل أيامٍ قليلة من المحاكمة. كلا التفسيرين يمكن أن يكونا صحيحين، على أي حالٍ زُرعت شجرة بلوط عام 1860 في قطعة الأرض لكي يضعوا حدًّا لتلك الحوارات.

---

(1) خيوط نسيج الثوب التي تمتد طولًا، وتُغزل خيوط السدى قبل بدء النسج.

(2) خيوط اللحمة هي الخيوط التي تمتد عرضًا وأفقيًّا وفوق وتحت السَّدى لتشكل القماش.

(3) **Eichhof**: المقطع الأول من الاسم **Eich** يأتي من اسم **Eiche** وهي شجرة بلوط.

(4) أما **Brandhof** فيعني المقطع الأول «حريق».

لقد فهمتُ أخيرًا لمَ كان من الصعب للغاية العثور على كل منزل على حدة أو لمَ كان من التعقيد الوقوف على أرض صلبة وسط كل هذه المواد العامة. أُضيف فهرس لكل منزل على حدة، بإسهاب ممتد لا ينتهي، مملوء بالتفاصيل، مع رسومات لبسطات النوافذ مع حسابات شديدة الدقة لتصميم خشب الأسقف. لم تكن أوصاف المنزل وحدها هي الفريدة من نوعها، كان الكتاب بأكمله مميزًا وغريبًا. بعد هذا الجزء الطويل من أسماء البيوت جاء تاريخ التجديدات للمباني العامة الذي كُتب أيضًا بالدقة نفسها. ثم صار أكثر صعوبة لسبب واحد: في 21 أبريل عام 1954 تفككت المدينة إلى كومة من الأطلال. ومن الواضح أن العدو كان على علم بصنع أجزاء من الطائرات في المناجم، وقد عبَّر عن هذا عاجلًا بقوله: «*استمرت هذه الصور من الخراب نحو 340 يومًا. عندما سمح الروس بذلك أخيرًا، فهم المرء استحالة إزاحة قطع المباني السابقة، على الرغم من أن الجميع كانوا على استعداد لفعل هذا بدءًا من أطفال مدارس الابتدائية وحتى المُحالين على المعاش. ولكن كان في جروس أينلاند نحو 900 مواطن فقط قادرين على الحركة، ففي النهاية أُرسِل كل الشباب الصغار إلى الجبهة. لذا اتُّخذ قرار جماعيٌ بصب 1600 متر مكعب من الخرسانة والأحجار الصغيرة في كل شيء، ما قد كان ذات يوم جروس أينلاند فيما مضى، ومن ثم صُبت كومة الأنقاض بما تحويه من أملاك وجثث وأجزاء من المباني وأثاث وترع وطائرات تالفة وأسلحة مطمورة في أساس واحد من شأنه تقوية المستقبل. بعد ذلك بُنيت المدينة بأكملها من جديد اقتداءً بالصور التاريخية لها، كما كانت قبل القصف، بارتفاع بضعة أمتار قليلة. نسخة طبق الأصل من مقياس الرسم. لم يُصوَّر إلا القليل من المباني وفي أثناء إعادة التعمير نُسيت ببساطة، ولهذا السبب تزحزحت الصور بشكل غير محسوس، حيث إحدى الخرائط كانت فوق الأخرى، مما أزالت الأخرى، في بعض المواضع كانت مجرد سنتيمترات قليلة، والبعض الآخر كانت بضعة أمتار*».

كانت جروس أينلاند مكانًا مجنونًا.

كان الفصل الأخير هو الفصل الأطول، السرد التاريخي لتاريخ القرية في العصور الوسطى. يبدأ بنبذة عن نشأة السوق المرتفعة، وعن الطاعون وما إلى ذلك لكن بعد ذلك وجدتُ قصة خرافية عن شخص يُدعى «بيرجر هانس» وقد احتلت أكبر جزء من الكتاب. كان رجلًا حِرفيًا ثريًا في القرن الـ 17 -كما قد فهمتُ من أول جملة- وكان غارقًا في رغبته الشغوفة بالبحث عن الذهب وأنشأ نظامًا أرضيًا من ممرات للمناجم تحت المدينة. وبمجرد ما تعمقتُ في القراءة، سمعتُ خطوات على السلم وأدرتُ نفسي وكلي أمل أن تكون أنيتا هي القادمة. في الحقيقة هي مَن قد أتت إلى القبو. لكن شيئًا ما لم يكن صحيحًا على الإطلاق، كانت ملامحها تشبه القبر، أسرعت إلى الطاولة وأخذت من يدي الكتاب وأخفته في الحال بداخل جيب فستانها.

قالت: «الكونتيسة ترغب في التحدث معكِ».

7

أمام السلم المؤدي إلى دار البلدية كان ينتظرني رجل وامرأة، ولكن لم يكونا -كما افترضتُ في الأول- الكونت والكونتيسة، فقط نقلا لي أنهما سيرافقانني إلى القصر.

بعدما انصرفنا إلى الشارع، قالت المرأة: «نحن هنا لنأخذك إلى موعدك».

كنتُ أتأمل مُتسليةً الطريقة التي يحيطانني بها يمينًا ويسارًا كما لو كنتُ مجرمًا خطيرًا في أثناء نقله من أحد السجون إلى آخر، كان الموقف مثيرًا للسخرية للغاية لدرجة أنني لم أعرف شيئًا يمكن أن يقال وبدلًا من ذلك تعاونتُ بصمت. أيضًا مرافقاي لم يكسرا الصمت وقاداني عبر أزقة جانبية نادرًا ما يمشي أحدٌ فيها مرورًا بالميدان الرئيسيّ[1] حتى وصلنا إلى تل على قمته يضطجع القصر. كانت الغابة الكثيفة تحجب القصر ما عدا البرجين، حيث نوافذهما المضاءة ترتفع فوق قمم الأشجار المظلمة. عندما تركنا الشارع المسفلت الواقع خلف سور المدينة أصبحنا في ظلام دامس. حيث تؤدي المسارات الترابية إلى جذور متشابكة، وعلى طريق الغابة ارتفعت الصخور فاصطدمتُ بها بينما أسير. في هذه اللحظات دائمًا ما كان يمسكني واحدٌ منهما من تحت ذراعي ويسحبني من جديد، فقد كانا يسيران مثل قطة تعرف طريقها. وفجأةً أصبح صمتهما مخيفًا كما الأشباح بالنسبة إليّ، فلا إشارة، ولا تهدئة، لا نهاية، لا وقت، ولا اتجاه، والأسوأ لا يزال: أن صمتي كان ردًا على كل هذا.

(1) الساحة الرئيسية في مواضع أخرى.

ثم خرجنا من الغابة ووقفنا أمام القصر الذي ظهر الآن بحجمه الكامل. وتحولت روح المكان دفعة واحدة إلى براءة الباروك: حديقة على الطراز الفرنسيِّ، حيث شُذبت الشجيرات على شكل مواد أفلاطونية، (أسطوانة، كُرة، مخروط)، وفي منتصفها نافورة تحتوي على ستة ملائكة صغار يخرج منها الماء. بدا العشب وكأنه مقصوص بقصافة الأظافر وكما لو كان سخرية، عُلِّقت لافتة في وسط العشب المثاليِّ، مكتوبًا فوقها «**لا تدُس على العشب**». سرنا على ممر مفروش بالحصى إلى بوابة الدخول، التي على الفور فتحها رجل قصير وعجوز بشكل لا يصدق، وتعرَّفتُ فورًا على شخص يسمى قهرمان البيت[1] من ملابسه. لا بد وأن جذعه كان منحنيًا لوقتٍ طويل في أثناء خدمته في إرضاء الآخرين لدرجة أن عمره واعوجاج عموده الفقري قد ثبتاه على هذه الوضعية إلى الأبد، إذ إنه لم يترك زاوية ميله ناحية اليمين حتى عندما كان يتبعني إلى المنزل. فقط كانت الأزرار الذهبية تتلألأ، وحذاؤه كان لامعًا.

- مساء الخير. من فضلك اخلعي الحذاء.

كان هناك شيء أرستقراطي مخيف حول كل شيء. حتى الآن لم أستطع تخيُّل أي شيء بخصوص لفظة بيت الصيد، والآن فهمتُ إحساس هذه اللفظة في هذا البيت. أنتريه وفيه سلم ضخم، زخارف من الجبس على شعارات النبالة، وبينها قرون الآيل على الحائط والقطع المنحوتة التي عكست كل شيء فاخر في الريف. بورتريهات للأسلاف لا تُحصى في معاطفهم لتمثيل ارتباطهم بكل ما هو ريفيٌّ، وبينها تماثيل نصفية من الرخام لأدباء ومفكرين تزين حواف درابزين السلم.

بالطبع كنتُ مأخوذة بهذا الجمال. قلتُ: «جميل. إلى أين يجب أن أذهب؟».

أجاب الخادم بقواعد نحوية سليمة: «تنتظرك الكونتيسة فوق في الصالون البرتقاليِّ، يسارًا حتى نهاية الممر، ثم توقفي عند الباب الثاني على اليمين».

صعدتُ السلم المثير للإعجاب ووجدتني في ممر ممتد عميقًا بداخل المبنى. كان كل شيء عازلًا للصوت: فُرشت سجاجيد سميكة طوال الردهة التي يبلغ طولها مئتَي متر والتي كانت تبتلع بالكامل أي صوت في فرائها

(1) كلمة فارسية تعني أمين البيت والمشرف على الخدم وما شابه من مهام.

المتشابك، كما لو كانوا يرغبون في معارضة قوانين الصوتيات. طرقعتُ أصابعي عدة مرات ووجدتُ صعوبة في سماع أي صوت. كل بضع خطوات من الممر يمينًا ويسارًا تؤدي بعيدًا إلى أبواب، كان جدار الممر بأكمله مكسوًّا بورق أبيض كالثلج وبلا نوافذ ومزينًا بأضواء خافتة. اندهشتُ للحظة بأنني تُركتُ بلا مراقبة تمامًا بعد المرافقة المجاورة إلى القصر. نظرتُ حولي وتحسستُ للحظة قصيرة بأصابعي على غطاء الجدار لأكشف سر امتصاص الصوت، ولكن لا شيء، كان ورقًا عاديًّا. في نهاية الطرقة على اليمين كان الباب مفتوحًا. طرقتُ على الباب مراعاةً للأدب، على الرغم من أنني كنتُ واقفة بالفعل لمدة طويلة تحت إطار الباب الضخم المنحوت. وعندما لم يتحدث أحد بكلمة، دخلتُ إلى الغرفة.

كانت، كما يوحي الاسم بحق، غرفة برتقالية ضخمة للغاية، مؤثثة بخليط يشبه المكتبة وحجرة المذاكرة. أمام آخر جدار للكتب توجد طاولة كبيرة للكتابة، التي بدت مُغطاة بالوثائق، وخلفها كرسي ضخم وكأنه يخص قيصرًا ما وينتهي برأسين لأسدين عند مسند الظهر. وأمامه على الجانب الآخر كرسي صغير قابل للطي وكان أكثر الكراسي التي رأيتها هشاشة في حياتي. مشيتُ نحوه ونظرتُ إلى لفائف الورق الموضوعة فوق الطاولة، نظرتُ حولي خفيةً وأخذتُ ورقة في يدي، كانت بصفة عامة تحوي كلامًا عن التماس ما. على سبيل المثال: كُتب في الجملة الأولى «إلى صاحبة السمو كونتيسة جروس أينلاند، الرحيمة «أولريكه كناب-كورب-فايدنهايم»، ألتمس من سيادتكم بكل تواضع تأجيلًا لدفع الضرائب لسنة 2006 لأسباب ذات طبعٍ شخصيٍّ. في أثناء رعاية أمي كان لا بد من دفع 1300 يورو مقابل سرير في دار الرعاية، ولهذا السبب أطلب من سموك السماح لبضعة أشهر».

باقي الالتماسات كانت تتعلق بحصد مزارع الفاكهة أو تصريح ببناء حافة للنافذة، باختصار: كل شأن رسميٍّ يمكن أن يتخيله أحد، تجمَّع هنا فوق طاولة الفحص الرسمية. بدت لي هذه الطريقة للتودد غير معقولة وسخيفة، كوميديا رخيصة، ولكن لم أستطع التوقف عن قراءة هذه المستندات.

- مساء الخير.

سمعتُ فجأةً صوتًا قادمًا من الزاوية، كنتُ واقفة منذ بضع دقائق بالفعل أمام الطاولة. استدرتُ. وفي تلك اللحظة لاحظتُ أنها الكونتيسة، كانت تجلس في فجوة في جدار المكتبة التي بالكاد يمكن رؤيتها من الجانب الآخر من الغرفة وتراقبني بصمتٍ بينما أحفر في أعماق فوضى أوراقها.

قالت وصعدت من داخل حفرتها العجيبة: «لا تنبشي في الكتابات السرية، هذا أغضبني بالفعل أنك لمستِ حتى ورق الحائط خاصتي. هل تفعلين هذا دائمًا؟ ولكن دعينا نترك هذا السؤال جانبًا. لدي أشياء مهمة لأناقشها معكِ. ولأنك الآن واقفة عند طاولة الكتابة خاصتي، فيمكننا الآن الجلوس».

تسارعت أفكاري حول الطريقة التي أمكنها بها مراقبتي بينما ألمس الحائط وفي الوقت نفسه شعرتُ بالخجل. جلسنا على الكرسيّين اللذين كانا مُعدَّين، هي على الكرسي الملكي، وأنا على الكرسي الصغير القابل للطي، لهذا السبب بدت لي الآن، عندما استطعتُ رؤيتها من الأمام، أنها تُحلق فوقي بنصف متر. اضطررتُ إلى أن أميل برأسي إلى الخلف للنظر في عينيها. كان واضحًا بالنسبة إليَّ، أنني حتى هذه اللحظة كنتُ مقتنعة أن من يحلم دومًا بهذا الحضور المثير للسخرية لا بد أن يكون شخصًا تافهًا ومضحكًا، ولكن عندما جلستُ الآن أمامها، شعرتُ وكأنني في غرفة بها شيء صارم.

على الرغم من أن الكونتيسة كانت أقصر مني بشكل واضح، فإنه كان ينبعث منها بطبيعتها شيءٌ ما استبداديٌّ. لا بد وأنها كانت في منتصف الستينيات من عمرها، كان شعرها مرفوعًا في كعكة مشدودة بإحكام خلف رأسها، حيث شدت شعرها الرماديَّ الذي يشبه النايلون من فروة رأسها الناعمة. وكانت ترتدي تنورة زرقاء تصل إلى الأرض وجاكتًا مناسبًا مشدودًا من عند الصدر يشبه مشمع الخيمة. والآن، عندما استندتُ على سطح الطاولة الممتد بلا نهاية، رأيتُ أن أصابعها الرقيقة كانت مزينة بالكامل بالخواتم، ثلاثة منها على الأقل كانت تحمل شعارات مختلفة.

قالت: «اسمي «كناب-كورب فون فايدنهايم»، من المحتمل أنكِ قد سمعتِ عني».

قلتُ: «روت شڤارتز».

- نعم، أعرف هذا منذ وقت طويل، لا شيء جديد.

لم تتغير ملامح وجهها، بالضبط كما لو كنتُ اقتحمتُ منزلها في هذه الساعة ويجب عليَّ الآن أن أحاسَب. ونشأ حولنا ضغط لا يحتمل عندما صمت كلانا.

أجبرتُ نفسي على التحدث: «حسنًا، منزل جميل».

- منذ أكثر من خمسمئة سنة تملك عائلتي هذا القصر، أجل. قصر «فايدنهايم»، مقر حكم الماركجراف[1]، سابقًا كان يستخدم كونه سلطة قضائية.

لم يكن هناك ما يمكن قوله. ووقعنا من جديد في الصمت لمدة ثلاثين ثانية مخيفة. كانت الكونتيسة تقبع في زاوية تعيسة فوقي، لدرجة أن رقبتي كانت تؤلمني في أثناء محاولتي لإبقاء نظرتي عليها.

تجرأتُ أخيرًا على السؤال: «هل مسموح أن أسأل لأي سبب ترغبين في التحدث معي؟».

قالت ساخرةً: «أجل، هل لا أسمح بهذا إذن؟ أنا أعرف كل واحد هنا في البلدة ويجب أن يظل الوضع هكذا. دعينا نتعرف، حسنًا؟».

قلتُ خائفةً من حدَّة طبعها: «طبعًا. أنا مسرورة جدًّا بالتعرف إليكِ».

صاحت قائلةً كما لو كانت لم تسمع ما قلتُه: «أجل، وإذا كنتِ لا ترغبين بهذا، فيمكنك الانصراف».

سألتُ بهدوء: «بالطبع سأبقى. هل أنتِ فعلًا كونتيسة؟».

وأشرتُ إلى الزخارف الموجودة في السقف، كما لو كان قابعًا فيها الدليل على نُبلها. للحظة ظننتُ أنني شطحتُ بعيدًا للغاية بهذا السؤال، لأن الكونتيسة وقفت مثل تمثال الحرية ظلت تحدق مثبتة نظرها في شيء بعيد فقط عندها، أدارت يدها خلف ظهرها، لكي تسير إلى المكتب، كما لو كانت في منطقة شديدة العمق.

- يوجد في قريتنا نوع معين من الشخصيات ظل موجودًا على مدى مئات السنين الماضية. هذا النوع ستلاحظينه على الفور مبكرًا. على أي حال كنتُ في البداية عمدة البلدة، انتُخِبتُ ثم أُعيد انتخابي مرة أخرى

---

(1) توازي لفظ الأمراء، كانوا مسؤولين عن منطقة محددة.

خلال أربع دورات تشريعية، بالديمقراطية وعلى أساس البروتوكول، حتى أصبح هذا المنصب يتطلب مجهودًا كبيرًا بالنسبة إليَّ. الشيء الثاني هو أنني أنا وزوجي، كما بالتأكيد قد سمعتِ، نملك هذه البلدة. (جلست مرة أخرى وضغطت بدقة على ظهرها في جلسة منتصبة) معظم الناس الآن يعتبرون هذا تناقضًا. (قالت باقتضاب وكما لو كانت تتحقق من رد فعلي) أنه يمكن للواحد أن يُنتخَب وأن يملك البلدة. هل تجدين هذا أيضًا غريبًا؟

حاولتُ أن أكون دبلوماسية: «أنا لا أفهم على الإطلاق كيف يمكن لأحد أن يملك بلدة. لم يكن لجروس أينلاند أي وجود في السجل البلديِّ في أثناء بحثي عنها، لقد كان مجيئي إلى هنا شاقًّا للغاية».

كان ينبعث من الأسفل ألحان غير مترابطة لعزف على البيانو وغرقت كلماتي في صخب الألحان العالية.

قالت: «معذرةً، زوجي شغوف كثيرًا بالفن. بالطبع نحن لسنا في قائمة السجل البلديِّ. المعظم منا ظل طوال حياته لم يُسجل. هذا بالطبع له علاقة بالنمسا ككل. ومن ناحية أخرى، مثل هذا البناء لا بد وأن يظل، مثله لا يقدر أحد على إبعاده، أتفهمين؟ سيكون أشبه برغبة في خلع هيكلٍ عظميٍّ من الجسم، ثم يتمدد كل شيء بعيدًا عن بعضه بعضًا».

عدم الرد على سؤالي زُوِّد بمزيد من الغموض. كانت الكونتيسة واقفة منذ فترة واتجهت إلى رف على الحائط الخلفيِّ للصالون وسحبت منه كتابًا ضخمًا. كانت طبعة فخمة للأطلس وقرأت عليه: «**السجل العقاري الفرانتزيسياني**[1]» وأسقطته على الطاولة بعنف مُصدِرًا الغبار.

قالت بانفعال: «لا تلمسي التراب أرجوكِ، فأنا حساسة جدًّا وأُصاب بالبرد بسهولة».

وأشارت إلى تمثال من الرخام لحصان برزَ من الأوراق في وسط الطاولة، ولم أكلف نفسي أي عناء للمسه. تابعتْ: «سأقول لكِ كيف هو الحال، لدي عمل

(1) Franziszeischer Kataster أول سجل عقاري كامل يخص النمسا وسمي على اسم الإمبراطور النمساوي الأول: فرانتز الأول Franz I.

لكِ. انظري، هذا السجل العقاريُّ الفرانتزيسياني، الذي عهده إلينا قيصرنا العزيز سنة 1810 لعمل مسحٍ عقاريٍّ[1] للنمسا بأكملها. هنا جروس أينلاند».

سألتُ من فوق الكتاب الضخم: «ما نوع العمل؟».

- حسنًا، إنه يتعلق بكل ما هو ممكن، الحسابات، ومبادئ العمل الفيزيائية الأساسية بما يخص موضوع الاهتراء[2] والتعرية[3]، بالتحديد ما يخص الطبيعة. وعلى أي حال يجب عليكِ أن تكوني حاضرة في صالوناتي ثم ومن وقتٍ لآخر تحررين بعض الواجبات الصغيرة، ربما أيضًا تلقين محاضرة لضيوفي، نوعًا من التحضير. هل فهمتِ؟

ثم انتفضتْ واقفة مرة أخرى. وظلت تفتش للحظات في درج، ثم توقفت عن التفتيش وأضاءت مصباح المكتب الذهبي.

- لم أفهم بالضبط. محاضرات عن أي موضوع؟

- آه، هذا مختلف تمامًا. انظري، ربما سمعتِ عن أننا لدينا مشكلة حقيقية مع التعرية. ولكن إذا بقيتُ أشرح لكِ طوال الوقت، إذن فلأفعل هذا الموضوع بنفسي. (الآن فقط رأيت تحت الضوء الكهربائيِّ أن جبهتها العالية أسفل قمة رأسها العنيفة كانت مبللة بالعرق) يجب أن يُنظر إلى الموضوع في حالته المجردة، ولكن قبل كل شيء في حوزتي بعض المهام الثابتة لكِ، التي يجب أن يُبدَأ بها في أسرع وقت. لا يهمني مبلغ الراتب، ولكِ أيضًا حرية اختيار المنزل، ونحن سنهتم بالباقي. آه حسنًا تذكرت، سأقترح عليكِ منزلًا.

قلتُ: «أنا لا أنوي البقاء هنا طويلًا».

- حسنًا، شيء مقنع. سنفعل هذا على النحو التالي: ستعملين من أجلي لنصف اليوم، الباقي من اليوم يمكنك صرفه في أطروحة التأهيل خاصتك. سوف أحرص على أن يكون معك المواد كافة التي

---

(1) تسجيل شامل لحصص وحدود عقار في دولة ما.

(2) تآكل سطح المادة الصلبة نتيجة تأثير وفعل سطح آخر.

(3) عملية تحدث على سطح الأرض، وتعمل على إزالة التربة أو الصخور أو المواد الذائبة من موقع إلى آخر.

تستخدمينها وشراء أي مراجع تحتاجينها، ولن أدفع لكِ فقط الراتب، بل ستحصلين مني على الضعف. ويمكنك فعل به ما تشائين.

شعرتُ بالصدمة عندما ذكرت أطروحة التأهيل خاصتي. لم يكن ممكنًا أن تعلم بهذا. هل هاتفت أحدًا ما في جامعتي؟

تابعتْ: «بما يتعلق بالصالونات، بالطبع، أنتِ لا تعرفين شيئًا عن صالوناتي، يمكن القول بأنكِ ستظهرين فيها كذراعي اليمنى. الالتزام الثاني سيكون عليكِ العمل هنا دائمًا بجانب غرفة عملي حيث أقود المهام الإدارية. هذا يعني باختصار أنني أود رؤيتك باستمرار في أثناء عملك. يمكنكِ...».

قاطعتُها أخيرًا: «متأسفة، أنا مضطرة إلى الرفض. أولًا، لأنني بعد تشييع جنازة والديَّ سأعود، ثانيًا، لأنني أرى نفسي غير مؤهلة لمساعدتك في المشكلات الجيولوجية. أنا فيزيائية نظرية وليست عملية».

- هذا ليس بمشكلة، علينا توضيح بعض الأسئلة الأساسية أولًا.

قلتُ مجددًا: «لا، هذا مستحيل، غير ممكن أبدًا».

رغم أن الشك ظهر بداخلي للحظة، لإنهاء كتابة أطروحتي، كنتُ مفتونة بهذه الفكرة، ولكني طردتُ الفكرة من عقلي.

- هنا لدينا أفضل مجموعة من الأشخاص المهمين الذين يستطيعون مساعدتكِ في الأشياء الممكنة كافة، ولكن لدينا أشياء من حين لآخر تقبع فوق قلوبنا.

لا، إنه شيءٌ عبثيٌّ، الاضطرار إلى إلقاء محاضرات عن أسئلة لا أهتم بها مطلقًا في الصالونات العلمية للكونتيسة كما الاضطرار إلى احتمال الأشخاص الذين ينتمون إلى بما يسمى بالمجتمع الأرقى. هذا الاستياء من السلاسل اللؤلؤية وأحذية الجولف، من لقب النبلاء وأزرار أساور القميص، طفا على السطح مثل نقطة زيت عنيدة تسبح فوق بقعة شديدة العمق. سوف أفهم بعد ذلك بكثير أن ما كان بالأسفل شيءٌ عكسيٌّ: كان الخوف. كنتُ خائفة من الكونتيسة التي كنتُ أحاول التقليل منها بازدراء، خائفة من نقدها وطردها لي، كان خوفًا غامضًا من آرائها الصارمة، خوفًا من حسن السلوك الذي يتبدى

في وجودها الموتِّر، ولكن بالأخص كان خوفًا من ألا أكون مقبولة لها، وهذا، على الرغم من أنني لم أقبلها هي نفسها.

قالت الكونتيسة: «لو كنتُ مكانكِ لأعدتُ النظر في الموضوع. أنتِ ترغبين في أن تكوني طليقة غير مرتبطة بشيء، هذا أفهمه بالفعل. أنتِ تُذكرينني بنفسي وأنا في عمرك نفسه، عدتُ أتذكر الكثير من جديد. أسمع عنكِ الكثير. تعازيَّ مرة أخرى بمناسبة الموت المفاجئ لإليزابيت وإريش. شخصان رائعان».

قلتُ: «للأسف».

وكنتُ مستاءة من الطريقة الرخوة التي خلطت بها تعزيتها مع باقي أجندتها، والأكثر من هذا لأنها تكلمت وكأنها كانت تعرف والديَّ معرفة شخصية.

- كنا نعرف بعضنا بعضًا جيدًا. لا أعرف إذا كان أبوكِ قد أخبرك بهذا، ولكن كنا في الفصل نفسه، في المدرسة الثانوية لمدة ثماني سنوات. كان صبيًا فاجرًا في السابعة عشرة من عمره، بالطبع كان هذا قبل عام 68[1]، إذا كنتِ تفهمين ما أعنيه.

كانت الكونتيسة تملك طريقةً لجعلي أنشغل بما بين السطور، التي كانت تجعلني أنسى الرد السريع. والآن صمتت للحظة قصيرة كما لو كانت مضطرة إلى التفكير أخيرًا.

- قولي لي، هل قال والداكِ عني ذات يوم شيئًا ما؟ أو حتى عن جروس أينلاند؟

كانت هذه أول مرة تسأل فيها شيئًا في أثناء محادثتنا، كما لو كانت ترغب بصدق في معرفة شيءٍ مني. بالكاد ظننتُ أنها بدت قلقة.

- لا، لأكون صادقة، لم أعرف مطلقًا إذا كانت جروس أينلاند موجودة بحق. لم أعرف أنكِ كنتِ موجودة.

(1) تشير إلى الثورة الطلابية مايو 68، كانوا يرغبون في العيش بحرية والانغماس في الحياة بعيدًا عن الآلية وتوارث التقاليد المحافظة المقيتة. كانت الثورة ثقافية في الأساس، وأعيد النظر في الجنسانية والفن والسياسة.

قالت بإيجاز وأبعدت الموضوع عنها بإيماءة من يدها: «بلى. لقد كنا أنا ووالداكِ على معرفة عميقة. ولكن لا يهم. (وعادت من جديد لهذا الموضوع) حسنًا، ما زلتِ لا ترغبين في العمل لدي. سوف تغيرين رأيك في الوقت المناسب، هذا ما أشعر به، ولكن جيد، أنتِ تريدين صنع بعضٍ من التشويق. والآن احكي لي القليل عن نفسك. أنتِ عالمة فيزيائية؟ أين درستِ إذن؟».

قلتُ مرددةً بشكل رتيب: «في فيينا وزيورخ، وقضيتُ فصولًا دراسية في الخارج في شانغهاي ودبلن».

- جميل. والآن تعملين منذ ست سنوات على أطروحة الدكتوراه عن فلسفة الوقت. موضوع مثير للاهتمام. ولكن لمَ تحتاجين لوقتٍ طويل لإنهائها، وقد كنتِ في البداية تحرزين تقدمًا كبيرًا؟

قلتُ كما لو كنتُ قد ضُبطتُ: «لوقوع أحداث شخصية».

- أنتِ لستِ متزوجة، لمَ؟ آه أجل. (محاولتها للابتسام كانت مُخيفة أكثر من صرامتها، كما لو كانت تتدرب عليها منذ وقت طويل ولكن لا تزال لم تتقنها جيدًا) أنتِ بالطبع جديدة ولا تعرفين مَن ينقل لي كل هذه الأمور. لذا تعالي إلى هنا.

ذهبنا إلى النافذة الخلفية وسحبت الكونتيسة حبلًا حيث تحركت الستائر الضخمة جانبًا بواسطة شُرابة[1] ذهبية مبتذلة واضطجعت القرية في الأسفل أمامنا.

- القرية عبارة عن جهاز عصبيٍّ حساس للغاية، والمعلومات تُنقل هنا وهناك على مساراتها بصورة دائمة. القصر هو النواة التي من خلالها تؤدي الحارات، الشوارع والممرات السرية إلى جميع خلايا المدينة. كل شيء يأتي من المدينة، يحدث في القصر والعكس صحيح، بالطريقة نفسها كما لو كنا استعارات لبعضنا بعضًا، هل فهمتِ؟ نوع من قانونٍ روحيٍّ للنظام الإقطاعيّ بمقدور كلا الجانبين الاستفادة منه.

هذا التصور قد أثار اشمئزازي. هذا يعني أنه حُكي لها كل شيء. ولكن مَن الذي يمكنني محاسبته؟ على أي حال لم يكن هناك ما أخفيه، لا يمكن القول بأن الأشخاص الذين تحدثتُ معهم حتى الآن قد خانوا ثقتي.

---

(1) حزمة من الخيوط مثل خيوط طربوش، تكون في الملابس أو الستائر.

قلتُ: «أود العودة إلى المنزل الآن».

قالت الكونتيسة، كما لو كان الأمر يتعلق بتقديرها الخاص: «قريبًا، في الأول ما زلتُ أرغب في معرفة بعض الأشياء عنكِ. إذا كنتِ ترغبين حقًا في الذهاب قريبًا، فكم المدة التي تنوين قضاءها هنا في جروس أينلاند؟ وما هي شكل مساهمتك في مجتمعنا؟».

الآن أصبحتُ غاضبة: «فقط حتى تشييع جنازة والديَّ، أنتظر تخصيص مكانٍ في القبر. لا أنوي الاستقرار هنا لوقتٍ طويل ولهذا أيضًا لا أرى أي سببٍ للمساهمة في المجمع. ولا أعرف لمَ يجب أن يكون مثل هذا الاستجواب موجودًا، فأنا في ملكية عامة».

- أترين، ها قد أخطأتِ. لقد قلنا منذ قليل إن جروس أينلاند تقع فوق أرضي. لا بد أن تنصتِي جيدًا. ولهذا السبب أطلب منكِ المعلومات. حسنًا، إذا كنتِ لا تملكين أي أفكار، أطلب منكِ مرة أخرى، أن تأتي إلى أحد صالوناتي ولن تكوني مُلزمة بشيء. سيكون شيئًا مؤسفًا إذا لم أقدمك على الأقل لبعضٍ من معارفي.

قلتُ: «سوف أفكر في هذا».

على الرغم من أني لن أفكر في هذا الموضوع ولو لثانية واحدة. رغبتُ فقط في الفرار من هذا القصر. كان اليوم الخميس، بالتأكيد سأكون قد حصلتُ على موافقة استخدام القبر، قبل عقد هذا الصالون الثقافيِّ.

- يمكنك الانصراف الآن، يجب أن أكون في سريري في الساعة العاشرة. أتحتاجين لأي مرافقة إلى النزل؟

قلتُ: «سأجد طريقي بنفسي. شكرًا».

جلست من جديد إلى طاولتها وراقبتني بينما أرتدي معطفي. قالت الكونتيسة: «آه تذكرتُ شيئًا آخر، يمكنك اعتبار أنه تمت الموافقة على القبر».

***

- وماء من الصنبور مجانًا.

وضعت فراو إيرنا كوبًا به سائل ضارب للبياض بجانب عشائي. شكرتُها وأخرجتُ زجاجة المياه المعدنية من حقيبة الظهر.

حتى بعد مرور أكثر من أسبوع ما زلتُ لم أعتد هذا، كل مرة، عندما نفتح الصنبور في جروس أينلاند، يتدفق سائل عَكِر بشكل خطير من أنبوبة التوصيل، يطابق سمات المياه المعروفة فقط من بعيد. ينطلق السائل الجيريُّ من الأنبوب المعدنيِّ للصنبور ومن الكوب مباشرةً إلى الجهاز الهضميِّ للشخص الذي شربه، واثقين تمامًا من أنه لن يُحدِث أي أضرار أبدًا، لأنه من مصدرٍ عضويٍّ. هذا الجير الذي لوَّن المياه في التربة وصار كاللبن الطازج السائل من ضرع بقرة، يتسرب بداخل الأعضاء العضوية -هكذا كنتُ أتخيل- ويُلوِّن السوائل الجسدية، حتى تتخلى عن لونها الأحمر القاني لأجل اللون الأبيض لتربة جروس أينلاند. كان التخلص منه وهمًا، كنا نجلس في أحواض استحمام غير شفافة، ونشرب مياه الحنفية العَكِرة بطبيعتها، وغسلنا الجير العالق بشعرنا حتى أصبحت الأطراف المخدرة الباهتة شيئًا عاديًّا، لأن الجميع قد امتلكها. نظفنا حجرتنا بخرق مُبتلَّة بحساء سميك وسلقنا المعكرونة وصارت أكثر صلابة كما لو كانت قد خرجت لتوها من العبوة.

قال فرديناند: «هاها، فقط الأفضل ما يكفي للدكتورة».

ورمى الورق على الطاولة ثم طرقع بأصابعه على الزجاجة.

والآن بعد أن كنتُ في حقيقة الأمر جزءًا من ملكية الكونتيسة من خلال أول زيارة رسمية للتعارف في القصر، جلستُ الآن معهم لوقتٍ طويل حتى بعد منتصف الليل وشربتُ الخمر ولعبت الكوتشينة، بينما كنتُ أنصت إلى قصص عن القرية. بالأخص العالم الأسطوري الذي يُخلِّف الهوة قد أثارني. في إحدى تلك الأمسيات طلبنا في الجولة الخامسة خمر الكمثرى وتوقف كاينرمولر مدير شركة الإنشاءات في أثناء إلقائه واحدًا من نخبه الخليع وحدق بافتتان غريب مغيبًا عن العالم إلى الحائط.

قال فرديناند وخبطه في ضلعه وضحك: «آه، الآن يرى من جديد الشهداء».

سألتُ: «شهداء؟».

بدا الجميع مرتبكين قليلًا ما عدا فرديناند.

قال كاينرمولر أخيرًا: «القديس توماس شفيع النجارين والبنائين ظهر لجدي المُبارك في المنجم. (ثم صمت لمدة طويلة قبل أن يتابع حديثه) حكى جدي أن القديس توماس كان قوي البنيان للغاية ويشع من عينيه ضوءٌ

قرمزيٌّ خافت. كان حافي القدمين ويرتدي رداءً خفيفًا للغاية، ومع ذلك لم يكن يشعر بالبرد».

ردت إلفريده: «ربما هذا بسبب قدسيته، فلا يتجمد المرء حينها بسرعة».

- في اليوم التالي قطع جدي على نفسه نذرًا. أي منزل يتصدع بسبب انحدار السوق يجب إصلاحه في المستقبل من أمواله الخاصة، وباستخدام الحجر الجيريِّ من الحفرة.

نظرتُ باشمئزاز إلى الماء السميك في الكوب وكأن به دقيقًا ما يتأرجح يمنة ويسرة، وبدأت إلفريده في التحدث: «ما زلتُ أتذكر البنَّاء من طفولتي، فليرقد بسلام. كانت به هالة قدسية مع عينيه الرحيمتين وشعره المتموج. كما لو كان مرسومًا فوق جدارية إيطالية[1]».

حكى كاينرمولر إلى النهاية: «كان يعلم أنه لن يمر وقت طويل، حتى تنتمي الهوة من جديد إلينا».

وكانت توافقه إلفريده بإيماءة تفهُّم من رأسها بشكل متواصل.

سألتُ: «ماذا تقصد بأن الهوة ستنتمي إلينا من جديد؟».

- ومنذ ذلك الوقت ونحن لدينا تقاليد مهمة في يوم القديس توماس. يذهب الشباب الصغار إلى المدخل القديم للمنجم وبعينين معصوبتين يدقون مسمارًا في الباب الخشبيِّ المُغلق بحجرٍ يجدونه بأنفسهم. والمسمار لا بد أن يكون مصنوعًا من القصدير.

قالت إلفريده بنبرة تعليمية في أثناء ذلك: «قصدير من القرية».

سألتُ مرة أخرى: «معذرةً، مَن الذي استولى على الحفرة؟».

قال كاينرمولر: «حسنًا، من الذين كانوا في ذلك الوقت، ذلك الوقت المحدد. حيث إنه استُولِيَ علينا بصورة ما. كانت مصادرة إجبارية».

قالت إلفريده: «لن تتحرر الضحية من جديد إلا إذا ضحَّى بشيء ما بنفسه».

---

(1) بالتحديد الفريسكو، وهو نوع من الفن القديم، يرسم في الكنائس والمعابد على السقف.

أدهشتني هذه القصص، صحيح أن القسيس في جروس أينلاند كان رجلًا يحترمه الناس والبعض كان يتفاخر بالظهور يوم الأحد في القداس، ولكنه بدا لي مجرد مظهرٍ خارجيٍّ، عادة حُوفِظ عليها منذ وقت طويل أكثر من تديُّنٍ حقيقيٍّ. فأنا لم أرَ قط أي شخص في «كوربِس» يصلي.

قلتُ: «لم أعرف مطلقًا أن جروس أينلاند متدينة للغاية».

- فليذهب التدين! هذا شيء بعيد للغاية عن الدين. الأمر يتعلق بالقرابين، لأننا هنا نتمسك بشدة بأشياء محددة. الإنسان متزوج بوطنه، بتربته، التي أتينا منها كلنا.

سألتُ: «أي الأشياء التي تتمسك بها بشدة؟».

وفجأةً صار الكل صامتًا ولا يملك السرعة الكافية للعودة إلى أوراق الكوتشينة. اضطررتُ إلى سؤال شيءٍ ما مسالم لكي أُنهي هذا الحديث بصورة ودية.

- ألهذا السبب صِرتَ بنّاءً؟

دمدم كاينزمولر: «البستوني هي الورقة الرابحة».

وألقيتُ بآخر ورقة.

8

لم أتذكر إلا بعد أيام قليلة من اللقاء الغريب مع الكونتيسة أنني فوتُّ موعدي مع وكالة الدفن. سريعًا هاتفتُ مكتب الوكالة من الاستقبال واخترعتُ قصة خرافية عن انهياري النفسيّ. بلا شكوى أعطتني السيدة في السكرتارية موعدًا جديدًا في اليوم التالي وسألتني إذا كنتُ أعرف أصلًا موعد نقل جثمان والديَّ.

أجبتُ بالنفي ووعدتُ بأن أخبرها قريبًا. كنتُ في مزاج رائق للغاية لمواصلة العمل من جديد، عدتُ للاستلقاء على أرضية غرفتي، واستمعتُ إلى ألبومات «تشيت بيكر» التي اشتريتُها من مكتبة لبيع الأسطوانات القديمة، كانت الأغاني تذوب بداخل طقس الخريف. كان الهواء رطبًا في أواخر تلك الأيام، وثمة ضوء ناعس يكسو كل شيء من شروق الشمس إلى غروبها، كان شعورًا دائمًا منسلًا إلى الداخل، بأن تحت ورق الخريف تقبع عفونة ما.

بأطراف ثقيلة هبطتُ من جديد إلى الأسفل لأتمم واجبي، لا يوجد إنترنت، لذا اضطررتُ إلى اللجوء إلى دليل الهاتف بالاتفاق مع السيدة إيرنا. طلبتُ رقم خالتي ببطء خائفةً من الرقم الأخير الذي مسستُه بسبابتي في القرص الدوار للهاتف وعندما دوّت نغمة الاتصال، ألقيتُ بالسماعة على الهاتف وخرجتُ إلى الخارج.

***

طوال الأيام العشرة التي قضيتُها في جروس أينلاند كنتُ أطوف في الطبيعة مثل حيوان لا يكف عن الحركة. أنا، التي كنتُ دومًا شخصًا مَدينيًّا حتى النخاع، صرتُ الآن أغضب إذا قضيتُ ثلاث أو أربع ساعات في أماكن مغلقة. ثم صرتُ أنهض كل خمس دقائق للنظر إلى الطبيعة المضطجعة

أمام نافذتي، متوارية مثل شبح خلف واجهات المنازل. كل شيء يبدو وكأنه يحدث هنا في هذه الطبيعة. بدايةً من العواصف، والأمطار الغزيرة العابرة سريعًا، وأفواج الضباب، وخاصةً الرعد كان ينبعث منه جاذبية لا تُقاوم، لها القدرة على دفعي إلى انتعال حذائي في غضون دقائق قليلة وصعود الربوة في الغابة، على مرج للأبقار وبالقرب من مداخل الحفرة. كان يوجد منها ثلاث أو أربع، حيث في السابق كان رحيل عمال المناجم، الذين جُلِبوا إلى الجبل قبل بضعة عقود.

لم أملَّ قط من قضاء عدة ساعات في استكشاف تضاريس الطبيعية الموجودة هنا بوفرة. نادرًا ما كنتُ ألاحظ أنني أسير فوق كتلة من الوحل وأن كتلًا طينية كانت تتسرب إلى بنطالي. ربطتني علاقة قوية بشكل مميز مع الطحالب، كان من الصعب مقاومة الحقل الناعم. نمتُ فوق سلسلة من الصخور منحدرة برقة وتشممتُ رائحتها الأرضية. كان إغراءً أبديًا، متبدلًا عبر عقودٍ طويلة ولم يفقد سحره قط. كل عود من العشب هو امتداد شديد الحساسية لأعصابي، كما لو كان كل شيء صُنِع من الفكرة نفسها، كما لو كان ما غطى المروج بعد ليلة باردة بالندى، بللني أنا أيضًا الآن. في بعض الأيام كانت قسوة الطبيعة تثير مشاعري بعنف لدرجة أنني لم أستطع المقاومة، كنتُ أترك العمل وأندفع إلى الخارج. في أوقاتٍ أخرى شعرتُ بشهوة متعطشة إلى العلم التحليليّ، فكنتُ أستعير من المكتبة كتب الدليل إلى الطبيعة وأبدأ بتصنيف النباتات والخنافس حتى يحل الظلام أو يقل تأثير «الكودين[1]». كيزان الصنوبر نفسها بدت لي وكأنها تعبير عن حقيقة ما عميقة، التي بدورها يجب أن تُفهَم بلغتها القاسية الملأى بالعُقد الآتية من الأرض. لم يكن هناك أي تشابه بيني وبين الناس في جروس أينلاند على العكس تمامًا، بدلًا عن ذلك صرتُ أذوب في الطبيعة التي تحيط بالقرية. بعد بضعة أيام قليلة وجدتُ طريقي بشكلٍ حدسيٍّ، في وقتٍ لاحق، صارت الغابة امتدادًا لجسدي، باختصار شديد، كان انتماءً بحثتُ عنه لوقتٍ طويل، تماهيًا، كان هذا ما ربطني سريعًا مع الطبيعة. أكاد أقول: «لقد وجدتُ وطنًا».

***

(1) مستحضر أفيوني يستخدم لتسكين الألم.

عندما عدتُ ليلًا إلى المنزل بعد واحدة من نزهاتي الطويلة أوقفتني السيدة إيرنا. قالت صائحةً: «روت، أحدٌ عاود الاتصال بكِ، لقد دوَّنته. خالتك، هل يمكن هذا؟ قالت إنها قد جاءتها مكالمة منك في غيابها ومنذ ذلك الوقت حاولت أربع أو خمس مرات. يبدو أن الأمر ضروريٌّ».

قلتُ في لحظة عفوية ندمتُ عليها في الحال بعدما رأيتُ مدى تأثيرها في إيرنا: «شكرًا جزيلًا، ولكن يمكنني فقط في الغد معاودة الاتصال، هذه الليلة سأكون عند الكونتيسة».

صاحت قائلةً في غرفة النزل: «في الصالون؟ أنتِ؟ روت، هذا مدهش، لقد قضيتِ بالكاد أسبوعين... روت شڤارتز دُعيت إلى الصالون! لا أعرف إذا كنتِ تعلمين كم أن هذا شيء خاص للغاية، المعظم منا لم يكن قط في واحد من تلك الصالونات. فيليب أيضًا أحيانًا ما يُدعى، فهو جيولوجي».

فأفزعني أن الكل استدار تجاهي ورفعوا نخبهم لي في سعادة غامرة. كانت إيرنا تطير من الفرحة. المشهد بأكمله وضعني في موقف محرج، لأنني فقط كنتُ أبحث عن عذر لأحصل على تأجيل معاودة الاتصال.

- سيرافقكِ فيليب بالتأكيد عندما ترغبين. فيليب، متى ستذهب؟

استطردتُ مسرعةً: «هذا ليس ضروريًا، سأحب الذهاب وحدي».

صاح شاب كان واقفًا في الغرفة: «سأذهب في خلال عشر دقائق».

وأغلق سحاب سُترته مما أحدث صوتًا مسموعًا. يجب أن يكون تقريبًا في عمري نفسه وكان لديه إحدى قصات الشعر تلك التي تتلاءم في الوقت نفسه مع تي شيرتات فرقة موسيقية ما وقمصان الجولف.

قالت: «إذن معًا إيرنا، وفي الغد لا بد أن تحكي لنا عما تحدثتم عنه، نحن فضوليون على الدوام تجاه ما يحدث في الأعلى هناك».

«في الأعلى هناك»، دومًا تقال عندما يتحدث أحدٌ عن القصر، صياغة تجسد الخوف والإعجاب في الوقت نفسه، لأن «في الأعلى هناك» تشير إلى مكانٍ يحن إليه، وما دام لا يزال يتوق المرء إليه، فإنه سيظل دومًا يحتقره لا شعوريًا لأجل حماية نفسه. وإلا سيضطر المرء إلى احتقار نفسه لأنه لا يزال لم يذهب إلى هناك بعد. اهتزت الغرفة بأكملها من الحقد المملوء بالسعادة مثل قطعة

عنيدة من الجيلي. لا شيء يمكن فعله أكثر من ذلك، اضطررتُ إلى الوجود في الصالون. بصورة مزعجة ظهر أيضًا فيليب، المسمى بالجيولوجي، وقبعته التي انتهى بها المطاف إلى الانزلاق في يده. فهمتُ من تعابير وجهه أنه كان مستعدًّا للمغازلة، بينما كانت السيدة إيرنا تضم كلتا يديها فوق إبهاميها المضمومين وتضعهما بقرب شديد من وجهي بإيماءة خطيرة لتمني الحظ لي[1]. بمجرد ما أغلقنا الباب خلفنا وانعطفنا ناحية الميدان، تذكرتُ أنني ما زلتُ في الجينز المتصلب من الطين.

إنه أحد الأوجه الغامضة للوجود البشريِّ، السرعة التي بها نكون قادرين على التكيف وقبول ما هو غريب كما هو. عندما رأيت القصر للمرة الثانية في حياتي، بدا لي الشيء الأكثر اعتياديةً أن يأخذ الخدم من الضيوف معاطفهم التي جلبوها من سيارتهم باهظة الثمن. شعرتُ بالارتياح لإمكانية الانفصال عن الجيولوجي، الذي وكما هو متوقع، ظل يحاول إظهار اهتمامه بي طوال الطريق عدة مرات. في البداية قادني عبر ضواحٍ عديدة غير ضرورية على الإطلاق، ربما للاستمتاع بالمحادثة. ثم كانت ذروة الحوار عند اللحظة التي دعاني فيها إلى عيد ميلاده الـ 35، وسيُنظِّم احتفال ضخم في نهاية الأسبوع القادم في قاعة نائية في «أوبرشينكلباخ». «حفلة ذوقها سيئ. الشعار: سيئ، الأسوأ، الأسوأ على الإطلاق. يجب أن تخجل من نفسك، هذا هو العنوان الفرعي».

ثم وبلا أي مقدمات إطلاقًا اقترب للغاية مني تحت ادعاء أنه لا يستطيع رؤية شيء في الظلام. ثم أخذ خطوة أخرى وقال: «شعرتُ بالأسف الشديد عندما سمعتُ ما قد حدث لإريش وإليزابيت. كنتُ معتادًا بالكامل على رؤيتهما بالقصر».

سألتُ: «في القصر؟ لمَ كانا بالقصر؟ ومتى؟».

- حسنًا، كل أسبوع عند الكونتيسة. لهذا السبب كانا هناك، بل حتى إنهما قد باتا هناك ليلة الحادث. ولكن ربما تكون تلك أيضًا ذكرى خاطئة. أراكِ قريبًا.

---

(1) إيماءة باليد لتمني الحظ للآخر، وهي بثني الإبهام بالداخل وضم الأصابع من فوقه. تُستخدم في النمسا وجنوب إفريقيا وألمانيا.

كنا قد اتجهنا إلى أراضي القصر وبطريقة غريبة فُصِلنا حسب الجنس في غرف خلع المعاطف.

قالت فتاة شابة ترتدي مريلة صغيرة بلغة لا تشوبها شائبة مثل الرجل المسن الآخر الذي قابلتُه منذ أيام: «تفضلي، الطاولة جاهزة».

كانت صالة الاستقبال مُزينة بطريقة فخمة، بدت وكأن «جاي جاتسبي» وجماليات الريف النمساوي يحتفلون بعقد قران. وُضعت أزهار الجنطيانا بين قرون الغزال واليقطين كفلكلور (زهور، باقات، ومكرميه[1])، من المفترض أن تجبر الأجواء الخريفية الكسولة والمضطجعة في الغرفة إلى البقاء، بينما يسلخ الناس عن جلودهم معاطفهم الشتوية.

من الواضح أن باقي الضيوف يعرفون بعضهم بعضًا حيث ألقوا بأنفسهم في أحضان بعضهم بعضًا، وقُبلات في الخد، وانحناءات ومصافحات. كنتُ شخصًا غريبًا في هذه الشبكة من المعارف المُضفَّرة بدقة وفكرتُ في اللحظة الأخيرة إذا كان في مقدوري الفرار. وبدلًا من ذلك اندفعتُ، مدفوعةً من الحشد الغارق في نسيج من المحادثات، إلى الطابق العلويِّ في الجناح الأيمن من المبنى الذي لم أطأه قط قبل الآن. لا أحد سواي قد خالف قواعد اللبس المناسب للحفلات الرسمية: الفساتين والمعاطف ذات الذيل. حاولتُ بلا جدوى، بينما كنا جميعًا ندخل الصالون المُزين ببهاء فاخر، إخفاء سروالي المطلي بلون الطين والبلوفر المنسوج بخشونة تحت معطفي. كانت النظرات شيئًا لا يمكن تجنبه، بدوتُ مثل متشردة.

على طاولة احتفالية طويلة وُضعت بطاقات بالأسماء لكل ضيف، وبينما كان الجميع يجدون بثقةٍ مغناطيسيةٍ كراسيهم، كنتُ أنا مثل حشرة ترفرف بلا هدف في أثناء بحثي. فقط عندما جلس آخر واحد استطعتُ حينها تحديد مكاني كفراغٍ متبقٍ بين الآخرين. بمجرد استقراري في مكاني، حلَّ صمت رهيب على الأشخاص الجالسين حول الطاولة، وظلوا هكذا قرابة دقيقة قبل سماع دوي خطوات ميلودرامية متعاقبة. دخلت الكونتيسة إلى الصالون مرتديةً جيبة تصل إلى الأرض وسُترة تناسبها وجلست إلى مقدمة الطاولة.

---

(1) منسوجات عربية تقليدية.

قالت: «أهلًا بكم في الصالون العاشر لهذا العام. يمكنكم الآن التحرك».

زفر الحشد، كما لو أنهم قد طفوا جميعًا فوق المياه. فقط عند هذه اللحظة أدركتُ أنني أنا أيضًا كنتُ ممتنعة عن التنفس، والآن تشبثتُ بالطاولة متنفسةً بصعوبة مثل كل الآخرين.

تابعتْ: «لدينا الآن ضيفٌ جديد في صفوفنا، عالمة الفيزياء الشابة روث شڤارتز، التي سوف تتولى منصب المستشار ربما في المستقبل. في مسائل الاستقرار الخاصة بمرضنا العظيم».

أصررتُ بشكل ضعيف على التنفس، لكن ما زلتُ لا أقدر على التقاط أنفاسي، للحظة رفعتُ يدي ما فهمه الآخرون كإشارة على أنني أُعرِّف نفسي بالشخص المُشار إليه. واستمرت الكونتيسة في الكلام بتعريفها بي قائلةً: «السيدة شڤارتز، هي هنا على الطاولة، من أهم الشخصيات في بلدتنا الجميلة. سأمتنع عن الدخول في جولة مسهبة من التعارف، ولكنها سوف تتعرف إليكم جميعًا بمرور الوقت. أصدقائي الأعزاء، أنا أخطط لإطلاع السيدة شڤارتز على كل مشاريعنا. (قالت الكونتيسة موضحة) فهي من بلدنا».

اعترضتُ أخيرًا قائلة: «فقط والداي من هنا».

قطعت حديثي قائلةً: «أي أنك من هنا. سيدة شڤارتز، هنا مثل مجلس البلدية، إذا صح التعبير، لذلك يمكنك أن تشعري بالتشريف بأقصى قدر، لوجودك هنا».

رفعتُ يدي مرة أخرى: «أليس من المفترض أن ننتظر العمدة؟».

الجميع ضحكوا باستثناء الكونتيسة، كما لو أن طفلًا قد سأل شيئًا غبيًّا لطيفًا.

قالت الكونتيسة بهدوء: «سيدة شڤارتز، العمدة ليس جزءًا من أعمالنا. كما ترين، يوجد في قريتنا، كما في دولتنا ككل، هيئتان تعملان بشكل منفصل عن بعضهما بعضًا. هناك النظام القديم، كما نلتزم به هنا، ثم النظام الجديد الذي في نقطةٍ ما نُشر فوق النظام القديم بلا مراعاة للهياكل العضوية، الحية. كلاهما الآن يحتكان ببعضهما بعضًا يصنفر أحدهما الآخر، مما يتسبب في سلسلة من المشكلات».

عند هذه النقطة أشارت للنادل بالدخول، وانتهى الموضوع.

- تفضلوا المقبلات، ولبروتوكول اليوم، المهندس هاينتسلمان.

أربع شابات حملن صينية تلو الأخرى إلى الداخل، وفوقها الكثير من مقبلات الأنتيباستو الإيطالية، سلامي الكمأة، والجبن الفرنسي المميز، زيتون، فطائر صغيرة محشوة باللحم، قطع البط المشوي في صلصة التوت البري وعشرات من سلال الخبز ملأى بالمعجنات. بالإضافة لهذا صُبَّ نبيذ أحمر لذيذ للجميع. كل شيء كان لذيذًا بسحر فائق. ولم أنتبه إلا بشكل خافت لوجود مُسنٍّ واقفٍ قد بدأ بصوته الرخيم تلاوة برنامج اليوم: «مناقشة تحضيرية 1، ملاحظات تمهيدية عن تنظيم الصناعة. الموضوع الرئيسي 1. أعمال فنية لاستغلال الاختراقات. نقطة 2. مناقشات حول منح قطع أراضي «فاستل-هوه»».

الباقي بهت في أثناء استمتاعي بالإسكالوب ومعه صوص البرتقال والثوم وروزماري مشوي، أثارت الأكلة حالة من النشوة بداخلي. تمنيتُ أن أجلس صامتةً في هذه الطاولة وأنتشي بالجمال الفنيِّ للأطباق وأعود من جديد إلى وطني، قبل أن يتمكن أحد من الوصول إليَّ. بدا المهندس هاينتسلمان وكأنه مبتدئ في حفلة الأوبرا للرقص المزدوج، كان مسؤولًا عن انحناءات التحية الملكية وافتتاحات الغرف لكل نقطة من برنامج اليوم، ومع ذلك كانت توبخه الكونتيسة مرارًا وتكرارًا، حيث كانت تقوده إلى رقصة صغيرة.

قال: «تلقينا شكاوى تفيد بأن بعض الناس يرغبون بشدة في الحصول على واحدة من سلاسل السوبرماركت الكبيرة في المنطقة، التي تسود في باقي مناطق النمسا، بدلًا من نظام متاجر البقالة الصغيرة الذي جُرِّب بالفعل، ولكن هذا ما نعرفه منذ سنين».

قالت الكونتيسة بنبرة جازمة لحكمٍ قضائيٍّ: «مستحيل، هذا مستبعد. النقاش مفتوح».

بدأ رجل في النقاش المفتعل مرتديًا بزة عسكرية قديمة: «بالطبع ليس لدينا أي اهتمام بمنتجات العولمة. لذا يتلخص السؤال في كيفية إعطاء الانطباع بأنهم ومع ذلك لا يزالون موجودين هناك. فقد استطعنا إلى الآن تقليد نحو 50% من المنتجات المطلوبة».

استطعتُ قراءة اسمه الموجود على صدره: الجنرال «أوبرست هايدنتال». ولكن كلما تفحصتُ أكثر في بزته الرسمية، صرتُ غير واثقة من أن ملابسه ليست سوى رداء خياليٍّ، إذ كان هناك بعض الانحرافات الطفيفة التي كانت تميز زيه عن زي الجيش التقليديّ.

سألت الكونتيسةُ امرأة كبيرة في السن ترتدي الدرندل[1] ومريلة: «لِيلي، ما الذي يقوله التجار؟».

فقالت: «نحن ما زلنا نُصنّع الكوكاكولا. هناك شكاوى بخصوص رائحة العرقسوس. غالبًا ما يتكتل الجبن الطازج في قطع، اضطررنا يوميًّا إلى كتابة أغلفة جديدة بتواريخ لفترة صلاحية أخرى. هذا شيء سيئ تمامًا».

قالت الكونتيسة: «من وجهة نظري فعلينا تقليل حساسية الناس إزاء الأشياء والتحدث معهم عن طريق المؤثرات الإعلامية بوجوب الالتزام بمثل هذه الأذواق. يجب القضاء على هذا الأسلوب من المحادثات».

سارت الأمور على هذا النحو: نظرًا إلى أنه كان من المفترض تنمية المنتجات المحلية في مبادرة ضخمة، ولكن السكان المحليين يطالبون بالعلامة التجارية الدولية، فبدأت الشركات المحلية في تقليد العلامات التجارية وتقديمها للمستهلكين على أنها أصلية بعلامات مطبوعة ذاتيًّا. ولكن هذا أدى كما يبدو إلى إشكالية لم يُفكَّر فيها، إذ تعجب الناس من توفر حلوى الدببة المطاطية من الإعلان بينما لم يتوفر البونبون الذي من العلامة التجارية نفسها، فاضطرت كتيبة من صُنَّاع المواد الغذائية والبقالة السيدات إلى العمل الدائم على صناعة نسخ من العلامات التجارية المتنوعة بشكل هائل، التي مع ذلك لم تصل قط إلى الأصل في صناعتها.

وعليه كانت محلات السوبرماركت عبارة عن قرى «بوتيمكين[2]»، بداخلها تُصنَّع الكوكاكولا في معمل صيدليٍّ وتُنتج أوراق التواليت المحلية بكميات ضخمة، ويُنتج السلامي مكتوبًا فوق عبوته أنه جاء من المجر، ولكن في

(1) فستان تراثي يُلبس في جنوب ألمانيا والنمسا.

(2) تحكي القصة عن شخص يُدعى بوتيومكين بنى قرى مزيفة لإبهار الإمبراطورة كاترين الثانية في أثناء زيارتها إلى روسيا. ومن وقتها يستخدم المصطلح تعبيرًا عن الهوية الزائفة التي بلا جوهر، أو المظاهر الخادعة التي تخفي وراءها دمارًا وفسادًا.

الواقع جاء من محل الجزارة الواقع عند الناصية. كنتُ أجد هذه التبادلية في العلاقات مضحكة في بعض الوقت، وكنتُ أتساءل من أين يأتي هذا المحار الموجود فوق طبقي، الذي كان يُجلب إلى هنا بكميات ضخمة. هل من البِرك التي في الحفرة؟

قالت امرأة الدرندل بترقبٍ متخوف من رد فعل الكونتيسة: «يمكننا تكليف عضو المجلس البلدي المسؤول عن الإعلانات بإنشاء حملة لإلقاء اللوم على سلسلة التبريد[1] فيما يخص اختلافات التذوق الطفيفة. ولكن يجب دائمًا نقل شعور بأن المنتجات مع ذلك لا تزال صالحة للأكل، وأن هذا له علاقة بحاسة التذوق لا بالجودة، بل وربما حتى تزداد الجودةُ لهذا السبب».

لم أفهم لا هذه الأشياء الكثيرة الشخصية التي أُشير إليها، ولا الإجراءات أو التصويت على القرارات التي دائمًا وبشكلٍ أساسيٍّ خاضعة لرأي الكونتيسة. لم يحدث أي تقدم بخصوص المسألة الأولى عندما استُدعيَت المسألة الثانية.

قال المهندس هاينتسلمان صائحًا في منتصف النقاش الجاري: «الأعمال الفنية».

صمت الجميع.

كانت الكلمة المقدسة للكونتيسة: «موضوع الأعمال الفنية سيُقام الآن. لقد انتهى، انتهى. ولأن كل شيء واضح الآن، أيُسمح لي أن أبوح للسيدة شفارتز عن مشروعنا. بالطبع تعرفين عن الحفرة، وأننا نمر بمشكلات عويصة منذ العام الحاليّ؟».

قالت وأشارت -دون أي ترابط- إلى خشب الباركيه في الأرضية.

قلتُ لكي أغطي على جهلي بخصوص هذا الموضوع: «لقد رأيتُ الساحة الرئيسية».

انتشر في أرجاء الغرفة إحراج ما، فقط الكونتيسة وحدها تقدر على السيطرة عليه. أوضحت الكونتيسة: «لقرون عديدة كان لدينا منجم يُدِر

(1) هي سلسلة غير منقطعة من أنشطة الإنتاج والتخزين والتوزيع المبردة، جنبًا إلى جنب مع المعدات واللوجستيات المرتبطة بها، التي تحافظ على الجودة عبر نطاق درجات الحرارة المنخفضة المطلوبة.

ربحًا وفيرًا على بلدتنا، الذي مع الأسف جعل التربة رخوة بمرور الوقت. الموضوع هو: أن هبوط البلدة يحدث الآن بسرعة أكثر من المفروض. في هذه الأثناء يُسجِّل الهبوط في بعض المناطق فوق الساحة الرئيسية المخروطية بسنتيمتر في اليوم. وتتصدع الأرضيات الرخامية التي تعود إلى قرون بعيدة من المنتصف إلى نصفين والناس يجلسون في حجرة معيشتهم فوق الأساس الحجريّ، ويجب الإقرار بأن ذلك يعد وضعًا مؤسفًا للغاية».

وأكملت: «بالطبع ستبدو المباني قبيحة عندما تنحرف عن شكلها الطبيعيِّ وسيستغرب الزوار هذا. منذ وقت قريب ابتُلع جرار ما، ومن حسن الحظ لم يُبتلع بالمزارع، فقد كان موجودًا حينها في حظيرة الخنازير. حاولنا في العقود الأخيرة أقصى ما يمكننا فعله لوقف الهبوط في حد ذاته، ولكن صبُّ الخرسانات في الهوة كان بلا نتيجة، نحن نتحدث عن مليارات الأمتار المكعبة. السيد لويبولد عالِمنا الجيولوجي يمكنه ربما أن يفسر لنا ذلك باستفاضة».

كان هو نفسه فيليب المُزعِج للغاية -في أثناء طريقنا إلى القصر- واقفًا وفي يده خريطة وقد فرشها على الطاولة لتكون مرئية للجميع. كان عليها منظر جانبيٌّ لجروس أينلاند، بدت رُقعة المدينة المسطحة مثل وحمة فوق كتف عضلية لـ «هوخ فيكسل» تنحدر يمينًا ويسارًا. وتحت البلدة، كما كشف الرسم البيانيُّ، تجويف عملاق محمول على أعمدة متدلية كهفية[1] هشة، مدعومٌ بالهواء مثل كاتدرائية قوطية. الشيء الخطير، الذي رأيتُه على الفور كوني شخصًا عاديًّا غير خبير، كان وجود خزانات المياه الموزعة على عدة طوابق، كان هناك واحدٌ آخر تحت التجويف، وتحته يوجد واحد ثالث. كانت قشرة الأرض الهشة مثل طبقات رقيقة من العجين مفصولة عن بعضها بعضًا إلى عدة قِيعان، وفوقها تقف المياه.

أوضح فيليب: «الحفرة ذات عمق، وتشعبات، ورطوبة مجهولة. حيث تبللت الطبقات الأرضية المحيطة بالترشيحات والتسريبات، لدرجة أن جدران الغرف الكهفية صارت مبتلة على مدار عام. وهذا يؤدي إلى أن الماء المتسرب

(1) نوازل الكهوف أو متدليات الكهوف هي نوع من التكوينات المعدنية الطبيعية تتكون كأعمدة متدلية من أسقف الكهوف الرطبة.

من خزانات المياه الموجودة في الطبقات العليا سيؤدي سريعًا إلى المزيد من الثقوب. يمكن تخيُّل ذلك مثل الخَبَث البطيء لقلعة رملية بُنيت قريبة من خط الماء الذي يُحمَل بعيدًا لهذا السبب. نحن لدينا هنا وهنا تركيزات عالية من الميثان».

وأشار إلى مناطق ملونة بدرجات مختلفة من الأصفر الترابيِّ والبُنيِّ. بالتحديد المنطقة الواقعة تحت ساحة السوق، التي كانت مصدر الالتهاب المحترق فبدت وكأنها خُراج عميق امتد إلى الصخور. تابع: «نحن نفحص الجبل وكأنه جسد المحبوب بأقل تدخُّل ممكن. (غمز لي فيليب، قال) وهذا يعني بمنظار داخليٍّ: إدخال كاميرات وبعض الآلات الأخرى في أمعائه، ومن المثير للاهتمام أننا سنجد هناك أيضًا، ما يمكن إيجاده في الأمعاء البشرية».

أكملتُ قائلةً: «بكتيريا».

قال فيليب: «بالضبط. بسبب النشاط الجيولوجي المستمر إلى الآن تحدث تشعبات رقيقة في الصخور، هذه الطبقات ناشطة كيميائيًّا للغاية وتؤدي إلى نشوء مستنبتات جديدة للبكتيريا. فالطبقات العليا كما أيضًا الطبقات الواقعة مباشرةً أسفل المياه المتساقطة تعج بالحياة. يؤدي الناتج الأيضي لهذه الكائنات الصغيرة -التي ليس لها أي خطورة بالكامل في الحالات العادية لتربة الغابات وحتى لها أهمية للمحيط الحيوي للأرض- إلى مشكلات في الاستقرار بداخل الرواسب الناتجة عن التعدين».

كان أعضاء الصالون لا يزالون يَحُكُّون رؤوسهم خفيةً أو كانوا مشغولين بإعادة ملء كؤوسهم بالمياه. كما لو ضُبطت مجموعة من تلاميذ الابتدائية في أثناء تخريبهم للعبة تقويم المغامرات[1].

تابع فيليب: «أول ما يجب دعمه هو الحجرة الأساسية الموجودة تحت الأرض، وإلا فسوف تنهار الممتلكات الأكثر قيمة والمباني التاريخية. يعود ذلك الهبوط إلى الستينيات».

---

(1) Adventskalender: ليست لعبة بالضبط ولكنه تقويم لشهر ديسمبر يحتوي على أبواب لكل يوم، ويُفتح كل باب في اليوم الخاص به. وهنا تقول الكاتبة إنهم يفتحون كل الأبواب في الوقت نفسه.

تدخلت الكونتيسة قائلةً: «إلى الخمسينيات إن أردت أن تعرف هذا بالضبط. ونحن سوف ندعم كل شيء، يتعلق الأمر بالقضاء على هذه المتلازمة بالكامل؟».

الشيء الذي لفت نظري هو أن الكونتيسة كانت دائمًا ما تترك الشخص الذي أمامها يتحدث أولًا، لكي تبخ سُمها مثل أفعى في أضعف نقاط الخطاب.

تابعتْ: «بالطبع تعرف أيضًا أن بلدتنا الجميلة تضررت بشدة في أثناء اضطرابات الحرب العالمية الثانية وأنه بعد القصف بالقنابل رُفعت الأرض نتيجة لتكدس الأطلال بنحو مترين لإعادة بناء المباني من جديد كنسخة من الأصل. (توقفت لبرهة عن الكلام بصورة درامية) للأسف خلال فترة الهبوط كانت أجزاء المباني تستمر في التلف، وإنه لشيء مؤسف أيضًا لصورة المكان. كل شيء في كل شيء، لقد قررنا... (وقفت الكونتيسة وأكملت) أن تكون أعمال الحفر لدينا من أكبر الأعمال الفنية في العالم».

والآن انطلق المستمعون الذين كانوا إلى هذه اللحظة في جمود، في تصفيق عاصف هدأته الكونتيسة بلا مبالاة ملكية: «سوف نعلن عن بدء العمل على الفور فيما يخص موضوع هبوط المدينة ونجمع السياحة من حولها على نطاق واسع. فالأمر يتعلق بفن قيم وباقٍ، ولكن أيضًا القليل من الكسب الماديّ، فسيكون شيئًا غير مرحب به. بالطبع، سيدة شڤارتز، يمكنك تخيُّل أن مثل هذا المفهوم الشامل سيستغرق وقتك لكي يُطوَّر. فن ضخم يعني أيضًا مجهودًا ضخمًا، وحتى تكون الأفكار التي وضعناها في الاعتبار اليوم هنا جاهزةً للسوق، سيستمر الأمر بضعة شهور في البلد، إن لم يكن سنوات. لهذا السبب بالضبط نحتاجك هنا معنا».

كانت الفكرة غير منطقية تمامًا: كيف يمكن لسياحة ضخمة أن تتناسب مع هذه البلدة الناعسة التي تشبه العش؟ فلا وجود لشارع واحد يؤدي إلى هذه القرية.

قلتُ «أنا مضطرة إلى تخييب ظنك، فأنا لست متخصصة في الفن».

- ولكن لا، أيتها الفتاة السخيفة. بالطبع سوف تجدين طريقة لتبطيء عملية الهبوط تلك وخلق الوقت لنا لامتلاك أفكار واقعية للأعمال

الفنية. نحن نحتاج لفيزيائية تطور لنا مادة حشو يمكن حقنها بهدف التأثير في العامة.

- سيدتي كونتيسة، لا أستطيع عمل ذلك. مرة أخرى: أنا لستُ عالمة فيزياء حيوية، فقط اختصاصي هو الفيزياء النظرية. مع الوقت، إلى الآن لم أُجرِ أي تجارب، أنا أعمل فقط على الورق.
- مدهش، مع الوقت، إذن يمكنك جعل وقت هبوط البلدة بطيئًا. الأمر يتعلق بمنح الناس الأمل، أتفهمين؟

شعرتُ بالاضطراب من نبرة اليقين لدى الكونتيسة، ولم يكن في مقدوري مواصلة الإصرار. قلتُ: «سوف أتعمق في الموضوع وأرى إذا كان في مقدوري المساعدة».

كان هذا خلاصًا للجميع، واندلع من جديد التصفيق وأنا نفسي شعرتُ بالتحرر، فلن أشعر مجددًا بأن كل التوقعات تنصب فيَّ. نشأ مجتمع صغير من حولنا جميعًا، هذا يعني أنني انتقلتُ من الخارج إلى الداخل، كما لو انغلقت علينا بتلات زهرة ما. في وعدي للكونتيسة صرتُ واحدةً من مجتمعها الصغير وبطريقة صادمة أعجبني ذاك الشعور للحظة، قبل أن أدرك ما أعلنت عنه للتو. لا يهم، فسوف أختفي في أول لحظةٍ بعد تنظيم تشييع الجنازة.

أوضحت امرأة شابة في هذه الأثناء، التي تعرَّفت عليها الآن، كانت أنيتا فتاة المكتبة: «كما سبق أن ناقشنا، فنحن نخطط لإقامة معرض ضخم يستوعب لمئات الآلاف من الزوار. نحن نفكر في سعة ضعفين أو ثلاثة معرض «دوكومنتا[1]». الخطوة الأولى ستكون إعلان الحفرة كونها موقعًا للتراث العالميِّ لليونسكو وبما في ذلك الهبوط بالطبع».

مثل مضرب البيض قلَّبتُ في شنطتي بيدٍ ناقبة، وجدتُ أدويتي وبلعت حبة زانكس. انتظرتُ بقلق مفعول الدواء، الهدوء، لا يزال عدم ظهوره بداخلي يثير اضطرابي. فكرتُ: سوف *أستأذن*، ولكن لم أعرف لأي سبب.

(1) اسم أهم معارض العالم في الفن الحديث، يقام مرة كل خمس سنوات، ويظل مفتوحًا لمدة مئة يوم.

بلعتُ دواء المهدئ بالكثير من الكحول. أحدهم أمسكني من كتفيَّ وسألني إن كان كل شيء على ما يرام. رأيت إحصائيات مرسومة على مسند للوحات. وقطع الإوز التي حُملت حديثًا تطير إلى الأفواه، وقد جعلني هذا متصلِّبة تمامًا من البرودة. بالكاد استطعتُ مواكبة الوتيرة.

كانت المحاضرة تتفكك إلى شذرات وتفقد ترابطها بشكل متزايد، كما لو كانت في عملية مونتاج: «الهدف الذي نصبو إليه هو أن نكون قادرين على الاحتفال بالافتتاح الكبير خلال نحو عشرين شهرًا. لفعل ذلك علينا زيادة موسيقى آلات النفخ، ونحن لا نملك ما يكفي من الموظفين في فرقة الإطفاء التطوعي لأجل التحقق من الأمان. في الدور الأرضيِّ سوف يكون «شاجال[1]» الحقيقي موجودًا، ستقدمه لنا الكونتيسة. (تصفيق من جديد) طُلبت الدعائم اللازمة من الصين. وسيُخبَر السكان بجزء تلو جزء، وربما سيكون هناك استفتاء عام. كما هو معروف أن عنوان العمل هو: مشروع تحت الأرض».

في منتصف المحاضرة اندفعتُ بعنف واقفةً، لدرجة أن الأطباق التي ملأتها بالكامل بالطعام قد هوت على الأرض. قلتُ لأن الجميع انتظر تفسيرًا مني لهذا الفعل: «لستُ بخير. (أضفتُ لكلامي) سوف أذهب اليوم مبكرًا».

كما لو كنتُ منذ سنوات آتي إلى جميع الصالونات. رفعتُ يدي لأُلوِّح، لكني أدركتُ في منتصف حركتي مدى سخافة هذه الإيماءة للموقف، وتركتُ يدي معلَّقة في الهواء، حتى هيَّجت عزمي أخيرًا على الابتعاد عن الطاولة. لم يتبعني أحد وطرتُ إلى أسفل السلم، حيث هربت من الدهليز الخالي -لحسن الحظ- من الخدم. أفاقني الهواء النقي. لكن راحة أن أكون من جديد وحدي، كانت مُصاحبة لشعوري بأنه كان من الخطأ أن أذهب، كما لو كنتُ الآن أفقد شيئًا ما سيُحرم مني لوقتٍ طويل. اضطررتُ إلى التجول خلال ليلة باردة وهادئة بطريقة مخيفة وعندما استدرتُ ورائي مرة واحدة، بدت النافذة المُضاءة بنعومة مُغرية مرة أخرى. فقط ما خطر على بالي من جديد هو: قبل أسبوعين كان والداي يجلسان في الأعلى هناك.

***

(1) كان فنانًا يهوديًا روسيًا، أنتج ما لا يقل عن 10000 عمل فني. ويعد من أهم فناني القرن العشرين.

سرعان ما اكتشفتُ في أحد الأيام الأولى بينما كنتُ ذاهبة للتسوق، ما يسمى بالنصب التذكاري. كان موضوعًا بقرب بالغ من السوبرماركت ومع ذلك لم يكن واضحًا، لدرجة أنه يمكن للواحد أن يمر طوال حياته بجانب السياج ولا يرى النصب التذكاري. صعدتُ بجهد الدرجات الأربع إلى هضبة عشبية حيث زُرع حول مستطيل رخاميٍّ بضع أزهار الجلاديلاس.

«**في ذِكر الأحداث**» كُتب على حجر، ولدقائق عديدة تساءلتُ في نفسي أي أحداث من الممكن أن يقصدوها. وعندما قرفصتُ تجاه اللوحة وتحسستُها بأناملي لاحظتُ أنه كانت هناك جملة أخرى محفورة تحتها، مُحيت من كثرة المياه، لدرجة أنني بالكاد استطعتُ فك شفرتها. قرأتُ: «**بعض الأشخاص ماتوا في هذا الموضع، وهذا يجب ألا يُنسى**»، وازداد كل شيء غموضًا. من الواضح أنه كان بلا ترابط أن تنتصب كنيسة صغيرة ليست ببعيدة عن الموضع وفي نافذتها مريم الناحبة. وكُتب أيضًا: «**أربعة وثلاثون جسدًا يرقدون هنا**».

ولأن الموضوع ظل يشغلني حتى عند عودتي إلى البنسيون قررتُ أن أتحدث مع السيدة إيرنا مباشرةً عن هذا الموضوع. وكجواب دسَّتْ في يدي ملف أوراق وسألتني بفرحٍ كيف جرى صالون الكونتيسة. نظرتُ إلى الورق، الذي في قساوته الباردة كان يوجد شيء ما مجرد بوضوح: فلا توجد عناصر مرسومة، ولا شيء مميز يزين قطعة النص المكتوب. وإلى الآن كنتُ أتعجب من أنه للوهلة الأولى قُدِّمت المعلومات بالقدر نفسه من التهاون واللامبالاة التي نُسيت بها من الوعي الجمعيّ.

قرأتُ القصة بعد غدائي. كانت تقريرًا رصينًا ممزوجًا ببضعة اقتباسات متفرقة لشهود عيان يروون ما يتذكرونه من آخر مرة رويت فيها الحكاية. كان النص على هذا النحو:

في يوم الاثنين لعيد الفصح الموافق يوم 2 أبريل لعام 1945، أُخرِج ألفا سجين من المعسكر الجانبي III / ماوتهاوزن/ جاو فيينا الكبرى[1]،

(1) يستخدم مصطلح فيينا الكبرى لتمييز فيينا خلال حقبة النازية. ومصطلح جاو يعني منطقة وكان يستخدم في العصور الوسطى ثم أُعيد إحياؤه في فترة النازية.

من منجم منخفض، حيث كانوا ملزمين بربط أجزاء الطائرة ببعضها بعضًا لمدة ثلاثة أشهر كاملة. عندما جُمِعوا في مربعات مكونة من مئة شخص على المرج أمام الثكنات، بالقرب من المنحدر الرئيسيّ، ونظرًا إلى أنه كان من الصعب السيطرة عليهم بسبب العدد الضخم، فقد أُصدِر قرار بإرسال ألف ومئتَي شخص منهم في مسيرة الموت[1] إلى «بورغنلاند». وبينما كانت تدق الأجراس للمرة الثانية لموعد القداس والأطفال يصرخون من السعادة باحثين عن البيض الملون لعيد الفصح في الحدائق المجاورة، كانت القافلة تستمر بالسير بهدوءٍ تام وصمت مطبق كما جاؤوا. أفاد بعض القرويين بعد ذاك بشكل متفرق، الذين كانوا في طريقهم إلى الكنيسة بأنهم رأوا الموكب، والأغلب ادَّعى بأنهم في ذلك اليوم كانوا لا يزالون نائمين.

كان صباحًا باردًا للغاية ودرجة الحرارة بالكاد أعلى من درجة التجمد، والرجال الـ 800 الباقون يقفون بأقدام حافية في الثلج الرماديّ. ارتعش حراس المعسكر المتروكون من التوتر، عشرة رجال، ستة منهم وصلوا لسن الرشد. انصاعوا وراء الشعور بكم هائل من المتطلبات الضاغطة، تحفهم برودة قارسة لا حدَّ لها. صُدر الأمر، حُبِس السجناء الضعفاء ومنهوكو القوة تمامًا في الثكنات عند نحو الساعة الثامنة صباحًا، كي يقدروا على التعامل معهم بخشونة في مجموعات صغيرة مكونة من أربعين شخصًا. أُمِروا بالاستلقاء على ظهورهم فوق الجليد الناعم والأذرع ممدودة على الجانبين بعيدًا عن بعضهم بعضًا. ثم فكوا أزرار زيهم المُقلَّم والموسَّخ وحقنوهم بالبنزين[2] أسفل عضمة القص[3].

أمرَ قيادي ما قليل الخبرة في الحرس بتوفير الذخيرة لأجل النضال القادم لا محالة في سبيل فيينا. كان شيئًا عبثيًّا وغير متكافئ مع مهمته، لذا فثلث الحالات أخطأت فيها الإبر الهدف. إذا ثُقب موضع القلب بدقة بإبرة البنزين،

---

(1) يُجبَر المساجين أو أسرى الحرب على السير لمسافة طويلة بغرض القتل وإضعاف أجسادهم مع استخدام أسلوب التجويع والإهانة والعطش كما يُعدَم العاجزون عن إتمام مسيرة الموكب.

(2) حقنة الموت.

(3) الفجوة بين القفص الصدري في الصدر.

فسيحدث الموت في غضون بضع دقائق، وإذا ثُقبت بدلًا منه الرئة، فستبدأ عملية تمتد لساعات عديدة من التشنجات، والشلل، وأخيرًا الاختناق.

بحلول فترة ما بعد الظهر كان الحراس العشرة قد قتلوا مئتَي شخص، ظل منهم على الأقل سبعون شخصًا يتصارعون مع الموت، يتناوب كل خمسة حراس إما على حفر القبر وإما على إعطاء الحقن. الآن بعد أن صار حفر المقبرة الجماعية تجسيدًا لمجهود عظيم، ظل يتزايد توتر الحراس ببطء. فأُصدِر قرار بدفن السجناء الباقين على قيد الحياة بسرعة.

كل أربعين شخصًا يُلقى بهم، كانت أجسادهم تتدحرج إلى المقبرة، ثم يفرغون فوقهم التربة المفككة، بينما يُحمل الأربعون شخصًا التالون من الثكنات. سيحتاجون للمزيد من الرجال للحفر، أخذوا الأربعين التالين ليجهزوا التربة للأربعين الذين بعدهم. كان الحراس متجمدين وشاحبين من قلة النوم عندما سمعوا أصواتًا غريبة عند خروجهم. في المشهد المزداد ظلامًا كان شيء بالكاد يمكن إدراكه، عندما -وبشكل مفاجئ من الأسفل، أي من تحت القبر المردوم بالفعل- بدأت الأجساد في التحرك، آخر الأجساد الحية تشق طريقها من القبر المملوء، تجاهد من أجل الهواء. ثم طلقات نارية.

لكن ما لم أفهمه هو: عندما بقي نحو 800 شخص في جروس أينلاند، وفي النصب التذكاري يرقد 34 شخصًا كما هو مكتوب، فماذا حدث مع الـ 766 شخصًا الآخرين؟

9

كان صباحًا شديد البرودة، عندما كنتُ أمشي في حي الضاحية. تأخرتُ في إيجاد مقر وكالة الدفن وفكرتُ حتى في إلغاء الموعد مرة أخرى لتجنُّب الذي لا مفر منه. بعدما تركتُ النزل ظللتُ آمل حدوث صدفة ما، شيء ما خارج عن يدي، شيء ما مفاجئ. شيء ما يقدر على منعي من الوصول إلى هناك.

كانت الطريق تمر على بيوت مزدوجة مفصولة بجدار واحد مشترك مرصوصة بجانب بعضها بعضًا، مدهونة بألوان مختلفة لتظهر كمبانٍ منفصلة، وليست مترابطة. ولكن الغرف كانت بجانب بعضها بعضًا كخدٍّ إلى خد، والجراج ملاصق للجراج، كما مرايا متقابلة تُطيل الشارع إلى الأسفل بلا نهاية. تلهف المزاج العام إلى هطول المطر، وذاب الأسفلت المصنوع محليًا بامتياز من كلا الجانبين في بِرك دفعت بدورها بالتربة الرطبة للغاية في مثل هذه الأيام في جروس أينلاند إلى السطح.

ومثل أي وكالة للدفن كان اسم المُنظَّمة اسمًا مركبًا، من المفترض أن يكون له تأثيرٌ مُهدئٌ، ولم أستطع تذكر هذا الاسم المركَّب، لأنه كان قابلًا للتبديل، نظرة السماء أو أزرق فاتح، دموع مدوية، ماء الحلم، موسيقى القلب، لهيب الألم، أرض أبدية، طبل الحياة، صيف ربيعي، رياح ثملة، خريف المشاعر، عيون متأرجحة، اخضرار الأفكار، وجل المحبة، رحلة الهواء، شمس أبدية أو ما شابه. بلعتني الأبواب الأتوماتيكية الخرساء. استقبلني الموظف الذي قد تلقى تعليمات بشكل ملحوظ للتعامل مع الصدمات ولمسني بقطعة قطن. في كل مكان عُلِّق على قماش من الكتان دوامات من الألوان الناعمة،

وكان الموظفون يرتدون ألوانًا فاتحة وناعمة، بدءًا من عاملة النظافة إلى موظفة الاستقبال.

اقتِدتُ إلى غرفة الاجتماعات، حيث ناقشت مع مستشار الجنازات تفاصيل تشييع الجنازة. بعد بضع دقائق كنتُ منهكة من قائمة المدعوين التي كنتُ أرسمها في عقلي، بينما كانت المرأة تعرض عليَّ خيارات لمقطوعات موسيقية، على الفور هززتُ رأسي بإيماءة موافقة على كل شيء، وشعرتُ فجأةً أن كل قوة قد انتُزعت من جسدي. لوقتٍ طويل لم أفكر مجددًا في الاحتفال غير العاديِّ الذي كنتُ في البدء أنوي فعله ووضعتُ أسفل النعش الأول صلبانًا صغيرة، كما أسفل الزهور المنسقة الأولى وخطب القسيس التي أُحضِرت لي. بدأ كل شيء يتجمع إلى مبلغ ضخم، وقَّعتُ عليه في آخر الأمر. لم يكن مكلفًا للغاية، ربما كانت حتى صفقة مربحة ورخيصة بالنسبة إلى جنازة، ومع ذلك كافية لدفع المبلغ من بطاقة ائتماني دون أن أضطر من جديد إلى التفكير في عواقب عدم الدفع.

قالت المرأة بلطف: «جيد. متى يمكننا توقعهما، أي والديكِ؟».

على الرغم من أن السؤال كان قابلًا للتوقع، ولكنه داهمني في غير استعداد. كان السؤال إشارة لا رجعة فيها، إنني الآن مضطرة إلى إجراء المكالمة الهاتفية التي كنتُ أتهرب منها منذ وقت طويل.

قلتُ: «أريد توضيح شيء باختصار. هل مسموح لي استخدام الهاتف؟».

أجابت المرأة: «نعم، بالطبع».

وبدت أنها متفاجئة بوضوح من أنني لم يكن لدي المعلومات الكافية، ومن الواضح أنها لم ترغب في تعطيل الإحسان العام وباحتراف هادئ أدارت الهاتف الموضوع فوق مكتبها تجاهي. اتصلتُ بمكتب الاستعلام لكي أستعلم عن رقم خالتي. كانت كل نغمة اتصال معاناة لا مفر منها مجددًا.

عندما ردت خالتي، شعرتُ بخجل شديد من نفسي بشكل مفاجئ ومُفزع. وقبل أن تستطيع قول كلمة واحدة، أغرقتُها في مونولوج متدفق غير قابل للسيطرة: «أنا أتصل بخصوص تشييع الجنازة. احتجتُ لوقتٍ طويل لإعداد كل شيء، بسبب كل المشكلات غير المتوقعة. كان صعبًا للغاية أن أجد جروس أينلاند، ومن ثم كان شبه مستحيل أن أحصل هنا على مكان للدفن».

عندما رفعتُ رأسي المحني من جديد كان وجهي مبللًا بالدموع.

سألت الخالة بتردد على الطرف الآخر: «روت؟ روت، أهذا أنتِ؟ هل كل شيء على ما يرام لديكِ؟ لقد أبلغنا عن فقدانك قبل أسبوع. ظننا أنك فعلتِ شيئًا بنفسك».

قلتُ وأنا أنتحب باكيةً: «أجل، كل شيء على ما يرام، كل شيء يسير بشكلٍ جيد للغاية، لدي فقط هنا مهمة ما. كما تعلمين، فأنا في بحث عن أثر ما حتى أستطيع رواية شيء عن بابا وماما في الجنازة. عن موطنهما».

- روت، روت، اهدئي الآن، ماذا يحدث معكِ الآن؟ هل أنتِ بخير حقًّا؟ اسمعي، نحن لا نعرف أين كنتِ، كما أن الطب الشرعي وضعهما كليهما تحت تصرفه. أنا آسفة للغاية ولكن اضطررنا إلى اتخاذ قرار، وبعد ما كنتِ غير موجودة هناك أقصد، كيف يمكنني قول هذا؟ والداكِ دُفِنا قبل ثلاثة أيام في فيينا.

شعرتُ أن المساحة التي كنتُ أقف عليها أصبحت مطوية، والفضاء صار مهروسًا، فرَّت الأبعاد، تزحزح كل شيء بعيدًا عني.

سألتُ: «أنتِ دفنتِهما في فيينا؟».

- لا يوجد أبدًا مكان يسمى جروس أينلاند، النزل الذي اتصلتُ به، بحسب دليل الهاتف، موجود في «كيرشنبرج» في منطقة «فيكسل». المكاتب الرسمية لا تعرف جروس أينلاند. (كانت خالتي تتحدث بنبرة قريبة من الزعيق) يجب أن تعودي.

كررتُ من جديد: «هل تجاهلتِ رغباتهما ولم تدفنيهما في جروس أينلاند؟».

وقبضتُ على السماعة جيدًا لأن يدي كانت مبتلة، قميصي، خداي، شفتاي، كل شيء كان مبتلًّا.

- لم يكن لدي فكرة عن مكانك، روت، عودي إلى البيت. أفهم أنكِ مضطربة، ومَن لن يكون كذلك، ولكن... أرجوكِ عودي إلينا، نحن قلقون للغاية. عودي إلى البيت، وسنتحدث.

أغلقتُ السماعة. واحتل الاضطراب مكان الحزن. والآن أصبح الموقف محرجًا للغاية بالنسبة إليَّ، لأن متعهدة الدفن تابعت المشهد بأكمله بانزعاج

متزايد. قلتُ موضحةً ببساطة، كما لو كان مجرد تحول بسيط للغاية في مدار الأحداث: «والداي دُفِنا في فيينا للأسف».

نظرت المرأة إليَّ بحاجبين مرفوعين. قالت: «ولكنكِ وقَّعتِ».

وناولتني -باعتبارها دليلًا- الورقة التي بها إمضائي.

أجبتُ بأدب: «حسنًا، سوف أحتفظ بالدفن لمرة أخرى».

قالت: «جيد، فلنفعل هذا. (والآن عادت من جديد إلى ودية متزايدة ولم تنفر ولا بمقدار طفيف من الاقتراح الذي قدمته لها) حوِّلي لنا مبلغًا قدره 2000 يورو وسأعطيكِ تقييد المبلغ للحساب».

فكرتُ: *2000 يورو لقسيمة دفن*. تابوتان من خشب الأرز، على مَن أنفق هذا المبلغ؟ والشيء الأخير أنني ما زلتُ على حافة الإفلاس. ولكن كتبتُ رقم بطاقتي الائتمانية في دفتر شيكات موضته قديمة، صافحتُ يد المرأة مرة أخرى، تلقيتُ عزاءً من السكرتيرة وصرتُ في طريق العودة إلى النزل.

بعد أسبوع واحد فقط قبضتُ بعمق على فكرة حفل إحياء الذكرى، حتى لو كان الدفن نفسه مستحيلًا، كنتُ سأنظم حفلًا في جروس أينلاند نكايةً في أقاربي وسيكون تنظيم بقائهم في هذا المكان شيئًا لا بد منه. سأحصل على معلومات، حقائق عاطفية لم يكن من الممكن وجودها في الجنازة الأولى، وربما تخطيط لنقل النعشين، وهو ما يعني في النهاية: تصحيح ظلم محزن، الذي في نهاية الأمر لن يقدر على إصلاح صورتي الذاتية. ولكن سرعان ما فقدتُ هذا الهدف من أمام عيني عندما انكشف السبب الرئيسيُّ لبقائي هنا.

كان لكل شيء في جروس أينلاند إيقاع مختلف، أبدية في طبق من الآلهة تضع الأحداث في ضوءٍ لا يمكن تصوره خارج هذا العالم الصغير. كان لكل مواطن أهمية مُرقَّمة بدقة في هذه البنية الاجتماعية، التي يمكن للمرء أن يمسكها بيديه من شدة وضوحها، لأن هذه الأهمية كانت هرمية، كما أنها غالبًا ما كُشف عن شروطها. كان هناك شيءٌ سحريٌّ في أبسط الأعمال الروتينية. فلا أحد يستخدم الإنترنت، وأنا على يقين بأنه لا يوجد شيء ببساطة هنا في السلاسل الجبلية. احتجتُ لسنتين كاملتين لكي أدرك أن كابلات الألياف الضوئية العصرية كانت تمر بجروس أينلاند وببساطة لم يستخدمها أحد.

نظرًا إلى أنها كانت قطيعة نقية مع كل شيء قد عرفته ذات يوم، فلربما لهذا السبب اندمجتُ بالكامل.

وأخيرًا كان الشيء الذي أكمل هذا الشعور... المنزل.

***

يجب أن يتغلب إدراك الوقت على ثلاث عتبات: تسمح عتبة الاندماج للبشر بفهم حدثين ما على أنهما مفصولان عن بعضهما بعضًا، حيث الحواس المختلفة لديها حد أدنى لمتطلبات مختلفة، بينما العين هي الأكثر تسامحًا وتحتاج من عشرين لثلاثين ملي ثانية للفصل بين عنصرين، تستغرق الأذن ابتداءً من اثنين ملي ثانية للتمييز. العتبة الثانية هي عتبة النظام. فهي تجعل تتابع انفعالين مفهومًا، وهذا يتطلب تباعدًا بينهما قدره نحو أربعين ملي ثانية. العتبة الثالثة تخص الحاضر: وهي مكوَّنة من فضاء ثلاثي الثواني، وهو مثل حاجز محمول يسد رؤية تدفق الوقت.

***

قضيتُ عطلة نهاية الأسبوع كلها في السرير. فقط طرْق السيدة إيرنا هو ما كان يوقظني في هذه الأثناء، حيث كانت تجلب الأكل في المعاد نفسه إلى غرفتي، ولم أكد أعرف متى انتهى اليوم ومتى بدأ الثاني. نمتُ لثماني ساعات واستيقظتُ من دقة ساعة برج الكنيسة عند الساعة الثانية عشرة ظهرًا، ذهبتُ إلى المرحاض، أكلتُ واضطجعتُ من جديد لثماني ساعات، حتى شعرتُ بإيقاعي الحيويِّ يسيل ولم أعد أعرف إذا كان اليوم نهارًا أم ليلًا. شعرتُ وكأن الستائر المعدنية كانت مغلقة، حتى أدركت أنه كان ليلًا أصلًا في الخارج، أو كنتُ أفزع لأنني تركت الضوء مضاءً قبل أن أدرك أنها كانت الشمس.

فقط في ليلة يوم الأحد حدث تغير. كنتُ مستلقية على وجهي المسحوق وأراقب بلا مبالاة غروب شمسٍ جديدًا عندما خطر على بالي فجأةً المنزل بلا أي سبب. قبل أيام قليلة من المواقف التي حصلت في وكالة الدفن، في طريقي إلى الصالون مع فيليب لفت نظري حينها منزل خالٍ. كان مبنىً قديمًا وجميلًا مع جملون من هيكلٍ خشبيٍّ، وبالكون منحوت، وحديقة ممتدة إلى الخلف بأشجار التنوب والجوز. لفت انتباهي بوضوح لأنه كان مكتوبًا فوقه بحروف ضخمة بالكاد بشكل مزعج ساطعة باللون الأحمر: «**للإيجار أو للبيع**».

امتلاك منزل، ما يسمى بالبيت -مثل رائحة خلابة صعدت الفكرة في عقلي- شعرتُ فجأةً، أن هذا ما سيقودني خارج تعاستي. فلن أضطر للعودة إلى فيينا، حتى السؤال بخصوص استمرار الجامعة بتوظيفي قد حُسم. ولن أضطر إلى شرح سبب اختفائي قبل محاضرتي الافتتاحية لأحد، ولن أضطر إلى حساب الناتج السنويّ للمنشورات، ولا إلى الظهور في الاجتماعات البغيضة. ولن أضطر إلى تبادل كلمة واحدة مع خالتي. أي أنني سوف أستقر، ولمَ لا يكون هنا؟ لِمَ لا يكون في البلد؟ كنتُ أفكر، قبل أن يأتي على بالي من جديد أنني بالكاد أملك ما يكفي من المال، لكي أسدد ديوني لكوريِس. كل شيء كان يؤلمني بسبب الاستلقاء طوال اليوم، وقد قررتُ أن أتمشى إلى ذاك المنزل على الرغم من حالتي المادية المزرية. على الرغم من أننا كنا في بداية شهر نوفمبر، فإن الثلج كان يتساقط، بعد ثلاثة أيام من عدم الخروج من غرفتي، زغللت عيناي من الضوء بطريقة مؤلمة بينما كنتُ أتجه يمينًا مارةً بسور المدينة إلى شارع «يوهانسشتراسه». وجدتُ في انتظاري اليافطة نفسها كما كانت من قبل: «**للإيجار أو للبيع**». وأسفلها يوجد رقم، على الرغم من أنه كان يوم الأحد وكنا في الليل، سجلته على ظهر يدي، لكي أتصل به هناك بعد عودتي إلى النزل. وبطريقة غريبة رفع أحدهم على الفور السماعة، سمسار شاب سمج استطاع أن يعرض عليَّ موعدًا لمشاهدة *الأملاك المعروضة للإيجار*، كما قال، في الصباح التالي. مكالمة هاتفية صغيرة أوضحت أن المنزل كان في منتهى الرخص، لا عجب، فكرتُ، إذا كانت الأساسات قد هبطت بمقدار ثلاثين سنتيمترًا في السنة، ولا أحد يعلم إذا كانت الحيطان ستظل موجودة للشتاء القادم. ولكن ما المهم؟ حتى هذا المبلغ الزهيد ليس موجودًا في حسابي، ما يدفعني للتفكير جيدًا في المكان الذي يمكنني أن أطلب منه قرضًا في حالتي هذه. بلا شك سوف تفصلني الجامعة قريبًا.

في الصباح الباكر قابلتُ السمسار، صبي بأنف معوج ومحمر من كثرة التمخط بوجه طالب حقوق، دفع بالستارة إلى الجنب بإيماءة متعجرفة وترك الباب المزدوج يتأرجح على المفاصل. المنزل كان جميلًا لدرجة رهيبة. يحتوي على سبع غرف بطابقين، سلم خشبي لطيف يمتد إلى الأعلى، أرضية من الباركيه المتعرج مصنوع من خشب الجوز، (صُنع من الشجر في الحديقة،

كما أكد لي السمسار)، نوافذ مضاءة على طراز «الأرت نوفو[1]»، وعُليَّة تبدو وكأنها كانت إسطبلًا للمواشي سابقًا. في الطابق الأرضيِّ كان الجدار مكشوفًا كما في العُليَّة، كان المبنى في الأصل مسكنًا لعمال مصنع الأخشاب القريب. يوجد في الصالون آلة قاطعة صغيرة، وهي ما أعطت الغرفة هيئة المصنع. ولأن المالكين السابقين قد توفوا منذ فترة قليلة، وفي جروس أينلاند يُتعامَل بصورة مختلفة، كما قال البائع، مع التركة، فوجب أن يُعرض المنزل بكل الموبيليات للبيع: مكتبة صغيرة ملأى بالكلاسيكيات، مطبخ فرنسي جميل، وسرير مزدوج كبير في الطابق العلويِّ، حيث يستطيع الواحد رؤية السماء عبر النافذة الموجودة على السقف.

قبل كل شيء كان المكتب وحده هو ما فتنني، كان يُشكِّل مركز غرفة المكتب، ويتكون من لوحة خشبية، مثل تلك التي يستخدمها الحرفيون، مسنودة على حيوانين للماعز منحوتين يدويًّا، منقوشة بلون غامق، كما لو كانت شجرته الأصلية في أكثر أوقات حيويتها ومجبرة على اجتياز شتاءٍ قارسٍ. غطت سبورة سوداء جدارًا بأكمله، لذا فيمكن توزيع أشكال عشوائية فوقها باستخدام سُلمٍ نقّال، وشيزلونج على الجانب الآخر يغري للجلوس والتفرج على ما قد كُتب على السبورة.

بدا المنزل وكأن شخصًا ما صعد بداخل عقلي وأنجز نموذجًا يلائم اختراعات رغباتي. كان يشبه الكوخ المبني فوق شجرة، يلح الأطفال للحصول عليه، مثل صندوق ضخم يستطيع الشخص أن ينسل بداخله ويصنع لنفسه منه سفينة فضاء، مثل غرف متشابكة ومرتبطة أسفل سياج مجوف من الشجيرات الذي رسمته مع أصدقائي وخصصته للغرف. هنا أستطيع إنهاء كتابة أطروحتي. كان مصنع الأحلام مكانًا مقدسًا لإنتاجي.

طلبتُ من الشاب فورًا أن يجهز كل الأوراق اللازمة، سأحب أن أنتقل إلى هنا في الأسبوع نفسه. فقط عليَّ الحصول على قرض، وبطريقة ما سوف

---

(1) Art nouveau: حركة فنية انطلقت في أواخر القرن التاسع عشر، وبلغت ذروتها بين 1890-1910، وجاءت كرد فعل على فنون وعمارة القرن التاسع عشر الذي كان مفرطًا في الزخرفة، وكانت تعتمد على الزخارف الطبيعية والخطوط المنحنية الناعمة والمتداخلة.

أنجح في هذا باستخدام لقبي بصفتي بروفيسور وكل الوعود المتعلقة به. أنا أحتاج لهذا المنزل. ومع ذلك كان مفاجئًا أن يوافق السمسار بهذه السرعة، لأنه سحب من ملف مستندات عقد البيع جاهزًا للتوقيع، ومتبوعًا بالترتيب بقرار من كاتب العدل[1] وتقرير ائتمان كما شهادة تأكيد تسلُّم مبلغ التأمين الماليّ، كل هذا معًا حُرِّر باسمي.

قال: «تستطيعين الآن الانتقال فورًا إلى هنا، كان لدي شعور بأنك لن تقاومي هذا المنزل».

- ولكن مَن الذي دفع مبلغ التأمين المالي؟
- الكونتيسة بالطبع.

اتفقنا على المقابلة في الليل لتسليمي مفتاح المنزل، أوضحت له أنني بحلول ذلك الوقت سوف أعرف المزيد عن الصفقات المالية التي يجب أن أعقدها. مصافحة، مبادلة «كروت العمل»، ثم تعلقت بالهاتف في «كوربِس» وحاولت إيجاد كل البنوك في المحيط المجاور.

من الواضح أن عليّ الذهاب إلى البلدة التالية الكبيرة، لأن في جروس أينلاند لا يوجد حتى ماكينة صرَّاف آلي واحدة. عندما وضعتُ السماعة لاحظت بتعجب أن مجرد تخيُّل أنني سأذهب إلى مدينة أخرى أثار في نفسي سخطًا ليس بضئيل. لسبب واحد وهو أنني ما زلتُ لا أملك سيارة ولكن هذا لم يكن الشيء الأهم. بل تعذبتُ من فكرة ضوضاء الشوارع، والسرعة، والركض المتواصل للوقت، إذ إنني هنا في هذا المكان أضطجع مرتاحةً باستمتاعٍ مثل حقل متجدد بعد الحصاد.

سألت السيدة إيرنا التي كانت في هذا الوقت تحمل طبقين خارجةً من المطبخ إلى غرفة النزل عن مكان الأتوبيسات الذاهبة للبلدة التالية.

قالت بذهنٍ شارد: «لا يوجد أصلًا أتوبيسات».

وأسرعت مبتعدة عني إلى الطاولات الكبيرة.

قال شخص صائحًا من الزاوية: «ما الذي تحتاجينه هناك على أي حال؟».

---

(1) شخص يُصدِّق توثيق الوثائق.

اضطررتُ إلى التجول في الحانة لأرى أن البنَّاء كاينرمولر هو الذي سأل. أجبتُ: «رغبت في التقدم بطلب للحصول على قرض».

وجلستُ أمامه. كانت يده المرفوعة بطريقة مهددة فوق رأسه كما لو كان يمنعني من شيء ما، هبطت بعنف على سطح الطاولة لدرجة أن الحساء تناثر من الوعاء.

- أنتِ لا تحتاجين لقرض! نحن دائمًا نفعل هذا بالإعارة. تستطيعين اقتراض الأموال من أي شخص وتحصلين على بطاقة إعادة الأموال. هذا كله سيُحسَب عند إدارة المقاطعة. هذا مريح أكثر من القروض.

قلتُ: «المبلغ سيكلف نحو 90000 يورو».

- آه هذا شيء تافه. (اغترف البنَّاء ما تبقى من حسائه ووضعه في فمه المفتوح) هذه المعاملات التافهة دائمًا ما تكون مستمرة، ألا تعلمين هذا؟ يقترض الواحدُ شيئًا ويصير مديونًا للمَدِين الخاص به. ثم يكتب له وصل أمانة ويخبر الشخص الذي لا يزال يدينه بشيء، أنه يجب أن يدفع هناك، وهكذا تسير الأمور. في النهاية هذا يعني: الواحد يدفع مقابل الأشخاص الذين يدينهم. هكذا لا يترك الرأسماليون العاصمة أبدًا، كل شيء يبقى في البلدة.

ولأنني كنتُ متأكدة من أنني لن أصل إلى جوهر هذه السخافات، جاريتُ تفسيره: «مَن الذي يمكنني الآن أن أطلب منه هذا المبلغ؟».

قال شلاف: «مبدئيًا من الكل، حتى السيدة إيرنا هنا. أو يمكنك أن تأخذي مني، أستطيع أن أحرر لكِ على الفور سندَ دين».

- وما هي الأقساط التي يجب أن أسددها لكَ؟

- أوه، لا شيء، أنتِ تحررين لأناس آخرين سندات ديون التي بدورها سترجع إليَّ.

كان رأسي يدور. في أي وضع غريب قادتني الصدف إليه -وكل شيء بلا أي مساعدة مباشرة مني- وأصبحتُ مربوطةً بداخله؟ فلربما الآن يوجد شخص ما يستلف شيئًا ما باسمي.

في تلك اللحظة دارت إيرنا حول الزاوية: «روت، أنا أعتقد أن الكونتيسة قد حررت لكِ سنَدَ دين على بياض. نموذج إقطاعي. اذهبي ببساطة لتشتري ما ترغبين به، هذا ما يجب أن يوفى دينه».

صحتُ قائلةً إلى الخلف: «من أين حصلتِ على هذه المعلومات؟ أنا لم أطلب من الكونتيسة شيئًا قط».

أوضَحت لي إيرنا: «أعرف هذا من الإشاعات. والشيء الرسمي، حسنًا، ماذا يجب أن يقال؟ عقود البيع، الإيجار، الاقتراض. كل هذا يرسو مباشرةً فوق طاولة الكونتيسة على أي حال. ونظرًا إلى أننا لا نملك أجهزة الصراف الآلي، فإن عملية السحب شبه موزعة».

- ولكن لمن يدين الشخص إذن عندما يقترض شيئًا ما؟

- ليس من السهل قول ذلك. ربما يكون في الصباح شخصٌ آخر غير الذي كان في المساء. الأفضل هو أن يقترض الشخص قدر ما يستطيع.

تدخَّل البنَّاء كاينرمولر وسط الحوار من جديد، وخربش على ظهر فاتورة الحساب شيئًا ما: «في هذه الحالة بالطبع ستكونين مَدينة للكونتيسة وحدها، نحن نملك أيضًا هذا النظام للإقراض المباشر. هنا، أظن أن الاتفاق مع إدارة المقاطعة مربوطٌ بعملٍ ما؟ أنتِ تعملين، تحصلين على أجر، وتُصب عُشر الأرباح في المنزل. ويكون عقد العمل إلزاميًّا، حتى تسددي مبلغ المنزل، وإلا يمكنك بالطبع رفع دعوى قضائية للمطالبة بالقسط المتفق عليه».

سألتُ في حيرة: «العُشر؟ ولكني لم أوقِّع على شيء».

قال شلاف: «على ما يبدو، بالطبع».

وطلب كأسًا أخرى من السكوتش.

عندما حل الظلام، لممتُ ملابسي المتناثرة في زوايا الغرفة في حقيبة وظهرتُ في الوقت المتفق عليه أمام المنزل.

- كل شيء سُدِّد.

تألق وجه السمسار بابتسامة عندما فتح لي الأبواب للمرة الثانية في ذلك اليوم. وللمزيد من الأمان حملتُ كل أمتعتي من النزل وشكرتُ إيرنا، (ولم أعرف حتى لأجل أي شيء)، تفاجأت مع ذلك عندما تسلمتُ المفاتيح بلا أي

تأخير. *الآن عليَّ مباشرة العمل*، فكرتُ وكنتُ ولأول مرة سعيدة بهذا. سوف أُنهي كتابة أطروحتي. بعدما ذهب السمسار أشعلتُ المدفأة بالخشب الذي كان موجودًا بالفعل وتحصَّنتُ بداخل سريري الجديد وغبتُ لساعات طوال في كتب علم الطبيعة. أحيانًا نتوق لأشياء لا نعرف أننا نملكها حتى يأتي الوقت لنصطدم بها، لأول مرة في حياتي شعرتُ بأنني أخيرًا وصلت.

فقط بعد وقتٍ طويل عندما أُنهكت عيناي، نظرتُ إلى عقد البيع الذي كان لا يزال بجانبي فوق المرتبة. كان مرفقًا به مقتطف من السجل العقاريِّ، إذ بدا أنه سُجِّلت بسرعة البرق بصفتي مالكًا جديدًا. كانت أسماء المُلاك القدامى في السطر القابع فوق اسمي، وعندما استطعتُ فك رموز خط الرقعة أُصبتُ بالشلل: بيترا وجوزيف شالا. لقد اشتريتُ منزل والديَّ دون أن أعلم ذلك. فجأةً أصبحتُ مستيقظة من جديد. كيف لم أستطع ملاحظة ذلك؟ كانت هاتان هما العُليَّة والنافذة اللتان كانا يخبرانني عنهما: هنا كانا يستلقيان ويحددان صور الكوكبة. ركضتُ إلى البالكون: التل خلف المنزل، حيث كانا يستطيعان ممارسة لعبة التزحلق على الجليد، والآن أصبح مفهومًا أن المنزل الذي قيل عنه إنه كان في السابق مسكنًا لنجارين مع ورشة، كان في الأصل يخص جدي المالك لشركة الأخشاب هذه. خريطة الذاكرة التي صنعتها قبل ثلاثة أسابيع انتزعت نفسها من خيالي وهبطت عبر الطبيعة إلى المنزل، حيث وجدت عُقدها وتفرعاتها ومواقعها في مثالية مطلقة. عندما كنتُ أخيرًا من جديد على سريري، تخيلتُ أنه ربما شخص منهما قد اضطجع هنا، وفجأةً وثب إليَّ الفضول لمعرفة ما الذي كانا يفعلانه هنا كل أسبوع. هل كان له علاقة بالمنزل؟ لذا عقدتُ العزم للبدء في اليوم التالي بمحاولة أخرى للبحث المكثف عن قصة هذا المكان. لم يكن هذا الأمر ضروريًّا عندما تركتُ منزلي في الصباح التالي لأتحادث مع الكونتيسة حول الواجبات المستقبلية، وجدتُ كتاب تاريخ البلدة مثبتًا في صندوق البريد الخاص بي. أصبحت مواطنة جروس أينلاندية.

***

في اليوم التالي قرأتُ قصة «بيرجر هانس»، الشخصية الأسطورية المؤسسة للقرية، التي حُرمت عليَّ معرفتها حتى ذلك الوقت. والشيء المثير

للدهشة هو أنها احتلت الجزء الأكبر من الكتاب، على الرغم من كونها مجرد أسطورة.

«هانس بيرجر»، «بيرجر هانس»، وفي مصادر أخرى أيضًا «بيرجر هانس»، (حِرفي ثري، كان يتولى منصب رئيس إنتاج وصنع الجلود). عاش نحو بين عامَي 1595 و1636 بالقرب من ساحة السوق الرئيسية، حيث كان مالكًا لورشة يديرها. الشيء المؤكد هو حصوله على شهادة اجتياز اختبار الحرف اليدوية في عام 1611 ثم بعد خمس سنوات درَّب ثلاثة صبيان من المنطقة. هناك دليل آخر على شراء مبنى آخر على ناصية شارع المسمى الآن بـ «هيبلشتراسه». حُكي في أحد خطابات القسيس المعاون شتيفان هيرمان، أن «هانس بيرجر» كان يملك مكتبة خاصة تحتوي على كتابات دينية، من ضمنها الكتابات اللاتينية لدير «بامبرج»، كما تقارير عن أساليب حرفية مختلفة تخص عصره. يمكن النظر إلى هذه النوعية من مجموعة الكتب تلك على أنها علامة على ثروة غير عادية، بالإضافة إلى أن الرجل البالغ بالكاد خمسة وعشرين عامًا كان ولا بد لديه نفوذ في المنطقة لا يُستهان به. على أي حال الشيء الذي لا يقبل الجدل هو أن «بيرجر» قد بدأ في عام 1629 بحفر الغرف الأرضية سيئة السمعة التي ستجعله خالدًا للأبد.

في ذلك الوقت كانت منطقة «كورنجاسه» كما شارع القصر الحالي يحدان المدخل الرئيسي سابقًا مع برج المياه. ارتبطت مختلف الشائعات إلى هذا اليوم بهذا النفق الأول الذي أُنشئ باستخدام تقنية التفجير بالبارود التي كانت شائعة في ذلك الوقت، لذا في الثمانينيات نُقل مبنى المدرسة الابتدائية الجديد بعيدًا عن تقاطع شارع «زيدلونجسشتراسه»/ «باخجسه»، لأنه كان من المفترض أن يكون مكان ملعب كرة القدم المُخطط له بالقرب من مدخل الهوة العلويّ والكثير من الآباء عبروا عن رفضهم لهذا التموضع للمكان.

ولهذا القليل من الأشخاص فقط من يستطيعون التباهي بوجود أصالة حقيقية في قصة «بيرجر هانس»، كل العُقد التي نُسجت حوله مُررت على الأغلب من فمٍ إلى فم. أُصيغ المصدر المكتوب والأكثر تفصيلًا منذ قرن وفي نبرة غريبة للغاية. فهذا التقرير بالذات الذي دُوِّن في عام 1897، ولم يكن

موقعًا من قِبل مؤلف، يبرهن على أن مادة القصة هذه كانت عبارة عن ملحمة محلية متوارثة من فمٍ إلى فم قبل وقتٍ طويل من تدوينها.

«بيرجر هانس» هو تاجر غني يبلغ من العمر 45 عامًا وعُرف عنه في المدينة، كما تردد على ألسنة الناس ذات يوم، بأنه كان ضعيفًا أمام شهوته بالفضة.

على الرغم من أن عشرين رجلًا من رجال السُّخرة الذين كانوا يخدمونه، ولأجله وبسبب التهاب الجمرة الخبيثة[1] كانوا يكشطون الجلد عن العظم، فإنه لم يستطع أن يهنأ بما يكفي. ظلت الثقوب النتنة تستمر في الانتشار على ضواحي المدينة وتركت التربة المحيطة في حالة من التعفن الداخليّ حيث فقدت وظيفتها الحيوية وصارت جرداء. في أثناء ذلك كانت تُباع في الورش المنتجات الغريبة الناتجة عن أعمال التجوية الإنسانية[2]، التي كانت عبارة عن: جلود البقر والماعز، ولكن قبل كل شيء جلود الذئاب التي وصلت شهرتها بعيدًا للغاية عن حدود البلدة وكانت تجذب التجار إلى القدوم لجروس أينلاند.

كان «بيرجر هانس» يحظى بالاحترام، ومع ذلك كان مُحتقَرًا، الظواهر العرضية لمهنة الدباغة وطبيعتها الصناعية النجسة جعلته منذ فترة مصابًا بالجذام، التي أدت إلى جعل الناس يتجنبونه. وبقي طوال حياته بلا زواج.

من المفترض أن هانس بيرجر لا بد وقد استخدم ثروته الخاصة فقط في توسيع المنشأة التي باعها في النهاية رغم كل شيء. والسبب في ذلك بحسب تقرير تاريخي هو «اندفاعه الشهواني نحو الفضة»: في عام 1629 استثمر «بيرجر» كل مدخراته في التعدين، في العام نفسه الذي طُلب فيه أول نعل مصنوع في جروس أينلاند. ولكن أصبح التعامل مع المصادر صعبًا عند النقطة التي يُوصف فيها حفر ذلك النفق. شعرتُ أن التقرير تحوّل لصيغةٍ شبه أسطورية في هذا الموضع.

---

(1) مرض حاد تسببه بكتيريا الجمرة الخبيثة وهو يصيب الحيوانات والبشر على السواء. ويمكن أن تكون في الرئة أو الجهاز الهضمي أو في الجلد.

(2) عمليات تجوية الإنسان هي اختراق الجبال لشق الطرق أو حفر المناجم وما شابه.

تتكتل الأحجار المتراصة معًا بقوة أمام رجال «بيرجر هانس» الذين يشقون طريقهم في الصخور بالإزميل وآلات الدفع بالخيول[1]، مدفوعين إلى الأمام عن طريق خمسة عشر متسلقًا قويًا يعملون في نوبات دورية. هو نفسه كان مجذوبًا بداخل أحلام رطبة عن الجبل، حيث بدت جدرانه المبتلة وكأنها ممسوكة بلينٍ في مضاجعة. إذا كان مرة على السطح لأكثر من يوم، فلا يستطيع التحمل أكثر ويعود من جديد إلى الهبوط للأسفل، حيث أصوات جميلة توشوش في أذنه بوعود عن كنوز العمق.

سرعان ما اصطدمت فرقة الاستكشاف بمواد قابلة للاستغلال، وبعد شهر انتشرت الشائعات في المدينة تُفيد بأنه أخيرًا عُثِر على الفضة. ومع ذلك لم تبدُ كمية الفضة لرئيس دباغة الجلود كافية ولو بنسبة قليلة لإرضائه، تحت قبضة «بيرجر هانس» القاسية واصل الرجال الحفر في الأوقات التالية بعمق أكبر في الصخور. أربع وعشرون ساعة، على مدار الساعة، على مدار حركة الشمس، التي لم يرها أحدٌ منهم. كانوا يستريحون ويصلون ويأكلون وينامون في ظلمة لا تنتهي أبدًا. بسبب الاضطراب المتزايد كما البرودة المستمرة بلا انقطاع في المنجم سرعان ما أصبح التحكم في الاتجاه صعبًا. احتُمِل المزيد والمزيد من الأخطار لأجل الحفر. كان أول شخص تبتلعه الصخور صبيًا في السادسة عشرة من عمره. يُقال إنه عندما تسلل الصبي النحيل من خلال الحفرة العمودية الضيقة وفي يده مصباحه البرونزي، مخمنًا بأنه خلفها يقبع تجويف ما، حدث تدفق غير متوقع للمياه، تسبح بها كمية ضخمة من الحصى مما ضيَّقت طريق العودة وطريق الهواء على عامل المنجم الشاب. لمدة ثلاثة أيام كان عمال المناجم يسمعون صراخ الصبي في أثناء إنشائهم لمستوى أرضي[2] (طابق) في المنجم، ثم ساد الصمت.

---

(1) آلة تشبه الساقية ولكن بالخيول، استُخدمت في مجال التعدين لنقل المياه من تحت الأرض أو المعادن، أو لنقل المواد إلى باطن الأرض.

(2) Sohle مصطلح يخص التعدين وهو يشبه الطابق الذي في المنزل، عدة طوابق فوق بعضها بعضًا وكذلك في التعدين، الذي تتم فيه أعمال تخص التعدين من إنشاء غرف أو ما شابه.

كان هذا الحادث المؤسف الأول للمنجم السبب في إنشاء بضع فتحات وأنفاق جانبية لتصريف المياه المتسربة بلا توقف نتيجة العمل فيه. حالات الوفاة في المناجم ليست نادرة، ولكن كان للموت المُفجع للصبي تأثيرٌ اضطرابيٌّ في العمال الذين كان جزء كبير منهم متدربًا على الدباغة وليس لديهم أي خبرة تخص المناجم. ونظرًا إلى هذا فإن العمق الذي بلغ حتى ديسمبر 1630 كان الأكثر جدارة بالملاحظة.

ولأن قاع النفق سرعان ما هوى أكثر وأكثر، لم يعد ممكنًا للعمال، أي بين يوم وليلة، الصعود للأعلى بين وردية وأخرى، فلا وجود لمصاعد يمكنها توصيلهم إلى خارج القشرة الأرضية، ولا وجود لكهرباء تؤمِّنهم بإضاءة متواصلة. كل شيء من حولهم كان مرتعشًا بسبب المصابيح التي تلقي بدهنها الحيوانيِّ على المعادن بريقًا قذرًا.

كان العمال يهبطون لأسابيع على أرض الهوَّة، يعملون لاثنتي عشرة ساعة، ينامون لثماني ساعات، يُصلُّون لساعتين ويأكلون في الوقت المتبقي. لم يعودوا يشعرون بالتراب الذي يحيط بجلدهم كعباءة أرضية ثانية تضطجع فوق الأولى. ولأجل البقاء على قيد الحياة يوجد بقسماط، حساء، اللحم المجفف لأيام الآحاد، ولترات من النبيذ المتدفق طوال الوقت لكبح الخوف.

على الرغم من اختفاء العمال أو موتهم المتواصل تحت هذه الظروف، فإن المزيد والمزيد من الشباب الصغار الشجعان ظلوا يهبطون إلى هذه الوهدة. تفشَّى في القرية إرادة التضحية الذاتية: كان يُفهم الدخول إلى الجبل كونه إخلاصًا تقيًّا للأرض ولعطاياها، استسلام النفس لإرادة الأرض الرطبة.

كان «بيرجر هانس» نفسه، على عكس مالكي المناجم في عصره، مرتاحًا في هذا الضوء الغسقيِّ الأبديِّ. رغب في أن يكون الأول في أي جزء من الأرض يُفتح حديثًا ويضغط جسمه بحرارة ودفء على الحجارة، على الرغم من أن هذه الحجارة لم تمنحه حتى بعد مرور عام أي فضة تستحق الذكر. يجبْ لخمسة عشر دلوًا صغيرًا من المياه أن يحافظ على جفاف الحفرة العمودية في الأرض، ومع ذلك دائمًا أول من يقف في الرطوبة هو «هانس بيرجر» ببنطلون مبتل الرجلين وأحذية جلدية منتفخة. كان مشهورًا بسوء سمعته

كقبطان قاسٍ لهذه الرحلة التي بلا وجهة. أمر «بيرجر هانس» فريقه بالحفر عند الطرفين المعاكسَين للنفق، ثم يوقِف عملهم على حسب مزاجه ويطلب منهم، عكس أي قانون يخص علم الإستاتيكا، أن ينشئوا حفرة عمودية من جديد في المنتصف بين ممرين.

في ذلك الوقت بدأت الأمور تخرج عن السيطرة: في شبكة الممرات المتضافرة بعبثية تامة الآن، هاجمه شعور -أي دبَّاغ الجلود- بالشك المفاجئ في رجاله. لهذا السبب وضع قوانين جديدة: قسَّم الألف متر الذي يخص نظام التشعبات إلى أربعة أجزاء، ربع شمالي، ربع جنوبي، ربع شرقي، وربع غربي، وقرر وضع رئيس عمال لكل منهم. وُفِّر خمسة عشر رجلًا لكل فريق. ولكن كان أمر «بيرجر» الرئيسي هو أن تقتصر رؤية رؤساء العمال على الخطة التي تخص ربعهم، حيث يعملون هم بأنفسهم على هذه الخطة بما يناسب منجمهم. وقضية التبديل فيما بينهم تخضع لأقسى عقوبة. وبسبب التنسيق الفوضويِّ حدث انهيار جديد لنفق نتيجة الرطوبة في أكتوبر 1631، وفقط في هذه المرة مات اثنا عشر شخصًا، لأنهم لم يعرفوا أن خارج طابقهم ثمة مخرج غربي قريب.

على مر العقود صارت شخصية «بيرجر هانس» نوعًا من شخصية مختلطة، ذابت فيها العديد من الشخصيات التاريخية، وخاصةً التي اختفت في المنجم في بداية عام 1632. هكذا في مرحلةٍ ما أُشير إلى «بيرجر» بصفته مالكًا لشركة إنتاج الحليب، ثم حتى بعد ذلك بصفته عُمدة ومؤسسًا للبلدة، وهو ما يمكن اعتباره بالنسبة إلى هذه الشخصية التاريخية أمرًا مستحيلًا. أحداث القصة الإطارية، التي كُتبت بشكلٍ عرضيٍّ حتى هذه النقطة، تسمى أيضًا بـ «حكاية قصيرة». لم تُضَف لاحقًا فقط، بل بالإضافة لذلك كانت أيضًا تنبع قبل كل شيء من مصادر شفهية. على العكس من ذلك، فهناك القصة الكبرى التي يمكن لأي طفل من المقاطعة أن يُعيد تلاوة فقراتها في انسجام.

فجأةً في مارس 1632 انتشرت حكاوى في القرية عن اختفاء «هانس بيرجر»، وهذا يعني أنه ليس اختفاءً بالمعنى الحقيقيِّ، إذ كان هناك يقين

ما معروف أن «بيرجر هانس» قابل الشيطان في أعمق حفرة ضيقة في المنجم. من المستحيل تحديد أول مصدر خرجت منه هذه المعلومة، ومع ذلك فالمعروف هو أن ذلك قد حدث في الثالث من يوليه: كان في الصباح الباكر حينما علم «بيرجر هانس» أن الفرقة الجنوبية قد وجدت تجويفًا ضخمًا تحت الأرض، نوع من الكهوف، بحرارة شديدة ذات رطوبة عالية وشبيه بالبحر متشكّل نتيجة نظام تجويف حجريّ تقطر منه المياه، مبلوع حتى آخر ممر الصخر المصطبي[1]. على الفور أمر بتعطيل كل الأعمال، وتسلق «بيرجر هانس» فرعًا خشبيًا وأمر بالحصول على مركبٍ طافٍ. دفع رجاله لمغادرة الكهف حتى يستطيع أن يكون بمفرده وهبط إلى الممر وليس معه سوى مصباح المنجم. كان يحرّك مركبه الصغير الخالي من السارية بعصا خشبية من الصفصاف واختفى في حافة البحر.

هذا هو آخر ما رآه رجال «بيرجر هانس». عندما لم يعد حتى بعد بضع ساعات، جمّعوا أنفسهم عند مخرج الممر الغربيّ منتظرين عودة سيدهم، الكثير منهم رأى الشمس لأول مرة بعد أسابيع واضطروا إلى حجب أعينهم بالأطباق لساعات طوال قبل أن يتعرفوا من جديد على طبيعة جروس أينلاند والعودة إلى عائلاتهم. انتشر الصقيع فوق الأعواد المتشابكة معًا بصمتٍ فوق مدخل الحفرة الشمالية، حيث خطا فوقها في هذه اللحظة بالذات طفل وانزلق بلا صوتٍ بداخل الحفرة، هبوطًا لخمسة عشر مترًا بداخل الأرض مثل قذيفة، متحدًا مع الأرض. لم يفتقد أحدٌ الطفل، لأنه كان ابنًا لقوم متجولين ولم يكن منسوبًا إلى أحد. وحين اشتكت غجرية ما من اختفاء ابنها، سخروا منها وانتهى اليوم دون حدوث شيء ما يستحق الذكر. ومع ذلك حبس الجميع أنفاسهم.

كان هذا فقط البداية، فبينما كان السيد لا يزال مفقودًا تحت الأرض في هذا الربيع لمدة ستة أسابيع كاملة، اختفى ثمانية أطفال آخرين بلا أثر ولم يرغب أحد في المساس بالمكان. كل مَن يضمه الجبل، يضيع فيه بقلة حيلة. فلم يجرؤ أحدٌ بعدها على المغادرة، والأكثر من ذلك: أصبحوا مؤمنين بأن المنجم قد ضاع فعادوا يمسكون من جديد بالمحراث والفأس ليبدؤوا في العمل

---

(1) صخر ناري داكن اللون على هيئة درجات سلم.

فوق سطح الأرض. ومع ذلك لم يجرؤ أحدٌ على تسلق المروج والمساحات الشاسعة المنبسطة، لخوفهم من الفجوات التي كانت تنفتح تحتهم. تزاحم الناس، غارقين في عرقهم وخائفين، في الفنادق الصغيرة. ولكن على الأقل كان يُصيب الرعاع فقط، فلم يكن طفلًا لمواطن كامل[1] وبالطبع لم يكن هو نفسه مواطنًا كاملًا. لم ير أحدٌ طفلًا من الثلاثة عشر طفلًا الذين اختفوا، كما لو أن الجبل رغب في جذبهم بداخله في أشد لحظاته حميمية.

في بعض المصادر وُصف أن هذه الفترة استمرت لشهرين فقط، ولكنها امتدت في مشاعر الشعب كما لو كان عقدًا من الزمان. البعض رأى «بيرجر هانس» يهبط إلى الحفرة وهو شاب صغير، وخرج منها وهو عجوز. حتى إن وثائق أخرى تُفيد بأن الوقت ظل ساكنًا وأن القمر لم يتحرك ولو مترًا واحدًا في هذه الأسابيع، حتى حدث ما لا يُصدَّق.

أخيرًا في 31 مايو عام 1632، في يوم الاثنين لعيد العنصرة، خرج «بيرجر هانس»، «آل لودنهانس»، «آل مينِنبرجر»، لأول مرة إلى الضوء، وعلى الرغم من وجوده لأسابيع وأسابيع تحت الأرض، فإنه تسلق في ذلك اليوم، في الوقت المناسب للقداس، في حالة مثالية مثل رسول انبثق من الحفرة حديثًا. كان يحمل في كيس من الصوف عددًا كبيرًا من الأحجار اللامعة والغالية، بدأ في توزيعها في الكنيسة: ماس، وياقوت أحمر، وزمرد، وياقوت أزرق، حتى هلل كل طفل كان يسير خلف دجال الأوراق[2] في القرية من الفرحة.

---

(1) Vollbürger المواطن الكامل عند أرسطو هو الرجل الحر. فالأجانب والعبيد والنساء والأطفال وكبار السن لا يعتبرهم أرسطو مواطنين كاملين.

(2) Pfingstquack: من الفلكلور الألماني رمزية لاستقبال فصل الربيع حيث كان يتجمع الأطفال ويصنعون عربة يضعون بها زهورًا كثيرة أو يكون بداخلها طفل يلفونه بالزهور وأوراق الشجر ويجرون العربة في القرية ويغنون أغنية الدجال ويلفون على كل بيت طالبين البيض الملون أو لحم الخنزير المقدد أو المال، وهذه العادة تحدث في صباح عيد العنصرة أو الليلة التي تسبقه وما زالت إلى الآن موجودة في بعض القرى.

في الأسابيع والشهور التالية تزايدت الثروة في جروس أينلاند، حتى سُجِّل منحها امتيازات البلدة[1]. بالأخص عائلة «كورب-فايدنهايم» النبيلة التي إلى الآن تحظى بالاحترام، ومع ذلك أصابها الفقر، قد نجحت، من خلال امتلاكهم للبلدة ذات المدخل الغربيّ، في إصلاح أوضاعهم. الثمن لهذا باهظ.

أصبحت واجهات المنازل مشدودة كما لو تُعومِل معها بالمنفاخ، تيار الهواء للرياح المفاجئة الهابة بداخل المنازل سوَّى التجعدات. امتلأت كل شقوق الواجهات، دون رؤية مَن الذي فعل ذلك، كانت الفجوات الأرضية على الطرق المرتفعة مرصوفة والناس يمزقون الملابس الجميلة.

أُعيد نصب انحناءة الظهر المُعذَّبة لعمال جروس أينلاند: استثمر يهودي ثري في المكان بلا سببٍ واضح، والآن امتلك كل شخص وظائف بأجور جيدة. وعلى الرغم من أن أحدًا لم يعرف بالضبط، كيف أو من أين أتى إحياء ما يسمى بالأوضاع الاجتماعية، (إذ لم ير أحدٌ أي قطعة فضية تخرج من الحفرة)، فإنهم استقبلوها بامتنان. فقط في المساء لم يعد يجرؤ أحدٌ حقًّا على مغادرة قوقعة بيته. كانت غرف الفنادق فارغة كما لو كانت مهجورة، كما لا يجب أبدًا إشعال فتيل الزيت اللامع في فوانيس الشارع، إذ لم يعد يرغب أحدٌ في الخروج للشارع مجددًا.

في مارس 1635 بعد القداس، نزل «بيرجر هانس» سلم المدخل الشمالي لآخر مرة وظل للأبد تحت الأرض.

فقط في السنة الأولى بعد الهبوط الأخير اختفى 22 شخصًا في الأفواه المُخاطية للمنجم التي تشبه المتاهة، في هذه المرة كان من ضمنهم بالغون، وكان أول شخص سنان السكاكين المعروف باسم «ياخو». في الضوء الشفقيّ لقدوم الليل شوهِد، بعد فترة ليست بكبيرة منذ اختفاء «بيرجر مانس»، يتجه إلى المدخل الجنوبيّ بثبات تام، ويهبط السلم. كان يتردد على الألسن في القرية في تهامس يقينٌ ما: أنه سيأتي وقت سيعود فيه «بيرجر هانس» وأن هذه العودة بالذات ستجمد الوقت.

---

(1) أي أنها حصلت على حق تسميتها بالمدينة، وهذا يصدره الملك على سبيل المثال.

على مر القرون أُثيرت الشكوك مرارًا وتكرارًا إذا كان «بيرجر هانس» قد وُجد أصلًا أم أن الأمر ليس أكثر من مجرد أسطورة بدائية سمحت للناس بفهم حركات معينة في الطبيعة، التي دون هذا النموذج التوضيحي لم تكن لتصبح مفهومةً بالنسبة إليهم.

الاحتمال الثاني الذي نُوقِش هو أن شخصية «بيرجر هانس» هي شخصية مُجمَّعة، حوض لكل تلك الذكريات، التي في الحقيقة لم يفعلها شخصٌ بمفرده، بل مجموعة أشخاص. وفي هذا الصدد سيكون من الممكن أن نتخيل أن جروس أينلاند بأكملها كانت أسيرة لشهوة الفضة أو أنهم على الأكثر قد قرروا معًا إنشاء نظام الأرباع الذي كان له توابع وخيمة، حيث كلف العديد منهم حياتهم. أيًّا كان الأمر: في نهاية عام 1640 وصلت حفرة «بيرجر» إلى نهاية مفاجئة.

في ساعات الصباح الباكرة من يوم 28 ديسمبر هز زلزال أرضي المدينة، لدرجة أنه قذف بالبشر من نومهم العميق، عندما أطل أول الأشخاص من النافذة، وجد ساحة السوق قد هبطت بمقدار ثلاثة أمتار إلى الأسفل، على الحوض الرئيسيِّ تكسَّرت الأراضي بعشوائية تامة في غياب للتنسيق شبيهًا بقرص العسل. وتجمعت المياه التي كانت متراكمة في المجاري الأرضية، على هيئة رغاوٍ، وازداد منسوب المياه متجولًا في المدينة، وانضم آخر مدخلٍ لبقية المداخل المسدودة.

t.me/soramnqraa

10

كما لو أن شخصًا ما قد شطر المبنى بالفأس في المنتصف، ولكن نُفذت تلك الضربة بتردد، فلا يزال مبنى ملجأ المسنين متماسكًا عند الطوابق السفلية. كانت طريقًا صعبة في الصعود إلى غرف التمريض، لأن المصاعد كانت معطلة منذ وقت طويل ودرجات السلم بعيدة عن بعضها بعضًا مثل منفاخ الأكورديون. كان البلاط منشقًّا عن الأرضية الخرسانية في صالة الطعام التي هبطت أرضيتها من كلا جانبَي الغرفة تحت تأثير الجاذبية، مما اضطرهم إلى ربط الكراسي المتحركة الخاصة بالمسنين بأشرطة قماشية في إطارات الأبواب لمنعها من التدحرج بعيدًا. إذا نظر المرء لوهلة قصيرة لظنَّ أنه قابل فريق متسلقين لجبل إيفرست، ثم بعد ذلك يُلاحظ الرؤوس المتدلية على الصدر وأنابيب القسطرة الوريدية المنتشرة فوقهم تتدلى وتتحرك.

كلما كان المبنى على ارتفاع عالٍ، كانت نتيجة الهبوط أسوأ في جروس أينلاند، إذ يمكن حينها لعزم الدوران[1] لذراع الرافعة من الأسفل أن يؤدي إلى أكبر قدر من التخريب. في طريقي مع الممرضة التي كانت تقودني، مررنا بغرف المرضى وكانت حزمة من الكابلات الشبيهة بالجذور تنتصب سامقةً خارجةً من الحائط. أنابيب التنفس الاصطناعي وتوصيلات القسطرة، التي كانت فيما مضى يجب أن تظل مغطاة، ظلت مكشوفة. ما كان مخبأً في الانهيارات البشرية انكشف الآن في الوقت نفسه مع الانهيارات المعمارية. أشياء جعلتني أرتجف. العصائر واللعاب والغازات، كان كل شيء مغطى بقطنٍ أبيض فقط ظاهريًا. قادني شخصٌ ما على طول ممر مؤمَّن ضد أي خطر بألواح خشبية تحت السقف، مثل هذا المشهد يجده المرء في المناجم،

(1) في الفيزياء هو مقياس لمدى القوة التي تؤثر في جسم ما وتؤدي إلى تدويره.

وانبهرتُ بالممرض الذي كان على الرغم من وجود صينية شاي في يده قد تسلق أطلال الحطام المحاطة بشريط منع الدخول. في الهابيتوس[1] الجماعيِّ احتفظ كل شيء بمظهر الحياة الطبيعية الكاملة. وهذا يدل على أن الأوضاع كانت تتغير ببطء شديد، لدرجة أن عملية التكيف قد حدثت بشكل غير محسوس تقريبًا. لمحات قصيرة في الغرفة التي يضطجع فوق كل شيء فيها رائحة المواد المطهرة للأرضية والأجساد، والضوء الكهربائي، الذي لأجل غرفة خلع الأسنان رُفع إلى درجة ضوء صارخ مزعج. في هذا المحيط المعقم كان الموت أكثر الأشياء الملموسة. أُرشِدتُ إلى غرفة ما، ثم تركتني الممرضة. فكرتُ بعصبية: *هذا هو كل شيء*. كان لا بد من قضاء عام كامل هنا لكي أتعرف بنفسي على هذا المكان، وأخيرًا حتى هذا كان بمحض الصدفة.

قالت إلفريده التي كانت هناك تُزوِّد بعض الأشخاص بحسائها من مطبخها المتنقل: «مبنى دار المسنين في هذه الأثناء في حالة تفكك. ربما يجب علينا أن نتحد ونقدم لهم القليل من المساعدة».

قالت المرأة التي عرفتها باسم ريسي، وكانت توزع البريد مرتين في الأسبوع: «بلا شك. كيف تفعلين هذا، يا روت؟».

سألت ورفعت بصري عن الجريدة: «كيف أفعل ماذا؟».

- حسنًا، بما يخص جدتك. هل تدفعين مبلغًا ما إضافيًا، حتى تكون في غرفة أفضل، أو هل أجرت الكونتيسة توصية ما؟

كنتُ مشلولة عن ردة الفعل، بينما بدأ الباقون في مناقشة أمور أقاربهم الموجودين في الدار، واحتجتُ لبضع دقائق، حتى استجمعتُ قوتي للاستفسار.

- جدتي حية؟

قال شلاف وسحب المعكرونة الإسباجيتي بصوت مسموع إلى فمه: «أوه، نعم. بالطبع حية».

صوت عالٍ أكَّد ما قد بدا من البداية شيئًا غير قابل للفهم.

(1) مجموعة من الأفعال والأنشطة المكتسبة للفرد بداخل بنية مجتمعية ما.

في الغرفة التي أرشدت إليها كان ثمة سرير فردي، صالون صغير[1] كما تليفزيون معلَّق في الركن الأيمن العلوي للغرفة ؛مشغل على عرض لسباق التزلج على الجليد. كانت الأصوات تتسلل من خلال الأبواب المغلقة وكأنها تغرق، كما لو كانت لا ترغب في تعطيل انجراف أولئك الذين لن يعودوا مجددًا للمشاركة في الحياة. للحظة قصيرة جلستُ على كرسيٍّ بمسند للذراعين في غرفة المرضى هذه ولم أعرف بالضبط ما كنتُ أنتظر. فقط عندما مررتُ بجانب السرير لأفتح النافذة من خارج الغرفة العَطِنة، رأيت جسدًا نحيلًا مضطجعًا عليه، مرتديًا ملابس بيضاء بلون الأغطية نفسه المفروشة على الفراش. رمشتُ عدة مرات قبل أن أقدر على القول بكل ثقة أين ينتهي الجسد وأين تبدأ المرتبة. كانت امرأة، فوق صدرها أرنب أبيض، وهو شيء قبيح أكبر قليلًا من القبضة البشرية. كانت تلك جدتي. لعدة دقائق كنتُ أحدق إليها دون أن أعرف إلى أين سيمضي بنا الأمر، ثم اقتربتُ أكثر.

كان هناك غموض غريب في هيئة جسدها. لم يكن واضحًا إذا كانت نائمة أم مُخدَّرة، وكذلك إذا كانت قد لاحظتني أم لا، جلستُ بهدوء بالغ، بأكثر هدوء ممكن. الكل يعرف هذه العبارة: *جلد كورق الحرير* أو *هشاشة كاملة*، ومع ذلك بدا لي الجسد المستلقي أمامي بأنه أكثر هشاشة مما تخيلتُ. كانت مجموعة العظام بأكملها تتشابك معًا بآخر قوة تبقت فيها. بدت الأوتار وكأنها ترغب منذ وقتٍ طويل في التخلي عن وظيفتها[2]. ستة وتسعون، فكرتُ وفي اللحظة نفسها فتحت عينيها.

سألتُ في ارتباك: «هل أيقظتكِ؟».

وندمتُ في الوقت نفسه على أنني خاطبتُها بضمير المفرد، في الأساس، فلا نزال غرباء تمامًا عن بعضنا بعضًا. ولكن لم يكن هنالك وقت لاستعادة ما قلتُه. اعتدلت المرأة في جلستها وضمت قدميها إلى صدرها. كانت وبلا شك تشبه أبي: العينان الغائرتان نفسهما، والجبين الصغير نفسه، ولكن هذا بدا مجرد نظرة مبتذلة. عندما مددتُ يدي إلى يدها بدأتْ في الارتعاش وسحبتُ يدي من جديد.

---

(1) المقصود بالصالون هنا الكراسي والأريكة وما شابه.

(2) الأوتار تربط عضلة معينة بجزء آخر من الجسم.

قلتُ: «أهلًا بكِ، أنا روت، حفيدتكِ. أعيش الآن هنا في جروس أبنلاند. هل حكى والداي عني لكِ؟ إريش، ابنك، أقصد. أنا فيزيائية وأعمل بحثًا عن الأبدية، هل تعلمين؟ هناك في الأسفل أسكن في منزل قد اشتريته».

أشرتُ بلا معنى إلى الجدار الأبيض، بينما يندلع مني هذا السيل التعسفي الذي بلا هدف. قلتُ: «الجو حار».

وكأني أُحدِّث نفسي وفتحتُ النافذة أخيرًا. الآن، ولأنني استطعتُ معاودة التنفس، تذكرتُ كل الأسئلة التي كنتُ أرغب في طرحها عليها. ولكن البداية ظلت محبوسة بداخلي.

- يجب أن أخبرك بشيء. إريش وإليزابيت والداي، (استدرتُ من جديد ناحيتها ولكني كنتُ أنظر إلى الأرض) قد ماتا. منذ نحو سنة. أنا آسفة. لقد دُفنا في فيينا، ولم أكن حتى هناك.

كانت جدتي لا تزال في حالة جمود على حركتها، ولكن على الأقل دحرجَ هذا الاعتراف من على صدري ثقلًا ولو للحظة. ثم جاء الرد من السرير فجأةً. قالت المرأة التي أتعرَّف في صوتها الآن على جدتي، غريب، لم أسمع عنها قط: «أعرف، هذا ما أخبرتني به الممرضة، أنا أتذكر. بالطبع أتذكر».

- ولكن أنا لم أعرف ما سبب موتهما؟ هل تقدرين على مساعدتي، سارة؟ أريد الجلوس على الناحية الأخرى هناك.

في دهشة نظرتُ إلى الطريقة التي اقتربت بها إلى حافة السرير بقوتها الخاصة. رغبتُ في أن أسندها من تحت ذراعيها برفق لأسندها في طريقها إلى الصالون الصغير، ولكنني استهنتُ بخفتها الريشية وأبعدتها عن قدميَّ مباشرةً لهذا السبب، فشعرتُ للحظة بأنني أحملها إلى الجانب الآخر. جلسنا وصببتُ الماء في الأكواب الموجودة بالفعل.

قلتُ أخيرًا بعد وقتٍ طويل: «أنا اسمي روت، وليس سارة».

كان مثيرًا للدهشة الطريقة الواضحة التي استطاعت بها صياغة كلامها عندما أجابت: «منذ وقت طويل لم نتحدث مع بعضنا بعضًا بالفعل. كنتُ أسافر وأوشكتُ على التكيف من جديد. في البداية لم يرغبوا في وجودي هنا، والآن تمرين أنتِ عليَّ بعد سنين. هل ترغبين في تسميمي؟».

قلتُ: «لا أحد يرغب في تسميمكِ. أنا فقط في زيارة».

رفعتْ يديها فوق رأسها فيما يشبه إيماءة توسُّل، بينما تحني رأسها بين ركبتيها طالبة الغفران.

- لسنوات كان والداكِ يسممانني، كلهم كانوا يسممونني.

قيل لي إن هذا النوع من البارانويا كان صفةً مميزة للخرف كما يجب دحضه بأكبر احتراس ممكن.

- وكيف حالكِ إذن هنا؟ أنا حفيدتك وأرغب في تعريفك بنفسي.

- أجل، أجل، الآن أفهم. أنتِ روت، إريش أخبرني عنكِ. أنتِ جميلة للغاية. (بدأت الدموع تترقرق في عينيها في هذه اللحظة) بنت جميلة للغاية. انظري إلى نفسك.

سألتُها ببطء وكأنني قد تعلمتُ التحدث للتو: «ما الذي تفعلينه هنا طوال اليوم؟».

- مَن أنتِ مرة أخرى؟

قلتُ كلامًا فارغًا: «هناك عروض جميلة بالخارج، عروض لأوقات الفراغ، هل تستفيدين منها؟».

وتركتُ يدي التي رفعتها للإشارة للنزول من جديد.

- ما اسم زوجي؟ ليوبولد، أليس كذلك؟

قلتُ: «أجل، وبخصوص هذه الأمور رغبتُ في أن أسألك عن بعض الأشياء. هل تتذكرين ربما ما الذي حدث معه بعد الحرب؟ هل ذهب إلى الحرب؟».

سألتْ في ذعر: «الحرب؟ هل توجد حرب؟».

- لا، منذ وقتٍ طويل. أقصد الحرب العالمية الثانية.

قالت في ارتياح إنه لم يكن هناك المزيد من الحروب: «أوه، هذا، لأنه لا بد لنا من توفير الأموال».

أجبتُ مغتنمةً الفرصة: «أجل، أجل. وعندما وفرتما الأموال، ما الذي حدث عندئذ مع جدي؟ انظري. (سحبتُ ورقة من الحقيبة) جدي لم يظهر مجددًا

بعد عام 1945 في السجل. ولكنك موجودة، هنا. وهنا. ألم يعد إذن بعد الحرب؟».

- إنه ميت، أليس كذلك؟ (أومأتُ بالإيجاب) خسارة.

كانت تشد بقبضتها على غطاء السرير، والأرنب الذي يعمل بالبطارية لا يزال على صدرها، واشتغل مغنيًا بصوتٍ مزعج أغنية «اتصلتُ فقط لأقول أحبك». حاولتُ بأعصاب واهنة غلق صوت هذا الحيوان، ولكنها كانت ممسكة به بقوة.

سألتُ مرة أخرى: «مَن تكونين؟».

- من الجيد أن الممرضَين يأتيان كل يوم ويحملانكِ إلى الطعام. أنتِ بالتأكيد تعرفين العديد من المقيمين، أليس كذلك؟

قالت جدتي بصوتٍ خفيض للغاية لدرجة أنني بالكاد استطعتُ فهمه من فوق الأرنب المزعج: «لم يعد لذلك طاقة. عندما أُخليت الغرفة المجوفة أسفل أرضية الباركيه».

وفجأةً انتهت الأغنية، وحل الصمت.

سألتُ وكنتُ مع ذلك مرتاحة لأنها لم تُجِب: «أي غرفة مجوفة؟ قولي لي، لقد رغبتُ في أن أسألك شيئًا ما. (غيرت الموضوع الآن) هل والداي كانا يزورانك كثيرًا؟».

سألتْ: «مَن؟ مَن أنتِ؟».

- إريش وإليزابيت. ابنكِ وامرأته. وأنا روت.

قالت بوضوح مذهل: «أجل، لقد كانا هناك. لقد تحدثنا عنكِ».

سألتُ: «وما الذي تحادثتم بشأنه أيضًا؟ ربما أمور تخص الأحداث التي حصلت خلال الحرب؟ أو ربما عن حياتكم في ذلك الوقت؟».

- كانا يسألانني المزيد والمزيد من الأسئلة. دائمًا المزيد والمزيد من الأسئلة. ثم تناولنا الغداء معًا.

حاولتُ مرة أخرى: «إذن ما هي الأشياء التي تحدثتم بشأنها؟».

- دائمًا ما كانا ينتظران الأكل. (همهمتْ قائلةً وهي تغوص في أفكارها) لكي يسمماني.

كانت هذه هي اللحظة التي استسلمتُ بها. ضغطتُ على زر الطوارئ الذي يصل بالموظفين، والممرضة التي كانت قد جلبتني إلى هنا، دخلت الغرفة على الفور تقريبًا. سألتْ بسعادة غير لائقة عندما كنا في الممر: «هل انتهيتما؟».

كانت أجواء الدار بأكملها تلتف حولي وتخنقني، بينما كنتُ أتنفس بصعوبة. قلتُ على الرغم من أنه لا بد وأن الممرضة تعلم هذا: «إنها تعاني من الخرف الشديد. هل يمكنني ربما دعمها ماليًّا؟».

- ماذا تقصدين، ماليًّا؟

قلتُ: «لا شيء».

وكنتُ خجلى لأنني فكرتُ في عدم الدخول إلى هذا المكان مجددًا ورغبتُ في تهدئة إحساسي بالذنب. مستحيل، لا بد وأن أعاود الذهاب إليها مجددًا، كانت المفتاح لزيارات والديَّ.

- كنا مدهوشين لأن اضطراب جدتك قلَّ للغاية عن العام الماضي. كانت في السابق عبارة عن حطام حقيقيٍّ، وبالكاد كانت تتحدث بشكل متماسك. الوضع صار أفضل بكثير، إنها معجزة، لأنه في الأحوال العادية تسوء الأمور عند هذه المرحلة.

- كنتُ أشعر بأنها لم تكن هنا تمامًا. هل يعاود عقلها الفرار بعيدًا؟

- عليكِ فقط أن تتجاهلي هذا معظم الوقت، ربما لم تألفكِ بعد؟ نحن نلاحظ أن المرضى يكتسبون بصورة مذهلة قوى عقلية عندما يزورهم كل أسبوع أحد الأقارب. جدتك في حالة جيدة بالنسبة إلى عمرها وتاريخ مرضها. هل تعلمين أنها تعيش لدينا منذ أن كانت في الأربعين من عمرها؟

- لا، لم أعلم بهذا. هل يمكنني المرور من الباب دون بطاقة تصريح؟

- نعم، حتى إنها جُلبت إلى هنا، إذا كنتُ لم أخطئ في ذاكرتي، من والد والدتكِ. أي جدك من ناحية أمك. وكان يزورها بانتظام حتى وفاته.

- ما هي الحالة الطبية إذن التي استُقبلت على أساسها؟

- أوه، هذا أيضًا ما سأل عنه والداكِ. لم يفهم أحد الحالة الطبية. إذا كنتِ ترغبين، يمكنني النظر في الملفات، والداكِ قد سمحا بتسجيل الأعراض جميعها بدقة بالغة.

قلتُ بسرعة وكنتُ مرتاحةً لأننا أخيرًا صرنا عند باب الخروج: «لا، لا بأس».

عند عودتي إلى التل سلكتُ طريق الغابة، حيث كانت الطيور قد بدأت منذ فترة بغناء فترة موسم تزاوجها. لم أقطع ولا ليوم واحد روتين نزهاتي خلال الشهرين الماضيَين وكنتُ أنظر بافتتان إلى الطبيعة وهي تجر نفسها أخيرًا إلى الشتاء. عدتُ إلى المدينة، وتسوقتُ لأجل نهاية الأسبوع وشعرتُ بالأحاسيس المزعجة التي تولَّدت بداخلي من زيارتي لدار المسنين وهي تخبو ببطء، عندما كنتُ أتجه صاعدةً في شارع «يوهانسشتراسه»، على الرغم من أن المسافة لبيتي لا تتعدَّى مئة متر فقط من هناك، فإنني أخذتُ الطريق الأطول مرورًا بحارة «كفير»، حتى لا أضطر إلى المرور بمبنى محدد، وكان هذا المرور بعينه هو ما أتجنبه كلما أمكن ذلك: منزل «آل جلوترزاتهاوس».

***

لم أعد قادرة على تذكر متى بالضبط كانت أول مرة سمعتُ بها قصة «هيربرج جلوترزات»، ولكن كل ما أعرفه كم كنتُ مصدومة أن أحدًا لم يخبرني بها قبل شراء منزلي، لأنه كان قريبًا للغاية من بيتي. فقط بعد بضعة أشهر من انتقالي أدخلني شخصٌ ما في قضيته.

لا أحد يستطيع أن يفهم ويشعر بذعري، حُكي لي الأمر دون تفسير سابق والغريب أيضًا دون أي سرية في إحدى الأمسيات في «الكوربِس»، فهي تخص رجلًا باسمه غير المألوف «هيربرج جلوترزات» الذي عاش في شارع «رومرشتراسه 31» والذي كان، مثلنا تمامًا، يجلس إلى إحدى طاولات النزل ليأكل وجبة المساء. كثيرًا ما كان يلفت نظري كل صباح عندما كنتُ أترك منزلي للعمل بسبب أبعاد جسده الغريب. كان واضحًا أن طوله يزيد على مترين، من المحتمل أنه في بدايات الستين من عمره، ومع ذلك لا يزال أسود الشعر، وكان يرتدي بجانب قميصه الكاروهات القبعة المسطحة الكلاسيكية كل يوم، ولا أحد يعلم ما إذا كان مُزارعًا، سائقًا للشاحنات الثقيلة أم أنه فقط

واحد من شاربي الخمر التقليديين. القصة التي كان بطلها، كانت غريبة رغم ذلك، بل تكاد تكون مستحيلة. لهذا السبب بالتحديد يعلم بشأنها كل من في القرية.

سألت إلفريده وأومأت برأسها تجاهه: «هل ترين هذا الرجل هناك؟ الكل يعرفه هنا».

قاطعها فرديناند: «كل شخص يعرف عن كل شخص في جروس أينلاند».

- أجل، بلا شك. ولكن هذا الشخص لا يزال معروفًا. حدث شيء ما في عام 1984. كانوا في ذلك الوقت أناسًا عاديين للغاية، «عائلة آل جلوترزات». بيت، عائلة لطيفة، زوجة تدير المنزل. كل شيء عاديٌّ. (في هذه اللحظة كانت تتحدث بهدوء متآمر وصمت الجميع كما لو كانت إشارة) سأرويها لكم هكذا: ذات يوم في سبتمبر اختفى أطفاله. كانوا أربعة -ثلاثة صبيان، وفتاة- كلهم بين السابعة والثانية عشرة. من الواضح أن اختفاءهم كان في طريقهم إلى المدرسة، كنا نفكر، كل ما في الأمر أنه لم يكن لديهم المزاج للذهاب إلى الدروس، وهذا شيء لا غرابة فيه في مثل عمرهم. حتى بدأ الناس يلاحظون اختفاء امرأته كذلك. (مرة أخرى استدارت كل الرؤوس ناحية طاولته، ولكن «جلوترزات» كان قد أكل حساءه في طمأنينة وسلام) في اليوم الرابع أخيرًا فتشت الشرطة منزله بعد تقديم بلاغ بالفقد. ولم يستطع أحدٌ تصديق هذا. كل الجثث الخمسة كانت في البدروم. قتلهم باستخدام «الإستركنين[1]». وإلى الآن لم يعرف أحدٌ السبب.

سألتُ وكنتُ لا أزال غير مقتنعة بمصداقية هذه القصة: «ولكن لماذا لا يزال حرًّا طليقًا؟».

- أحد أخطاء تطبيق العدالة. خلل تقنيٌّ ما، لا أحد يعلم بالضبط.

- ماذا تقصد بأن لا أحد يعلم بالضبط؟

(1) قلويد بلوري عالي السمية يتسبب في حدوث تشنجات عضلية إلى أن تحدث الوفاة بالاختناق.

تساءلتُ في نفسي، كيف يمكن لأحد الاهتمام الشديد بتفاصيل القتل، أكثر من القبض على القاتل.

قالت الممرضة إلفريده: «إنه يعمل الآن في مكتب البلدية، ولم يعد غريبًا مجددًا».

حقيقة زراعته بعض الزهور أمام المدرسة الابتدائية كانت كافية بوضوح لسكان جروس أينلاند للاقتناع بإعادة تأهيله الكاملة كمواطن. لقد تُحُدِّث عن ذلك صراحةً، كما لو كانت حكاية طريفة عن مجرد شخص خرج عن الأعراف الاجتماعية، فلا أحد مضطر إلى كتم الأسرار عن أحدٍ، رغم ذلك لم يستطع أحدٌ ما التخلي عن خفض صوته بشكلٍ تآمريٍّ عند حكي شيءٍ ما، حتى تستنزف القصة الجيدة عن آخرها. غالبًا ما كنتُ أفكر في أن «جلوترزات» نفسه، لا بد وأنه شعر، هناك في مكانه حيث يجلس، بأن شخصًا ما أُدخِل في حُفرته العميقة، أجل، وربما أيضًا كان يعلم بهذا وكان يشارك بصمتٍ في التشكيل الدراميِّ لحياته.





11

كانت طريقي اليومية للعمل تبدأ بمشهد الغابة المُشبَّعة بالخضرة خلف بيتي، مشهد جعلني دومًا في حالة انتشاء. ولكن المصاعب تبدأ بمجرد دخولي إلى وسط المدينة. خلال الأشهر الأخيرة استمر الهبوط في التقدم بسرعة أكثر مما توقعنا جميعًا. أدى كلٌ من نهاية الشتاء وذوبان الجليد قبل بضعة أشهر إلى هبوط نصف المدينة بنحو أكثر من متر إلى الأسفل في وقتٍ قصير للغاية وجعل الشوارع في حالة سيئة، لدرجة أنه عند العبور يظن المرء أنه يتخبَّط في الوحل. جميع أحجرة الرصف التي شكَّلت الأرضية التاريخية للبلدة صارت نتيجة للهبوط شبه منثورة تقريبًا في كل مكان ومتفرقة بحرية على الساحات والشوارع. بالطبع في أثناء ذلك بُذلت محاولات عديدة لتبليطها بالأسمنت، ومع ذلك تفككت بمجرد هبوط الحفرة فقط مليمترًا بسبب ليلة رطبة. على مدار عام كان يسود خطر الانزلاق الحاد، والآن صرنا ملوكًا في مواصلة التحرك للأسفل. حتى العجائز، الذين عادةً كانوا قادرين بالكاد على البقاء في حالة توازن في الأرض الثابتة، مدوا عِصيَّ المشي بمهارة حاذقة، كما لو كانوا يمشون فوق حبالٍ عالية. في هذه الأثناء طوَّر برج الكنيسة بُعدًا جديدًا مُهددًا بالخطر، البعض يدَّعي، بأنه صار في زاوية 45، وحتى لو أكَّدت القياسات الرسمية مبالغات هذه الأقوال، فلا يمكن تمامًا استبعاد الميل للسقوط.

عندما كنتُ أحمل قهوتي الضرورية كما كل صباح من المخبز المجاور للمدرسة الابتدائية، كان عليَّ تسلُّق سد ما كان يحمي صنبورًا متصدعًا يخص إطفاء الحرائق. ثم انعطفتُ إلى الجزء الغربيِّ من البلدة. نظرتُ حولي بعناية قبل أن أدخل إلى الصيدلية وتأكدتُ من عدم وجود أي زبائن بالداخل. كان

الصيدلي «شتول» يترقب قدومي بالفعل وسحب من تحت الطاولة كيس أدويتي ودفعتُ نقدًا مبلغًا ضخمًا مقابلها. إذا لم يكن أجري عند الكونتيسة ضعفَ أجري بعملي القديم، لأفلستُ في غضون أيام قليلة.

قال هامسًا: «لم يكن من السهل مطلقًا الحصول على هذه الكمية من «الكودين»، مزجتُه بالقليل من مستحضر طبي للأطفال».

أجبتُه: «الكودين هو الكودين».

وحرصتُ أمام الباب على عدم زحزحة أحجرة الرصف من موضع تثبيتها بسبب الخطوات الغليظة. ثم واصلتُ المشي تجاه القصر.

بغض النظر عن الكنيسة، كانت الساحة الرئيسية هي مركز الانهيار، هبط منتصفها بثلاثة أمتار كاملة زيادةً عن العام الماضي. ولم تكن الأحجار فوقها فقط متفككةً، ولكنها منزلقة معًا متكومة مباشرةً في المنتصف، هبطت على هيئة قمع إلى الصورة التي كانت لرئيس الملائكة. وهناك في الأسفل، أي في أدنى نقطة للشكل المخروطيّ، نشأ أول ثقب إلى المنجم خلال الأشهر الماضية. أولًا كان نحيفًا مثل خرم الإبرة، ثم سرعان ما صار سميكًا مثل قبضة اليد والساق. يوميًا في طريقي للعمل كنتُ أرى هذا الفراغ الأسود، الذي كنتُ أعلم من خلال حساباتي أنه يقبع فوق أعمق وهدة للحفرة، وكنتُ أتخيل كيف لحجر يُلقى في هذه الفجوة أن يسقط لخمسمئة متر في الجبل.

لم يتبق مكان لمواصلة المسير في هذه الساحة الرئيسية المخروطية سوى على حافتها التي تشبه بيتزا حجرية. أنا والآخرون، المضطرون إلى المرور على هذه الساحة، كنا نسير متزاحمين على طول الحافة الضيقة بجانب واجهات المنازل، نمنح بأدبٍ لبعضنا بعضًا أحقية المرور بالأولوية، كما لو كنا على مفرق مؤدٍّ إلى طريق سريعة ملوحين للمعارف، عندما يكونون مُعلقين بمصابيح الإنارة على طول الجانب المقابل للساحة. كنا نقف على هذا البناء الأرضيِّ نفسه ومع ذلك لم يكن ممكنًا الوصول لبعضنا بعضًا. كنتُ أجُر نفسي وظهري للحائط إلى الجانب الشرقيِّ للساحة، ببطء أكثر من المعتاد، لأنه بحلول ذلك الوقت كان هناك مجموعة من أطفال تلاميذ الابتدائية، مربوطين بحبال من الأمام ومن الخلف بمعلماتهم، في طريقهم إلى المدرسة. على الرغم من الحالة المُحزنة للبلدة فإن الجروس أينلانديين غرزوا بصيلات

الأزهار في أصص الورود، حيث أغصانها الصغيرة المُنبتة تحتك الآن برقبتي. كان هذا المرور يعطي إحساسًا وكأنها ساعات طوال يقضيها المرء في أثناء عبوره ذلك الميدان، بينما يستغرق الأمر فقط بضع دقائق.

ربما كان أغرب شيء على الإطلاق هو كيف أن الإيقاع السريع للاختراقات كان يؤثر في الإحساس الزمنيّ لدى جميع سكان جروس أينلاند. في الأسابيع التي حدثت فيها الاختراقات بسرعة، بدا أن الزمن وقتها قد جن جنونه ولم يُتح لأحد ملاحظة كل التغييرات التي تحدث في صورة البلدة، لهذا السبب في لحظات قليلة بدت عوامل التجوية أنها تحدث منذ سنوات. ولكن إذا ظل كل شيء ثابتًا، فإن تدفق الأشياء اكتسب متانة ما، وتدحرجت الأشهر من فوقي في خمول تافه. بالكاد لاحظتُ أن خريفًا كاملًا قد انقضى. كما الطبيعة في إيقاعها المنتظم لفصولها الأربعة تؤثر عادةً في إدراك الوقت، لهذا الحد كانت الأشياء تقف وتتدفق هنا مع الهبوط المتواصل. كان ترك الساحة الرئيسية نعمةً. على الرغم من أن باقي المدينة كان بدرجة ما مُدمرًا، فلم يضع أحد في الحسبان بأن يكون الانحدار بهذه الضخامة. وعلى العكس تمامًا، لقد شعرتُ أنا أيضًا بانبهار حلو، كيف بدا كل شيء في الجانب الشرقيّ للمدينة سليمًا، حتى لو كان هذا الشعور لا شيء سوى خداعٍ بصريٍّ. قبل أسابيع قليلة فقط لاحظنا أن المعالم الأثرية التي تتجمع هنا، كانت تميل أكثر فأكثر، ولهذا قررنا إمالة الأرصفة بالزاوية نفسها بالضبط. كانت مجرد عشر درجات، تلك التي فعلناها باستخدام آلات الحفر الهيدروليكية ودعَّمناها بتحقين بالخرسانات، ولكن حُوفِظ على سلامة تفكيرنا واطمئناننا قليلًا بهذه المهزلة.

خارج وسط المدينة كان عليَّ التغلب على عقبة أخيرة، سلمة وحيدة ارتفعت في هذه الأثناء من مجرد عشرين سنتيمترًا إلى نصف متر. أما القصر نفسه، بعد أن بُني وحده على صخرة عالية، ظل على الوضع نفسه منذ الأربعمئة سنة الماضية.

قال الخادم عند دخولي للقصر: «صباح الخير، يا دكتورة، المناديل».

نبهني إليها ثم سحب العلبة من حقيبتي، وبدل واحدة جديدة بها، قبل أن -دائمًا الجزء الأكثر إزعاجًا في الإجراءات- يدس يده في كعكة شعري بتحسسات صلبة، للفحص والتأكد من عدم وجود أجهزة تصنت أو ما شابه

هناك. أصابعه العظمية الباردة أمسكت بصدغيَّ، حتى يؤخذ في الاعتبار بارانويا الكونتيسة، التي تتخوف باستمرار من أن موظفيها سيتجسسون عليها.

قال كارل بلا أي اعتبار لحقيقة أنني لم أتأخر ولو لدقيقة واحدة: «حسنًا، يمكنكِ الذهاب، لديكِ الكثير لتفعليه تعويضًا للوقت الضائع».

شعرتُ بعدم الارتياح، كما كنتُ دائمًا عندما يؤنبني. رغم أنني أديتُ عملي بحسب علمي وضميري، بل حتى أنجزتُ أكثر من الواجب المحدد، ولكني شعرتُ دومًا بالسوء. لأنني على أي حال لم أكُن مدينة للكونتيسة براتبي فقط، بل بكل ما يتعلق بمنزلي. كان عجزًا أبديًّا قابعًا فوق رأسي، لم يكن مُلحًّا بشكل مباشر، ولكن كان دائمًا حاضرًا فيما وراء وعيي. ولم أكن أنا الوحيدة بهذا الشكل في القرية، كما علمتُ منذ فترة قريبة، كل شخص كان يدين للكونتيسة بطريقة أو بأخرى. سرتُ في الطابقين إلى مكتبي وتظاهرتُ بأنني غارقة في حساباتي.

لمدة عام تقريبًا أصبحت المحاكاة[1] التي كنتُ أفعلها هنا طبيعةً ثانيةً لي. كنتُ أعمل يوميًّا في أكوام الورق خاصتي، بلا أي خطوة واحدة للأمام في أيٍّ من هذه الأمور، بينما في الوقت نفسه تحضر لي الكونتيسة واجبات جديدة، إما أنها غير قابلة للحل وإما بلا معنى. وهذا يعني: بالنسبة إلى الأجر، الذي كنتُ أتقاضاه نقدًا من الكونتيسة شهريًّا، كنتُ أستثمره في حقل من الأوراق لا فائدة له.

فوق مكتبي كان هناك لوحة مُعلَّقة مكتوبًا فوقها ثلاثة شعارات كنتُ أوجِّه عملي عليها: التنقية، التمدد، والتعبئة. التنقية، هذا ما تعلمته، تعني، ترك البيانات وشأنها، ولكن أيضًا تحويلها إلى حالة أخرى، أكثر قابلية للاحتمال. قضيتُ ساعات لا تنتهي في حساب قيمة الوحدات في بعضها بعضًا وأيضًا حتى طرح نطاقات التذبذب المقبولة من النتائج. وهكذا فإن الأرقام الناتجة كانت تفي ببعض الطمأنينة نظريًّا، وفي نبوءاتها بخصوص الهبوط لم تكن أقل من نهاية العالم، كنتُ أُقدِّمها في الصالونات الأسبوعية، حيث كان لها مفعول البلسم على جرح عميق. الإجراء الثاني هو التمدد. عند هذا خضعت

(1) Mimikry المقصود تشبُّه كائن بكائن آخر سواء في الرائحة أو الشكل أو الصوت.

بعض الحقائق لما يسمى بإعادة التقييم، التي من الممكن أن تكون إما تخطيطًا للمناظر الطبيعية، وإما مادية وإما أخلاقية، وإما حتى روحية في بعض الحالات. كل ما هنالك هو وضع البيانات غير القابلة للتغيير في صورة إيجابية من خلال إيجابيات مبتكرة. يمكن تمجيد رطوبة الأرض، التي بدأت بالفعل في التفتت لاعقةً النعال، كونها علامةً على الخصوبة أو إحياء الاختراقات المتشكلة حديثًا كفأل جيد، إذ إن البلدة بأكملها الآن تقترب على الأقل من مستوى مشترك. يشير مصطلح التمدد إلى تمدد الكلمات: التفتت الدقيق لترابط المعنى. على المستوى الأساسيِّ كانت هذه مجرد إجراءات دعائية بسيطة. لذا في الوقت الحاليِّ فإن كل ما أفعله في أثناء النهار هو زحزحة الأرقام من حافة الورقة لحافة أخرى صانعةً منها عروضًا تقديمية ممتعة على الباوربوينت مرة كل أسبوع، وهذا ليس سيئًا.

لأن أول نقطتين، اللتين كانتا تستنزفان جزءًا كبيرًا من طاقتي، منعتاني دائمًا من أداء واجباتي التي وُظِّفتُ لأجلها: تطوير مادة داعمة التي سوف تحقق ما لم تتوقعه الكونتيسة من كل مقدمي الخدمات المحترفين. في حقيقة الأمر لم أكُن مستاءة للغاية من أن هذه الأجندة تأجَّلت نوعًا ما بسبب أعمال أخرى، من ناحية، نظرًا إلى أني على الرغم من القراءة المتعمقة في جوهر الموضوع فإنني ما زالت لدي شكوك مهمة حيال كيفية إنتاجي لمثل هذه الصيغة المعجزة وأنا عالمة فيزيائية نظرية. والأهم جوهريًّا من ذلك هو أنني، حينما كنتُ أحاول فعل ذلك مرارًا وتكرارًا في العام الماضي، كنتُ أواجه في أثناء عملي تناقضات عجيبة. لقد كانت واضحة للغاية ليتعرف عليها أي أحد، لدرجة أنني تساءلتُ في نفسي، لمَ لمْ يلاحظها أحدٌ مطلقًا، فلا يوجد رقم وحيد يتوافق مع الواقع. أول ما لاحظته هو أن حجم الحفرة كان أكبر بكثير مما تدَّعيه الوثائق الرسمية التي وُفِّرت لي. صححتها ببساطة ساذجة، في الأسبوع التالي ظهرت في مكتبي ووجدتُ في انتظاري على الورق الأرقام الخاطئة نفسها من جديد، دون أن يُذكَر الموضوع ولو بكلمة واحدة. سرعان ما تخليتُ عن تعريف أي شخص آخر بما اكتشفه، والأكثر من ذلك، أظهرتُ حذري منذ ذلك الوقت في أبحاثي.

اليوم أيضًا لاحظتُ مثل هذا التناقض: في وثيقة تعود لعام 1950 سردت وجود مدخلٍ جانبيٍّ للمنجم، الذي لم أتعرَّف عليه في قوائمنا. نظرتُ حولي بسرعة ثم وضعتها في جهاز تصوير لمستندات لصنع نسخة من أجل أبحاثي الخاصة. لقد قررتُ منذ وقتٍ طويل انتهاج مبدأ عدم العمل على مواد الحشو، حتى أفهم كيف يمكن لمثل هذه الأخطاء أن تصل إلى هذه المستندات. على أي حال فسيؤخر عملي بدرجةٍ كبيرة، حتى في حالة أن كل هذا لم يكن يعني شيئًا. ولكن ربما هذه الليلة سيُعثَر على شيء ما لينكشف. وضعتُ الورقة المنسوخة في حقيبتي وتنفستُ بعمق.

عند الساعة الثانية عشرة، فقط بعد ساعة واحدة من بدء العمل، نظرتُ إلى الساعة. داخلَني شعورٌ بعدم الارتياح منذ الدقيقة الأولى على وجودي في المكتب. كانت مؤثثة من الداخل مثل بيضة فابرجي[1] على طراز الروكوكو[2] ومغطاة بورق الحوائط برسومات على طراز البيدرماير لصبيان صغار وغزلان رقيقة على المروج. كنتُ مضطرة إلى أخذ فترات راحة قصيرة بانتظام في الممر، كان الهواء في غرفتي بالأخص في الشتاء حارًّا مثل فرن. في كل مكان كان الخدم النشيطون بحماسٍ يشعلون النيران في المدافئ، حيث كانت تمتصها السجاجيد السميكة، ومن ثم لم تكن النوافذ التي بارتفاع أربعة أمتار لتُفتح، بل كانت ملتصقة بقوة بالجدار. كان الملل لا يُطاق، وكلما قارب عقرب الساعة على الثانية، اقترب وقت النهار الذي أخافه أكثر من أي شيء. في اللحظة نفسها سمعتُ صوت اقتراب الخطوات الحادة، بعزيمة هائلة خطت الكونتيسة بداخل الغرفة في ذلك الوقت، حيث لا أزال قائمةً بما يسمى بالعمل.

قالت بصرامة: «أوه، ها أنتِ ذي».

---

(1) بيضة ثمينة من صنع الصائغ الروسي بيتر كارل فابرجيه، حيث كانت تُصنع للقيصر الروسي نيقولا الثاني ليهديها لزوجته في عيد الفصح، وصار مصطلح بيضة فابرجي مرادفًا للبذخ.

(2) ظهر في منتصف القرن الثامن عشر، يتميز هذا الطراز بالانسيابية والرقة والألوان الناعمة.

وكانت قد دخلت الغرفة بالفعل في حضور كامل، ووضعت قبعتها عريضة الحواف على وثائقي. غالبًا ما كانت تأتي في ذلك الوقت من اجتماع مع أصدقائها النبلاء أيضًا.

بينما كانت تجلس على حافة طاولتي قالت بنبرة بها لف ودوران غير ضرورية، بالطبع لم نناقش شيئًا مثيلًا: «أريد التحدث معكِ بشأن شيءٍ ما ضروريٍّ، اتفقنا. هنا، لدي تصميمات لمصنع قديم للحديد والصلب، لا أعرف إذا كنتِ قد تحتاجينها. إذا كان الجواب لا، حسنًا فلا، فببساطة سآخذها معي مجددًا. على أي حال يجب أن نتفق معًا قريبًا. (أوضحت بعصبية) يجب أن نتناقش معًا للضرورة. أنتِ تعرفين أن منزل الممرضة إلفريده، كما يقول البعض، يغرق. هذا سيؤدي إلى ضجة أكيدة. وإنه لمعروف بالتأكيد مدى ارتباط إلفريده بالبلدة. هل يمكنك جمع عدة أبحاث صغيرة لي حتى الأسبوع القادم؟».

اقتربتُ منها أكثر لأنظر في التصميمات وشعرتُ بالطريقة المتصلبة التي كان عليها جسدها. قلتُ بحذرٍ: «لا يُقال فقط إنه يغرق، بل قد بدأ بالفعل في الانقسام من المنتصف».

- مهما كانت الحقيقة، الشيء الأهم هو أننا لا نرغب في إزعاج مثل هذه المواطنة الراسخة في البلدة، يجب التدخل لتسوية الأمر. يجب أن نجد طريقةً ما لعدم ملاحظة الوعكة.
- ماذا تقصدين؟ إننا يجب إذن أن نُخفي منزلًا يتمزق إلى نصفين؟ أعتقد أن حتى خط الكهرباء مكشوف.

صاحت الكونتيسة وألقت بلفافة الورق إلى الأرض: «نعم، هل يجب أن أؤدي واجبك الآن؟ (ولكنها هدأت في الحال من جديد) أوه، لا يوجد أي استعجال في الأمر. إنه مجرد عملٍ تحضيريٍّ، إلا إذا كان ثقيلًا عليكِ فعله».

كانت الكونتيسة تقدم لي مثل هذه الأفكار يوميًّا، التي لا علاقة لها بالقوانين الأساسية للفيزياء أو بالوقائع المالية. قالت الكونتيسة عندما رأتني قد اتجهتُ من جديد إلى الأوراق الموضوعة أمامي: «أنتِ تبعثرين جهودك. ولكننا سوف نتحدث عن شيء آخر. لقد طلبتُ منك أمس حسابًا يخص الاقتراح، تعلمين ما الذي أقصد. اهتمي إذن بهذا بأقصى سرعة ممكنة».

ظلت الكونتيسة بلا حراك أمامي.

سألتُها أخيرًا: «كيف... الآن؟».

- عندما لا يكون لديكِ شيء آخر لتفعليه، أطلب ذلك.

رفعتُ القلم مطيعةً كلامها ورحتُ متصببةً عرقًا لأتعرف على الملفات الضخمة التي وُضعت بالأمس على طاولتي بأمر من الكونتيسة. كان أغبى هراء قد قرأتُه في حياتي: اقتراح لبناء ما يشبه مترو معلقًا تحت الأرض الذي من المفترض أن يوضح التعدين في القرن الـ 19. يجب أن يُنهى في الوقت المناسب لمهرجان الأعمال الفنية الضخم وأن يجذب السياح رغم التذاكر باهظة الثمن. رأيتُ في الوهلة الأولى، أنه ليس فقط حسابات تحليل التكلفة والفائدة لن تكون مُحتملة على الإطلاق، بل إن الضيوف سيلاقون حتفهم الذي لا مفر منه فقط بعد لحظات قليلة من دخولهم الجبل بسبب الانهيار الصخريِّ. والكونتيسة ما زالت تجلس في المكان نفسه بلا حراك وتراقب تحويلاتي الحسابية التي عفَّى عليها الزمن كلما طال الموقف، شعرتُ -من جانبي- بأنني أفعل شيئًا ما غير صحيح. ارتجفتُ، في الحال داهمني شعور بأن الوقت لم يمر، لأن الموقف يتكرر تقريبًا كل يوم. كنتُ أتصبب عرقًا بينما أقدم الاقتراح أخيرًا بالحسابات. قالت الكونتيسة: «شكرًا. (وسحبت ورقة عليها توقيعها من الحقيبة) طلب الإجازة الخاص بكِ. لقد وافقتُ عليه بالطبع، كما أفعل دائمًا مع أفضل الموظفين لدي».

قالت وتنفستُ الصعداء. كانت بالفعل في طريقها إلى مكتبها عندما توقفت من جديد.

- رغبتُ في سؤالك عن شيء آخر. (نظرتْ في الأرض بارتباك) هل ترغبين في الذهاب معي الليلة إلى المسرح؟ زوجي ليس لديه وقت. سوف تُعرَض مسرحية «ماكبث»، تستطيعين أن تصحبيني إذا رغبتِ.

أجبتُها: «للأسف أنا مرتبطة بشيء اليوم، وإلا لأحببتُ ذلك بالتأكيد».

قالت الكونتيسة كما لو كنتُ قد رفضتُها هي شخصيًّا: «حسنًا، إذا كانت «ماكبث» لا تثير اهتمامك، إذن فلا شيء يمكن فعله. (أضافت قائلةً بلا مراعاة لكلامي المُضاد لهذا) لا مزاج لشيكسبير، حسنًا إذن».

ثم استقرت بجانبي وسرَّحت شعرها قبل أن تعود من جديد إلى حديثها بعد أن تنحنحت وتوقفت لفترة عن الكلام. أضافت مسرعة ولكن بعدائية: «حسنًا، إذن، إلى أين ستذهبين الليلة، إذا كنتِ تفتقدين للوقت؟ لستِ مضطرة إلى الحكي».

أجبتُها بغموضٍ متعمد: «سأقابل شخصًا ما للعشاء».

- أوه، نعم، أفهم، إذن فلا. (كررت من جديد) إذا لم تكن «ماكبث» لا تثير اهتمامك، إذن فلنرَ بعضنا بعضًا غدًا.

وجرت رداءها على طوال الأرضية خارجةً من الغرفة. في تمام الساعة الثالثة سُمح لي بالإعفاء من الواجب النهاريِّ بدقة رسمية، بهدف إعطائي الوقت لكتابة أطروحة الدكتوراه. كنتُ أعاني يوميًّا تقريبًا من صداعٍ كحوليٍّ بسبب حواراتي مع الكونتيسة وكنتُ أحتاج طريق عودتي إلى البيت، لأعود من جديد إلى وعي رائق. بالإضافة إلى ذلك كانت جدتي مُعلَّقة في رأسي مثل شبح. لقد أُفرغت الفجوة أسفل أرضية الباركيه، فكرتُ، وفتحتُ قفل الباب. مثل كل مرة، عندما أدخل بيتي، يهبط فوقي هدوء نادر.

في الحديقة كانت الأعشاب التي كنتُ قد وضعتها، قد تكسَّرت بالفعل. قطفتُ بعض الريحان لغدائي وجلستُ في كرسيِّ المريح وفكرتُ في ما يجب أن أفعله كونه خطوة تالية في الحديقة. الشعور بتولي إدارة ما مُنحت لي من جيلٍ آخر كان جسرًا لي بالأرض والحياة الطبيعية، رصَّفتُ المدخل بيدي وأصلحتُ الواجهات، استثمرتُ ما أملكه في نظام تدفئة مركزيٍّ أو في الجراج، على الرغم من أنني لم يكن لدي حتى سيارة واحدة. ولكن كان هناك شعور رهيب بالسعادة يضطجع فوق كل شيء، في النهاية استطاع والداي تمرير شيءٍ ما لي، حتى لو كان هذا قد حدث تحت ظروف مُعاكسة. لم أُقتلَع من جذوري، بل وُضعتُ في سلسلة متصلة بسلاسة، حتى لو كان هذا ماديًّا فقط.

سخَّنتُ الأكل، وبدأتُ على الفور في العمل على دراساتي العلمية، الوقت ضيق بالفعل. أسبوعًا بعد أسبوع كان يزداد ثقل العمل لدى الكونتيسة والوقت المتبقي لي لأطروحتي كان يقل. كما أدركت منذ وقتٍ طويل أن نصف اليوم كان قصيرًا للغاية للتعمق بحق في النظريات. مباشرةً بمجرد

أن بدأتُ في زيادة سرعتي، كان عليَّ ترك المنزل من جديد وسرتُ في شارع «أوبرشينكلباخشتراسه» نزولًا.

وجدتُ في انتظاري فرديناند يقف أمام حانة محلية، حيث كان يجد عناءً في كتابة شيءٍ ما بأصابعه التي تشبه السجق الضخم على شاشة هاتفه المحمول. كان يلهث من الجهد ولاحظ وجودي فقط عندما وقفت أمامه.

قال: «روت، ها أنتِ ذي. كنتُ سأكتب لكِ. قولي لي، لمَ لمْ نتقابل في «كوربِس»؟ من الصعب إحراز تقدم في الوقت الحاليّ، لقد صرتُ منذ أسبوع في المستوى الثالث».

الآن فقط رأيتُ أنه كان هناك أنبوب خارج من أنفه، وأن هذا الأنبوب السامق كان موصلًا عبر أنبوبة شفافة بزجاجة أكسجين في عربة صغيرة.

قلتُ ونظرتُ حولي في ارتباك: «لا أعلم، فكرتُ بأنه سيكون لطيفًا، وأيضًا، الهواء المنعش».

دفعته بلطفٍ للدخول وجلسنا في زاوية الحديقة. على فرع لشجرة بلوط كانت تتأرجح لوحة خشبية كُتب عليها «*عاصفة وكستناء*».

سأل فرديناند الذي كان يضطر إلى التوقف كل ثلاث كلمات ليسحب الهواء بصوتٍ عالٍ إلى رئتيه: «كيف الحال مع السباحة؟ أولمبي بالفعل؟ أنتِ وأنيتا، أنتما في الفريق نفسه، أليس كذلك؟».

أنا نفسي أُصبتُ بضيق تنفس خفيف بينما كنتُ أستمع إليه. كان الجو مُغيمًا بالفعل أكثر مما توقعتُ. أجبتُ ولوَّحتُ بسرعة للنادلة: «جيد، ولكن ينقصنا شخص في سباق التتابع. نحن فقط ثلاثة في النادي، ويجب على واحد منا السباحة مرتين».

طلب فرديناند لنفسه دورق لتر من النبيذ له وحده كما طبق الشنيتسل[1] المُقطَّر. ارتجفتُ لأنني رأيتُ قضمة من سلطة البطاطس تسقط من خارج فمه على وشاح كرة القدم خاصته. تساءلتُ في نفسي، إذا كان يزعجني أنني

---

(1) طبق من أصل نمساوي، وهو عبارة عن شرائح اللحم أو الدجاج منزوع العظم مغطى بالبقسماط ومقلي، أما في فيينا يقدم بفيليه السردين وشريحة الليمون.

أشعر بالخجل من نفسي، أم إذا كنتُ أشعر بالخجل من أنني أخجل بالفعل من وجوده.

- نحن نتقابل نادرًا للغاية، يا روت. كنتُ أرغب منذ وقتٍ طويل في أن أُريكِ مسكني الجديد. أسكن الآن أسفل شارع جمعية التعاون. يوجد جراج خاص بالمنزل ومطبخ جديد بمكعبات ثلج.

ونشر ثمار عنب الثور على قطعة خس.

- لا بد وأنه كان صعبًا عليك، ترك منزلك وراءك، لقد نشأت هناك. هل كان متفككًا تمامًا؟

- بالكامل.

قالها وصب لنفسه آخر قطرة من دورق الخمر، ثم تابع: «لم يكن صعبًا. آه لقد سقط كلبي في الفتحة الموجودة بالقبو ومات في الأسفل. لم ألاحظ ذلك مدة ثلاثة أيام، فقط عندما بدأ يتعفن. حينها قررتُ الرحيل قبل أن يحدث نفس الشيء معي».

ضحك بصوتٍ رنان، واستغرق الأمر ثلاثة أو أربعة أنفاس كاملة حتى عاد تدفق الأكسجين إلى مستواه الطبيعيِّ، ثم تابع: «لا، في حقيقة الأمر، يجب أن تأتي إليَّ مرةً ما».

استطردتُ مسرعةً: «لدي الكثير لأفعله في العمل، والأيام القادمة ستكون أشد. (سرت بي قشعريرة ونظرتُ إلى الساعة) ما الذي يحدث معك إذن؟».

- لا شيء، كل شيء على ما يرام. فقط ليت لي سيارة جديدة، لمباريات كرة القدم.

إما إذا كان حقًّا لا يشعر على الإطلاق بحالته الجسدية؟ وإما أن تربيته الريفية قد منعته من إظهار معاناته إلى حد ضخم؟ لقد بدا على العموم في أحسن أحواله المزاجية.

حاولتُ في أن أبدأ كلامي برفق قدر الإمكان: «فرديناند، رغبتُ في أن أسألك شيئًا آخر. كنتَ ذات يوم تحدثت عن مدخل للحفرة يمكن للشخص النزول للأسفل عن طريقه».

أجاب بالإيجاب بصوت غير واضح يتجاوز قطعة الشنيتسل في فمه.

- هل يمكننا الذهاب إليه بعد قليل؟ أعني هل لا يزال مفتوحًا؟

- ماذا، اليوم؟ الظلام تقريبًا حل، وبالكاد أستطيع صعود سلالم.

قلتُ بلا ترابط بين كلامي، لأننا على أي حال كنا نجلس لوقتٍ طويل في العراء: «سيكون شيئًا مهمًا بالنسبة إليَّ. ولكن هلَّا قمنا لنتمشى. أحتاج لهواء نقيٍّ».

قال فرديناند ببطء: «لا أعلم. هل يمكننا الانتظار حتى مرور فترة علاجي؟ بالإضافة إلى ذلك فهذا ممنوع أيضًا».

- فقط لوقتٍ قليل.

أصررتُ حتى استسلم أخيرًا، ودفعتُ، كما على سبيل الاعتذار، كل ما أخذناه. ورحنا في طريقنا إلى حارة «ذُنيان». قال وهو يلهث تمامًا من المشي لمسافة قصيرة على طريق صاعدة: «إنه عند المدخل الغربيِّ».

رغبتُ بشدة في إيجاد المدخل مفتوحًا عن طريق فرديناند، في الواقع كان هذا هو السبب الوحيد لمقابلته الليلة. عند المكان الذي كنا نقصده كان يوجد به تناقضات خاصة، تقارير خبير في الشؤون الجيولوجية أظهرت ملامح تلال غريبة، كما لو كان شخص ما قد حاول بكل قوته ملء التربة بنفسه. في الوثائق الرسمية لا يوجد شيء.

- روت، هذا جنون، لا أحد يمكنه رؤية شيء.

كنتُ أضطر إلى دفع فرديناند للأمام كل متر، وكان يعاني فعلًا من الألم، ولكن كان هو الوحيد الذي أثق به. وصلنا بعد مسيرة بطيئة جدًّا عند بقعة سامقة للغاية شمال شارع «شاينباخرشتراسه». تشبث فرديناند بجذع شجرة لاهثًا بجهد، بينما كنتُ أصعد تجاه الأدغال.

صحتُ قائلةً له: «اللعنة، المدخل مغلق بالمسامير».

- قلتُ لكِ.

فكرتُ للحظة في إمكانية فعل شيء حيال الأمر لتغييره، ولكن الشرائح الخشبية المُثبتة بمسامير ضخمة، لن تسمح بأن تتزحزح ولو سنتيمترًا.

***

حتى في النظرية العامة للنسبية يوجد موضع يتعطل فيه الزمن: الثقوب السوداء. إذا كان لجسم ما كتلة ضخمة للغاية، لدرجة أن الأمر لا يقتصر على تماسكه وحده، بل يربط به المزيد والمزيد من الجسيمات في جاذبية تتزايد بشكلٍ ملحوظ، فإنه يبدأ التفاعل التسلسلي: كتلة أكبر تعني تجاذبًا أكبر تساوي مركزًا أكثر كثافة يجذب إليه من جديد المزيد من الكتلة. وإذا تطورت جاذبية قوية بشكل خاص، فلا يمكن للأجسام ولا الضوء أو المعلومات مغادرة الثقب من جديد.

يسمى هذا المجال الخارجي للتفرد الجذبوي[1] باسم أفق الحدث[2]: إنه الحد الواقع بين الثقوب السوداء والكون المحيط، الحافة التي يجتمع عندها الوجود والعدم المُتغذِّي على الوجود. والحق أن اسم أفق الحدث لهو اسم مخادع، لأن وبسبب التعريف، فلا يمكن إيجاد أي أحداث هناك. كل حركة عبارة عن إيحاء وهمي: الجاذبية المنبعثة من الثقب تُشوِّه الفضاء وجريان الوقت، يتحطم كل شيء بفعل قوة الكتلة المضغوطة بلا حدود.

---

(1) يشير إلى موقع في الزمكان يصبح فيه مجال جاذبية الأجرام لا نهائيًا. (أي وزن لا نهائي لحجم معين).

(2) منطقة تحيط بالزمكان، أي بنقاط اللاعودة، أي أنه المكان الذي يصبح فيه الهرب بالنسبة إلى الأجسام فائقة الضخامة مستحيلًا بسبب الجاذبية.

12

أُفرغ التجويف أسفل أرضية الباركيه، لعدة أيام كانت تدور هذه الجملة في أفكاري. نشر التجويف أجزاءه في خيالي بداخل عيني، وكنتُ مجبرة على إبعاد كل جزء تلو الآخر عني، إذ كانت على أي حال مبهمة للغاية لدرجة أنني لا أستطيع الحصول منها على أي شيء. فكرتُ في لحظة شرود: *التجويف أسفل أرضية الباركيه*. هل كانت تشير هذه الصياغة ربما إلى المخفي في عقلها؟ كانت فكرة محزنة، أنها لا تزال في آخر الأمر تعلم بشأن انهيارها.

هكذا سار الوضع لعدة أيام، وعندما كنتُ أفكر في ذلك آلاف المرات، كان يظهر وراء هذه الجملة فكرة أخرى. والشيء الذي كان بعيدًا جدًّا عن الاحتمال، هو أنني بدأت أمتعض من إلحاحها. كنتُ أتلهى بالعمل أو أترك المنزل بعصبية لأختفي في الغابات. فقط زيارة للبار مع أنيتا وثلاث كؤوس من الجِن وماء التونيك كان لهما تأثير كافٍ لاستسلامي في نهاية الأمر. اضطجعتُ على الأريكة وبدأت الغرفة في الدوران، بينما نبضة تشق طريقها عبر عقلي الأعزل. قعدتُ على الأرض وتحسستُ بأصابعي شقوق الباركيه المتعرج، حيث ترسب فيه غبار من القرون. لم أستطع اختراقه بيدي، أخذتُ علّاقة[1] ومشّيتُ بالسلك في الشقوق لأهزم هذا الشعور لمرة وحيدة وللأبد. بالقرب من النافذة ظل السلك مُعلقًا. مدهوشةً سحبتُ المشجب المتوسع، وانفتحت الأرضية الخشبية. استغرق الأمر وقتًا حتى انتهى السُّكر والمفاجأة من اختراقي وفهمتُ ما قد حدث. سلمٌ خشبيٌّ يفضي إلى قبو بداخل الأرض يصعب رؤيته عبر ظلال إضاءة السقف. بترددٍ كنتُ أنزل بمشقة إلى الحفرة

(1) خطاف يثبت على الحائط لتعليق الملابس عليه.

التي يفوح منها رائحة ثقيلة للتربة، ووقفتُ على تربة طينية جرداء لغرفة قبو قديمة يوجد بها لمبة كهربائية عارية معلقة على الحائط الخلفيّ.

***

في وقتٍ ما لا بد من التحدث عن اللغزين.

في الصباح كما في المساء كنتُ أخصص وقتًا للجلوس لساعتين لأبحاثي الخاصة مثل عميل سريٍّ، وهو ما لم يستطع عبء العمل لدى الكونتيسة منعي عن فعله. فقط أطروحة التأهيل خاصتي عانت أكثر مما قد عانته من قبل. كان الموضوع هكذا: منذ البداية كان لدي شعور بوجود شيء خاطئ حيال هذه القصة حول الحفرة وأن هذا الملء، بجانب الضرورة الواضحة والثابتة، كان له الغرض، بأن يؤدي بهذا الشيء الذي لم يُحل بعد إلى غلاف صلب ثابت، لا يمكن فتحه أبدًا. رغبة الكونتيسة في تطوير مادة رابطة كانت بالنسبة إليَّ شيئًا غير مهم على الدوام. بدلًا من ذلك كانت الحفرة وسببيتها، حالتها وبقاؤها، ولكن قبل كل شيء العمليات التي أدت إلى نشوئها، كل هذا أصبح ضمن هوايتي في السنة الأخيرة.

عندما كنتُ أصطدم بشيء، كان على الأغلب مجرد منتجات من نفايات الأعمال التي أُنجزها للكونتيسة. مجرد مشاهد جانبية، مسائل ورقية لا معنى لها في الواقع، كما كان الحال لدى أي وظيفة حكومية. فقط الأشياء الأكثر إثارة للاهتمام نسختُها في القصر وأخذتُها معي إلى البيت. تنشأ الصورة عندما تلملم الأجزاء المتناثرة وإذا لزم الأمر أن تُتممهم بالقطع المفقودة. كما لو كنتُ أفرغتُ علب الكبريت سهوًا، كما لو كانت أعواد الثقاب تجمعت معًا في شكل صورة يمكن التعرف عليها بوضوحٍ. أو بالأحرى يمكن القول: لقد كانتا صورتين، مثل هاتين الصورتين اللتين نشأتا، إحداهما عامة والأخرى خاصة.

كان اللغز الأول يتعلق بنظام الأنفاق والأحداث القابعة بداخلها تحت السطح. استغرق إدراكي بأن شيئًا ما مفقود في هذه الحكاوى شهورًا، بسبب الفجوات التي كانت تُملأ بإخلاص مُطيع. احتاج الأمر فقط لعين مُدربة على المحيط، عين محليَّة تقريبًا، لكي يُرى أن الخيوط المتقاربة فوق الحفرة كانت شيئًا آخر غير خيوط النسيج الأصليِّ. فقط كانت الصبغة المتباينة بدقة للقصص هي ما أظهرت ذلك.

أما جسد اللغز فكانت قصة عُمال السُّخرة المفقودين التي سمعتها لأول مرة قبل عام. في واقع الأمر هذا لم يكن شيئًا مميزًا في النمسا، حقيقة التستر بعنايةٍ على الجرائم في وقت النازية ثم بعد ذلك الكشف عنها.

لقد اتضح أنه لم تكن فقط الجثث السبعمئة والخمسون هي ما فُقدت في الذاكرة الجماعية، بل أن القبر نفسه الذي نُصِّب فوقه النصب التذكاري كان متحركًا في الروايات المختلفة للناس. ظل يتغير باستمرار موقعه المُتناقل على الألسن في وثائق تعود لعقودٍ مختلفة. في إحدى المرات كان من المفترض أن يكون خلف الغابة المحمية على هضبة ما، في مرة أخرى وُصف بأنه موجود على الشارع الرئيسيِّ أو مباشرةً عند منطقة معسكرات الاعتقال النازية سابقًا، حيث أُقيم النصب التذكاري في عام 1988. هذا وحده مثيرٌ للدهشة: فكرة أنه يمكن نسيان مقبرة جماعية. والأمر الأكثر غرابة بمراحل هو اختفاء الأشخاص السبعمئة والخمسين: جبل من الجثث ابتلعته الأرض بلا أي أثر.

والجزء الأخير من اللغز -ربما كان عدم فهمي هذا نتيجة لقصور في قدرتي الخيالية- كان منحصرًا في السؤال عن كيف استطاع عشرة حراس قتل ثمانمئة شخص. لطالما خمنتُ في أنه ولا بد سوعِد الحراس، ومع ذلك ظل هذا مخفيًا تحت صياغة ما لنسخة معيارية للأمور مؤسفة بصورة استثنائية. الفيرماخت، الفيرماخت، الفيرماخت صادروا كل شيء. وهذا يعني، أن الأمور لم تكن خالية من المصاعب تمامًا، لأن القشرة الأرضية العنيدة تمزقت وانفتحت بشكلٍ مفاجئ في ثلاثة أو أربعة مواضع في القصة، هذه المواضع التي انكشفت بعد أن كانت مطوية فرغبوا في جعلها مستوية من جديد مثل غطاء السفرة المتصلب على طاولة يوم الأحد. اشترى سمسارٌ عقاريٌّ قطعة أرض في الثمانينيات بالقرب من جنوب البلدة، وعندما أمر باستخدام الحفَّارة، صُدِم كل سكان البلدة بسقوط مئات من العظام من الأرض. رُدمت الأرض، وغُرس الصليب بلا أي علامة محددة، لأجل مراعاة الأدب، ونُسيت هذه الحالة من جديد في العقل الجمعيِّ.

ثم وجدتُ شيئًا آخر: كان عليَّ أن أكتب تقريرًا عن تجارب الحفر لعام 1989 ونتائجها الجيولوجية، عندما وجدتُ في ملاحظة هامشية لمشاريع قديمة شيئًا يُشير إلى أنه عُثر في أثناء هذه المشاريع، أولًا على جثة واحدة،

ثم الثانية والثالثة، في مكانٍ بعيد عن أول قبرين، نظر شخصٌ ما في المخرج، حفرة أرضية عمودية تقبع خلف فيلا ما، ووجد عشرة أشخاص آخرين. هذه الأمور لم تكن حالات استثنائية، كنتُ أحفر بعمقٍ في الملفات وسرعان ما اكتشفت أنه في الخمسينيات كانت توجد محاكمة قضائية، مثلت وقتها عائلة أمامها، لأنه عُثر على ثلاث جثث في فنائهم. ذُهلت عندما قرأت أسماء المشاركين. انتهت القضية بالحكم بالبراءة لعدم وجود أدلة، ووضعوا في اعتبارهم من جديد خلق ما يسمى بالانطباع الجيد. دائمًا عندما ينسكب شيء ما، يُلقي بساط ما فوق مفرش الطاولة، قبل قدوم الضيوف، وهو نسيج أبيض اللون مغسول جيدًا، مطبوع عليه حيوانات صغيرة أو متزلق على الجليد أو رسومات أخرى تصرف الانتباه عن الوساخات. سرعان ما أصبح واضحًا من أين أتى مشمع المائدة باهظ الثمن والمقاوم للماء. اشترت الكونتيسة جميع الأراضي المتورطة لهذه الحالات غير السارة، ومنذ ذلك الوقت وصار الوضع هادئًا.

عندما يتداخل موضوعان لهما جوانب متعددة وتتشابك أجزاؤهما المتحركة والمتقابلة بتوافقٍ تامٍّ، يبدآن في التحرك حينها. يبدو من حسن صنيع القدر، إذ يُعتَقد حينها بأنه يمكن قياس أحدهما بمسار الآخر. بالنسبة إليّ كان أمرًا شخصيًا واجتماعيًا. ومع ذلك فإن هذه الحركة مُضللة، لفهم هذا اللغز، كان عليّ فصل التروس عدة مرات عن بعضها بعضًا. لو لم أكن مهتمة للغاية بتزامنها، لكنتُ ربما قد فهمتُ أن هذا النسيان الجمعيّ شيء آخر غير النسيان الفرديّ.

إذ إنه يوجد بالطريقة نفسها لغز ثانٍ، كنتُ بدوري أشتغل عليه باستمرار. كان لغز والديّ وكل الأمور التي تتعلق بهما. لقد كان محددًا بدقة بالغة أكثر من اللغز الأول ولديه هدف أوضح. مضمونه كان: لمَ كان والداي يزوران جروس أينلاند كل أسبوع ولمَ أخفيا عني هذا الأمر؟ ما الذي أدى إلى مثل هذه المقاطعة المتطرفة لوالديّ مع البلدة، وماذا عن علاقتهما بهذه الأمور؟

جمعتُ في كل فرصة ممكنة أي مواد تخص هذا اللغز، تفاصيل عن تاريخ عائلتي التي أثارت بدورها المزيد من الأسئلة. واحدة منها اختمرت برائحة خاصة في عقلي: «ليوبولد شفارتز». ظل بحثي عنه في السجل العقاريّ

والسجلات بلا نتيجة. فلم أجد لا ورقة التجنيد الخاصة به، (ولأنني بالطبع خمنتُ أنه ربما استُدعِيَ)، ولا أي إشارة إلى ما قد حدث معه بعد الحرب. كان «ليوبولد شفارتز» هو المساحة الفارغة في عائلتي، لقد عثرتُ على ثلاثة أجداد، ولكن ظلَّ واحدٌ مخفيًا عني.

كان ذلك التفسير الوحيد الذي وجدته بخصوص ما الذي كان والداي من الممكن أن يبحثا عنه هنا. كانت المشكلة بالطبع تكمن في أنني لم يكن لدي أي دليل ولو ضئيلًا عن أن والديَّ كانا يبحثان عن الأمور نفسها التي أبحث عنها. كنتُ أتشبث بالموازاة القابعة بيني وبينهما ولم أعرف بالطبع شيئًا عن دوافعهما. فقط كل ما بقي في ذاكرتي على الدوام أن أنيتا قالت في اليوم الأول في أرشيف البلدة إن والدتي كانت تمر هنا كل أسبوع تقريبًا لأخذ المستندات، تمامًا كما أفعل أنا الآن وبالقدر نفسه من السرية، التي أظن أن وراءها يقبع حسبان ما.

كنتُ أترقب كل ما لا يمكن التعبير عنه، كنتُ أقبع أنا نفسي خلفه: *هل لاحظ والداي أيضًا موضوع اختفاء الناس؟ هل تعمقا بأبحاثهما في الحفرة؟ هل بدآ من ناحية أجدادنا بالاختفاء المفاجئ لـ «ليوبولد شفارتز»؟ أو هل ربما لم يكن له بالأمر أي علاقة على الإطلاق؟* هكذا كانت أفكاري في معظم الأيام، عندما كنتُ أضطجع وحدي على الأريكة في غرفة المعيشة حيث كانا كلاهما يلعبان فيها عندما كانا طفلين صغيرَين، ثم باغتتني هذا الشعور الغريب بأنني لا أعرف شيئًا عنهما.

***

تعرَّفتُ على مجال علم الخصائص الحجرية بسرعة رهيبة لأجل العمل الذي أفعله للكونتيسة وبدأتُ بعد ثلاثة أو أربعة شهور في قراءة الخصائص الفيزيائية للرواسب كما لو كانت جريدة الصباح. ولأننا كنا نعمل على علم الجيوفيزياء الاستكشافية[1]، أي كنا نستخلص معلوماتنا من خلال حلقات نحيفة اضطررنا إلى حفرها أولًا، فلم يكن لدينا سوى بيانات من قياسات غير مباشرة. لم نتمكن من دخول الحفرة قط، كانت تضاريس ذات خطورة

(1) علم يقيس الخصائص الفيزيائية لطبقة الأرض الموجودة تحت سطح الأرض، للتنقيب عن المعادن والمياه الجوفية وما شابه.

عالية ومهددة بالانهيار على الدوام، التي كان علينا فحصها. تسمى هذه الوسيلة بالاستشعار عن بعد. حددتُ تقنية معينة في العمل، على طريقة «شلمبرجير»: أي بالتيار المتناوب الجيبيِّ، لاستكشاف طبيعة التربة الأرضية لسطح الأرض ثم تشريح التجويف الأرضيِّ باستخدام أساليب الأشعة فوق الصوتية. كان هذا في ربيع عام 2011. بعد أن أدركنا منذ البداية أن البيانات المتعلقة بحجم الفجوات لا تتوافق مع خرائطنا، كُشف ذات يوم عن تناقض آخر. كان رادار قياس الأرض قابعًا أمامي، الذي كان من المفترض أن يعطيني بعد فترة زمنية محددة رسمًا بيانيًا خطيًّا وموحدًا على طول توقعاتي، ولكن رأيتُ بدلًا من ذلك شقوقًا لمنحدرات جبلية فوضوية وشديدة الانحدار. حيث بعض المناطق تحت الأرض صُنعت بطريقة لا تشوبها شائبة ونُحتت غرف حجرية رائعة لعمال المناجم، ولكن مناطق أخرى كانت مُحطَّمة بعنفٍ، دون أن يُسجَّل ذلك على الإطلاق. وفي بعض أماكن أخرى لم يكن ثمة وجود لأي صخور على الإطلاق، وهذا أكثر ما شد انتباهي، حيث لم يكن هناك أي مواد معدنية في الأنفاق، ربما أطنان من الخشب أو أيًّا ما يكون. جلستُ في حيرةٍ أمام الخطوط المتشابكة بكثافة لأجهزة الأشعة فوق الصوتية. ليس ثمة إمكانية أخرى لمتابعة التقصي، لأن كل شيء قد استطعتُ منه استخلاص استنتاجاتي، كان فقط إشارات منعكسة من الموجات الصوتية المُرسلة.

شيءٌ آخر منعني من عدم لفت انتباه أحد تجاه اكتشافاتي، حيث إن الطريقة التي بدت بها الأوراق المزورة دفعتني لتخمين أنه ليس من الممكن أن تكون مصادفة. أو ربما كنتُ فقط مرتابة؟ هل كنتُ فقط أشعر بالملل؟ عندما تجرأت لمرة وحيدة على إدراج النتائج المختلفة في التقرير الأسبوعيِّ الخاص بالكونتيسة، ورغبتُ لمرة أخرى في إضافة شيء ما، رأيت أن فيليب قد حجبها لأجل وضعها في الملفات.

اللغز نفسه كان قابعًا في طبقات لا بد من الحفر فيها مرارًا وتكرارًا، هناك مئات من التناقضات الصغيرة. على سبيل المثال: أظهرت تقارير لخبراء الهيدرولوجيا بوضوحٍ وجودًا لمواضع تدفق بها المياه، التي لم تُضَف قط في البيانات. أو أنه زُعم أن طفلًا سقط في حفرة في مكان لم يكن موجودًا به في الواقع أي فتحات. أو أنه استُخدم عقد الامتياز بحق استخراج الحديد

الخام لمدة خمسين عامًا، على الرغم من أن الجبل لم يكن يحتوي أصلًا على الحديد. جمعتُ تلك الحجج على مكتبي وفي وقتٍ لاحق في غرفة المعيشة. كانت مجرد انحرافات صغيرة، ومع ذلك كلما تعمقتُ أكثر في التنقيب، صار الأمر أكثر ذوبانًا من أن يمكن إمساكه. اشتبهتُ في أن الأمر لا بد وأنه يتعلق بتضليل مُنسق ومقصود مع السلطات. لاحقًا عندما قررتُ الذهاب إلى أرشيف البلدية لأدوِّن ملاحظات عن مجموعة الوثائق التي تخص التعدين وكل التفجيرات، طردني النظام قائلًا إنني لا أستطيع فعل ذلك؛ المجلد المطلوب استُعير من قِبل إليزابيت شڤارتز قبل عامين.

كنتُ أسجل الحقائق كل ليلة لنفسي وأُعلِّم عليها بحواشٍ سفلية، حتى أعرف بالضبط من أين أتت. وكنتُ أضع علامات استفهام في المواضع الغامضة، وأُجمِّع الأفكار حول كيفية إزالة هذا الغموض.

سبعمئة وخمسون شخصًا مُختفيًا وبلدة عادت في ليلة وضحاها إلى النظام الملكيِّ.

تفجيرات تحت الأرض، انظر الحواشي 1. هنا: تقرير لخبير جيولوجيٍّ يظهر أنه كان لا يزال هناك أيضًا نشاط في الجبل بعد عام 1945. علامة استفهام: والداي استعارا المجلد. هززتُ رأسي بالنفي، لا، على أي حال لا يزال سبعمئة وخمسون شخصًا مختفيًا، هذا حقيقة، وواحدٌ منهم هو «ليوبولد شڤارتز». عمال المناجم الذين هبطوا في الجبل بعد عام 1945، والداي، كانا مسافرَين في يوم 21 من سبتمبر، مستندات في المقعد الخلفيِّ، ثم اصطدام، موت، انفجار قبل عشر سنوات، لم يُسجل في ولا مكان، لا ترى أي حواشٍ. وشيءٌ نزف بداخل الآخر: الأرض الهابطة وسكانها، اللذان صهر كلاهما الآخر في الجبل بشكلٍ لا رجعة فيه، لأنهم اعتقدوا أن هؤلاء الآخرين وبخلافهم لا ينتمون إلى البلدة. هيَّأ هذا الدبال[1] التربة لنمو سريع. هناك يكون التجذر أسهل، حيث يتعفن الكثير في التربة.

***

---

(1) مادة عضوية مهمة في تخصيب التربة، وتتشكل نتيجة تحلل النباتات والحيوانات والفضلات.

منذ البداية وأنا على علم أن فرصي ضئيلة للغاية لحل كلا اللغزين. كل المواد التي وصلتني كانت عشوائية، شبيهة بالنوادر[1]، وجُرِّفت مُتخفيةً مع السريان الطينيِّ للذكريات. أن تكون مطمورة ومُجرَّفة يعني أيضًا اختلاط الطبقات في عشوائية تامة. عندما كنتُ أرغب في النظر إلى الحفرة، كنتُ أجد والديَّ. وعندما كنتُ أتساءل في نفسي عما كانا يفعلانه هنا، لا أجد جوابًا سوى الحفرة والشيء الغارق فيها. في أي اتجاه كنتُ أقصده، كان يُنقل لي على الدوام نوادر ومعلومات عن والديَّ. يمكن أن يحدث على العشاء أن يدس أحدهم صورة في يدي. (فيها: أبي، ربما في الرابعة عشرة من عمره، وجهه اسمرُّ من الشمس، ويمتطي جذع شجرة مقطوعًا بالفأس). أو يحكي لي قصة عن بيت عائلة أمي حيث كانت في غرف المنزل مخبوزات كعكة الخشخاش «مونتسيلتن» تدخل وتخرج من الفرن كما لو كانت على سير ناقل كهربائيٍّ. كانت اللمسة غير المريحة للماضي الذي لا علاقة له بي على الإطلاق، عندما يحدثني أحدهم في مقهى المدينة في أثناء الفطور ويقول: «والداكِ كانا هنا أيضًا على الدوام!». والشيء الوحيد الذي استطعتُ تصديقه، يقبع هنا، كان تحت يدي فقط معلومات من استنتاجات غير مباشرة. لقد كان استشعارًا بيوجرافيًا عن بُعد.

ومتى كنتُ أُغير اتجاهي ناحية لغز الحفرة، لظني أنه المكان الذي يمكنني فيه التعامل بالحقائق، كنتُ ألاحظ حينها أن المصدر الرئيسيَّ لمعرفتي كان أيضًا الإشاعات، لا شيء آخر سوى ما يحدث مع والديَّ، كانت كذلك تُنقل القصص القديمة، حكايات طريفة، وتقارير عن أجدادي. كان من الصعب تحديد أيٍّ من هذه القصص قد حدث بالفعل، وأيهم قد تجّمل في أثناء الحكي أو حتى أيها كان مشكوكًا في أمرها. في القرن التاسع عشر قيل أن سبعة عشر رجلًا شابًّا اختفوا -كما زُعم- في أثناء بحثهم عن الذهب. في القرن الثامن عشر بحثوا عن النحاس، في بداية القرن العشرين دفعت الرغبة تجاه اليورانيوم الناسَ للذهاب إلى الحفرة. حُكيت في النزل بصحبة زجاجة بيرة أو وُجدت في أنطولوجي حكايات خرافية، ومع ذلك القصة نفسها أُحييت من جديد لاحقًا -تحت هذه الظروف- في عملٍ تاريخيٍّ. للوهلة الأولى لم تكن لأي

(1) النوادر هي الحكايات الشعبية الممتعة (الفلكلور) والمتوارثة من جيل لجيل.

قصة منها علاقة سببية مع الأخرى، أجل، لم أكن أعرف حتى إذا كان دورها يتجاوز فقط ما هو مجازيٌّ، أي يتجاوز ما هو موجود -على سبيل المثال- في أسطورة «بيرجر هانس».

تكمن المشكلة في أنه تُعومِل بالشكل نفسه مع قصة السجناء. اعتاد كل شخص سرد قصص الجبل باختلافات ضئيلة، ولأن كل القصص مصدرها التقارير الشفهية، كانت تظهر على الدوام صياغات غير دقيقة تجعل من المعرفة الواضحة شيئًا مستحيلًا. فأقبل الناس بسعادة على قصص تقشعر لها الأبدان وحب الجبل المُبجل في الأساطير، الذي بدا أنه يُشكِّل مع سكانه مجتمعًا متماسكًا.

***

لم أستطع رؤية شيء تحت الأرض.

كان عليَّ أن أمنح عينيَّ بضع دقائق لكي تعتادا الظلمة، قبل أن أتمكن من إطفاء زر الضوء الذي نشَّط المصباح الكهربائيَّ في الغرفة المظلمة. وقفتُ في مساحة ما فارغة من أساس المنزل، فجوة في منتصف الجملونات الخشبية. للغرفة تربة طينية متعرجة ومضغوطة، والطوب مكشوف في العراء، شعرتُ ببرودة التربة تتسلل إليَّ منه. كانت الغرفة بأكملها لا يزيد حجمها على نحو 150× 200 سنتيمترًا، كما قدَّرتُها، وكانت فارغة بالكامل إلا من طاولة يقبع فوقها كتاب. كانت الأسطح مُغطاة بالغبار بسُمك إصبع، كان مكانًا بأجواء مُقبضة. بالأخص هذا الفراغ كان مؤلمًا، ولأنه كان فارغًا للغاية، بحثتُ عن تفاصيل كنتُ آملةً بالتعرف عليها في هذا العراء. وجدتُ مُفصلتين غليظتين ترتفعان على الحائط الأيسر، وحبلًا مُتدليًا على المدخل يجعل من الممكن فتح الأبواب من الداخل أيضًا. كنتُ قد قضيتُ بضع دقائق فقط في هذا القبو الغريب عندما اجتاحني الخوف من الأماكن المغلقة. وقبل أن أصعد السلم نفَّضتُ بظهر يدي على الكتاب الموجود فوق الطاولة وقرأتُ «الإلياذة». وصلتُ إلى حجرة المعيشة وأنا أتنفس بصعوبة واتصلتُ برقم دار المُسنين. أجابت ممرضة النوبة الليلية.

- اسمي روت شڤارتز. (سألتُ) هل يمكنني الآن المرور عليكم؟ إنه شيء مُلح، يجب أن أتحدث مع جدتي.

صمتٌ على الخط الآخر. فكرتُ: *بالطبع، إنها الواحدة والنصف صباحًا، يا له من سؤالٍ غبيٌّ.*

قالت الممرضة: «متأسفة. كنتُ أظن أنكِ مُطَّلعة على الأمر. جدتكِ توفيت بعد ثلاثة أيام من زيارتكِ».

13

الواقعة الأولى التي عاصرتُ أثرها أنا بنفسي كانت تلك التي حدثت في حمام السباحة الخارجيّ. في بدايات الصيف، مباشرةً في اليوم الأول للسباحة في الموسم عندما نطَّ الأطفال بأطواق السباحة من الأبراج، انخفض مستوى المياه بسرعة في نحو الساعة الواحدة ظهرًا، وفي الواقع حدث ذلك على دفعة واحدة، وفي خلال تسعين دقيقة تقريبًا، بعد أن لاحظ أول شخص هذا الشفط المفاجئ، كانت قد تسرَّبت المياه في الحوض الفارغ حديثًا. لم يملك أحدٌ الوقت الكافي للصراخ طلبًا للمساعدة أو لإحضار رجال الإنقاذ السباحين ليهبطوا إلى الحوض بالعوامة البحرية. وبين الأطفال الجالسين على الأرضية الزرقاء يُرى شقٌّ سميكٌ في الأرض الخرسانية. مع الوقت أمسكَ صمتٌ مؤلمٌ بالكلمة، فلا أحد جرؤ على مهاتفة فرقة المطافئ، بالطبع فلم يُصب أحد بأذى. استلقت الأمهات على بطونهن وسحبن أطفالهن من المسبح بالمناشف المُنزَلة. ومع ذلك في اليوم نفسه، بعد أن انتشر حُرَّاس حمام السباحة في المسبح مؤقتًا، مُلئ الحوض من جديد بالمياه، في الوقت الذي استمرت فيه الشقوق غير المرئية في الانتشار عبر البناء بأكمله مثل شعيرات دموية دقيقة، مما اضطرهم إلى ضخ آلاف اللترات من المياه طوال شهر يوليه في الحوض المُسرِّب للمياه ببطء، فقط للتستر على ما كان عليه الوضع في هذه المؤسسة.

صحيح أن ما يحدث في جروس أينلاند أحداث من فعل الطبيعة، ولكن الشيء الذي شاع كان أكثر من مجرد أجواء مشحونة تنشأ عن التصدع البطيء للغاية للأساس الحجريّ، حيث فوقه يواصل الناس حياتهم اليومية بلا قلقٍ. بعد شهر، وما زلنا في الحرارة الضبابية للصيف الذي حلَّ علينا، حسب ما

كُتب في مقالات الجرائد ذات الصياغة اللطيفة والمحادثات المهموسة، أن بلاغات السرقة قد تزايدت في وثبة سريعة. كانت في البداية مجرد حوادث فردية مصفوفة بجانب بعضها بعضًا بلا ترابط بينها. يُقال إن لصًّا كان يتسلق خلف واجهات منازل البورجوازية التي انساقت وراء فقدان الجوهر الصلب للأرض وانهارت. عندها فقط كان يتضح ببطءٍ أن الجوانب القبيحة للمنازل، والشقوق الموجودة منذ وقتٍ طويل في واجهاتها كانت مُغطاة بأراجيح الشُرفة الموضوعة أمامها التي سرعان ما أُلقيت فوقها الأغطية، وقد فهم اللصوص الماكرون كل ذلك، حتى قبل أن يفعله الناس. الحياة الخاصة خرجت للعلن، حتى لو كانت هناك محاولة لإخفاء ذلك.

اكتسبت الشوارع ببطء ودون حتى وجود الرغبة في ملاحظة هذا الانتقال الدقيق، طابع الشيء المؤقت، وهو تسلسل لا يهدأ أبدًا من الحالات الانتقالية. وبعد أن صارت المدرسة مُهددة بالانهيار الوشيك لخشب السقف، أُوِيَ الأطفال مؤقتًا في الحاويات. وسرعان ما اعتاد الناس هذا الأمر، لدرجة أنه في غضون أسابيع قليلة تُعومِل مع الصناديق المعدنية الزرقاء التي يمكن تكديسها ونقلها، وكأنها مبانٍ بالمعنى الحقيقيِّ للكلمة. كانت صورة المدينة بأكملها مستمرة في التزحزح بقطعٍ صغيرة ومع ذلك مُقلقة، ناحية القبح. بدأ الشيء نفسه في الحدوث مع المنازل الخاصة تدريجيًا، فجأةً استُبدلت بأسطح الجراجات الخرسانية المُسطحة، أخرى معدنيةٌ متموجةٌ، التي بدورها تتسامح بصورة أفضل مع النشاط التكتوني للأرض. شيئًا فشيئًا استُبدلت بالأسوجة الجميلة المُزخرفة بالحديد المطاوع، قطعٌ مناسبةٌ من السياج المُشبك. المثير للدهشة أن أكثر ما صدمني هو مصير التمثال الجميل والرشيق للربة «يوستيتسيا»[1] أمام المحكمة الابتدائية، (عمياء وفي يدها الميزان)، التي لم تنكسر فقط من المنتصف، بل كلا جزئيها، أي كلا النصفين اليمين واليسار لآلهة الكرة الأرضية ابتعدا عن بعضهما بعضًا. وبدلًا من تفكيك التمثال المُتفسِّخ، مُلئ الوسط، أي في الشق، بمعجون البناء بشكلٍ أبعدَه عن الأصل حيث اكتسب جسد «يوستيتسيا» حجمًا أكبر بشكل ملحوظ. وأخيرًا فكر الناس، بعد ملاحظتهم أن التمثال صار الآن شبيهًا أكثر بالكاريكاتور،

(1) إلهة العدالة في الأساطير الرومانية القديمة.

في صناعة شيء منه، باعتباره مساهمة في إعادة إنجاحه، فصنعوا منه الأب المؤسس للبلدة، «كارل شتيفل»، على الأقل لديه فعلًا هذه الكرش. ولكنه رُفض مع ذلك باعتباره شيئًا مثيرًا بشدة السخرية. وهذا يعني، طبقة ثانية من الطلاء الزجاجيّ غطّت صورة البلدة الباروكية، طبقة من معجون البناء، والاستبدالات، والعيوب الفادحة المُعلَّقة.

في خريف 2009 بدأ تخوف ما في التسرب إلى داخل أفكاري. كنتُ أتحقق من إطارات الأبواب قبل أن أشرع في فحص أرفف الحوائط باستخدام الميزان المائيّ[1]، في الأول كان فقط بين الحين والآخر، ثم عدة مرات في اليوم الواحد. دائمًا ما كنتُ آكل ورق الخرائط الموضوع على مكتبي الذي كان يتجدد باستمرار مع كل انهيار، حتى أتأكد من أن حزَّ الهبوط لا يمر عبر منزلي. صار الوضع في المكتب عبارة عن مزحة أبدية، عندما أصل إلى مكتبي صباحًا، على سبيل المتعة غالبًا ما كان يرمي إليَّ فيليب أو أنيتا ملفًّا جيولوجيًا بيانيًا، مُعلَّمًا بأقلام إدينج الملونة على مسافات المناطق الرطبة إلى منزلي. لم أستطع الضحك حول هذا، فكرة أن أرضي سيُلحق بها الضرر في وقتٍ ما، كانت تُعذبني ليلًا ونهارًا.

البيت: أحيانًا كنتُ أشعر بأن أساسه قابعٌ بداخلي، كما لو كنتُ أملك إكليلًا من الأعصاب مُتجذرة وعميقة في أساسه. اضطجعتُ على سريري وشعرتُ بالخشب يطقطق بداخلي، كما لو كانت مفاصلي هي التي تُصدِر هذا الصوت. شعرتُ بحيوية ما في الجدران، بطريقة لم أحسها مطلقًا من قبل في الأشياء غير الحية، كيف أن الأخشاب تتمطى في الشمس والألواح الخشبية ترتجف تحت البرودة المتساقطة بدرجة ملحوظة. وعندما تمطر، أشعر ببلل رأسي. صحيح أنني كنتُ في أيام أخرى أسخر من نفسي على هذه المشاعر، لكن مع ذلك كان هذا وبلا شك السبب في أن العمليات في مؤخرة رأسي تمضي قُدمًا بتلقائيةٍ شديدة، التي اندلعت لاحقًا في ثورة مفاجئة. ظاهريًا كنتُ مقتنعة تمامًا أنني سأظل لا أعمل على مادة الحشو، حتى لا تظهر مخاوفي بشأن الحفرة بأن ليس لها أي أساس من الصحة. ولكن عندما غمرتني بعمق لأول

(1) جهاز يستخدم للإشارة ما إذا كانت الأسطح أفقية أو رأسية وقياس درجة ميل الأسطح.

مرة فكرة أن منزلي أيضًا يُمكن أن يغرق، بدأت الأفعال والأفكار اللاإرادية بداخلي في الحركة. كان في الخامس عشر من سبتمبر عندما بدأت هذه الأفكار المخبأة تجد طريقها للخارج.

قضيتُ نصف الليل مستيقظة قبل أن أنهض. كان الهواء البارد يُصفِّر منسلًّا إلى غرفة المكتب ويضغط ساحبًا الستائر الثقيلة إلى الجوانب، حيث كانت على وشك الاحتكاك بطرف السيجارة المشتعلة، بينما كنتُ أمدد جسدي في الظلام. منذ شهرين عدتُ للتدخين. في البداية كان على استحياء وعلى سبيل تهدئة نفسي، سيكون التدخين فقط في أثناء الشرب مع الآخرين، ثم في أثناء العمل عندما يتطلب مني عملًا ما خاصًا، وأخيرًا بالطبع بعد الاستيقاظ أو بالمثل، في أثناء البقاء مستيقظة. كنتُ أحدق إلى الظلام، عندما سمعتُ صوت شيء ما على النار قادمًا من المطبخ، وتذكرتُ أنني في طريقي إلى غرفة المكتب وكونه شيئًا ضمن أفعالي اللاإرادية المعتادة وضعتُ آلة الإكسبريسو على الموقد. كان ثُقل السرير لا يزال جاثمًا في عظامي، رغم أنني لم أنَم على الإطلاق. كانت ليلة قاتمة عندما حملتُ من المطبخ كوب القهوة، عائدةً إلى النافذة بينما بدأ تأثير القهوة المَغلية والساخنة في فمي.

جلستُ على مكتبي ورأسي يؤلمني، ولكنني أمسكتُ القلم بإحكام. ربما كان بسبب الساعات المتأخرة من الليل، تمتعتُ بأمانٍ سحريٍّ، غالبًا ما يُشعَر به في الأحلام. على يميني فوق الطاولة توجد مجلات علمية دورية مُعبأة بالمصطلحات الفنية -طلبتها العام الماضي في نسخ لا عدد لها دون أن ألمسها على الإطلاق ولو لمرة- وفي وسط الرسومات البيانية للانهيارات التي حدقتُ إليها فقط على سبيل الإلهاء. في هذه اللحظة خطرت على بالي فكرة. فقط جاء الجواب دون أي مجهود أو دخل مني: يجب أن تكون المادة اللاصقة من طبيعة الحفرة نفسها.

خلال وقتٍ قصير للغاية كنتُ قد بدأتُ في تغطية الأوراق بالصيغ. اكتشفتُ أننا سنحتاج لقنوات صغيرة يمكن تصريف المياه من خلالها. لذا فإن فكرتي المجنونة بالكامل التي -كما افترضتُ- تُخالف كل قواعد التكنولوجيا، كانت عبارة عن مزج الفطر في مزيج ما زال رطبًا، شبكة فطرية تنمو وتتطور سريعًا في الظلام. يجب أن يُصنع معجون الحشو ذاك بطريقة تجعله يحتاج

لعدة أيام حتى يتصلب. في هذه الفترة الزمنية يحفر الفطر المتزايد بكثافة أنابيب صغيرة من طبيعة المادة المطلوبة في الفضاء المملوء، وبعد تصلبه يموت ببساطة. بحلول الفجر كنتُ قد ذهبتُ إلى المطبخ مراتٍ لا تُحصى لإعادة ملء فنجان القهوة، وفي غضون ساعاتٍ قليلة كنتُ قد كتبتُ الصيغة. لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا في العثور على ثلاث مشكلات رئيسية لا بد من التخوف منها في أثناء التنفيذ: أولًا، يجب تصنيع خليط يعتمد على البنزين يجعل التربة قاحلة بعد بضع ساعات من الحقن، تربة كاستراتية[1] ميتة، قاتلة للحياة النباتية. فلن يُواصَل نقل المياه كما المواد الغذائية بشكل كامل من خلال الأنابيب الضيقة للغاية، على الأقل هذا ما أخبرني به علمي البسيط عن البيولوجيا. فكرتُ: *كانت هذه مشكلة أخلاقية*، ومسحتُ سائلًا لزجًا عن طرف عيني. ثانيًا وقبل كل شيء، نظرًا إلى قلة خبرتي فلم يكن واضحًا ما إذا كان الخليط سيقدر على الحفاظ على تماسكه أصلًا أم لا. ومع ذلك فهو سؤالٌ تقنيٌّ يمكن الإجابة عنه دون مشكلة من خلال التجربة.

شعور بريء وحماسيٌّ هو ما أبقاني مستيقظة حتى الآن: الرغبة في البحث، السؤال، ما إذا ما قد كتبته على الورق، سينجح في الواقع أيضًا. جلستُ بنفاد الصبر في الكرسي ذي مسند الظهر المرتفع أمام حائط الكتب لمراجعة حساب كمية المعلومات غير الطبيعية مرة أخرى. كانت الساعة السادسة صباحًا، وهذا يعني أن المحلات لن تفتح إلا بعد ساعتين أُخريَين، وأنه تبقى لي فقط فترة زمنية محدودة للغاية لأُنهي كل شيء، قبل موعد العمل الإلزاميِّ. بدأتُ على عجلٍ في كتابة قائمة بالمواد التي سأستطيع منها صُنع خليط على الأقل مشابه بدرجة قريبة. كل ما كنتُ سأحتاجه لإجراء التجربة كانت مجرد منتجات رائجة يمكن الحصول عليها من أي متجر للأجهزة الموجودة في أي مكان. حضرتُ المزيد من القهوة، حيث احتفظتُ بثُفل القهوة كما فعلتُ في المرات الفائتة في وعاءٍ وتركتُها تبرد قبل أن أرتدي ملابسي وأذهب إلى متجر الأجهزة. العثور على الأشياء الضرورية لم يكن في الواقع صعبًا جدًّا.

---

(1) Kastrat مغنيون خُصُوا قبل فترة البلوغ من أجل منع تغيرات الصوت والحفاظ على صوت سوبرانو جميل.

عندما عدتُ إلى البيت استخدمتُ ميزان الأكل لتحديد الكميات المناسبة لخلط المواد الكيميائية في دلو الممسحة. سأحتاج للمزيد من ثُفل القهوة لمنح الفطر سطحًا كافيًا للتلامس. قرأتُ في إحدى المجلات عن مخترع أستراليٍّ طوَّر مادة بناء تعتمد على ثُفل القهوة، تذكرتُ ذلك الآن، ولكن لم أكن أعرف ما الذي يمكنني فعله مع هذه الفكرة. يجب أن يتكون الباقي، أي مادة التصلُّب، من الخَبث[1]، ولكن بالطبع من المستحيل عجن الخَبث بنفسك، إذ يجب في هذه الحالة أن يدخل فرن الصهر. فتوجهت إلى البيتومين[2] والرمال الخشنة، وضغطتُ الشباك الفطرية في حبيبات القهوة الصغيرة ومزجتُ باقي الثُّفل مع كمية الأسفلت الزائفة التي كنتُ قد عجنتها. حملتُ على الفور البرميلَين الثقيلَين إلى حديقتي. في أثناء الأسابيع القليلة الماضية كان قد نشأ في الجزء الخلفيِّ لمنزلي قنوات دقيقة للغاية، وعلى الأغلب لن يصل لها أبدًا هذا الحشو المُصنَّع منزليًا. الجزء الأصعب كان إيصال هذه المادة الصناعية بعمقٍ كافٍ بداخل الثقوب الصغيرة، دفعتُ القطران اللزج في التربة بيد المكنسة، حتى امتلأت آخر قطعة به بطريقة تمكنني رغم ذلك من الحصول عليه. عندما تركتُ منزلي، كانت لا تزال مشاعري ثائرة مما حدث وأقسمتُ لنفسي بعدم إخبار أي شخص أبدًا عن اكتشافي.

***

انتظرتُ لساعتين في «الكوربِس» الذي لا يزال فارغًا ونشرتُ أوراقي الفيزيائية على طاولتي، عندما دخل أخيرًا هوتماخر شلاف إلى الحجرة مُغطيًا فمه بالشال الكشمير بسبب الطقس الضبابيِّ. حيَّاني على عجلٍ واستقر في مكانه المعتاد وسحب جريدة «الهاندِلسبلات» من حقيبته، لكي -وكما يحدث يوميًا- يملأ مجموعته الفنية في خلال نصف ساعة، قبل مجيء الآخرين، بالقصص الطريفة والشكاوى حول حياة الأعمال التجارية في باقي

(1) ناتج ثانوي ينتج عند صهر حديد الزهر بفرن التحويل لتحضير الصلب.

(2) مادة موجودة بشكل طبيعي في البيئة أو يمكن تصنيعها بعد تقطير بعض الزيوت الخام، ومن خصائصها الفيزيائية: لها قوة تكتل كبيرة حيث تتماسك مع غالبية المواد مثل الحجر والخرسانة والخشب.

العالم. وفي أثناء تناول الحلوى سيصل مجددًا إلى النتيجة وبصوتٍ عالٍ يقول إنه من الأفضل للشركات البقاء في جروس أينلاند.

قبل الذهاب للجلوس بجانبه كنتُ قد تأكدت من عدم وجود إيرنا في الغرفة.

- يا سيد شلاف، كيف يجري العمل؟
- هل أستطيع مساعدتك يا سيدة شڤارتز؟

كان مدهوشًا، بل ومستغربًا من ظهوري على الطاولة الخطأ في وقتٍ لم يزعجه فيه أحدٌ من قبل. ولكي لا أجعله يلاحظ توتري، رغبتُ في الوصول لصلب الموضوع بشكلٍ مباشرٍ بقدر الإمكان، قبل أن تُتاح الفرصة لأحد بمقاطعتنا.

- في الحقيقة يمكنك فعل ذلك. كما ترى، فأنا لم أكن هنا منذ وقتٍ طويل، والكثير من الأشياء المفهومة بالنسبة إلى الآخرين أسمعها أنا لأول مرة.

قال بذهنٍ شارد ووضع إصبعه في الجريدة كفاصل للكتاب[1]: «نعم بالتأكيد».

- وقد قرأتُ مؤخرًا شيئًا ما في القصر، كان في قسم التحقيقات القانونية، بالطبع أتعامل مع كل المستندات الممكنة.

في خلال ثانية كان وجه شلاف خاليًا من كل التعبيرات: «أنا أنصت؟».

- انظر، لقد قرأتُ ذلك عن عام 62 ورغبتُ في أن أسألك أنتَ مباشرةً دونًا عن أي شخص آخر.

قال: «لا أعرف عمَّا تتحدثين».

- ربما قد قرأتُ شيئًا خاطئًا. أجل، ربما كانت معلومة خاطئة. لأنه وفقًا لما هو مكتوب فإنك قد سُجنت لمدة أسبوع، في ذلك الوقت.

قال شلاف بصوتٍ خفيض للغاية لدرجة أنني أوشكتُ على فقدان قدرتي على فهمه: «بسبب اتهامات كاذبة، ثم أُطلق سراحي وعلى الفور أُعيد تأهيلي».

---

(1) بوك مارك.

وابتعد بجسده كما لو كان يُنهي الموضوع بتلك الإيماءة، وعلى الفور أردف قائلًا: «هؤلاء الأغبياء. ما الذي قد أعرفه عن الذي دفنهما هناك. والآن أود إنهاء قراءة الجريدة إذا سمحتِ».

- هل كان والداكَ على قيد الحياة في ذلك الوقت؟ لمَ لمْ يسمعاك إذن، لقد كنتَ في بداية عامك السابع عشر. على الأقل هذا ما كُتب في الصحيفة.

لمَ ارتعشت يداي؟ هل لأنني سألتُ عن مقال الصحيفة؟

- والداي لم يكونا قط في هذه المسرحية. ما الذي ترغبين في معرفته بهذه الأمور، هذه القصة استهلكت ما يكفي من أعصابي. لا أرغب في التحدث عن ذلك.

قلتُ وكنتُ أعلم يقينًا كم يبدو ذلك غير قابل للتصديق: «أسألكَ عن ذلك لأسباب جيولوجية. العثور على أربع جثث في حديقتك ليس بالشيء غير المهم في سياق الوضع العام، عندما نحفر قريبًا كل شيء بمساحات ضخمة».

قال شلاف الذي عاودته عقلانيته بنبرة غاضبة متكئًا على الحروف: «إذا لم تتراجعي على الفور في اتهاماتك، فسوف أبلغ الكونتيسة بذلك. شخص ما قد وضع الجثث لوالديَّ في التربة، لقد خُطط لذلك وعُمل على إنجازه. بالطبع حينها كانت توجد فترة اضطراب قصيرة، حسنًا، ولكنك تعلمين كيف هي الصحافة. إنه شيء من الماضي ولا يناسب هذا الزمن».

في الموضع الذي أشار فيه للكونتيسة شعرتُ فجأةً بأنني في وضعية الزوغزوان[1].

- متأسفة، لم أقصد الإساءة لكَ.

- سأخبركِ بشيء: كان من الممكن أن تكون حديقة أي شخص آخر. لا تمسي والديَّ بفضولك الطفوليِّ. كانا هرمَين ضعيفَين أُنهكا بشدة مع هذه القضية. دخل والدي مُمسكًا بالعصا في قاعة المحكمة، بعد أن كان ابنه لمدة أسبوع في السجن الاحتياطيِّ. (كنتُ صامتة، وشلاف مع ذلك صار فجأةً في قمة ثورته) مثل هذه الأشياء تُشوِّه كل شيء،

(1) Zugzwang في الشطرنج: عندما يكون اللاعب في حالة أن جميع نقلاته الممكنة القانونية تكون سيئة وتضعف وضعيته.

تضر سمعة العمل والنجاح. في ذلك الوقت كان كل التركيز علينا نحن فقط، ليس على إلفريده أو الآخرين. لأننا فقط... (ووجَّه جريدته المتكورة ناحيتي) كان لدينا المال.

عند هذه الكلمات ضرب المنضدة بجريدته وجاءت السيدة إيرنا إلى الحجرة في فزعٍ. أخفض صوته مرة أخرى: «ما الذي أعرفه بحق الشيطان؟ لِم كان يوجد بضع جثث هناك، لقد كانت هناك حرب. ما الذي تعتقدينه بشأن عدد الذين سقطوا ميتين، هنا، من هذه البلدة؟ ليته الكونت لم ينقذنا، لقد كانت حملة تشويهية للسمعة. وأنتِ الآن تُعيدينها مرة أخرى، جيلك يحب ذلك بشدة. لأنكم لستم مضطرين إلى البناء أبدًا. والآن اغربي عن وجهي».

سارعتُ بالخروج من النزل دون قول كلمة أخرى، وجلستُ على الرصيف، للحظة كنتُ خارج جسدي، ثم تنفستُ بعمق. كنتُ أفكر: *الممرضة إلفريده والآخرون*، *الممرضة إلفريده والآخرون*، وهممتُ بمواصلة السير من جديد. كنتُ سأسلك الطريق إلى قلعة «كاستلبورج» لأهدأ. كان ممرًّا شديد الانحدار، يستهلك صعوده ثلاثين دقيقة، خلال غابة كثيفة من أشجار الصنوبر، متبوعًا بحافة سامقة فوق ثلاثة أو أربعة تلال، حيث تفضي أخيرًا إلى قلعة «كاستلبورج» المُضاءة بكشافات، سامقة في أعلى بقعة من الغابة مثل منارة ترتفع عن بحر من قمم الأشجار. بينما كان الآخرون يتناولون عشاءهم في «كوربِس»، كنتُ أحاول تهدئة قلبي في الطريق بداخل الغابة. وعلى الرغم من حلول الظلام فقد وجدتُ الممر. كنتُ أتحرك بثقة فوق هذه الأسطح المنبسطة أمامي كما لو كنتُ وجدتُ طريقي بعينين مغلقتين بدءًا من رقبتي مرورًا بصدري ثم إلى بطني. عندما تسلقتُ الحافة التي تؤدي برفقٍ إلى هضبة فوق المدينة، خمد اضطرابي من جديد. جلبتني الطبيعة إلى حالة من التوازن، وسمحتُ أنا لها بتملُّكي. قصاصات من الأراضي الخضراء تنسج الطريق في نسيج واحد شبيهةً بالقارب. بمجرد أن وصلتُ إلى قلعة «كاستلبورج»، جلستُ على واحد من الأسوار المثقوبة التي صنعها قوم «الهون» بهذه الطريقة، ولساعاتٍ طوال لم أشعر بالملل، رأيتُ الرياح تُقلِّب في الأرض وتشممتُ ظهر الطحالب حتى وددتُ لو نفذتُ بنفسي بداخل التربة.

أدرتُ نفسي إلى المنحدر المألوف بالنسبة إليَّ، ولكن بدا لي أن شيئًا ما يبدو مختلفًا في هذه المرة، كما لو يضطجع فوق هذه البانوراما لوحٌ زجاجيٌّ، كما لو كنتُ أجلس أمام نافذة عرض بنموذج صغير للقطار وكل الناس عبارة عن نماذج بشرية بلاستيكية مصغرة. بالإضافة لذلك كنتُ أجلس في غير ارتياح، كما لو صرتُ في قمة صحوي، وعليَّ الآن أن أتحرك بظهري ذهابًا وإيابًا كما لو أنني أفعل ذلك حتى أتخلَّص من شيءٍ ثقيلٍ على ظهري. عندما وقفتُ بوهنٍ شديد لأكتشف سر ذلك، رأيتُ أن المنطقة الخلفية لمكان جلوسي -ذلك السور الصغير الذي كنتُ أمكث به دومًا- قد هبط بثلاثين سنتيمترًا. لا بد وأنه حدث بشكل مفاجئ تمامًا، لأنني كنتُ جالسة هنا فقط منذ أسبوع مضى. من الواضح أن كل شيء كان متبوعًا بهذا الغرق في تأثير الدومينو المُثابر، بالكاد يمكن ملاحظة أن حجرًا أو آخر قد انزلق. ولكنه صدمني بصورة لا تقلُّ عن إزالة عظمة من وجه أحد معارفي.

فجأةً في أثناء النظر إلى الوادي اتضح مقدار الهبوط المنحدر في أشكالٍ مُلغَّزة. كانت المساحات المُنبسطة مُقسَّمة إلى قطعٍ، حقول صغيرة ليست نافعة دُفعت إلى تشكيل أشكال متنوعة. وشق يمتد حول المدينة، مشوِّهًا المنظر مثل ندبة عميقة. شعرتُ بالاشمئزاز من هذه البانوراما، وفي الوقت نفسه، كلما عدلتُ عنها، رجعتُ إليها، مثل شخص متطفل بإزعاج لا يرغب في تركك.

لأول مرة أشعر بالانزعاج من الطبيعة، والأكثر من ذلك: استحوذ عليَّ الشعور بالقرف، فقررتُ العودة. الرطوبة التي كانت في السابق مُلجَّمة على سطح الأرض بفعل الشمس صرتُ أشعر بها الآن في عظامي. ثم وجدتُ واديًا، دون أن أعلم كيف حدث ذلك. كنتُ أمشي لمدة عشر دقائق تقريبًا، مرة اتجهتُ شمالًا ومرة يمينًا، قبل إدراكي أنني تُهتُ. صارت الطريق فجأةً قطعة واحدة ومع كل ذلك كنتُ أقف على جسر لم أمُر عليه في طريقي إلى هنا. لذا سرتُ في طريق عودتي مئة متر، ثم مئتَي متر، ولكن سرعان ما فهمتُ أنني لم أكن في طريق العودة، بل سلكتُ طريقًا أخرى بعيدة كل البعد عن الطريق الصحيحة. كان ظلامًا حالكًا، فقط قمم الأشجار هي ما ترتفع بارزةً في مواجهة السماء.

ساعدت الظلمة على اصطدام قدمي بالكثير من الحواجز، كنتُ أتقدم في النهاية ببطءٍ شديدٍ للغاية، وانغمستُ فجأةً في لحظة من الذعر. بدت كل الجهات متشابهة، دون أي وجود لاختلاف واحد في السواد الممتد بلا حافة ويحيطني. ندمتُ على عدم إحضار كشافٍ يدويٍّ معي، ولعنتُ إضاعتي للهاتف المحمول وتحركتُ على المنحدر مُستندةً بيديَّ من شجرة إلى شجرة. وقد هجرني كل شعور بالوقت. كنتُ أشعر وكأنني لم أقضِ ساعة كاملة في البحث، بالطبع تؤلمني قدماي للغاية كأنني قد سرتُ عشرين أو ثلاثين كيلومترًا. وصلتُ إلى مُنخفض، شعرتُ بالارتياح من أنني صرتُ مجددًا في الوادي، كما افترضتُ، قبل أن ينفتح أمامي حائطٌ بصورة مفاجئة، ولم أعرف مجددًا إلى أين أذهب.

شيئًا فشيئًا أدركتُ أنني لن أجد اليوم مجددًا الطريق إلى منزلي، وحاولتُ تحويل تلك الفكرة إلى شيء مُهدئ: كانت الليلة لا تزال دافئة، ولن أضطر إلى التجمد من البرد. لا يوجد *أي* خطرٍ حقيقيٍّ، قلتُ ذلك لنفسي بصوتٍ عالٍ مرتين أو ثلاثًا واستلقيتُ على الأرض. كدست بضعة فروع بعضها فوق بعض، حتى لا يتدحرج جسدي على المنحدر، وأسندتُ رأسي على حجر، كما لو كان ذلك لأجل تمثيل دور النائمة. الآن، حيث استلقيتُ في حرمان بصريٍّ تام، كان ما كنتُ أعتبره من قبل مجرد غابة هادئة صار الآن مملوءًا بالأصوات على نحوٍ مفاجئ. بومة صغيرة تنعق بصوتها الأجش وفي كل مكان توجد خشخشة وحسيس، لدرجة أنني كنتُ أتجه إلى الأعلى مرارًا وتكرارًا. والآن أدركتُ مدى سوء وضعي. في النهاية عندما ضغطت الرياح البائسة دافعةً بأوراق الشجر المُندَّى نحو وجهي، استسلمتُ. كان الوقتُ فجرًا، وكنتُ آمل بقدرتي الكافية على الرؤية قريبًا لأصل إلى منزلي. قضيتُ الساعات الأخيرة في الجلوس مكاني، أنتظرُ أن تعتاد عيناي الضوء العائد ببطء، ثم أخيرًا فهمتُ أين كنتُ، كنتُ قد بِتُّ في حفرة فوضوية في الغابة، تبتعد عن الطريق التي كنتُ فيها بمقدار لا يبلغ الخمسمئة متر، وكوخ في الغابة كنتُ أعتبره حائطًا لصخرة. عدتُ للبيت عند مطلع الفجر ومشطتُ شعري من أوراق الشجر.

14

أسندتُ خدي على الفم الرطب والدافئ للحيوان، من مِنخريه يتدفق تنفُّسٌ بطيء بصورة مُهدئة، جعل أنفاسي بدورها منتظمة. كان ذقنه مغطى ببصيلات الشعر الخشنة والرقيقة للغاية في الوقت نفسه، لدرجة أنني استطعتُ إزاحته بعيدًا فوق فكه السفليّ. بلا أي مقاومة تُذكر تخللت هذا الود الذي دفع الحصان لتركي أداعبه كما يخطر لي، شعورٌ طالما أحببته.

سألني عامل المزرعة: «كم من الوقت؟».

الذي يبدو عليه بوضوح أنه لا يزال قاصرًا، مباشرةً بعدما أنهى ربط السرج، ولكن لم يخطر على بالي ما الذي قد يعنيه بهذا السؤال.

قلتُ: «في الواقع لم أمتطِ حصانًا قط منذ وقتٍ طويل».

بصرف النظر عن إجابتي النافية شد الصبي الركاب بقوة في الأضلع المتقوسة للفرس البُنيّ. في هذه اللحظة جاءت الكونتيسة من وراء الناصية، وفي يدها حصان «الشيمل» الضخم، وكان عُرفه مُضفرًا في جديلة باروكية. قالت: «فلنسرع».

بينما قدتُ أنا الحصان كما تعلمتُ في فترة مراهقتي، كنتُ أتابعها إلى خارج الإسطبل. قالت الكونتيسة قبل أن أقول شيئًا أصلًا: «لا يمكنني البقاء طويلًا. إذ يجب أن أقابل شخصًا ما في الساعة الثالثة مساءً، هذا الذي سيصمم لنا الملابس التنكرية بأكملها للحفل. أستاذ الملابس التنكرية والتمويه. فأنا أعمل معه منذ سنوات».

سألتُ «هل سنذهب حقًّا للصيد؟».

ولكن في اللحظة نفسها كان يرفعني خادم الإسطبل من ركبتيَّ. تمنيتُ بشدة أن أكون في مكان آخر، ولكن في ذلك اليوم لم يكن ثمة سبيل لهذا. كانت الكونتيسة تنهال عليَّ بالعروض منذ أشهر لفعل شيء مسلٍّ ما معها خارج مواعيد العمل، وطالما أعطيتُ أعذارًا ملتوية حتى ذلك الوقت لأخرج من ذلك الموقف. كان الإصرار الذي تُظهِره في هذه المواقف غير قابل للتفسير بشكلٍ واضح ومع ذلك كان هناك منهجية فيه. صحيح أنها كانت تنتقدني باستمرار وبدت أنها لم تستلطفني كثيرًا في الأيام السابقة، ومع ذلك في لحظات ما معينة طورت ارتباطًا غريبًا يكاد يكون مُفرطًا بي. كما لو كان يخطر في بالها في لحظات عديدة بأنها تحتاج بصورة مُلحة لوجود صديقة ما في حياتها. ثم فجأةً يكون على مكتبي عبوة شاي زهر الزيزفون الذي تشربه هي باستمرار، أو أنها تتذكر أنني اشتكيتُ ذات يوم من آلام الظهر، وترسم لي على ورقة بضع حركات للرياضة البدنية التي قالت عنها بأنها تمارسها كل صباح في الشرفة المفتوحة.

فكرة رؤيتها لوحدها لوقتٍ طويل يتخللها شيء ما مُقلق، بالكاد تمكنتُ من مواصلة إجراء محادثة شخصية معها في أثناء طريقنا المشتركة بمسافة مئة متر أسفل الممر، واللحظات القليلة التي لم يكن ممكنًا فيها تجنُّب ذلك كانت تعذيبًا خالصًا بالكامل. ومع ذلك كانت الكونتيسة تبدأ محاولاتها الجديدة مرارًا وتكرارًا في دعوتي إلى مناسبات محددة، وأنا لم أفهم ما إذا كانت لم تلاحظ ببساطة هذا الشعور بعدم ارتياحي لذلك أو ما إذا كان هناك اهتمام أعمق مربوط بذلك، الذي لا أعلم أي شيء عنه. في لحظات ارتيابي الشديد كنتُ أتخوف من أن الكونتيسة ترغب فقط في اكتشاف شيءٍ ما عني، كما تفعل ذلك مع الآخرين على الدوام. كنتُ أجيبها عن اهتمامها بأكبر قدر من الحرص وأنسحب من الحديث بأسرع ما يمكنني. ولسوء الحظ، عندما أُلغِيَ اجتماع البارحة بعد العصر، جاءت المناسبة التي لا بد منها، وبخصوصها أعلنت، أننا نحن الاثنتين، بعد أن صار في النهاية لا شيء لدينا لفعله الآن، سنقضي فترة ما بعد العصر معًا. أي لا بد من ذهابنا إلى الصيد، هكذا قررتْ، وأنا لم أخالف رأيها. قالت: «لقد سمعتُ أنكِ خبيرة في ركوب السرج».

مما جعلني عاجزة عن الرد.

عندما كان الحصان، الذي من الواضح أنه لم يعد بحاجة إلى تدخلي، يسير في تباطؤ خلف الكونتيسة إلى الغابة. تساءلتُ حينها في نفسي مرة أخرى كيف اكتشفتْ أنني أخذتُ دروسًا في تعلُّم ركوب الخيل وأنا طفلة لبضع سنوات. الحصول على هذه المعلومات كان شيئًا غير ممكن على الإطلاق، ومع ذلك فقد نجحت في هذا مثلما تفعل دومًا بلا أي جهدٍ. خلف المراعي الخضراء الربيعية يؤدي ممر الغابة عبر الأشجار. الكونتيسة أيضًا جعلت شعرها مُضفرًا في جديلة مشدودة للغاية لدرجة جعلت فروة رأسها مرفوعةً عند بداية رأسها، وارتدت سُترة ركوب الخيل، مسحوبةً إلى أعلى، بحيث تلامس حواف شعرها عند الرقبة.

قالت دون أن تلتفت إليَّ: «هناك يبدأ مسار الصيد».

فوجئتُ بمجموعة من الكلاب تندفع إلى الأمام بين أرجل الخيول. وأدركتُ أنني كنتُ طوال الوقت أفترض بأن مصطلح الصيد عبارة عن استعارة ما، ولكن في الواقع كان مُعلقًا على سرج الكونتيسة سكين صغير.

قالت دون أي مقدمات وكأنها ترغب في التدرب على خطابٍ مُعدٍّ منذ فترة طويلة للوقت اللاحق: «منذ أكثر من أربعمئة عام كانت تُستخدم هذه الأراضي للصيد من قِبل عائلة «كناب-كورب-فايدنهايم». (كنتُ أجد مشقة في فهمها من الخلف، ومع ذلك فقد بدت أنها فهمت ذلك ولم تعبأ، مما جعل حصاني يُسرع في خُطاه ليلاحق خطوات حصانها) نحن مربوطون في هذه الطبيعة مثل النباتات نفسها. يضرب الناس بنا المثل: مضفورٌ مثل آل «فايدن-كورب» في بيته».

بدأ الحصانان الآن في مشية الخبب، كما لو كانا قد اشتما رائحة الأثر نفسها. من المدهش أن جسدي لا يزال يتذكر جيدًا شعور امتطاء الخيل.

تابعتْ: «سيدة شفارتز، أرغب في أن أكون صادقة. فأنا أتعرَّف على الكثير من نفسي فيكِ من جديد ولهذا السبب رغبتُ منذ وقتٍ طويل في التحدث معكِ وأن أجعلك -كما يقال- تفهمين بعمق ما الذي قد يعنيه هنا من أشياء كثيرة بالنسبة إليَّ فيما يخص المنطقة والناس. (واستدارت نحوي وهي تحاول بكل قوتها النظر إلى عينيَّ، قبل أن تدير ظهرها بعصبية بعدها مباشرةً) بالنسبة إلينا نحن آل «كناب-كورب-فايدنهايم» من المهم تعليم الناس الاندماج مع الطبيعة، أي مع المحيط، الذي نشعر بأننا ننتمي إليه كما ينتمي إلينا. ولهذا

السبب أيضًا نحافظ على جميع هذه الغابات الجميلة في ملكيتنا الخاصة، حتى لا يكون في إمكانية أحد ما أن يجتزها».

في كل إيماءاتها كان تقبع محاولة بائسة في الاقتراب مني، ما جعلني على الدوام نصف مُحرجة ونصف مرتابة.

سألتُ متعمدةً الإطراء: «هل هو شكل من أشكال الحماية؟».

ولكن الكونتيسة نظرت إليَّ بنظرة زاجرة كما لو كنتُ سألتُ شيئًا مبتذلًا للغاية، لدرجة أنه قد أساء إليها.

- بالطبع. إنها حماية، ولكن سيكون الآن مُعقدًا للغاية شرح ذلك، فلن تفهميه بطريقة عفوية.

بعد هذه المعاقبة الغريبة صمتنا للحظة قصيرة قبل أن تستدير إليَّ مرة أخرى، كانت تتصارع مع ما تبثه العلاقات الإنسانية لها في الطريق.

قالت: «لذا فإن ما أرغب في طلبه منك، أن تتحدثي معي بضمير المفرد. أنا «أولريكه»».

وصارت فجأةً قريبة مني بجسدها بأكمله، لدرجة أنني جفلتُ. فقط عند هذه اللحظة لفت انتباهي أنها كانت طوال ذلك الوقت تجلس على السرج المخصص للسيدات[1]. مما يشرح ذلك أيضًا، كيف أنها انحنت إلى الجانب الآخر، في إيماءة حميمية متهورة، واستطاعت أن تمسك بيدي، فأوشكتُ على فقدان توازني وكنتُ مُهددة بالسقوط. شدَّت بقبضتها على يدي اليمنى وثبتت نظرها في عيني. كان الأمر أشبه بالكوميديا، الطريقة التي كنا نتدلى ونهتز بها مثل جسور حية بين حصانين، في إيماءة صلبة لمَحبة فاشلة. ولكن بالنسبة إليها كان شيئًا جادًّا للغاية. لبضع ثوانٍ حُملنا إلى الأسفل دون حركة، قبل أن تنهض من جديد في الوضع الرأسيِّ.

قالت الكونتيسة الآن من جديد بنبرة عملية: «يجب أن نتبع كلاب الصيد، من المفروض أن يكون الثعلب قريبًا للغاية».

(1) تجلس المرأة بشكلٍ جانبيٍّ، حيث كلتا الساقين في ناحية واحدة من الحصان، وعلى الأغلب يكون على الجانب الأيسر.

حاولتُ بكل جهدي إمعان النظر، ولكن لم أر شيئًا على الإطلاق. سلكت الخيول -كما لو كان من تلقاء نفسها- الطريق إلى الأدغال، صاعدةً وراء الثعلب الوهمي. على الرغم من أن التعامل بأكمله بيننا قد سار بشكلٍ غير مريح، كان هناك شيء ما قد تبدل بيننا. قلَّت المسافة بيننا بصورة واضحة، فقررتُ الانتفاع من نفحة الاقتراب تلك.

- لطالما تساءلتُ، مَن سكن القصر قبلك. أعني قبل عائلتك.

استخدام ضمير المفرد معها لا يزال يخنق حلقي.

- والدي بالطبع. كان عاشقًا كبيرًا للفنون، ولكنه توفي عام 1966. ولم أكن قد أكملتُ بعد العشرين من عمري، وفجأةً كان عليَّ تولي إدارة كل ذلك وحدي. لم يكن ذلك شيئًا طبيعيًا بالنسبة إلى امرأة.
- وذلك يعني أن هذه المنطقة بأكملها كانت دومًا مِلكًا لكِ، أقصد لعائلتك؟
- بخصوص ذلك الأمر فيجب أولًا مناقشة ما تعنيه بالضبط كلمة «مِلك» ومَن الذي يعتبر من العائلة. وإلى مَن يتوجه مثل هذا السؤال، هل إلى الماضي أم إلى الحاضر؟ أيهما يعني بالتملك اعتبارًا من هذه التفرقة. لا يمكن لأحد صياغة الأسئلة هكذا بسهولة ثم طرحها بالطريقة التي خطرت فيها على باله.

نسيتُ ما كنتُ أرغب في واقع الأمر في معرفته، وكنتُ مُهددة بضياع هذا الاتصال بيننا. كانت الخيول تصعد على أراضٍ تتزايد وعورتها.

قلتُ، ولكنه بدا وكأنه اعتذار: «أتعلمين، أنني أُجري القليل من الأبحاث العلمية في علم الأنساب في هذه الفترة. وتساءلتُ في نفسي مَن حقًا الذي امتلك المنجم. لقد خلَّف وراءه تاريخًا صاخبًا، وكذلك بعض المباني في المنطقة. (قلتُ في تأكيد لبراءتي من جديد) فأنا أسأل من منطلق الاهتمام العائلي».

لم أرغب في وجود نهاية للأدغال، أحيانًا كنتُ أحتاج لكلتا يديَّ لإبعاد نبات الليانا المتسلق والأغصان العالقة في مرمى بصري. وأخيرًا وصلنا إلى مرج صغير، بقعة خالية من الأشجار قد رأيتها من قبل من قلعة «كاستلبورج».

قالت: «هل استمتعتِ بالصيد بالكلاب؟ يمكننا أن نتشارك في واحدة ذات يوم، صديقي «بارون رولِنڤالد» يُعد أحداثًا مثيرة وضخمة. (ثم استطردت

قائلةً دون أن تنتظر جوابي) بالطبع كان يوجد دائمًا المزيد والمزيد من توسيع نطاق الأملاك، كانت عائلة آل «كناب-كورب-فايدنهايم» تعمل بجهد لثروتها. تحت حكم جدي ومن ثم والديَّ أيضًا اشترينا بعضًا من الأراضي لنستطيع التحكم بصورة أفضل في تطوير المنطقة. ولكن كل ذلك ليس له أي أهمية على الإطلاق، لأنه عندما يُناقَش ذلك، يُنتقَل من المئة إلى الألف. يمكنني أن أخبرك بالكثير عن والديكِ، دون أن تضطري إلى البحث كثيرًا، فأنا قد عرفتهما جيدًا. الحقيقة هي الجهد المُكلِّف للبشرية، هذا ما قاله «إريش فريد»».

بدأتُ في التحدث: «إنني أتساءل على وجه الدقة بخصوص ما يلي. أنتِ تملكين المنزل الذي أعيش فيه، منزل طفولة والديَّ. الذي اشتريتُه منكِ. (تنحنحتُ ثم قلتُ) ولكني عرفتُ أن هذين المنزلين، أي هذا المنزل والمنزل المجاور له، كان أجدادي من ناحية أبي يعيشون فيهما، وسابقًا كانا ملكًا لهم».

ارتجف صوتي، وغاص الحصان من جديد في الغابة.

قالت الكونتيسة بعد فترة صمتٍ طويلة: «هل يمكنكِ صياغة السؤال مرة أخرى بشكلٍ أكثر دقة، لا أفهم ما الذي ترمين إليه».

وانتظرتْ مرة أخرى الشكل النهائيَّ لطلبي الواضح أصلًا تمامًا.

سألتُ: «هل باع أجدادي هذا المنزل؟».

- في وقتٍ ما اشتريناه، بالتأكيد، مع بضع أراضٍ أخرى، لا بد وأنني كنتُ طفلة حينذاك. ولكن على أي حال فهو ملكٌ لنا بالطبع مثل كل البلدة، لم أظن أن تلك الحالة الخاصة سوف تثير اهتمامك. إذا حدث ذلك، فيجب عليكِ إلقاء نظرة على القانون المحليّ، وإلا فلن تفهمي هذا التصريح.

قلتُ بنبرة خافتة: «أظن أنني سأكون مهتمة. ولكن الأمر ليس ضروريًا، فقط خطر على بالي الآن. ربما سيكون في أي وقت بعد الحفل».

قالت الكونتيسة فجأةً دون أي مقدمات: «يا للحسرة، يبدو أن الثعلب قد فر. (وسحبت الحصان من اللجام ناحية اليسار، فحوَّلتُ اتجاه حصاني أيضًا وابتعدنا) ولكن ذلك مناسب، لا بد وأن نعود إلى العمل على أي حال».

وعندها قُطعت هذه الصلة التي كنتُ أتمنى القدرة على التمسك بها. بدأت الأحصنة في الركض وسرعان ما وصلنا إلى الإسطبل.

قالت الكونتيسة وقد بدَّلت على نحو مفاجئ كلامها باستخدام ضمير الجمع: «تعالي إلى مكتبي لاحقًا، يجب أن أسرع الآن لموعدي مع خبراء الأزياء التنكرية».

وقفتُ في ارتباك وضياعٍ بجانب الصبي عندما كان يُرتِّب الأحصنة في بوكسات الإسطبل. سرتُ خلف الكونتيسة في بنطال ركوب الأحصنة المُتصلِّب بصورة غريبة في خطوات متمايلة إلى القصر وصعدتُ درجات السلم، حيث كانت أنيتا تنتظر أمام الباب.

- السيد جلس بالفعل إلى الطاولة، لقد أعددتُ القهوة له.

اختفت الكونتيسة في مكتبها، وبينما كانت تغلق الباب، ألقيتُ نظرة خاطفة في الحجرة بينما أمُر. وهناك جلس، مبتسمًا بسخرية من فوق فنجانه، كما لو كان يتوقع رؤيتي بالضبط في ذلك المكان، بائع الأقنعة.

***

عندما سارت فرقة آلات النفخ مُصطفةً وراء بعضها بعضًا في مارشٍ عسكريٍّ وبدأت تعزف مقطوعة «Muass I denn zum Städtele hinaus»[1] بخطأ يدعو إلى الشفقة، فكرتُ حينها لأول مرة إن كان بإمكاني أن أودعهم الآن، ولكن رفضتُ الفكرة في الحال. كرهتُ هذا الحفل الصباحيَّ «فروهشوبن»[2]: الخنازير الرضيعة التي تدور مع أسياخ الشواء وأكواب البيرة التي تُملأ عدة مرات قبل أن تكون الساعة العاشرة صباحًا. في هذا الصباح اضطررنا إلى مراقبة تدشين عربة المطافئ الجديدة بواسطة القسيس وعدد من الشخصيات المرموقة، ولم أكن متحمسةً لشيء من ذلك، بينما أخيرًا شُغِّلت أسطوانة لمختارات من أغاني ما بعد التزلج «Après-Ski-Hits»، إلا إلى الهروب.

---

(1) تُعزف الأغنية عند الوداع، يُقال إنها كُتبت عن جندي يودع حبيبته ويخبرها هل يجب عليَّ الذهاب حقًا؟ ثم عزفها أيضًا في الحرب العالمية الثانية للغرض نفسه. في الأصل Muss وليست Muass.

(2) حفل صباحي يقدم فيه الطعام والشراب خصوصًا الكحوليات، مصحوبًا بفرقة موسيقية.

من ناحية أخرى كنتُ منذ وقتٍ طويل منسوجة بداخل هذا المجتمع، بينما كانت جمعية الرفاق الفنية تعلو بصوتها في أغنية إضافية «Prinz Eugen der edle Ritter»[1]، كنتُ عالقةً وسط حشد من الوجوه المعروفة، مما جعل هروبي مستحيلًا. يمكن فقط التعجب من الحشد الموجود في هذا «فروهشوبن» أو الأحداث الأخرى لخيم البيرة: أكاديميون، الذين لولا ذلك لن يتكرموا بالتعامل خارج ما يسمى بدوائرهم الخاصة، مشتركون في ثلاث صحف ألمانية من أجل المقالات الفنية والثقافية، فجأةً صاروا الآن يُعلِّقون حول أكتافهم بنادق خفيفة لإطلاق الورود البلاستيكية منها على زوجاتهم مقابل 2 يورو.

بين رجال الإطفاء وأبناء المزارعين، بين الوطنيين والسكارى الصارخين، يتمسك الأشخاص الذين يصعب إرضاؤهم ببعضهم بعضًا، لأنهم يائسون من فكرة بقائهم بمفردهم، لهذا السبب اضطر الجميع في النهاية إلى البقاء لوقتٍ أطول مكدودين، على الرغم من أن الجميع في الأساس يرغب في العودة إلى المنزل. أيضًا أنيتا وفيليب كانا موجودَين ويبقيانني في مكاني بواسطة القصص الطريفة والمشروبات الكحولية المُقطرة في كل مرة عندما أعلن عن رغبتي في الذهاب.

كان الوقت ظهرًا، عندما كنا لا نزال نجلس معًا ونراقب الناس وهم يضحكون بينما يطلقون النار على زجاجات الخمر «اليجرمايستر» الصغيرة على الرؤوس. كانت أنيتا في حالة سُكر ومُستندة على كتفي بطريقة كانت بالنسبة إليَّ قريبة للغاية مني، بينما كنتُ أدوِّن ملاحظات عما أراقبه. لم أعرف مُطلقًا عما كنا نحتفل، ولكن ذلك لا يعلمه أحد أيضًا، صحيح اختيرت ملكة النبيذ[2]، ولكنه كان يومًا مشرقًا في يونيه ولا يزال يتبقى شهر على موسم قطف العنب. لم تكن الكونتيسة تهتم بالظهور في مثل هذه الأحداث، لهذا السبب اضطررتُ أنا إلى فعل ذلك لأمنحها يوم الاثنين القادم ما قد طلبته مني: مَن تحدث وما الذي قاله،

(1) تصف أغنية الأمير يوجين الفارس النبيل، قصة حصار مدينة بلغراد والاستيلاء عليها في أثناء الحرب مع الأتراك العثمانيين.

(2) تُنتخب ملكة النبيذ لعام واحد ويجب أن تكون من مناطق يُزرع بها النبيذ وأن يكون لديها المعلومات الكافية بخصوص الكروم وزراعته وبعد أن تفوز في انتخابات الإقليم الخاص بها، تترشح لتنافس مع باقي المناطق الأخرى. في السابق كان على ملكة النبيذ أن تكون في أسرة مزارعة أصلًا للكروم وأن تكون جميلة الشكل، الآن لا يقتصر الأمر على الجمال بل والثقافة.

كم عدد الأشخاص المهمين الذين حضروا وما الذي أكلوه. في الناحية القريبة كان كل أعضاء «كوربِس» مُصطفين في الهواء الطلق ليفعلوا الشيء نفسه الذي يفعلونه في غرفة النزل نفسها. حتى إن جلوترزات كان جالسًا بصمتٍ على أحد جوانب الطاولة، بقبعته المُسطحة المائلة إلى الوراء بقميص قطَّاع الخشب الكاروهات نفسه، كعادته دائمًا. والممرضة إلفريده التي كانت لا تفعل شيئًا سوى إدماج جميع البشر قد غمزت لي.

قيل من على خشبة المسرح: «باسم الكونت والكونتيسة ستُمنَح ثلاثة براميل من النبيذ اليانع[1] مجانًا لكل المحتفلين».

وتهلل الجميع، وجزء كبير منهم نهض قافزًا على قدميه فورًا لدى سماعهم ذلك ليحضروا لأنفسهم كأس التبرع النبيل.

- روت، لقد نشأتِ في بيئة حضرية بامتياز، (سأل فيليب) هل ما يحدث هنا غريب بالنسبة إليكِ؟

هززتُ رأسي نافيةً، دون أن أرفع بصري عن قائمة الشخصيات التي أدوِّنها. قلتُ له: «ليس أكثر من أي شيء آخر. الشهر الماضي -على سبيل المثال- اضطررنا أنا وأنيتا إلى الذهاب إلى الاحتفال بالذكرى السنوية لجمعية غناء رجالية. ولم يحدث أن أحيوا حفلًا من قبل، ولكن كانوا يتدربون بالفعل منذ 1983، هل هذا شيء غير عاديٍّ؟».

سألت أنيتا وضحكت: «الشهر الماضي؟ كان ذلك أول أمس. أنتِ مضطربة للغاية في الفترة الأخيرة».

كان لا بد من شد عضلات وجهي للحظة لأتأكد من أنها كانت على حق. كانت جروس أينلاند تشبه حلقة مفرغة، كل شيء يمر، بتشابه مرعب، كما لو في لعبة «الكاروسيل» دوامة الخيل، وما الفرق في ذلك؟ ثم عدتُ لإلقاء نظرة سريعة على قائمتي، قَلِقة من أنني قد نسيتُ شخصًا ما لم أدوِّنه في القائمة.

قالت أنيتا: «ولكن هذا صحيح، هنا كل شيء غريب. لهذا السبب بالكاد يمكنني الانتظار لرؤية المزيد من العالم».

---

(1) Jungwein هو النبيذ الذي لم ينته من تخمره.

اقتبس فيليب قائلًا بعشوائية تامة وتجرع الخمر: «مرة في العمر يجب لكل إنسان أن يعيش في أمريكا».

قاطعته أنيتا: «لا، أرغب في الذهاب إلى إيطاليا، المكان المبتهج بالحياة. والأكل، البيتزا في البندقية».

- والقيادة عبر جسر البوابة الذهبية[1] بأحذية رعاة البقر، وشراء مزرعة صغيرة في «تكساس» وصيد الإوز. بانج بانج.

أطلق نارًا خياليةً من سبابته.

سألت أنيتا: «هل يمكن للناس هناك السباحة مع الدلافين أيضًا؟».

من حسن الحظ لم أوتَ من هذه المناقشة سوى الهوامش. كانا يتحدثان كلاهما باستمرار عن السفر ولم يتركا ولا مرة بقعة مسكنهما، إلا للعمل.

قلتُ في شرودٍ: «اسمعا، لدي سؤال. هل سبق لأحد منكما أن رأى الكونت؟ هل هو موجود أصلًا؟».

عندما لم أحصل على رد لبضع ثوانٍ، رفعتُ بصري إليهما ورأيت أن أنيتا وفيليب، اللذين كانا يمزحان للتو، ينظران إليَّ في فزعٍ. قال فيليب: «لا تسألي مثل هذه الأسئلة يا روت».

ونظر حوله كما لو كنا مُهددين في كل ثانية بالاعتقال.

سألتُ في اضطرابٍ صادق: «ماذا؟ لماذا إذن؟».

- أنتِ لا تزالين جديدة هنا.

استطاع فيليب أن يضحك بعصبية، بينما أنيتا، التي كانت بعيدة كل البعد عن التكلف المتزايد، تنحني على الطاولة نحوي.

قالت أنيتا: «يصل إلى أذن المرء مثل هذه الإشاعات. ولكن لا يعلم مع ذلك شيئًا محددًا. حكت لي أمي ذات يوم أن الكونت ميت منذ وقتٍ طويل. حُكي لها ذلك من شخص في الصيدلية، والصيدلي سمعه من... (همهمت بصوتٍ خفيض لا يكاد يُسمع) من الخادم في القصر. يُقال إن الكونت كان يعاني من مرض التصلب المتعدد، وإن الكونتيسة تخلَّصت منه بإيداعه في مصحة ما في سويسرا».

(1) جسر معلق يشكل نقطة التقاء بين خليج سان فرانسيسكو والمحيط الهادي.

قال فيليب مقاطعًا بعنف: «يا إلهي، أنتما الاثنتان، ستجلبان لنا المشكلات. يوجد هنا الكثير من الناس».

سألتُ: «هل ممنوع التحدث عن ذلك؟».

- حسنًا، يا شاطرة في الكلام. (قال في آخر الأمر) سمعتُ من إيرنا ذات يوم، أن الكونت، الذي كان بالمناسبة إيطاليًا...

صاحت أنيتا قائلةً: «أبدًا».

- اهدئي! يُقال إن الكونت أحبَّ واحدة من الخدم وهربا معًا قبل عشر سنوات إلى جزر المالديف. متخليًا عن لقبه وكل شيء. وفي المقابل ترك للكونتيسة كل الأراضي، ولكنها لم تتغلب قط على هذا الموضوع. لا تتحدثي أبدًا عن هذا الموضوع مع أحد وإلا ستمثُلين أمام المحكمة.

سألتُ «أمام المحكمة؟».

قالت أنيتا، بينما وضع فيليب يده على فمه الآن: «بالطبع لم أره مُطلقًا. كل شيء مجرد إشاعات يا روت. ربما لم يكن للكونت أي وجود أصلًا».

قلتُ، بأعصابٍ واهنة لأن سؤالي ظل بلا إجابة: «سأذهب لأحضر شيئًا لآكله».

وقمتُ لأحضر لي شريحة لحم الخنزير. *للإفطار*، فكرتُ باضطراب. في الواقع لم يعنِني شأن الكونت على الإطلاق، وحتى لو كان ذلك مهمًا بالنسبة إليَّ، فسيظل اكتشاف شيء ما عنه أمرًا صعبًا، وهذا أمرٌ مؤكدٌ تمامًا.

بينما كنتُ أنتظر طعامي وفي يدي الإيصال، كنتُ أراقب العمدة، الذي كان يجلس في منتصف الحدث ويحييه المارة بطريقة طبيعية للغاية بلا أي طابع شخصيٍّ.

كان الناس يقولون له: «أهلًا يا عمدة».

بينما يومئ لهم بالإيماءة نفسها من رأسه، والمنكبان هابطان، باستدارة كما كان دائمًا، بأزرار قرنَي الغزال اللامعة مثل دهن الخنزير مُهددة بأن تنفتح فوق كرشه المكتنزة، لكن ذلك لم يحدث.

كان جالسًا بمفرده هناك، واجتاحتني رغبة مفاجئة، مع فكرة غامضة، أنه قد تكون تلك ساعة التودد، جلستُ في مقابلته، متسائلةً إن كان قد أدركَ مَن أكون، فنحن لم نتحدث مطلقًا معًا.

قال على الفور: «حفل جميل».

وتشممتُ رائحة أنفاسه المخمورة. كان منظرة غريبًا، وكانت رؤيته عن قرب شيئًا غير مفهوم بالكامل. كانت يداه تلوحان للجميع في عاطفة هائجة، ومع ذلك وجهه يشع في أثناء ذلك بيأسٍ لم أرَ مثله من قبل. كان لديه هالات سوداء عميقة أسفل عينيه، التي بدورها تتوافق مع تلك الابتسامة الفاترة والخاطئة، التي لأجلها بدا أنه يستخدم مضطرًا كل عضلاته الباقية.

رددتُ: «أجل، حفلٌ جميل. لا بد وأنه أمر مرهق، أن يكون المرء معروفًا مثلك لدى الجميع».

في الواقع بدا بأنه مرهق للغاية لدرجة أنه على وشك النوم في مكانه.

قال: «هذا ما يجلبه معه المنصب. كلانا للأسف لم يتحدث مع الآخر بجدية تامة، ولكني كنتُ أعرف والديكِ جيدًا. كنا نتقابل كل أسبوع، على الدوام تقريبًا، عندما يأتيان إلى هنا للأكل، كانا يحكيان عنكِ وعن براعتك».

كان والداي يأكلان معه، مع إنسان انتهازيٍّ وممل، مُعلق فوق حسائه مثل خرقة مبتلة. لطالما اجتاحني شعور ما في أثناء هذه القصص بأنني أتلقى قصصًا عن شخصين غريبَين، لا عن الشخصين اللذين ربياني حقًا.

تابع: «أجل، لقد كنا أصدقاء جيدين. دائمًا ما كانا يقولان ذلك: «بيتر، نحن سعيدان لأنك ها هنا، لتتحدث معنا حول هذه الأمور، التي لا يرغب الآخرون في التحدث بشأنها. شكرًا، يا بيتر، أنك لم تخذلنا». كان هناك بالطبع شكاكون».

كنتُ أنتبه منصتةً إليه.

- معذرةً، ما الذي كان يدور حوله حديثكم؟

كان بضعة رجال يرتدون بناطيل جلدية يحملون جذعًا عاريًا من الأوراق على رؤوسهم إلى الساحة الضخمة. *سارية مايو*[1]، فكرتُ في حيرة، ولكن مايو قد مر منذ وقتٍ طويل.

---

(1) وفقًا لعرف قديم في الفترة ما بين الربيع وأوائل الصيف يُحرر جذع شجرة خالٍ من الأوراق يُنصب ويزين بإكليل من شجر التنوب وذلك من أجل احتفالات دينية أو احتفالات شعبية مثل يوم مايو (الربيع) أو عيد العنصرة، وتعد جزءًا من الفلكلور المسيحي الأوروبي.

- حول تطورات معينة لم يحب بعض الناس الآخرين رؤيتها. أنا لا أتحدث الآن عن التطور بحد ذاته، الذي يُنصح به للناس، ولكننا مربوطون بسلسلة تاريخية، على الأقل كوننا مجتمعًا.

لم يكن لدي أي فكرة عما يرمي إليه.

سألتُ مرة أخرى: «إذن ما التطورات التي أثارت اهتمام والديَّ؟».

وأجاب بعد جرعة عنيفة من الخمر، ولكن هذه المرة من كأس على الطراز الرومانيّ. قال باقتضاب مُجددًا: «بالطبع من ناحية كان يدور حول الفترة المظلمة للغاية للنمسا».

ورفع يده اليمنى من جديد للتلويح.

- حول أي شيء؟

أجاب: «حول الفترة الأظلم. كان لديهما أسئلة حول، يمكننا أن نقول أشياء غامضة تخص مجرى أحداث محددة تجري من القمة. وبدوري كنتُ مهتمًا بالطبع بالمجتمع وحده باعتباري شخصًا سياسيًا من طراز معين، بأن تظل تقاليد النظام الخاضع إلى الأهواء البشرية من ناحية، ومن ناحية أخرى محفوظة إلى العقل».

خطر لي حينها، أنه بعد مكوثي هنا لعام ونصف لم أزل لا أعرف، إلى أي حزب كان منتميًا. في واقع الأمر كان يبدو مناسبًا لكل الأحزاب. صرف النظر عن ذلك فإن ميوعة أقواله جعلتني عدوانيةً بشكل ملحوظ.

سألتُ في تحدٍّ -وفي الوقت نفسه لم يكن يحوي في واقع الأمر أي تحدٍّ-: «هل كان والداي يبحثان عن شيء يخص النازية؟».

خلع العمدة قبعته، كما لو كان سيتصبب عرقًا. وظهرت بصيلة شعر دهنية تحتها.

أجاب مُجبرًا نفسه: «لدى الناس أصول محددة، لا تكون على الدوام واضحة تمامًا، مثل هذا التواطؤ. لربما كان والداكِ من وقتٍ لآخر يغوصان عميقًا في ذلك الأمر، وهذا ما لم يعجب الجميع».

في صخبٍ رُفع الجذع الخشبيُّ وبدأت فرقة آلات النفخ في العزف.

سألتُ: «مَن لم يعجبه؟».

ولكن كان العمدة غارقًا في حماسٍ غير عاديٍّ في الإشارة بيده إلى شخص مارٍّ مرتدٍ وشاحًا. وعندما استدار ناحيتي من جديد كان السؤال قد عفّى عليه الزمن. سأل الآن كما لو كان يرغب في تغيير الموضوع: «أنتِ تعملين لدى الكونتيسة؟ مجتهدة للغاية».

قلتُ: «أجل، هذا ما أفعله. لماذا؟ أنتَ تتفاهم جيدًا مع الكونتيسة، أليس كذلك؟».

- المرء يتفاهم مع مَن هو مجبرٌ على التفاهم معه. إذ دائمًا ما يكون التفاهم أيضًا نوعًا من التخلي.

أيضًا هذه الإجابة أربكتني. كنتُ في حالة حيوية، تجرأتُ فجأةً على أن أسأل كل شيء: «إذن توجد نقطة احتكاك؟ هل من الصعب أن تكون سياسيًا، عندما يكون لديك بجانب ذلك لقب النبلاء كونه نظامًا موازيًا؟».

ولكنه غطَّس أنفه من جديد في الكأس، كان يسكر من جديد. بدأ في التحدث أخيرًا بلسانٍ أعوج: «النبل، آه حسنًا. لن أقول إنه النبل بمعناه الكلاسيكيِّ. (عند هذه الكلمات بدأ يتلفت حوله مثل شخص مُطارد) كان والداي يعلمان عن ذلك. وسأقول لكِ ذلك فقط: يجب ألا تصدقي الكونتيسة في كل شيء. قبل خمسين عامًا، (ثم قال مصححًا الكلام) أو ربما ثمانين عامًا، كان القصر مِلكًا لشخص آخر. ثم كانت هناك بعض التحويلات الغامضة التي اتُّفِق على عدم التحدث عنها في جروس أينلاند، لأنه أيضًا قد نشأ منها خيرٌ كثير».

- عائلة الكونتيسة هي مَن تملك المنجم، أليس كذلك؟

- البعض يقول إنهم من خط مباشر من «بيرجر هانس»، ولكن ذلك لا يمكن بالطبع أن يكون صحيحًا، لأن «بيرجر هانس» هو شخصية أسطورية. (قال العمدة بلسانٍ ثقيل) ولكن الذي ليس أسطوريًا هو ما يلي: المرء رغب في -كما يقال- الارتفاع إلى منصب النبلاء. تنتمي الكونتيسة إلى الجيل الأول، الذي حدث فيه تثبيت للتحول الاجتماعيِّ بكل قوة. إذ راح كل شيء، كل ما له علاقة بالتعدين، أو ما يجعل محيط ملكية الأراضي أكبر. يجب أن يُقال إنها نشأت في بيئة صارمة للغاية. حكى لي والداي أن عائلة «فايدنهايم» كانت في معظم فصل الشتاء لا

تدفئ غرفة الأطفال، عندما كانت الكونتيسة في الثالثة أو الرابعة من عمرها، لتنمية الضبط الذاتي. علّموها على يد جنرال فرنسي، فقط أفضل تربية. ولم تذهب قط مع الأطفال الآخرين إلى المدرسة، كل شيء كان داخليًا. أنا لا أحكي شيئًا. وإنما أقول إنه يجب أن يُحترم ذلك أيضًا.

تابع: «على أي حال، عندما مات «فايدنهايم» العجوز، كانت طبقة النبلاء قد تطورت بالكامل. منذ ذلك الحين لم يعد المنجم مهمًّا لتوفير سبل النعيم للعائلة، ولكن الابنة أدارت البلدة بصورة ممتازة أيضًا. بالطبع أُنجِز بعض ملكية الأراضي بطرقٍ مشكوك في أمرها، إذا كنتِ تفهمين ما أعنيه».

قلتُ: «لا أفهم ما تعنيه».

سحب نفسًا عميقًا مرة أخرى، لبس قبعته من جديد، وتنهد ثلاث مرات على إيقاع المارش العسكري «Rákóczi-Marsch» التي كانت تُعزف لتوها ثم مال نحوي: «هذا له علاقة بما كان والداكِ مهتمَين بأمره. بالطبع هناك فراغات، سأقول لكِ، المنزل الذي تعيشين فيه... (تنحنح ولكن بدأ في التحدث في موضع آخر من جديد) لأن المنجم كان تحت قيادة قوات من البلدة، الذين ظلوا يراقبون الكونتيسة باستمرار. وكان لدى كل شخص أشياؤه المتراكمة الخاصة به جراء تلك الأزمة التي نشأت في ذلك الوقت».

احتجتُ لبضع لحظات لتنظيم هذه الكومة الفوضوية التي أحدثها.

- هل أفهمكَ بشكل صحيح، أن الكونتيسة لم تكن قط من النبلاء؟
- أنصتي، هذا الذي أحكيه لكِ، ولكي أكون صادقًا، إنه ليس على سبيل المصادفة. كل شخص في البلدة يعرف أنكِ تشممين وراء المعلومات. لا تجعلي ذلك لافتًا للنظر بشكل واضح، إنني أنصحك.

جذبتني تلك المباشرة، ولأول مرة شعرتُ أن أحدًا يتحدث معي حقًّا. قلتُ وأنا أميل تجاهه: «يا عمدة، أعرف جيدًا أنني في منطقة رمادية. ولكن الأمر كذلك: أنا أعتقد أن والديَّ كانا يقتفيان أثرًا ما، وربما... (تمعنتُ النظر لآخر مرة فيما يجب عليَّ التحدث إليه بصدق، وقررتُ أن أحاول ذلك) انظر، والداي كانا في الليلة التي تسبق الحادثة في القصر. أليس هذا مصادفة غريبة؟».

بدا العمدة الآن كما لو أيقظه أحدٌ فجأةً بعد ليلة مخمورة، اعتدل في جلسته وتنفس في صعوبة. قال هامسًا، على الرغم من أنه كان للتو يقرع بالنوتة نفسها في كلامه ويرمي إلى الهدف نفسه: «ما الذي ترمينه إلى كونتيستنا بهذا الكلام الغريب؟ ما الأعصاب التي لديكِ لتصرحي بذلك بينما أنا أجلس في العلن بجانبك؟ لا بد وأنك أخطأتِ فهمي».

ثم فجأةً توجه إلى الحبل أسفل الجاكتة، كما لو كان قد قال الكثير. مضى الحديث وانتهى. وفي واقع الأمر لقد نهض، وتصافحنا، كما لو كان وداعًا، ولم يكن أيٌّ منا سيغادر الحفلة. ولكنه سار ناحية سارية مايو التي انتصبت على نحو مفاجئ.

***

في عام 1802 أجرى «توماس يونج» تجربة الشق المزدوج لأول مرة: وُضع سلاح الإلكترون[1] أمام حاجز بشقين وأطلق الجسيمات عليهما. الشيء المثير للدهشة في ذلك الأمر ليس فقط رؤية موضع سقوط الضوء خلف الشقين، ولكن أيضًا بجانبهما -كخطوط من نمط تداخل الموجات. كان هذا مؤشرًا قويًا على ازدواجية الموجة- الجسيم، تتصرف الإلكترونات كجسيمات فردية وكتذبذبات دورية. والأكثر من ذلك، أنه من الواضح هناك إمكانية للجسيم الفرديّ على اتخاذ كلا الطريقين في الوقت نفسه، الوجود في مكانين، أي كسر الزمن، كان على المستوى الجزئيّ حقيقة. كما أن كاشفات الجسيمات سلطت الضوء على الأكثر إثارة للدهشة. إذا استُخدم جهاز يُدوِّن إلى أي شق انطلق الجسيم مسرعًا، فإن الجسيمات حينها ستأخذ طريقًا واحدة فقط وسيختفي نمط تداخل الموجات. أما إذا مُنح للإلكترونات حريتها لكسر القوانين الفيزيائية بشكلٍ مخفيٍّ، لفعلوا ذلك أيضًا.



(1) عبارة عن مكون كهربائي ينتج شعاعًا إلكترونيًا ضيقًا ومتناسقًا، له طاقة حركية دقيقة.

15

في أوائل شهر سبتمبر اجتاح منطقة «هوخ فيكسل» الطقس المصاحب للمنخفض الجوي وجلب معه رذاذ المطر الذي دام مدة أطول مما كان خلال السنوات الستين الماضية. بعد صيف حار بشكل لا يُطاق، حيث كنا محمومين مع الأرض والنباتات العطشى، كان ذلك الطقس بمنزلة ارتياح لنا جميعًا. لمدة أسبوعين تقريبًا كانت قطرات المطر ترش الطبيعة، التي اغتُسلت مرة أخرى من رياح موجات الضغط على قمم الصخور. لهذا السبب نادرًا ما كان الناس في البلدة يدركون شيئًا حول هذا الموضوع، فقط في الأيام الصافية ظاهريًّا كان لا بد من تشغيل مماسح زجاج العربة الأمامية ولا بد من التحرك بعناية أكبر قليلًا على الأسفلت في الحذاء المصنوع من الجلد الحقيقيِّ، لأن البِرك الناتجة عن المطر لم تعد تتبخر. إضافةً إلى أن رؤية محل الجزارة المرتفع لم تعد شيئًا مُقلقًا ولو بصورة ضئيلة. ضاعت الأضواء الناتجة عن الانعكاس العشوائيِّ في الهواء المتشبع ولم تقدر على الفرار من الضباب. الناس تعتقد أن ذلك هو طقس الخريف الذي كانوا يتلهفون إليه خلال فترة الصيف الطويلة والحارة، طقس ينتمي إلينا، إلى البيت، يقولون هذا الطبيعي.

ولكن أسطح الأرض، والمساحات الشاسعة للمروج، والغابات، والتربة المهروسة من الآلات أسفل المباني، كل هذه امتصت في أثناء هذا الوقت الرطوبة من الهواء في أساريرها العطشى بشكل أسرع مما فعلت سابقًا في ذلك الوقت. على بُعد خمسين كيلومترًا كان نهر «الشفارتزا» قد اقتحم الشاطئ وأغرق بدرومات المنطقة المحيطة له تحت المياه، التي حمل الناس

منها على عجلِ عبوات ويك[1] وطاولات تنس الطاولة. دون أن تعلم جروس أينلاند عن ذلك شيئًا.

في منتصف الشهر كانت التربة تحت المدينة قد شربت المياه أكثر من سعتها، وعليه فمع بدايات رذاذ شهر أكتوبر بدأت النباتات الأولى، العشبية والرقيقة تموت غرقًا تحت نعالنا.

لهذا السبب لا بد لضغط المياه أن يتسرب إلى الأسفل، لطبقة أعمق، وقد كان، كما تبين لاحقًا في تقرير للخبراء، في الثاني من نوفمبر تقريبًا، في العمق أسفل الساحة الرئيسية، في جنوب شرق القناة العمودية الضخمة، انكسر واحد من الحوائط الحجرية الرقيقة للغاية التي صُنعت عن طريق الحفر في أوقات المنجم. لم يعد الحائط يقوى على احتمال المياه. الصدع، الذي امتد بصورة نصف مائلة من المقبرة إلى الساحة الرئيسية، لم يؤدِّ مباشرةً إلى انهيار الضواحي، لأن حواف الطبقات الصخرية كانت لا تزال فوق بعضها بعضًا. وهذا بدوره أدى إلى أن المياه قد تمكنت أخيرًا من الدخول إلى هذا الشق ووضع الصخور في حالة مؤسفة نتيجة لتزايد الضغط. تمزقت الوصلات الليفية التي تشكّلت على مر ملايين السنين، صار أساس الجبل المستقر منذ حقبة الحياة الوسطى[2] منتفخًا مثل منطقة تعاني من الوذمة[3]. بعبارة أخرى، بعيدًا أسفل سطح الأرض، التي نمشي فوقها بلا مبالاة في روتيننا اليوميِّ للعمل وننفض عن سُتراتنا المضادة للمطر قطرات الرذاذ، كان يسبح كل شيء.

***

بدأت أحداث الرابع عشر من نوفمبر بالنسبة إليَّ، عندما استيقظتُ في نحو الساعة الرابعة صباحًا لأول مرة على صوت قرقعة حادة. سرتُ بسرعة عموديًّا وكنتُ للحظة في حالة تأهب، قبل أن أستوعب أن هذه الضوضاء كانت تنبعث من النافذة. في هبوب الرياح المفاجئة الشبيهة بالإعصار كان شيش

---

(1) تستخدم في التعليب وحفظ الأغذية.

(2) العصر الذي عاش فيه الزواحف الكبرى قبل 248 إلى 65 مليون سنة.

(3) هو احتباس السوائل في الجسم مما يؤدي إلى انتفاخ.

النافذة الخارجي مفكوكًا وينقر على عِصيها بصورة هوجاء عصبية، كما لو كانت تتوق إلى الدخول إلى منزلي. مسحتُ النوم من عيني بسطحية وفتحتُ النافذة لأعيد تثبيت الأغطية في القضبان المعدنية التي خلّصت نفسها منها. في الخارج كان يسود جو من الأعاصير الهوجاء، وللحظة شعرتُ بأن الرياح التي تدفع بالرذاذ في شعري، سوف تُمسك بي أنا أيضًا وتُلقي بي في العراء. لاحقًا غرقت تلك اللحظة من الخوف في الضباب، إذ عدتُ لأستلقي من جديد في السرير ورحتُ في نوم عميق، لدرجة أنني عندما استيقظتُ في المرة الثانية في نحو الساعة الثامنة صباحًا تساءلتُ عما إذا كنتُ قد حلمت. لم أكن أحلم، حتى الآن كان لا تزال تنبعث هابطةً من جبل «برونينكوجيل[1]» الغائم بالسحب عاصفة قوية. أسرعتُ في ارتداء ملابسي بعد إدراكي أنني قد تأخرتُ قليلًا.

في الوقت نفسه بالضبط الذي ارتديتُ فيه سروالي، أي في الساعة الثامنة والنصف، بدأ موقع البناء القريب المجاور للكنيسة في العمل كما يحدث كل يوم. طوال شهر أغسطس كنتُ بالفعل غاضبة من ضوضائهم، وفي سخطي هذا لم أر التجديدات، لهذا السبب فإن كل معرفتي عن شغلهم كان فقط عن طريق حكايات الآخرين. كان كل طفل يعلم أن برج الكنيسة ظل يميل شيئًا فشيئًا على مر السنوات. منظر يدعو إلى الأسف، *كما لو تُرك من قِبل الرب*، هكذا قال الناس، ومما لا شك فيه أن من بين جميع ما بُني بمثل هذا المصير كان البرج أول ما يجب أن يُقوَّم، إذا ما رغب الناس في الحصول على نعمة الخلاص لباقي البلدة. من المقرر أن يُكشف عنه مرة أخرى في قداس عيد الفصح في العام القادم في موكب مهيب ومن ثم ستظل ملفوفة بغطاء طوال هذا العام لأجل تنصيبها.

هناك كان يسير رئيس العمال من شركة البناء المحلية كل صباح إلى العمل ومعه أربعة عشر عاملًا مؤقتًا، الذين طالما ما كانوا يؤجَّرون لأجل المشروع.

(1) جبل في النمسا.

كان في العمل أربعة رجال من «كوسوفو[1]»، ستة من «سلوفينيا[2]»، وأربعة آخرون من «البوسنة». صحيح أنهم عملوا معًا خلال الأسابيع التسعة الماضية، ولكن لا يزال لديهم مشقة في إيجاد لغة مشتركة بينهم. صاحوا بالأوامر بأربع لغات مختلفة من الأسفل نحو البرج وعادوا من جديد، حيث ظلت في النهاية اللغة الألمانية هي المُهيمنة. في نحو الساعة 9:45 صباحًا كان العمال الستة على السقالة يبدؤون في إزالة الواجهة التي كانت قد أُقيمت بالفعل. غطَّت ضوضاء البناء على أصوات البلدة المتضخمة، حيث بدأ الناس في كل مكان فيها في السير إلى العمل. كما هو الحال في كثير من الأحيان أُغلقت الأبواب في القصر مرتين. وعلى الرغم من أن النهار بدا في الخارج مشمسًا وواضحًا، بالكاد يخلو من السحب، فإن الناس قد لاحظوا عند خروجهم الطقس الرطب البارد، الذي بدا أنه ينبعث من الأرض، والقطرات العالقة في الهواء، رغب البعض في التسلح ضدها بطريقة تبدو جنونية عن طريق المظلات والبعض الآخر عن طريق الأحذية المطاطية.

في نحو الساعة التاسعة كنتُ قد أصبحتُ في طريقي إلى العمل والوثائق التي كنتُ أحملها معي قد وضعتُها في جرابٍ بلاستيكيٍّ إضافيٍّ. كانت الأوراق دائمًا ما تصل في الأسابيع الأخيرة إلى حالة فظيعة -رطبة كما لو كانت مطبوخة بالبخار- وفي بعض المواضع كانت تذوب حروف كلمة ما بداخل المجاورة لها. أتذكر بوضوح ذلك اليوم، إحساسي ببلاستيكية يدي، ورطوبة أطراف أصابعي كشيء ليِّن، عندما رأيتُ في طريقي شيئًا غير عاديٍّ: على الساحة الضخمة في شرق المدينة تجمَّعت مجموعة من الناس، كان يمكن رؤيتهم بالفعل من على بُعد، قبل أن أنضم إليهم بالفعل. في عشية وضحاها كان تمثال «بيرجر هانس» المنصوب في ذلك المكان الذي كان في وضعية الغازي يُشير بيده الممدودة إلى الأرض، صار مائلًا على جانبه على وشك السقوط. كانت قاعدته غارقةً بداخل أحجرة الرصف، ونقل الاتجاه الهابط إلى الأسفل بوضوحٍ، ما هو موجودٌ أسفل السطح: الوحل. منظر الطين، المتشقق

(1) دولة معترف بها جزئيًا، تقع في جنوب شرق أوروبا، وهي موضوع نزاع إقليمي مع جمهورية صربيا.

(2) دولة تقع في أوروبا الوسطى.

بالأبيض واللزوجة من الجير، قد حرَّكني أكثر مما ينبغي. والآن طغت وضعية التمثال عليه، لأن اليد، التي كانت تشير طوال مئتَي العام الماضية إلى الجبل، صارت الآن بسبب الميل تشير عموديًّا إلى المدرسة الابتدائية. تابعتُ سيري في تشتت وضياعٍ، كحال باقي الحشد، الذي انحلَّ في التو. كنا معتادين على الانهيارات اليومية. وأيضًا لهذا السبب، يُمكن أن يُقال لاحقًا، لم يصدر أي إنذار بالعاصفة، لأننا صرنا جميعًا نقاوم ذلك الخراب المتواصل. في أثناء ذلك كانت الرياح، كما سنفهم لاحقًا من الجريدة، قد تضخَّمت بوحشية في جميع أنحاء البلدة منذ ساعات الصباح الباكرة، لدرجة أنه بحلول الظهيرة عند الساعة الثانية عشرة كانت قد تكسَّرت بالفعل أربع عشرة نافذة. كان أصحاب المنازل يكنسون الشقف في صمتٍ تام ويُثبِّتون الإطارات التي جُن جنونها بشريط لاصق في عِصيها، وكان كل واحد منهم مُقتنعًا بأنه هو الحالة الوحيدة ويتجاهل حقيقة أن الدمار كان منسقًا. هوت شجرة بلوط عمرها مئتا عام في شارع «بيتهوفن» وبصعوبة تجنبت سيارة رياضية مركونة، مما جعل صاحب السيارة يعتبر هذا الحدث حظًّا كونيًّا.

ظل القصر كما هو دائمًا لا يُمس أبدًا. فلا إعصار يُمكن أن يجتاح هذه الجدران الحجرية التي يبلغ سُمكها مترين ونصفًا. فقط الشجيرات كانت تميل بعنف، وشجرة «يوكا» مُقتلعة مررتُ عليها في الفناء، عندما كنتُ ذاهبة إلى العمل. كنتُ أعمل بلا انقطاع حتى الساعة الثانية ظهرًا، فقط بين الحين والآخر كان ما يقاطعني هو مهامي الخاصة. كان الشيء الغريب هو: فقط في الرابع عشر من نوفمبر، ولكن ربما كان قبل ذلك، كنتُ قد عاهدتُ نفسي على أنني لن أحتمل بعد الآن لحظات شكوكي لنفسي. بينما كنتُ أُقلِّب في الأوراق من جديد لساعات طوال بلا فائدة، قررتُ حينها، أن اليوم هو اليوم المأمول. ولهذا السبب كان عليَّ البقاء مدة أطول بشكلٍ استثنائيٍّ. في نحو الساعة الخامسة مساءً، عندما تصل الكونتيسة إلى غرفة عملها، سوف أذهب إليها وسأتحدث معها عن ذلك. منذ ذلك الحين لم أستطع البقاء هادئة، نهضتُ وشربتُ خلال الساعات التالية على وجه الإجمال خمسة أكواب قهوة، لكي أدفع الوقت.

بين الساعة الواحدة ظهرًا والرابعة مساءً لم يحدث شيء يستحق الاهتمام، ما عدا الاجتماع المهم من ناحية التأثير الذي انعقد في موقع البناء. استطاعوا إنجاز أهدافهم كافة تقريبًا وفقًا لخطة اليوم، ولكن كان تحت ظروف مُعيقة وثقيلة، طوال اليوم كانت الرياح تجتاح أقمشة المشمع، أسفلها كان المعجون والحفر بالإزميل، وسرعان ما تسرب المطر الذي لا يرحم بداخل قمصان العمال. شخصٌ أو آخر رغب في إنهاء العمل في وقتٍ مبكر أكثر، ولكن كما ستؤكد اللجنة المعينة لاحقًا، فقد حدث ما هو عكس ذلك.

بعد الظهر، في نحو الساعة الثالثة والنصف مساءً، أعلن رئيس العمال المسؤول عن تجديد برج الكنيسة «كارل لايتجب» عن الاستراحة وأُنزِل الرجال الأربعة الذين كانوا لتوهم على السقالة. استظلوا في سرداب الكنيسة وتشاوروا في صوت هامسٍ حول مواصلة المضي قدمًا، كان موضوع الاجتماع الصغير هو تأخر العمل بشكل ملحوظ نتيجة لعوامل مختلفة. لهذا السبب سأل «لايتجب» عما إذا كان الرجال مستعدين للعمل اثنتي عشرة ساعة بدلًا من ثماني ساعات خلال الأربعة عشر يومًا القادمة مقابل أجرٍ إضافيٍّ. وافق جميع العمال على العرض باستثناء واحد، كان يأتي ويعود يوميًا إلى «سلوفينيا» ولم يستطع تخصيص الساعات الإضافية، ثم عادوا من جديد إلى العمل بعد استراحة قصيرة. ولكن في هذه المرة كانوا يرتدون درعًا، فالرياح على ارتفاع ستة عشر مترًا فوق المنصة الخشبية جعلت البقاء بلا حماية خطيرًا للغاية.

عندما بدأت ساعات العمل الإضافية للعمال المستأجرين، رن جرس نهاية اليوم الدراسيِّ للفصول الأكبر لمدرسة الجيمنازيوم القريبة، حيث فر طلابها منشرحي الصدر من زوال عبء محاضرة ما بعد الظهر. في هذا الوقت انتزع إعصار قمعي[1] تسعة أطباق للأقمار الصناعية من المباني السكنية الموجودة في شارع الجمعية التعاونية، واقتُلعت من أربع عشرة إلى عشرين شجرة تنوب ودفع بقطة إلى بالوعة تصريف المياه، التي انتشلها بصعوبة وجهد عشرة من رجال الإطفاء المتطوعين. عندما لُفَّت تلك القطة نفسها، التي كما سنعلم من الجريدة المحلية، أن اسمها «سميرة»، في منشفة وسُلِّمت إلى

(1) عاصفة هوائية عنيفة تتميز بغيمة مخروطية دوارة.

مالكيها السعداء، اجتمع الأطفال في نقطة الالتقاء عند المدرسة الابتدائية، ليمشوا في مسيرة المصابيح الفانوسية[1].

والشيء النادر الذي سيتذكره عدد كبير من المشاركين هو كيف أننا كنا مضطرين أولًا إلى ارتداء أحذية مبتلة من الداخل بالفعل، فقد كانت تمطر باستمرار لعدة أيام، لدرجة أنه لم يكن أحدٌ يملك زوجًا جافًا من الأحذية. في نحو الساعة الخامسة والربع مساءً تجمَّع نحو أربعة عشر تلميذًا من الابتدائية مع أولياء أمورهم أمام الكنيسة. كان الأطفال يتحركون بعصبية إيابًا وذهابًا، كان لديهم شعور بالواجب المهم، بل تكاد تهتز الأرض من أهميتها، التي تتمثل في حملهم لفوانيسهم، بينما كان الآباء على ما يبدو في مزاج أسوأ بكثير. فقط منذ ساعات قليلة كان قد لاحظ الكثير منهم الأضرار التي لحقت بمنازلهم، التي لا يزالون لا يعلمون أنها قد حلَّت بالجميع تقريبًا. لذلك غرقوا في صمتهم غاضبين وقَلِقين بشأن الموعد الذي يجب أن يتم فيه الترميم.

سطع ضوءٌ باهرٌ في الشارع من نزل «تسوم كوربِس»، حيث التجأ المشتبه بهم المُعتادون بعد العمل إليه. وكان الكاهن قد وُضع له الروشيت الأبيض[2] فوق رداء الكهنوت الذي كان مبتلًا من المياه الخفيفة، وكان يصافح أيدي الأطفال بالتناوب. سيكون الموكب عبارة عن جولة تمتد لنحو ساعة، بدايةً من كنيسة القسيس مرورًا بحارة «البئر» ثم يمرون على البوابة الغربية القديمة عبر وسط المدينة بأكملها، حيث ستُختتم بتمثيلية لقصة «القديس مارتن» في ساحة «بيرجر». لأول مرة منذ مئة وخمسين عامًا كانت ساحة السوق في حالة سيئة للغاية لكي يُقام فيها مآثر «القديس مارتن». كان الجميع يكافح بصعوبة لإضاءة فوانيسهم المصنوعة بأنفسهم يدويًا تحت ظروف الرياح العاتية، ظل الهواء يهز -إذا لم يُطفئ أصلًا الولاعات على الفور- الفوانيس بعنف مرارًا وتكرارًا. والأطفال كانوا يمسكون بعِصيهم بقبضة متصلبة، حيث كانت حركة الرياح الوحشية تحاول سحبها من أيديهم.

---

(1) هي مسيرة تحدث في الخريف وفيها يمشي الأطفال من منزل إلى منزل ومعهم فانوس ويرنمون ترانيم القديس مارتن.

(2) رداء يشبه قميصًا دون ياقة يصل تقريبًا إلى ما فوق الركبة.

في تمام الساعة الخامسة والنصف ظهرتُ في حجرة مكتب الكونتيسة ووجدت الكونتيسة، كما هو متوقع، جالسة على مكتبها أمام حائط الكتب. على العكس من مكتبي المُطل على الفناء، كانت الرياح لا تُسمع من غرفتها.

قالت الكونتيسة: «تفضلي، تُحدثين ضجة كما ينبغي في أثناء الدخول».

كما هو الحال دائمًا عندما تنتقد الجزء الأتفه في تصرفاتي فأحمرُّ خجلًا.

قلتُ في أثناء دخولي: «لدي شيء لأتحدث بخصوصه معكِ».

وأشرتُ كما لو أنه برهان، على كومة من الأوراق، التي حددتها حينئذٍ فقط على أنها الأوراق الخاطئة. كانت قائمة بالمشتريات والتوابل للصالون القادم، وسرعان ما أسقطتُ يدي.

قلتُ وشعرتُ بشيء يحتدم في ضفيرتي الشمسية[1]: «أريد التحدث معكِ بشأن قضيتين متناقضتين تشغلان بالي منذ فترة طويلة. إنه بخصوص عدد سجناء معسكر الاعتقال النازي وأماكن وجودهم».

كما لو كنتُ قلتُ شيئًا مثيرًا للاهتمام ولكن في الوقت نفسه غريب، نهضت الكونتيسة من مكتبها واقتربت مني، وهي مثبتة بصرها عليَّ.

قلتُ وسحبتُ ورقة: «هنا، في يوم الاثنين من عيد الفصح عام 1945 قُتل ثمانمئة شخص ودُفنوا، وألف ومئتا شخص آخرين ماتوا في مسيرة الموت. ولكن عُثر على أربعة وثلاثين شخصًا فقط وعند النظر في المحاكمات...».

قالت الكونتيسة: «لحظة. المكان صاخبٌ هنا قليلًا، ألا تعتقدين ذلك؟».

وبدأت في إحداث ضوضاء غير ضرورية ولوقتٍ طويل لإخراج كأس صغيرة من أحد أدراج مكتبها، وعليها شعار دير «ميلك[2]».

قلتُ: «وهنا، وثيقة تقول إنه بعد أربعة أيام أيضًا أُخرِج هيكل طائرة من المصنع، أي أن ذلك حدث، كما يُزعم، بعد إخلائه. السؤال كالآتي، ما الذي حدث مع السجناء؟ وأنا أظن، (شعرتُ بالحرارة تصعد في رأسي) أنك لا بد وتعلمين ذلك، لأن المصنع مِلك لأبيكِ».

---

(1) شبكة معقدة من الأعصاب تقع في البطن.

(2) دير تابع للرهبنة البندكتية يقع في بلدة ميلك، النمسا.

كانت الكونتيسة تُلمِّع الكأس بقطعة قماش بكل هدوء، كما لو كانت دليلًا مهمًّا يخص الموضوع المطروح للتو، ثم ملأتها حتى الحافة بخمر الصنوبر. قرأتُ أسفل ملاك عارٍ كان مطبوعًا فوق الزجاجة: «***في الزمان والأبدية***».

قلتُ من جديد بصمودٍ: «على أي حال، أرغب، قبل أن أواصل من جديد أبحاثي بشأن المادة، في توضيح بعض الأمور. منذ أكثر من سنة وأنا أعمل لديكِ الآن، وبالنسبة إليَّ فمعرفة حقيقة الأمر تُعَد التزامًا أخلاقيًّا. بالإضافة لذلك فإن نتائج القياس لا تتوافق مع البيانات الرسمية. سأحب أن أُجري زيارة في مكان الحادث، في الهياكل، في المسارات، باختصار... (سعلتُ من السرعة) في الحفرة».

ثم خلد كلانا إلى الصمت.

قالت الكونتيسة أخيرًا ولكن بهدوء شديد جعل من الصعب فهمها: «اسمعي، ليس لدي أي فكرة عما ترغبين في التفاوض بشأنه هنا. إلى الآن لم تسألي شيئًا على الإطلاق، كيف يمكن لأحد أن يجيب إذن؟ (رفعت الكأس وتجرعتها على دفعة واحدة إلى أن صارت فارغة. كان ضوء الثريا يلمع على جبينها المائل للخلف). لا يسعني إلا أن أقول الكثير عنها. أولًا لقد كانت أوقاتًا فوضوية، أوقاتًا سيئة، بالتأكيد، ولكن قبل كل شيء ففي مثل هذه الأوقات لم يكن قد أُنجزَت أي وثائق. حسنًا، إنها مجرد كلمة مقابل كلمة، ما الذي يجب فعله. الموضوع التالي».

لم يُرَد على شيء، والغضب من عدم الاحترام ذلك جعلني أتمادى في الموضوع.

- لا بد لي من الإصرار مرة أخرى. (بدأتُ أرتعش) لأنني أجريتُ كثيرًا من الأبحاث عن البلدة ووزعتُ الأملاك خلال الأشهر الماضية، وأنا أعتقد أن والديَّ أيضًا كانا يحققان في مثل هذه المسائل كما أفعل الآن. هل مسموح أن أسأل عما إذا كانا قد ناقشاكِ شيئًا من هذا النوع؟

- الشيء الذي ربطني مع والديكِ كان الصداقة.

دون أن تسأل دفعت الكونتيسة نحوي بكأس ثانية من الخمر فوق الطاولة.

- لماذا صارت قطعة الأرض المجاورة لمنزلي، التي كانت تخص أجدادي من ناحية والدي، ضمن ملكيتك؟ (مباشرةً تابعتُ قائلةً وقد صرتُ أكثر جرأةً) هذا سؤال عام. لأن في نحو عام 1930 كان لا يزال معظم الناس يملكون أراضيهم بأنفسهم. كيف صارت جروس أينلاند عبارة عن عنوان واحد؟
- يا له من سؤال غبي. كل شخص يملك سببًا آخر، قصة أخرى. كيف يجب إذن أن يُجاب بمثل هذه البساطة؟
- ما أدهشني هو أنه...

قطعت حديثي: «ما استثمرته عائلتي في هذه البلدة لا يُقاس. وأنتِ تفترين على أعز ما لدينا لتستفيدي منه أنتِ، أيتها الآنسة الشابة، أي اجتهاد في إعادة البناء؟ هراء! كلام به جحود».

قلتُ: «لا، أنا لا أفتري على أحد».

ولكن الكونتيسة بدت أنها لا ترغب في سماع المزيد.

- ربما لديك ببساطة أوهام مرضية من مخدراتك؟ هل تعتقدين أن الصيدلي لم يخبرني عن إدمانك الصغير؟ مِن مَن، قد تظنين، أنه يطلب «الأوكسيكودون» الخاص بكِ؟

للحظة ساد الهدوء.

همستُ: «أنا أعاني من مرض، أنا...».

- تحدث والداكِ بالفعل عن هذه المشكلة وأنهما بالكاد تحدثا معكِ خلال السنوات الماضية. لا أستطيع أن ألومهما.
- كيف تجرئين هنا على استخدام والديَّ ضدي؟

صرختُ على نحو مفاجئ في ثورة غضب مفاجئة: «ولكن إذا كان لديكِ بالفعل إجاباتكِ».

كنتُ قريبة للغاية منها، لدرجة أنني حملتُ عطرها السُّكري الثقيل في أنفي كما لو كان من أموري الخاصة.

- اسمعي. أنتِ تأتين إليَّ، لكي يُوافَق من جديد على صياغاتك الخاصة، والقديمة التي لا جدال فيها. دون أن يكون لديكِ أي فكرة عن مدى

تعقيد الموضوع. وأنا سأسألك شيئًا واحدًا: هل سبق أن أوقفكِ أحدٌ عما تفتشين عنه؟ أم أنك رغبتِ فقط في فعل ذلك بالطريقة السهلة؟ تحصلين على كل شيء على الجاهز؟ (بدأت تسير في المكتب) أنتِ أصلًا لا ترغبين في معرفة شيء. (قالت وأشارت بإصبع السبابة المرفوعة نحو وجهي كما لو كانت تثبت ذلك) وابتكار حكم على هذا الخليط من الحقارة المثير للاشمئزاز في كومة أوراقك، لهو شيء -أيتها الحالمة- خاطئ لا يؤدي إلى هدف. أنتِ تلاحظين مع ذلك أن كل شيء يمكن أن يُوضع فوق بعضه بعضًا في طبقات ولا يمكن غسله مرة واحدة. بالطبع أنا أعرف الإجابات. الإجابات، الإجابات. (كانت تلوح بيدها في الهواء) ومع ذلك فهذا لن يُرضيكِ. فهي لن تكون تلك القصة المثيرة، التي ترغبين فيها بشدة، أجل، هل تظنين أنه لم يُنقل لي أنك تحملين إلى منزلك المستندات السرية؟ في الحياة ليس كل شيء أبيض وأسود. يتعين على بعض الناس اتخاذ القرارات.

عادت للجلوس مرة أخرى إلى الطاولة كما لو كانت تهيم في أفكار ثقيلة. كنتُ في حالة هذيان. تابعتْ: «هذا هو ثلج الأمس[1] الذي تغرقين فيه مخمورةً، بينما تغلقين عينيك أمام المشكلات التي تواجهنا حاليًا. أنانية! سمة نموذجية لهذا الجيل. (أوشكت كلماتها أن تبدو كاحتقار، كما لو كان استفزازًا متعمدًا) ولكن انظري، إذا كنتِ حقًّا تأخذين هذا الأمر بجدية حقيقية، فلن يوقفك أحدٌ. اذهبي ببساطة إلى برج المياه أسفل ساحة «بيرجر» وتحققي بنفسك ما إذا كان هناك شيء. ولكن حتى ذلك لن تفعلي. (وإيماءة ازدراء من يدها صاحبت جملتها النهائية في هذا الموضوع). أنتِ تنشغلين بشيء مختلف تمامًا. أنتِ تنشغلين فقط بوالديكِ والتحديق الهوسي بشؤونهما. وبخصوص ذلك سأقول لكِ أمرًا واحدًا ترغبين فقط في تجاهله: كانت لوالديكِ أهداف أخرى مختلفة تمامًا عنكِ، لقد كان حقًّا شخصين شريفَين. ومهما كانت تخميناتك، فقد كنتُ أنا وهما على الموجة نفسها تمامًا».

رغبتُ في أن أُجيب بشيء، ولكن كنتُ كما لو أصابني شلل.

- أرجوك. يجب أن أعمل الآن، غدًا موعد الصالون.

(1) Schnee von gestern: تعني حقائق أو أشياء لم تعد تهم أحدًا.

وعند هذا جلستُ من جديد إلى مكتبها ونظرت في المستندات. عندما عدتُ إلى مكتبي لآخذ معطفي، رأيتُ للمرة الثانية نبات الأصيص الموجود أسفل التراس يُلقى به بعيدًا. لاحقًا هبط نبات التين ذلك، الذي كان محمولًا من قِبل دوامة الرياح التي توشك أن تكون إعصارًا، بالضبط فوق سيارة ليست ببعيدة عن الكنيسة، حيث لاحظ العمال سقوطها. في ذلك الوقت بالضبط كانوا يأكلون وجبة عشائهم في البرج، ثلاثة أرغفة من السجق والكبد المفروم لكل واحد منهم، وبدؤوا في العمل الليليّ. ولكنهم انحنوا للحظة من فوق الغطاء المحيط بالبرج ليروا الفوانيس، البعض فكر في أطفاله في المنزل، والبعض الآخر أُعجب فقط بهذه المسرحية، الطريقة التي يُحمل بها وعاء السر المقدس من المبنى.

بدأ تلاميذ المدرسة الابتدائية المُكتملون العدد أخيرًا في الانطلاق في الموكب، على الرغم من إصرار الكثير من الآباء بالفعل على أنه من الأفضل تأجيل هذا الأمر بسبب المطر. رفض القسيس. ونتيجة لذلك فقد ساد غضبٌ غير محدد بين المشاركين، فلا أحد يرغب في وجود أطفال مرضى في اليوم التالي في المنزل. ولكن لم يستطع أحدٌ أيضًا إفساد الحفل عليهم، ولذا بدأ الموكب المُتجهم في الحركة، وعلى رأسه كان القسيس وستة من الأيبودياكون[1]. كانت الرياح تعصف مُصدِرةً دويًا بين المنازل التي كانت تُضاء أنوارها بالتوالي. حملت الطبقات الهوائية المختلفة للزوبعة ترنيمة القديس «مارتن» وأنا أتفكك في كل الجهات مع فانوسي، مما جعل ترددات بعض الموجات الصوتية تطير إلى الجانب السفليّ من البلدة كما لو كانت على أجنحة وابتلعت موجات أخرى مباشرة من أفواه الأطفال بعيدًا. في نحو الساعة السادسة مساءً علق لحن أشعث فوق المدينة بأكملها، ولأنه كان متفككًا للغاية، تساءل الجميع متعجبًا في كل مكان عن هذه الضوضاء، يا له من نسيج صوتيٍّ غريب متكوِّن من أصوات الأطفال وعويل الرياح يحوم حول البيت. لاحقًا أقرَّت الممرضة إلفريده، التي كانت في تلك اللحظة تُسلِّم الحساء إلى كبار السن في المدينة، أن الأصوات بدت وكأنها أسطوانة مشروخة، لأن

(1) مساعد الشماس والكاهن في الكنيسة، وهم أطفال صغار السن، يجلبون البخار أو رنين جرس المذبح.

الأطفال كانوا محشورين في مشمع المطر مثل خضراوات ملفوفة بإحكام في أكياس البلاستيك. كان من المستحيل على الأصوات أن تفر من أكياس البلاستيك، كانت مدهوشة من أن الأطفال أمكنهم الحصول على الهواء أصلًا.

من جديد أوقف العمال المُعلَّقون على السقالة شغلهم للحظة ووجهوا كشاف الجبهة[1] إلى الشارع لرؤية موكب الأطفال المُضاء بألوان متعددة وهو يختفي. كانت قطرات المطر التي تزداد ضخامة بمرور الوقت تُثقل عليهم العمل على الواجهة، لهذا السبب أصدر رئيس العمال أمرًا بتركيز جهودهم خلال الساعات القادمة على الإزالة.

في أثناء حدوث كل هذا، كنتُ في منزلي مرتديةً الحذاء المطاطيَّ، في الوقت الذي انتشلت فيه قاطع البراغي من الجراج، كنتُ قد حشرتُه في حقيبة الظهر مثلما وضعتُ كشاف اليد، قبل أن أندفع راكضةً. عند تقاطع حارة «يوهان» وحارة «البئر» قابلتُ الجمهور المُترنِّم في انعطافهم إلى شرق المدينة، وسرتُ منحدرةً مارةً بحصان أبيض كان متوقفًا في حارة جانبية لأجل المسرحية التي ستُقام لاحقًا. لم ألتفت إلى ضحك الأطفال المُشوِّق، ولا إلى الكواليس التي تهب عليها الرياح، ولا إلى الناس الذين يمدون رؤوسهم من منازلهم ليظفروا بنظرة من المسرحية. في أثناء رغبتي في الوصول إلى الجانب السفليِّ من البلدة كل ما كنتُ أشعر به حينها هو الغضب من التأخير، وأن البلل البائس بدا أنه يتسرب إلى نسيج ملابسي. عندما هدأت الأصوات من جديد وكنتُ قد وصلتُ إلى المدخل السابق للحجرة الأرضية الرئيسية، كانت الساعة قد تجاوزت السادسة والنصف بالفعل. كل شيء غارق في الظلمة، لمع الباب الخشبيُّ المبتل بزخارف مفاصله الحديدية أمام كشاف اليد المخروطيِّ. على الرغم من وجود جنازير ثقيلة أمام غطاء الحفرة، فقد انسلت لأنفي كلما اقتربتُ رائحة الأرض الثقيلة والعطنة الدافئة، التي أعرفها من الأقبية الطينية القديمة. ثم بدأتُ بالعمل على الأقفال باستخدام قاطع البراغي.

في الوقت نفسه تقريبًا جلس صبي الجزارة «هانس بريتشنايدر» البالغ من العمر عشرين عامًا على الحصان، مرتديًا عباءة حمراء وزوجين من درع

(1) كشاف يوضع على الرأس.

القدم الحديديّ ليكون القديس «مارتن». كان لا بد من إمساك الحيوان من قِبل شخصين عن طريق عدة اللجام، لأنه كان شديد العصبية بسبب الإعصار الذي كان يضرب لاسعًا قمم الأشجار وعند نحو الساعة 6:45 مساءً، فقط عند اللحظة، التي كان من المفترض أن يبدأ عندها العرض، اجتاحت العاصفة ماسحةً صفًّا من الألواح الخشبية التي تُغطى بها الأسقف مُلقيةً به في الشارع في «الزيلبرتسايله». ارتعش الجمع.

لاحقًا ذكرت التقارير الخاصة بالأضرار الناجمة عن الطبيعة على المباني ما يلي: بعيدًا أسفل الميدان، في التجويف المنتفخ، كانت الرمال تتقاطر متساقطةً منذ فترة طويلة. وهذا يعني، أنه في ثلاثة أو أربعة مواضع في المدينة كان الأسفلت على الأغلب شبيهًا بقشرة رقيقة مضطجعًا فوق اللاشيء، متماسكًا بفعل شد المادة نفسها. مثل قطعة من الورق، مُثبتة بتوترٍ مشدود على صلابة متفككة في تحولٍ جيولوجيٍّ، تفقد ببطءٍ صلابتها الداخلية، حيث تتكسر الأرضية الخرسانية بين الكنيسة والجانب الشرقيِّ من البلدة في المطر بصوتٍ بالكاد يمكن سماعه، تحت ثقل وزن الحصان. كان نصف السكان غارقًا في سُكر ثقيل بسبب وجبة الحفل.

كانت الساعة السابعة ودقيقتين مساءً عندما رأى أحد العمال الموجودين وراء كسوة برج الكنيسة شقًّا في الجص، الذي كان يتشكل ببطء شديد وبوضوح أمام عينيه، لدرجة مكنته من تتبع الشق بإصبعه في أثناء الانشقاق. صاح مناديًا رئيس العمال، الذي كان في ذلك الوقت قد بدأ في مكالمة هاتفية مع المدير الإقليميِّ لشركة البناء، أنه لا بد له من الصعود. ولكن لم يفهم رئيس العمال شيئًا بسبب العاصفة والتفت نحو ركن ما في مبنى الكنيسة، لكي يُكمل حديثه. بلا تردد ملأ العامل الشق بالمعجون واستمر في تمليطه مرة أخرى بصورة طبيعية.

في هذه الأثناء كان الأطفال قد وصلوا إلى وجهتهم عبر وسط المدينة مع اتجاه عقارب الساعة، وبدأ عرض مسرحية حياة القديس «مارتن». في نحو الساعة السابعة وخمس دقائق مساءً كان ستون تلميذًا ونحو مئتَي فرد من الآباء، الأخوات والأقارب، يتابعون ببصرهم «هانس بريتشنايدر» الذي يؤدي دور القديس وهو يقطع عباءته إلى نصفين ويرميها من حصانه إلى الممثل

المرتدي زي المتسول. فقط بعد لحظة قليلة، عندما استدار القديس «مارتن» بحصانه في طريق عودته بعد محطته في شمال فرنسا، جمح الحصان وأوقف قصة القديس: فقد اصطدم بحوافره في أحجرة الرصف المُقتلعة والمُكسَّرة، التي كانت لتوها قبل دقائق قليلة في وضعية مستقيمة ومستوية، قبل أن تهبط في تلك اللحظة بمقدار عرض اليد. ترجل «بريتشنايدر» لينظر إلى الأرضية من كثب، وعلى الفور صاح على زملائه، كانت الأحجار تنفصل واحدًا تلو الآخر من ثباتها، كما لو كانت يد ضخمة تحت الأرض سحبت سحابًا كان يربط المدينة إلى بعضها بعضًا.

حدث ذلك، بينما كنتُ أنزلق عدة مراتٍ على العشب الرطب، وأمسكُ نفسي وأعود في آخر الأمر من جديد منتصبةً على قدمي. أدهشني تهالك الأرضية، فلم أكن قد عايشتُ من قبل مثل هذه الدرجة من التماسك النيئ. لم تكن مبللة أو صلبة، بل تشبه عجينة صلصال سميكة، عند الاندفاع نحوها، تشعر ببخار السوائل. وأخيرًا وصلتُ إلى الأبواب، رغبتُ في مصارعة السلسلة الأولى إلى الأرض، مُعلقة بكل وزني على السطح المعدنيِّ للقاطع، ولكن المقبض انثنى بأقل جهد مثل قلم تلوين. كان هشًّا للغاية، لدرجة تُمكِّن أي شخص من فصله بيدٍ واحدة. مسحتُ عن جبيني قطرات المياه، ودفعتُ الخشب جانبًا وواجهتُ الحفرة لأول مرة وجهًا لوجه.

في البلدة أوقِفت مسرحية القديس «مارتن»، وأمر القسيس كورال الكنيسة بترنيم لحن هلليلويا الختامي. ترك رئيس البناء «كاينرمولر» نافذة قصره بوسط المدينة للحظة، ليجلب لنفسه الربع الثالث من النبيذ. كان المطر يقفز مرتدًّا من الأسفلت بزاوية متغيرة على الدوام بفعل الرياح، لهذا بدا المشهد للحظات، كما لو كان المطر يرغب في تظليل المشهد من الأسفل كما من الأعلى. لم يتمكن أحدٌ من تهدئة الحصان حتى بعد المحاولات المتكررة فرُبط بالمزراب.

قال شخصٌ ما لاحقًا، إنه للحظات كان كل شيء هادئًا، لدرجة بدا معها الوقت متوقفًا. كان ذلك عند نحو الساعة 7:20 مساءً، مما يعني أنه قد مرت ثوانٍ قليلة، قبل أن يُسمع صوت تكسر مفاجئ بالقرب من الكنيسة، الذي كان مسموعًا حتى من قبل الحشد الموجود في ساحة «بيرجر». فقط بعد

لحظة واحدة دوَّت قرقعة عالية تصمُّ الآذان، متبوعةً بهديرٍ، جعل مئات من البشر ينتفضون في الوقت نفسه. بدأ الأطفال في الصراخ بصورةٍ مرعبة، عندما اندلعت غيمة من الغبار من اللاشيء سائرة فوق رؤوس المتفرجين المذعورين من الموت. تعثر العشرات منهم في أحجرة الرصف التي تحررت منذ قليل دفعةً واحدة من ثباتها، وساد بينهم الذعر الجماعيُّ، بينما كانت الرياح العاصفة بصوتٍ جهوريٍّ تدفع بقطع الطوب بين قطرات المطر. حاول كل شخص في الحشد المتدفق في جميع الجهات أن يمسك بابنه بيده ويدفعه بعيدًا عن بؤرة الزلزال. ولكن لم يعلم أحدٌ على الإطلاق من أين يأتي هذا الرعد. فقط القليل منهم، ممن كانوا واقفين عند بوابة شارع «يوهان»، ركضوا مباشرةً إلى المكان الذي تنبعث منه تلك الرجَّة.

كانت ساحة الكنيسة. من هناك كانت صرخات الاستغاثة عالية، وكانت مثيرة للشفقة بلا حدود أكثر من أي شيء قد سمعه شخصٌ ما في أي وقتٍ مضى. عند نحو الساعة 7:26 وصل أول الأشخاص من الجانب السفليِّ للبلدة إلى مسرح الأحداث ورأى ما حدث. تكسَّر برج الكنيسة عند حَزٍّ كان يقسم صخرة إلى نصفين متساويَين، وهوى على الأرض دافعًا بالعمال السبعة المربوطين به إلى الأسفل. والأشخاص الساكنين بالجوار، الذين لم يأتوا للعرض، خرجوا جافلين من منازلهم بسبب الضوضاء. شخصٌ ما اتصل بخدمات الإسعاف، وسادت الفوضى. اجتمع البعض الآخر لسحب الجرحى من الأنقاض، ولكن كانت أحزمة الأمان والحبال ملفوفة ومتداخلة بعمقٍ في المواد الحجرية لدرجة جعلت من المستحيل تحريك هؤلاء الصارخين المستغيثين حتى ولو سنتيمترًا واحدًا. مات اثنان من العمال على الفور نتيجة الاصطدام، وثلاثة آخرون جُرحوا بجروحٍ خطيرة، والاثنان، اللذان كانا في أثناء السقوط في الجانب العلويِّ من البرج، كانا لا يزالان على الأقل قادرَين على التحدث. ولكن اكتُشف ذلك فقط شيئًا فشيئًا، وكل شخص كان يستدعي صارخًا بالكلمات على أجزاءٍ سرعان ما عصفتها الرياح من جديد.

أنا نفسي لم ألاحظ أيًّا من هذه الاضطرابات المتزايدة. لدقائق تجمدتُ أمام مدخل الحفرة ورأيتُ كيف ينتشر المخروط الضوئيُّ في هذا البُعد. فقط بعد مسافة عشرة أمتار من باب المنجم، حينها لا يمكن سماع الأصوات

الصاخبة في الخارج. انتظرتُ للحظة، كنتُ أترقب سماع قطرةٍ ما أو الصوت الضئيل لأنفاسي. ولكن لم يكن هناك شيء سوى السكون. بالكاد تُفهم الأصوات، تجرعٌ. كان هناك سلم حجريٌّ غير واضح المعالم يُمكن التعرف عليه بصعوبة يؤدي إلى الأسفل بانحدار حاد، منحوتٌ في الجبل بطَرَقات متسارعة. وفوق رأسي كانت الأرض ممسوكة بعوارض سميكة، حيث لا يزال يلتمع بها الزخارف الحديدية.

لم يكن هبوط درجات السلم إلى الأسفل صعبًا، إذ كان السلم جافًا بشكلٍ مدهش، ظهرت ملامح لغرفة صغيرة في الظلام: غرفة *الطعام*، فكرتُ ثم جلستُ على درجات السلم وحدقتُ إلى الظلام.

في تمام الساعة السابعة والنصف مساءً وصلت عربة الإسعاف، ولكن كان عليهم أن يدركوا بأنه لن يكون من الممكن انتشال أيٍّ من الضحايا من أسفل الأنقاض دون رجال الإطفاء. ومع ذلك فقد تمكن طبيب الطوارئ الموجود من تحديد وفاة اثنين من الرجال على الفور. كان قرص الساعة الخاص ببرج الساعة يضطجع متأرجحًا فوق جبل من الحصى ويهدد على الدوام بفعل ضربة من الرياح بالسقوط على الحشد المتزايد الذي كان يتشتت متفرقًا صارخين في كل مرة. سرعان ما التحق جميع الحشد المتفرج على مسرحية القديس «مارتن» إلى ساحة الكنيسة، وكان معظمهم في حالة سُكرٍ من الكحول والأدرينالين ومن الغضب المتزايد بلا شكل محدد. تجمع مئات من الأشخاص، حشدٌ مصطخِبٌ بالصراخ وعشوائيٌّ، يتوزع بحضوره المزعج على أطراف الأنقاض. وصلت فرقة الإطفاء، وجلبت الآلات الثقيلة. رأى الجميع عربة الونش الصفراء في انهمار المطر الكثيف وراقبوا كيف وُضعت الحبال على أطلال من الخرائب. ثم انقطع الفيلم.

ما كان من المفترض أن يُعتبَر أكثر الأشياء غير المعقولة في كل أحداث ذلك اليوم قد بدأ بمساحة فارغة. فلا أحد استطاع أن يستعيد في ذاكرته الفترة القصيرة، ومع ذلك الحاسمة، بين الساعة 7:35 والساعة 7:40 مساءً. عادت الذاكرة الجماعية مرة أخرى، عندما هرع رئيس الشرطة «ماتياس جروبر»، الذي كان في نوبة عمله في الدرك، إلى مجموعة صغيرة من الناس، التي، كما قيل، انفجرت في نوبة من الصراخ الغاضب للمرة الثانية.

في هذه اللحظة تبدَّل الوضع تمامًا: دون أي سبب مباشر ضرب شخصٌ ما رئيس العمال، حتى قبل أن يتمكن «جروبر» من منع ذلك، بقبضة في وجهه، فما كان إلا أن انتفض رئيس العمال وتكور على الأرض. كما لو كان كل ما يحتاجونه هو ثقب، يمكن أن يتسرب منه ذاك الضغط الموجود منذ وقتٍ طويل، تنهد الحشد ارتياحًا، ومع ذلك فقد بدت تنهداتهم صراخًا وراقبوا بارتياح الشخص الثاني وهو يُسدد لكمة أخرى في وجه رئيس العمال. ولكن في الوقت ذاته أثار ذلك نوعًا من الذعر المكبوت، وذعرًا بداخل الناس من أنفسهم. مَن لم ير من قبل رجلًا يُضرب بلكمة مُسددة بنجاحٍ شديد، ومَن لم يكن أيضًا يتوق لمثل هذا الفعل؟ كان من الصعب على رجال الإطفاء الذين وصلوا بمركبتين أخريَين في الوصول إلى الجرحى عبر الحشد الهائج، ولم يكن ممكنًا وقف تدفق الجماهير.

كنتُ في هذه الأثناء، مُرتعدة من البرد، فقدتُ كل إحساسي بجسدي، ربما قد مرت عشر ساعات أو خمس دقائق، بين محاولاتي في هبوط درجات السلم. شعرتُ بأن هناك عائقًا جسديًّا ما. عندما كنتُ أهبط ثلاث درجات من السلم، كان يصيبني مزيج غريب من الاشمئزاز والإعياء يجبرني على الجلوس من جديد، لأنني ولأول مرة فكرتُ فيما أرغب أصلًا في فعله بهذه المعلومات التي أبحث عنها هنا. يا لها من مشقة أن نتوغل بعمقٍ وأن نفهم، لأنني رأيتُ أنها كانت مجرد غرفة لعمال المنجم، التي كانت تلوح مرتسمةً أمامي. لكن الوقت كان متأخرًا، وربما كنتُ فقط متعبة. لم أكن قد نزلتُ بعمقٍ كافٍ لكي أستطيع أن أرى بوضوح ما الذي يضطجع أمامي. ولكن من ناحية أخرى كنتُ متوغلة بعمقٍ كبير، كنتُ أعمق من أن أسمع ما يحدث بصخبٍ شديد في الخارج، لدرجة أنه سلخ نصف سكان المدينة عن منازلهم، أعمق من أن لا يزال في مقدوري تخيُّل أن ما سوف أكتشفه دائمًا، سيكون له أهمية في العالم في الخارج. لهذا كنتُ أتأرجح في ترددي بين مُحيطَين.

عند الساعة 8:01 مساءً في ساحة الكنيسة أخرجت فرقة الإطفاء أخيرًا جميع الرجال المصابين من أسفل الأنقاض. بجانب الشخصين الميتَين كان هناك ثلاثة أشخاص آخرين مصابين بجروح خطيرة، وشخصٌ آخر، وهو ما لم يزل بالطبع مجهولًا للجميع، مات في طريقه إلى المستشفى. حكى

فرديناند -الذي لم أستطع إلى هذا الوقت أن أتصور ما ممكن أن يكون قد حدث معه في هذا الصخب ببخاخة الأكسجين الخاصة به وقدمه التي يجرها خلفه- أنه قد رأى رئيس العمال وهو يُقبض عليه من قِبل رجال فرقة الإنقاذ ويُجر إلى عربة، وأن اثنين أو ثلاثة بعد ذلك قفزوا فوق عربة الشحن نصف النقل.

كان يسود الوضع فوضى بالغة لا توصف. افترضت الأوصاف اللاحقة أنه كان موجودًا من ثلاثمئة شخص إلى أربعمئة شخص، لأنه كان هناك المزيد والمزيد من الأشخاص دفعتهم الضوضاء الموجودة في الشارع فتجمعوا غاضبين من الظلم الذي أحسوا به جميعًا بشكل مفاجئ. تجمعت مجموعة من الصاخبين وثاروا ضد الحفرة التي لا تتوقف عن الهبوط. في وسط الساحة الفوضوية بالكامل، التي كانت مُغطاة بالفعل بطوب البناء، بدأ عدد قليل منهم في نوبة جنون أعمى في رمي زجاج نوافذ المنازل المجاورة بقوالب الطوب. صحيح جر المارون الآخرون المُخربين بعيدًا عن المكان، ولكن لم يكونوا على الإطلاق مخربين، بل أطباء ومحامين من الجوار. (لا بد من وضع الأمور في نصابها، حيث كشفت التحقيقات اللاحقة أنه كان حجر واحد فقط الذي رُمي. حتى عند الإشارة إلى تحطم على الأقل ست من واجهات العرض، ظل الادعاء القوي موجودًا: جميع نوافذ العرض الست قد تحطمت بحجر واحد). شقت هستيريا جماعية طريقها إلى الأحداث في هذه اللحظة، كان لبرج الكنيسة المتهدم تأثير «الأمفيتامين[1]» الضبابي في الجماهير.

لكن ربما لم يكن ذلك يُطابق الحقيقة الكاملة في شيء، فمن ناحية كانت هناك أعمال فردية أيقظت تأثير الغضب المُركَّز. ربما كان هناك عشرة أشخاص مَن فعلوا أعمال التخريب، وخمسة آخرون انجرفوا بلا عقل مسحورين لأعمال العنف الوحشية. كانت الأغلبية في حالة من -إذا جاز التعبير- السلمية العدوانية، كانوا يرتعشون فقط من الكراهية المكتومة تجاه الحفرة، التي لم يستطع أحدٌ أن يقابلها، لم يكن هناك إلا اللاشيء. عند الساعة الثامنة والنصف مساءً اجتمع نحو عشرين شخصًا من الآباء والشباب الصغار أمام قرص الساعة المُقتلع. كان ممكنًا رؤيتهم وهم يرتجفون من الانفعال،

(1) منبه للجهاز العصبي له تأثير الكوكايين.

مجموعة مُرتجفة ومكظومة اضطرت إلى دفن قبضتهم في جيوبهم فقط لأن أياديهم لم تكن تعلم أين تُوضع. ولكن لم يحدث شيء. لاحقًا لُخصت الأحداث هكذا: بمجرد أن غادر رجال الإطفاء وفرقة الإنقاذ وبدأ مكتب المصلحة الإدارية بنقل الأنقاض بعيدًا باستخدام أربع مركبات، صار الحشد على نحو مفاجئ هادئًا. مثل هذه المفاجئة، التي عم بها الشغب، بدا الآن أنه من العبث الشديد عدم العودة إلى المنزل ومواصلة الحديث على انفراد.

كانت الساعة التاسعة مساءً عندما غادرتُ من جديد بوابة المخرج، أغلقت الأبواب خلفي، ووضعتُ السلسلة أمام الحامل فقط دون غلقها، لا أهمية لذلك. فلم يلمسها أحدٌ من قبل. فقط الآن، بينما كنتُ أسير على الطريق الصاعدة لحارة المدرسة، لاحظتُ اضطرابًا ما غير محدد واندهشتُ للحظة من أن البلدة بأكملها بدت حيوية في مثل هذه الساعة. كانت العائلات تتوجه بحزمٍ إلى منازلها. بالأخص صمتهم كان هو ما لفت انتباهي وأن كل شخص منهم يتحاشى في خوف نظرة الآخر. أخذتُ الطريق الشرقية من المدينة، ووصلتُ إلى بوابة الحارة وكان لا بد لي من التوقف للحظة، لكي أجمع شتات انطباعاتي. بحر من الشقفات وجماد مخيف. ما الذي حدث هنا؟ كانت الأنزال قد أُطفئت أنوارها، وكانت أرصفة المشاة خالية من البشر، وكانت طبقة بسمك سنتيمتر من الغبار والطوب تغطي كل شيء، لهذا السبب كان عليَّ أن أحترس من السقوط على وجهي. فقط اثنان من كنّاسي الشوارع وحدهما كانا يقاومان ضد جبل الأطلال ذاك. في وسط تلك الانطباعات سمعتُ على نحو مفاجئ طنينًا يتجول في أذني، كما لو أن الصوت الذي كان يُصاحبني لأطول وقتٍ قد أُغلق. أنزلتُ أخيرًا الكَبُّوت من رأسي. المطر المنهمر لأسابيع قد توقف.

16

سيقام الحفل يوم أحد، وذلك لأن أيام الآحاد هي مقياس الرضا عن العمل البارع الذي أُنجز في الأيام السابقة لها. بالنسبة إلى السياح فستسود أجواء الربيع، (حتى لو كان خريفًا)، هكذا كما لو كنت تشعر بالزعفران وهو يخترق أسفل المروج. في حالة كانت الأوضاع الطقسية والبيئية لا تتصرف طبقًا لهذا المبدأ، لا بد حينها من تقديم المساعدة بطرقٍ أخرى (غير محددة بتفاصيل كافية).

ستُقام الاحتفالات بشكل عام على ثلاث مراحل موضحة بالأسفل:

1) الوصول: سيُجلب السياح من فيينا في أتوبيسات مُستأجرة إلى مدخل المدينة في التاسعة صباحًا. مئات من داخل وخارج البلاد، مع التركيز القويِّ على الصين، اليابان والولايات المتحدة. لأجل هذا، بما يُطلق عليه الإقامة الأولية للمجموعات، فسوف تُقام سابقًا أماكن إضافية للوصول، التي ستشمل أيضًا محطة للانتظار بجانب أربعة آلاف مكان لوقف السيارات، حيث سيُقدم فيها جميع الأطباق النموذجية الخاصة بالنمسا، من بينها سيكون كعكة «زاخا[1]»، و«كيزاكراينر[2]»، و«البان كيك». سيُسلَّم كل شيء على أجزاء لأخذها في الطريق. ثم ذروة الحدث الأولى: سيبدأ اليوم بموكب الضيوف تجاه وسط المدينة، حيث ستستقبلهم جوقة موسيقية من آلات النفخ مكونة من أربعمئة شخص عند بوابة المدينة. وسيكون

(1) كعك شكولاتة صنعه الخباز النمساوي الشهير فرانز زاخا للأمير كليمنس فون مترنيش. وهي من أشهر أكلات المطبخ النمساوي.

(2) نقانق مسلوقة مُدخنة قليلًا مع لحم الخنزير والجبن.

هناك ثمانية من رؤساء فرقة الطبول بكتيبتهم، كل منهم مسؤول عن مجموعة صغيرة من السياح، حيث سيصاحبونهم حتى مركز المدينة مع تكرار مستمر للحن «راديتزسكي مارش[1]». هناك تنتهي المرحلة الأولى في «فروهشوبن» ضخم، وفي أثناء ذلك ستُقدَّم صناعة جروس أينلاند على خشبة المسرح على طريقة عروض السيرك بجانب الخطب المعتادة والتكريمات، سيكون فخمًا كما يحدث في سيرك «دو سوليه[2]» حيث من المفترض أن يُعرض التطريز بماكينة الخياطة وكذلك صناعة الأطباق من الخشب أو مقابض السكاكين، من المفترض أيضًا أن يحمل الشروتر[3] براميل النبيذ العشرة على ظهره كما سيصنع صانع السبائك النحاسية جُرن المعمودية[4]، حيث سيُعمِّد القسيس آخر طفل قد وُلِد، (وربما سيولد).

2) محطة التجول: ستُلحق المرحلة الثانية بالأولى عند الظهيرة. خُطِّط للفعالية بأكملها كخليط من العمل الفنيّ والظواهر الطبيعية[5]: أي سيكون عبارة عن مقابلة للأداء «Performance» مع النقاء البدائيّ، حيث يجب أن يكونا على ارتباط وثيق ببعضهما بعضًا. يُفرَّق الحشد، ومن المفترض أن يُقتاد إلى القرية الشبيهة بمعرض «دوكومنتا» بمدينة «كاسل»، حيث يُقدم شرح لفن النحت. خلال الساعات التالية ستُقام فاعليات عن المواقع الجانبية الأصغر، الملاحق الموثقة والفروع الجانبية للحفرة. وسيُدشَّن منخفض -في

(1) من تأليف يوهان شتراوس.

(2) سيرك الشمس، شركة ترفيه كندية مقرها في مونتريال، مشهورة بتقديم العروض السيركية، تأسست عام 1984، جميع عروضها تندرج ضمن السيرك المعاصر، أي أنها تقتصر على العناصر البشرية وتخلو من الحيوانات.

(3) كانت مهنة موجودة قديمًا وهي نقل براميل النبيذ من مكان لمكان.

(4) طقس مسيحي، حيث يُعمِّد الكاهن طفلًا في حوض به مياه ويصلي عليه وبذلك يكون قد أصبح مسيحيًا.

(5) مثل الشفق القطبي وقوس قزح وما شابه.

المرج- ليكون كنيسةً، وافتتاح صالة أكبر تحت الأرض للأفراح، («أفراح بداخل الحفرة»، التحقق من توافر المواد). أما موضوع المناقشة الخاصة بفترة ما بعد الظهيرة بأكمله سيتشكل بأدق تفاصيله من قِبل متخصص في مسرحيات آلام المسيح[1] لبلدة «أوبرامرجاو»، سيؤدي الأداء الفنيّ الجيولوجيّ جنبًا إلى جنب مع أعمال الفن التركيبيّ عن الهبوط إلى إعادة تقييم هائلة للبصمة العقلية للسكان والفضاء العام. كما من المفترض أن تُقدِّم الحفرة كونها قوى أسطورية من الطبيعة، حيث يتعايش معها الناس في وئام. ولا يزال مسار النبيذ تحت الأرض قيد الفحص والتدقيق.

3) الحقن: ستبدأ المرحلة الثالثة أخيرًا في ساعات الليل، عندما يبدأ الشفق الرومانسيُّ. عند عودة المُنظِّمين المترقبين لهذه اللحظة، سيعود الحشد للتجمع مرة أخرى في ملعب كرة القدم للعرض الأخير. الذي سيكون، بالطبع، متمثلًا في إدخال مادة مُدعَّمة في الجبل، ستعمل على تعطيل الهبوط. كما سيُصاحب عملية الحشو، التي ستستغرق الليل بأكمله، تلحين خاص مطلوب تحديدًا لهذا الغرض من قِبل مدرس في مدرسة ثانوية في جروس أينلاند. سيكون الهدف هو وجود أوراتوريو[2] تحكي أسطورة البلدة «بيرجر هانس» كما يُفضل أن تُؤلَّف تبعًا لأسلوب «هايدن[3]»، ولكن في الوقت نفسه تحوي بداخلها عناصر موسيقية تسمح بالرقص عليها رقصة البولكا المتقاطعة. كما سيُقدم للسياح مشهد

---

(1) من أشهر مسرحيات الآلام حول العالم، حيث عرض سكان مدينة أوبرامرجاو مسرحية استمرت لساعات متواصلة وفيها الأيام الخمسة الأخيرة من حياة يسوع، عرضت لأول مرة عام 1634 كنذر بعد مرور الطاعون، في عام 2014 أدرجت ضمن سجل التراث الثقافي غير المادي وفقًا لاتفاقية اليونسكو.

(2) مقطوعة موسيقية إلقائية غنائية، وعلى الأغلب تكون مواضيعها دينية، وتختلف عن الأوبرا في أن الأوراتوريو يخلو منه التمثيل المسرحي.

(3) ذكرت الكاتبة اسم Hayden ولكن يوجد مؤلف موسيقي فعلًا يُسمى Joseph Haydn، ولُقب بأبي السيمفونية، كما ألّف أوراتوريو أيضًا. من الممكن أن تكون الكاتبة أخطأت في كتابة اسمه.

لا يمكن مقارنته بشيء عن قوة الصناعة النمساوية، قوة الهندسة الميكانيكية كما قوة الفلكلور الأصيل والفن الراقي، قبل أن يُحمَّلوا من جديد في الأتوبيسات في ساعات الليل المتأخرة بعد تقديم خمر الموست[1] الأخير ويُعادوا من جديد.

بشعور من الخجل لم أستطع كبته وقَّعتُ على ذلك البروتوكول المعتوه الذي أُلِّف في الصالون، وأرسلته إلى مجالس البلدية. كنا نعمل خلال الأشهر الأخيرة تحت ضغط غير إنسانيٍّ، ولمدة طويلة لم تُذكر أطروحة تأهيلي مجددًا. فقط في هذا الوقت، بينما بدا برنامج الحفل بأنه ثُبت، تجدَّدَ المزيد والمزيد من الحديث حول الموضوع ذاته: إمكانات الأرباح، أصبح من الجليِّ بأن البلدة لم تكن في وضع ماليٍّ جيد، بالمقارنة بالطريقة التي تبدو بها من الخارج. فلا عجب، فقد كانت عمليات الفتح والتثبيت المُدعَّمة -التي كان علينا فعلها- تسير بشكل دائم نحو مئات الآلاف. بالنسبة إلينا تحول الحفل منذ وقتٍ طويل من مشروع مرموق إلى ملاذ أخير، حتى نتمكن من التعامل بنجاحٍ مع عمليات الحشو المُخطط لها. ربما كان هذا أيضًا هو هدفه الحقيقي الدائم. 29 سبتمبر من العام المقبل. تاريخ غير حقيقيٍّ. لكنت استطعتُ أن أقسم إننا الآن فقط اتخذنا قرارًا للحفل، ولكن عندما نظرتُ إلى التقويم، ثبت أنه قد مر أكثر من سنة بالفعل.

بعد العشاء جمَّعتُ حاجاتي وتوجهت إلى مدرسة الجيمنازيوم. وقفت مجموعة من طلاب المدرسة متناثرين في حوش المدرسة، يتحدثون مع بعضهم بعضًا ويضحكون، من الواضح أنه قد بدأ للتو وقت الاستراحة الطويل. بقيتُ واقفةً أمام المبنى وانتظرتُ دقة الجرس. عندما ظل الشباب مع ذلك بلا حراك، اضطررتُ إلى المشي بجانبهم يغمرني خوفٌ مكبوتٌ بعمقٍ في داخلي، يرجع إلى أيام دراستي، جعلني للحظات في حالة من القلق من أنهم سيلتفتون نحوي ويهزؤون مني، ويعلقون على ملابسي، ولكن لا شيء حدث. لقد كبرت، ولم أعُد موجودةً بالنسبة إليهم منذ وقتٍ طويل. سرتُ مسرعةً إلى الطابق العلويِّ وطرقتُ باب غرفة الموسيقى. فتح لي رجلٌ بشعر

(1) عادة ما يكون من التفاح، أو الكمثرى أو العنب.

مُشعَّث وياقة قميص تتدلى حولها بلا هدف كرافتة غير مربوطة مثل شريط هدايا ممزق، وصافحني بيده الرطبة.

قال: «بروفيسور «هاوسبريشت»، اجلسي من فضلك».

أخذ مكانه إلى طاولة المعلم، بينما جلستُ أنا على الكرسي الموجود سابقًا بالفعل. كان كرسيًا للأطفال، وكادت ركبتاي تصلان إلى مستوى صدري تقريبًا، كان منخفضًا للغاية. بدا الرجل مضطربًا، تحت ضغطٍ ما، وبالإضافة لذلك فقد كان حليقًا بصورة سيئة للغاية.

قال: «أخيرًا ساعة الاستراحة. (وتنهد متباهيًا مثل شخص في فترة نقاهة) في هذه اللحظات أستطيع أن أكرس نفسي قليلًا لواجبي الحقيقيِّ، الفن».

وأشار إلى البيانو، لكنه وقف على الفور، كما لو كنتُ لم أفهم إيماءته، ووضع يديه على أصابع البيانو.

سأل: «هل ترغبين في سماع شيءٍ من مؤلفاتي الجديدة؟ (ولكن نهاية الجملة كانت قد غرقت في الكورد الأول بالفعل) سأسمح لنفسي بعزف أحد أعمالي، والحق أنني أرغب أيضًا في بناء المقطوعة المطلوبة شبيهة بهذه. فهي قطعة نمساوية تمامًا، ولكنها شيء آخر عما اعتدنا معرفته. أكثر عصرية بكثير».

كان بإمكاني أن أقسم إن ما كان يعزفه على البيانو لهو موسيقى الفالس في «الفارس ذو الوردة»[1] لـ «شتراوس[2]».

تابع: «لقد طورتُ لغة اللحن الخاصة بي، التي تكوَّنت بصبغة خاصة بمشكلتنا الحالية المعقدة مع الحفرة».

ربما كان القليل من بعض الموتيفات[3] الجانبية قد تغيرت، ولكنه سرعان ما قفز عائدًا إلى المناوشة بين «مارشالين» و«أوكتافيان»[4].

---

(1) أوبرا، كوميديا موسيقية من ثلاثة فصول، لاقت نجاحًا كبيرًا عند عرضها.

(2) ريتشارد شتراوس: مؤلف موسيقي ألماني ويعد من مؤسسي المدرسة الحديثة في الموسيقى.

(3) الموتيف في الموسيقى هي أصغر فكرة موسيقية متكونة من صوت موسيقي واحد.

(4) شخصيات في أوبرا «الفارس ذو الوردة».

قلتُ: «جميل».

بمجرد ما أنهى عزفه، ربط كرافتته وجلس، لكي يُعاود التنهد. قال: «حسنًا، إنه من الصعب تأليف مقطوعة موسيقية، عندما يضطر الواحد إلى التعامل طوال اليوم مع الأطفال، لكنه ينقل حينها إبداعه في أوقات أخرى من اليوم»، ثم أكمل كلامه، كما لو كان مضطرًا إلى التحدث مع شخص جاهل بالكامل: «ليلًا».

قلتُ «أفهم. أنتَ لست مضطرًا إلى الإسراع في هذا، رغبتُ في التحدث معك بشأن شيء آخر. إنه يتعلق بالاحتفالية، أي بموسيقى آلات النفخ».

بينما كنتُ أقول ذلك، علَت وجهي الحمرة. بينما أعمل كنتُ أفكر بصورة دائمة في هذا المشروع الموازي، الذي لا بد وأن يُلاحظ مدى تفاهته من قبل الآخرين كما كنتُ أفعل وسيسخرون مني بسبب الأوهام التي شاركتُ فيها. والشيء المفاجئ بالنسبة إليَّ هو أن أحدًا لم يفعل ذلك.

- في الحقيقة نحن نخطط، (ضحكتُ ضحكة قصيرة ومصطنعة) لوجود أربعمئة موسيقيٍّ في مسيرة على الأقدام. ونحن نحتاج منك في أقرب فرصة تصميم للمواقع.

أجاب هاوسبريشت (كما لو كنتُ سألتُ سؤالًا بسيطًا بشكل مهين): «هذا ليس بمشكلة».

كرر ما قاله مجددًا، كما لو حُسم الموضوع منذ وقتٍ طويل: «نحن نحصي الجميع خارج المقاطعة. هذا ليس بمشكلة».

أضاف قائلًا بعد فترة على نحو مفاجئ وبإصرار شديد: «ولكن لن نسير أبدًا في الجانب السفليِّ من المدينة، سيكون ذلك كأنه موت في ظل هذه الظروف، وبهذا الكم الضخم من الناس. كما لا بد للمزارعين من التوقف عن الزراعة قبل ذلك بشهرين».

سألتُ لأنني لم أفهم العلاقة: «كيف؟».

قال: «المزارعون. (وأردف قائلًا مرة أخرى بشكل أكثر حِدَّة) الفلاحون».

- ما الموضوع مع المزارعين؟

- الجميع يعرف ما موضوع المزارعين. (بدأ في تلميع نظارته في كُمه، لكنه شدها بشدة عليه، لدرجة صار معها ذيل قميصه ينسدل فضفاضًا على فخذيه) إنهم السبب في الهبوط المتوالي هناك. (وأشار إلى السطح. صدع بسُمك قبضة اليد يمتد من منتصف الحجرة حتى إلى الزاوية أسفل البيانو) دائمًا ما يجعل صوت البيانو غير متناغم عند درجات الحرارة تلك، أتفهمين؟ الجذور الوتدية[1]. (شكَّل بكلتا يديه قمعًا) تحفر الأرض وتفكك التربة. الجزر والفجل على سبيل المثال. يُسمَّى بالتفكيك العميق للتربة. ما الذي تعتقدينه بشأن السبب وراء انهيار مبنى فرقة المطافئ على الدوام هناك؟

- ظننتُه بسبب الحفرة.

- أجل أجل، ولكن السؤال هو كيف نجحت الحفرة في تحقيق ذلك أصلًا؟ الجذور العميقة. (قال مرة أخرى) بالطبع يجني الفلاحون الكثير من الأموال من زراعة مثل هذه المحاصيل ويعتقدون أن رجل العلم لا يفهم ذلك. كل شيء أتى من أمريكا الجنوبية، من شركات الأدوية الضخمة. وهذا يعني، بعد أن تسمم المناخ الفكري علينا نحن أيضًا تحمُّل تكاليف المجتمع الباهظة بسبب المزارعين. أجل، سأوقِّع على ذلك الآن. (لوَّح بيده، عندما رأى الاستمارة التي كان على جعل جميع المُساهمين في الحفل التوقيع عليها) لا يهم على الإطلاق ما هو السبب بالضبط. ولكننا بالتأكيد لن نسير بوزن أربعمئة شخص فوق منحدر مملوء بالخضراوات الجذرية.

هكذا اختتم كلامه ودفع إليَّ بالقائمة التي بدا أنها مطوية بنفسها. كُتب فوقها: «مُعلمو المدرسة الابتدائية ضد الجذور الوتدية، إحصاء». وتحتها علامة «قف!». مطبوعة فوق نبات سوداء القشرة[2] باكيًا. أملتُ أن يكون المشارك الوحيد في هذه الجمعية.

قلتُ في اضطرابٍ: «شكرًا».

---

(1) أحد أنواع الجذور، وهو جذر رئيسي كبير الحجم، ينمو مباشرةً إلى الأسفل.

(2) يعد من ضمن النباتات الجذرية.

قال وأخذ من يدي الاستمارة: «أوه، أنتِ لستِ مهتمة بهذه العلاقات البيئية. هنا، التوقيع، من أجلي. بالطبع سيتعين علينا أن نضم بعضًا من قليلي الموهبة، إذا كنا نحتاج حقًا إلى أربعمئة فرد. لذلك لن أزعج المزارعين وبراعمهم -أي نبتاتهم- كثيرًا أيضًا هنا. ساعة فراغي سوف تنتهي قريبًا. أتمنى لكِ كل خير. لديكِ مهمة ليست سهلة».

قال ومدَّ يده لمصافحتي، ولكن نبرته بدت وكأنه يقصد نفسه بهذا الكلام.

على الرغم من أن الرياح الباردة كانت تهب في الشوارع مُصدِرةً صوت العزيف، جلستُ على مقعد الحديقة غارقةً في عرقي كما لو كنتُ قد تسلقت إحدى قمم الجبال. ما قاله عن الفلاحين لم يفاجئني، لأنه خلال الأشهر الأخيرة كانت تتكوَّن باستمرار تحالفات جديدة، واتحادات ومبادرات، وتتحد مع شركات أخرى ثم تنحل بسرعة شديدة مثل انعكاسات الحرارة المُشكِّلة للسراب في يوم حار. كان العامل المشترك بينهم جميعًا هو: أنهم رفضوا فهم أننا نتعامل مع عملية طبيعية عضوية وأنها سُرِّعت من خلال عمليات التعدين السابقة.

لبضعة أيام كنا مشغولين بمئات المكالمات الهاتفية التي كانت كلها تتعلق بالاقتناع القائل بأن السلوفينيين العابرين للحدود ليلًا كانوا يحملون قوالب الطوب الخاصة بالمدرسة الابتدائية بعيدًا. شيئًا فشيئًا كانت تنهار المدرسة في الحفرة، بينما كان الاقتناع ينتشر بين السكان بأن الطوب الجيد الخاص بمملكة المجر والإمبراطورية النمساوية كان يُنقل منذ فترة طويلة إلى «ماريبور[1]». من ناحية فكان السبب في ذلك يرجع إلى أننا تلقينا أمرًا في القصر بعدم التحدث مع أحد بشأن الأبعاد الحقيقية للحفرة، كان ذلك بعد إشعار من الكونتيسة، حتى لا نثير ذعرًا غير ضروريٍّ أو حتى هجرًا للمكان. ومع ذلك فصمتنا تركَ الفرصةَ لملء هذا الفراغ بسردياتٍ خيالية. كان خرسًا قويًا عن المشكلات الحقيقية المعقدة. ظلت الكنيسة عارية ولم تُصلَّح، دون أن يتحدث أحدٌ بهذا الأمر، لأنه لم يرغب أحدٌ في المساس بالمبنى وبأحداث نوفمبر الخاصة به. اندهشتُ من مدى إعادة تعريف المبنى لنفسه من خلال خرابه، كنيسة دون برج لم يكن ممكنًا التعرف عليها بمثل ذلك قط.

---

(1) ثاني أكبر مدن سلوفينيا.

كان طريق العودة إلى القصر يقودني عبر حارة «لانجه»، التي كان عليَّ تسلُّق شوارعها في أثناء السير، إذ كانت واحدة من أكثر الأماكن خرابًا في المدينة. مثل أن ترغب باستخدام يدك في انتزاع قطع من كعكة مضافًا إليها بعناية مادة لامعة، ومن تحتها يظهر فجأةً العجين، كذلك تؤدي الحواف شديدة الانحدار من كلا جانبَي أحجرة الرصف إلى أرضية التربة العارية. في بعض قطع الأراضي المجاورة يُمكن رؤية انهيارات بداخل التربة قمعية الشكل، أصبحت فيها المياه المضغوطة إلى الأعلى والمتجمدة على السطح الآن على ارتفاع قدره متر. ربما قد ظنوا بأن مكتب البلدية يسعى إلى حفر بركة اصطناعية صغيرة أمام كل بيت استعدادًا لموسم الصيف القادم، ولكنهم تراجعوا بعد منتصف الطريق.

فكرة أنني مع ذلك كنتُ أسلك تلك الطريق كانت بمنزلة تكفير للذنوب. كنتُ أمُرُّ بأملاك الممرضة إلفريده برأس مُنكَّس ووقفت للحظات أمام السور، حيث كنتُ كل مرة أراقب برعبٍ التقدم الجديد للانهيارات التي تحدث في منزلها. قبل شهرين فقط كان منزلها على الأقل في وضعية أفقية، على الرغم من أنه كان مملوءًا بالصدوع. ثم حدث تحوُّل خارق، إذ يستطيع الجميع الآن أن يرى المنزل الجميل ذا البناء الخشبيّ يغرق في الوحل من جانبه الأيمن. ذلك الجانب المُعلق بالفعل بزاوية خمسين درجة في إحدى برك المياه، قد بدأ في امتصاص الرطوبة، وبدأ يتآكل من الأسفل إلى الأعلى من العفن كل يوم. كان شيئًا خطيرًا، بالأخص بالنسبة إلى ساكنته، ولكن حتى في هذه الأثناء أيضًا بالنسبة إلى المارة، لأن الكتل الخشبية التي تحمل السقف، صارت الآن متدلية من الواجهة.

وقفتُ هنا بالضبط قبل ثلاثة أشهر، مع فيليب، الذي رغب من جديد في إرغامي على زيارته. قال غامزًا بعينيه، بينما كنتُ صامتة: «لدي تيراميسو[1] في الثلاجة. يمكنكِ أن تأتي إليَّ، يضايقني أن آكله وحدي».

هززتُ رأسي نافيةً وأخبرتُه أنني مضطرة إلى إنهاء مقال ما. أصرَّ: «حسنًا، يمكننا أيضًا مشاهدة أفلام على الـ DVD، إذا كنتِ تحافظين على رشاقتك».

---

(1) هي أحد أنواع الحلويات الإيطالية الشهيرة. معنى تيراميسو الحرفي هو «ارفعني»، أي مجازيًا «ابهجني».

وضحك على ذلك، على هرائه، وما زال يضحك، عندما كنا نقرع جرس باب بيت إلفريده. قال فيليب وهو يُلقي نظرة على المنزل: «لن تكون العِصي قادرة على تحمُّل القوة العرضية».

فكرة أن يكون الشخص أخرق بهذه الدرجة اجتماعيًا وفي الوقت نفسه يكون قادرًا على أن يظل خبيرًا في معرفته العلمية، كانت تبهرني على الدوام. فتحت لنا الممرضة إلفريده الباب، وكان شيئًا غير سار رؤية إلفريده وهي تجد مشقة في أن تخطو بقدميها المتيبستين على الدوام عتبة الباب المُحطَّمة. ومع ذلك فقد بدت هي نفسها أنها قد تصالحت تمامًا مع هذا الموقف، إذ طالبتنا بأن نخطو لداخل المنزل، دون كلمة توضيح واحدة، وهذا ما رفضناه بالطبع.

قال فيليب عندما جلسنا أخيرًا على مقعد في الحديقة: «في الواقع كانت مخاطرة كبيرة للغاية أن نقترب حتى من المنزل. لنكون صادقين، فقد جئنا بأمر من الكونتيسة لنطلب منكِ الانتقال من المنزل».

أجابت الممرضة إلفريده: «أوه، هذا مجرد وضع مؤقت، في وقت ما سينتهي موضوع الهبوط ذاك. (كما لو كان فعلًا لا توجد أدنى مشكلة) المعذرة، يا أطفال، على المنظر هنا. في هذه الأيام لا أستطيع تحمُّل تكلفة ترميم المنزل من جديد إلى وضعه الأفقيِّ، ولكنني أدخر لذلك بالفعل. وأنا نفسي أشعر بالغضب من أن المياه تقطر في غرفة نومي، لكنني كنتُ أبيت في أثناء ذلك على الأريكة».

على الرغم من أنها كانت تجتهد في تصورها الإيجابيِّ للوضع، فقد ميَّزتُ من نبرتها أنها كانت تعلم بالضبط عما يحدث مع منزلها.

قلتُ في محاولةٍ لجس نبضها: «نحن نملك برنامجًا لنقل السكان. شقق جميلة وجديدة أسفل شارع «كولوني». إنها مدفوعة التكاليف من قِبل البلدية، يمكنك الانتقال على الفور».

قالت في منتصف كلامي: «ولكن ماذا، شارع «كولوني». روت، وفِّري لنفسك طاقتك، أنا أعلم هذا بالفعل، أجل أعرف ذلك، ولكن لن أمشي. أنا أسكن هنا، منذ كنتُ في الرابعة من عمري، في وسط المدينة وليس في أي مكان آخر، وما زلتُ أيضًا أملك مطبخي المتنقل. هناك في الخلف، بجانب

المنزل، حيث كنتُ ألعب مع أشقائي. لقد نجا من حربين عالميتين. (وضربت على صدرها، كما لو كانت تحمَّلت هي بنفسها جزءًا من هذا البقاء) أي ضرر كان يرممه والدي بنفسه. وما زلتُ أعلم كيف بنينا معًا الجراج بالخرسانة. يا إلهي، كان شُغلًا ثقيلًا».

بعيدًا في الحديقة الخلفية الملاصقة لسور الجار، رأيتُ منصة خشبية موضوعة، مشهد مألوف في جروس أينلاند، عندما يخترق فرع ما جانبيٌّ قطعةَ أرض شخصٍ آخر. فكرتُ: *أي هناك. هناك رمى والدا إلفريده الجثث في التربة. هناك نبح كلب على المارة، وسحب رجال البوليس* جثتين نصف متعفنتين من *الأرض*. حيث قُدِّما في محاكمة حُسمت سريعًا على أنهما من ضحايا الحادث. «ربما تسلق لصٌ ما السور في وقت الفجر، وسقط في الحفرة الأرضية»، حسبما جاء في بروتوكول المحكمة الذي وجدتُه منذ فترة قريبة في ملف قديم. هل فهمت إلفريده ذلك حقًّا؟ لا بد وأنها تعلم عن ذلك، على الأقل كانت في ذلك الوقت في سن التعليم الإلزاميِّ[1]. وعلى الرغم من أنه كان واضحًا أمام عيني أن بسبب مثل هذه الحالات فلن نُطوِّر أبدًا مادة الحشو، فلا أستطيع أن أشعر سوى بالشفقة على إلفريده ومنزل طفولتها.

حاولتُ مرة أخرى: «حتى يُسيطَر على الهبوط، يجب عليكِ أن تكوني في مكان آمن. هل ما زلتِ تتذكرين قانون ستوكس[2]؟ تحدثنا عنه في ذلك الوقت في «كوربِس». سرعة معدل ترسيب الوحل ليست عالية تمامًا حتى الآن، ولكن يمكن لأربع أو خمس مرات ينهمر بها المطر أن تكون كافية حتى تنخفض اللزوجة بشكلٍ كبير».

– هناك دائمًا أوقات سيئة وأخرى جيدة. مرة تحت، ثم مرة فوق.

انزعجتُ من حكم التقاويم تلك، حتى رأيتُ اليد التي بها تحمل كأس الماء ترتعش.

---

(1) أي بعمر ست سنوات.

(2) ينص على أن قوة المانع لكرة تسقط سقوطًا حرًا فيه تتناسب طرديًّا مع معامل لزوجة هذا المانع، وقطر الكرة وسرعتها الحدية. يستخدم هذا القانون في حساب سرعة الترسيب وأيضًا لحساب لزوجة السوائل.

قال فيليب ببرودة واقعية جديرة بالإعجاب: «لن يظل المنزل واقفًا، لا توجد إمكانية لإنقاذه».

- يوجد على الدوام إمكانية ما.
- في هذه الحالة لا يوجد للأسف.

قالت الممرضة إلفريده: «لا أستطيع ترك منزل والديَّ».

أو ربما قالت أيضًا شيئًا آخر، ولكني أعرف أن ذلك ما قصدته بالضبط. أستطيع أن أشعر بما شعرت به، وحدقتُ بعقلٍ فارغ إلى برميل أحمر موضوعًا على الجص العاري. لن تغادر، قبل النهاية، لن تفعل ذلك، على الرغم من أنها تعلم بالضبط ما الذي يحدث أمامها. لذلك أخذ فيليب يُحادثها عن السلوكيات نفسها التي تُقال لشخص يعيش في منطقة زلازل، يجب عليها أن تزحف إلى أسفل الطاولة في حالة حدوث اهتزاز، وأن لا بد للنوافذ أن تكون مفتوحة في جميع أوقات النهار أو الليل.

كنتُ سعيدة من أنه وصل بالحديث إلى نهايته، فلم أكن قادرة على فعل ذلك بعد الآن. في أثناء الجلوس معًا استحوذ عليَّ شعور بالذنب لم أعرف مثله مطلقًا. أملك مادة دعم، ويمكنني إنقاذ أساس ذلك المنزل الذي يعني لها الكثير، ولكني لم أفعل ذلك، وكلما زادت فترة بقائي في هذا الموقف، فقدت أكثر الأسباب بعدم فعلي ذلك. حتى عندما استلقيتُ على سريري في المساء، وأغمضتُ عيني، عاد الموقف من جديد للظهور ودفعني خارج الظلام إلى حالة اليقظة. كنتُ مضطرة على الدوام إلى الجلوس لبضع دقائق وأشرح لنفسي أنني لستُ مسؤولة عن الآخرين وأن هناك العشرات من الناس يشاركون مصيرها. لا يوجد سبب للتركيز بشكل خاص على الممرضة إلفريده كونها ضحية، بقيتُ أُذكّر نفسي بذلك، حتى استرخيتُ على سريري من الإنهاك. بعد بضع ساعات قليلة فقط أفقتُ صباحًا في ملاءة غارقة في العرق وشعرتُ بأنني أسير على السحاب. في الليلة التالية لجأتُ إلى «البنزوديازيبين[1]» وكبحتُ حالات الأحلام حتى قبل أن تظهر.

***

(1) دواء مهدئ ومنوم ومضاد للقلق.

في نهاية عام 2012 اكتشفتُ بالصدفة قصة «يوهان كيناجل» في أرشيف البلدة في أثناء محاولتي لاستئناف عملي على التاريخ الغريب لمنزلي. كان اكتشافًا عرضيًّا، ومع ذلك سرعان ما أصبحتُ مهووسة به.

كان يوهان كيناجل صبيًّا من فيينا، وكان يسافر إلى جروس أينلاند بين عامَي 1942 و1946 إلى عمه لقضاء العطلة الصيفية هناك. كان طالبًا في المدرسة الثانوية الخاصة بـ «الريألجيمنازيوم[1]»، ولديه رغبة عارمة في أن يصير بيولوجيًّا، وكان يُجري نزهات مكثفة في الطبيعة من حوله، حيث يجمع العناصر لأجل الفحص المجهريّ. حقيقة أنه كان يعاني من مرض ما دائم في الرئة، بدا أنه قد تصالح معه، إذ بسببه عُفي عنه في شهور إجازته من مهمات شباب «هتلر[2]». (بحثتُ أيضًا عما يمكن أن يكون نوع هذا المرض الذي لديه، صحيح أن الأوصاف كانت في كثير من الأحيان غير دقيقة، ومع ذلك فلا بد أن يكون مرض السل).

أما عن إقامته في البلد، التي كانت متاحة له، فقد وردت في ثلاثة دفاتر يومية مكتوب فيها بالكامل، نُقلت إلى أرشيف البلدة لاحقًا. في عام 1950 توفي كيناجل للأسف عن عمر يناهز العشرين عامًا فقط نتيجة للعدوى، وعُرض المخزون القديم لمكتبة عمه الذي ليس لديه أولاد في المزاد العلنيّ بعد الحرب. قرأتُ مذكراته التي كتبها كما لو كانت روايات المغامرات، فقط من حين لآخر كنتُ أنهض من كرسيَّ المريح للتحقق من تفاصيل أوصافه في أعمال أدبية أخرى.

كانت نصوص «كيناجل»، الذي لم يكُن يُكِنُّ للنظام أي شعور بالتعاطف، ومع ذلك لم يكُن يُعارضه بصورة خاصة، تُظهِر من أول وهلة رقةً وحساسية غير عادية تجاه الطبيعة، التي كان يشعر بالخوف من أنها من الممكن

(1) نوع من المدارس ظهر في القرن التاسع عشر وكان يوفر التأهيل إلى الجامعة، كانت ترتكز هذه المدارس على اللغات الحديثة والقديمة والرياضيات والعلوم الطبيعية.

(2) كانت منظمة شبه عسكرية تابعة للحزب النازي، من عام 1933 حتى عام 1945 كانت منظمة الشباب الرسمية الوحيدة في ألمانيا، وكانت تتألف من الشباب الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين 14 إلى 18 عامًا، وشباب دويتشز يونجفولك الذين تتراوح أعمارهم بين 10 إلى 14 عامًا.

أن تسقط ضحية مذبحة قاسية في الحرب. على العكس من غابات فيينا، التي عاش بقربها قرابة العام، حدث في جروس أينلاند استئصال راديكالي للغابات. كان الخشب الذي نُقل بسرعة ضروريًّا للخنادق والسدود المنيعة، ولكن أيضًا لإنتاج الطائرات المحلية، الذي استمر في تقدمه تحت الأرض. خمس مرات في تلك السنوات الخمسة التي قضاها في يوليه وأغسطس في جروس أينلاند كان يصف فيها في أثناء ذلك الوقت في يومياته لقطات خاطفة من الحياة في البلدة.

كان وحده دائمًا. منذ بداية الصيف الذي كان يسجله، حتى آخره، وجد يوهان صعوبة بالغة للغاية في توثيق علاقات مع الشباب الآخرين الذين وصفهم بأنهم بعيدون عنه وخبثاء تجاهه. كان يُسخَر من لكنته، من سلوكه الأنثويِّ، كما وصف نفسه ذات مرة بذلك، من اهتماماته بالتاكسونوميا[1] وحالته الجسدية الضعيفة. باستثناء أخته، التي ماتت للأسف مبكرًا للغاية قبل أن يبلغ مراهقته، لم يكن لديه أي أصدقاء مطلقًا. ما كان يمزق قلبي بالنسبة إليَّ كوني قارئة ليومياته هو أنه صحيح كان باهرًا في جعل نفسه مشغولًا بمفرده ولوقتٍ طويل، ولكنه مع ذلك بدا أنه يشتاق بشدة إلى ونسٍ بشريٍّ.

كان كيناجل يجوب المنحدرات لساعات كثيرة في النهار ويجلس على قمة إحدى الأشجار التي تسمح له حالته الجسدية بتسلقها بصحبة كتاب عن النباتات البرية. لكنه كان يستمر في مراقبة السكان في المنطقة المجاورة له ويصف في أثناء ذلك، مع الالتفات إلى الأحداث التي يُمكن أن تُتجاهل، والمشاهد، التي في الظروف العادية سيُنظر إليها على أنها مجرد أحداث يومية: متى تبدأ المزارعة في حلب البقرة أو عزق الحشائش، كيف تجتمع العائلات في الحديقة مساءً ويجنون معًا الثمرات اللبية[2] للتحلية بعد الأكل، أو بائع الجرائد وهو يقع من عجلته كل يوم سبت بعد ليلة مخمورة، عندما

(1) علم تصنيف الكائنات الحية.

(2) من أمثلتها العنب والكيوي والجوافة.

يُلقي بعدد آخر الأسبوع لجريدة «دير شتورمر[1]» من فوق الأسوار. كنتُ آمل عند كل صفحة بأنه سيقابل الروح المشابهة له، لكن هذا لم يحدث قط معه.

إذا كنتُ استطعتُ أن أستخلص شيئًا من أوصافه، هو أن جروس أينلاند لم تتغير تقريبًا من الناحية الطوبوغرافية، استطعتُ التعرف من جديد على كل الأماكن. عندما كان جالسًا على قمة إحدى الأشجار في منطقته ويكتب بالتناوب عن تغريد العصافير والناس، الذي كان يدرس تصرفاتهم بالدقة الاستقصائية نفسها، لاحظ قطعة الأرض المجاورة مباشرةً لبيت عمه، أي ڤيلا «هيلينا».

هناك عاش أجدادي، كان ذلك المبنى الذي جلستُ فيه. عندما تعرَّفتُ على المنزل لأول مرة في وصفه، كنتُ مدهوشة ومرتابة في الوقت نفسه، لأن في جميع المجلدات الأربعة لليوميات بدا أنه كان هناك تركيز ما غير محدد متوجه نحوه. فقد كان مجرى الأحداث اليومي لجوزيف وبيترا شالا، والدَي أمي التي لم تكن قد وُلدتْ بعد، يُوصف بدقة بالغة. بيَّنت الملاحظات أن يوهان كيناجل، الذي تخيلته واقفًا على جذع شجرة ببنطلون «الكنيكربوكر[2]» وحذاء برباط، وقد بدا عليه أنه شعر بتوجه رقيق بشكلٍ خاص نحو جدي. لم يُضيِّع في أي عام فرصة وصف جدي وهو يتمشى في الصباح الباكر مرتديًا في أثناء ذلك جزمة قطَّاع الخشب الضيقة وقميصه الخالي من الياقة. كما وصف كيناجل نفسه أيضًا وهو يعود إلى بيته في المساء بجذعه العلويِّ العاري وبشعر محلوق بشدة من رقبته وقد قطع فروع الشجر لأجل الشتاء. والشيء الذي حرَّك عواطفي أكثر من أي شيء آخر هو ما عقب ذلك. غالبًا ما كانت زوجته تُنادي من فوق السور إلى البيت المجاور، حيث كانت تُجيب جدتي الثانية «جيردا شڤارتز».

يا له من وصف غريب، فكرة أن أجدادي الأربعة كانوا يجلسون معًا ويتحدثون معًا حتى وقت متأخر من الليل، يشربون النبيذ ويعزفون الموسيقى. ذات مرة، وربما في واقع الأمر لمرة وحيدة فقط، حدث شيء ما،

---

(1) صحيفة ألمانية، أُسست من قِبل جوليوس شترايخر عام 1923، وهي الصحيفة الرسمية للحزب النازي، وكانت تهدف إلى الهجوم الشديد والمعادي لليهود.

(2) بنطلون واسع يصل إلى أسفل الركبة.

الذي عدَّه يوهان كيناجل واحدة من أسعد لحظات إقامته: عندما كان جالسًا في أعماق العشب مساءً وكان يراقب واحدًا من مشاهد الأكل تلك، وفي أثناء نهوضه أصدر صوت خشخشة عالية، ولاحظوا وجوده. جوزيف، الذي كان يوهان معجبًا به للغاية، التفت وراءه، ابتسم ودعاه إلى طاولته. قُدم له قطعة جاتوه. فقط عائلة «آل شفارتز» لم يأكلوا بعد، وعندما حل الظلام بدؤوا، كما وصف كيناجل، في الغناء بلغة أخرى. بصوتٍ هادئ للغاية، كما وصفه كيناجل، الذي لم يستطع أن يفسر لنفسه هذا السلوك كما أعرب عن استغراب قليل شعر به تجاه هذا الفعل. ثم أكلوا هم أيضًا.

هكذا علمتُ من خلال عينَي وأذنَي صبيٍّ يبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا فقط، ما لم أسمعه قط في أي حديث من قبل: والدا والدي، أو أحدهما على الأقل، لا بد وأنهما يهوديان.

(مباشرةً عند هذه الملاحظة سألتُ نفسي عما إذا كان من المحتمل أن يكون ذلك مجرد خيالات، فقد قُنِّنت المواد الغذائية في ذلك الوقت بشكل صارم وبالأخص الدهن، الذي كان ضروريًّا لخبز كعكة، أوشك على أن يكون غير ممكن الحصول عليه).

في السنة الثالثة لإقامته لم تكن عائلة «آل شفارتز» موجودة هناك مجددًا، ولكن قطَّاع الخشب الوسيم والقوي هناك. وكانت الطفلة الصغيرة للأسرة قد وُلدت قبل أشهر قليلة مضت. فقط عندما ظهر الطفل الثاني عند عائلة «آل شالا»، هذا الطفل، الذي ولا بد أن يكون أبي، بدأت حينها التأملات من جديد، لأن الصبي كان يبلغ من العمر عند ظهوره الأول نحو عامين. ولكن حتى ذلك لم يكن شيئًا غريبًا بأي حال من الأحول، عائلة صغيرة بطفلٍ ثانٍ، الذي كان ربما مثل كيناجل نفسه لا بد له من قضاء سنواته الأولى بداخل المنزل. قرر كيناجل بينه وبين نفسه أنه في العام المقبل، حين يشعر بأنه قد صار كبيرًا بما يكفي، كما يأمل، سيتحدث أخيرًا إليه وسيدعوه إلى تناول البيرة معًا. ولكن ذلك الوقت لن يأتي أبدًا.

17

عندما أشرفَ الربيع على نهايته، لم يعد هناك شك قط في أن منزلي قد تضرر بصورة ضخمة من الهبوط. الشق، الذي بدأ أسفل عتبة بابي، خط رقيق يمر عبر جدار لا يشوبه شائبة، نما بوحشية بمرور الأيام. كان التمليط عملية شديدة الاستنزاف أكثر مما كنتُ أتخيل، غالبًا ما كانت تمتلئ البلوزة المغسولة للتو بالعرق، عندما كنتُ آخذ قرارًا قبل ذهابي للعمل بترميم الجدران التي تصدعت بين ليلة وضحاها. كما صرتُ الآن مضطرة على الدوام إلى قضاء المزيد والمزيد من الوقت في عمليات الترميم، التي كانت تستهلك وقتًا أطول لتكون صلبة أكثر مما تستهلكه الجسيمات الرطبة في الوصول من جديد إلى الناحية الأخرى.

شهدنا شتاءً مملوءًا بالانهيارات، حيث كان بندوله المُهدد على الدوام يتأرجح فوقنا. في بداية شهر ديسمبر سمع شخصٌ ما في وقت الظهيرة صوت طقطقة قادمة من بعيد ونظر إلى السماء في دهشة بالغة، احتاج لبضع ثوانٍ حتى استوعب أن السماء كانت زرقاء خالية من السحب، قبل أن يدرك أنه كان برقًا ورعدًا قادمَين من عمق الأرض، اللذين كانا يُهددانا جميعًا. مثل كثيرين آخرين انتعلتُ حذائي بسرعة شديدة ووجدتُ بشكلٍ حدسيٍّ المكان الصحيح الذي انطلق منه هذا الدَّوِي، صف من المنازل، دُفِعَتْ عوارضها الرابطة جانبًا، بدءًا من العارضة القائمة في أقصى اليمين، التي في تفاعلٍ تسلسليٍّ أطاحت بباقي العوارض الأخرى في حركة شبيهة بالدومينو. لم يُصَب أحدٌ بأذى، لأن السكان كانوا قد ابتعدوا عن الجانب الأيمن، ذاهلين من القوة التي عصفت بمنازلهم. وفجأةً داهم الجميع، الواقفين في هذه اللحظة أمام هيكل المنازل، إحراجٌ غامضٌ. كنا نشعر بتصرفاتٍ غريبةٍ باللباقة خلال هذه الأيام. تمامًا

عند ظهور ورم في الفك فلا ننظر إلى هؤلاء الأشخاص بغرابة خاصة في وجوههم ولا أيضًا نتحاشى النظر إليهم، هكذا ببساطة التفتنا جميعًا بعد وقتٍ مبتعدين. تعلمتُ الآن تقدير هذا الشكل من الحساسية، عندما فقط أصابني أيضًا ما أصابهم، وفكرة أن لا أحد سيتحدث معي عن أمراضي الخاصة، كانت تُملئني بنوعٍ غامض من الطمأنينة. بالطبع حتى جاء اليوم الذي انشقَّ فيه بلاطي.

كان قد مرت بضعة أشهر منذ ظهور الشق الأول في جدراني، وكنتُ قد أوشكتُ على التصالح مع هذه الأوضاع، عندما اجتاحتنا موجة حر في بداية شهر يوليه، التي عذبتنا بشكل خاص، لأن في هذا الموسم كان المسبح الخارجيُّ غير صالح للاستخدام إطلاقًا. فوق القبو، في المدخل الخلفيِّ لمنزلي، كان هناك موضع يوجد به بلاط أبيض من الرخام الذي كان يُعنى بتكوين مساحة للتبريد في الأيام الحارة. كنتُ قد طوَّرتُ عادة في السنة الماضية، كنتُ أضع الكرسي الثقيل، الذي أحب القراءة عليه كثيرًا، على ذاك البلاط في الصيف وأقضي أسوأ ساعات النهار هناك. عندما رغبتُ الآن في حمل كرسيَّ إلى الخلف في أول يوم في موجة الحر تلك، لوضعه في المكان الصحيح، تعطَّلت قدماي، بالضبط هناك، حيث كان الكرسي موجودًا على الدوام، كان البلاط قد انشقَّ. حملتُ غراء الحجر وحاولتُ إعادة تركيب القطع معًا، ولكن كان على الدوام إما الكثير من القطع وإما القليل، إما تنقصني قطعة وإما توجد قطعة إضافية لا أدري سبب وجودها. كانت هذه هي اللحظة التي فقدتُ فيها ضبط النفس.

سقطتُ على ركبتيَّ وبكيتُ، كما كنتُ أبكي في الأوقات النادرة. كان شعورًا بالظلم، بالقذارة هو ما دفعني إلى الأرض، كان مجرد منزل. ولكن كل شيء كان يتراكم مثل سائل على خيبات الأشهر الماضية قد انفجر خارجًا مني، حتى ظللتُ بلا حراك على السلم خاليةً من الدموع. مرت نوبة بكائي بالطريقة المفاجئة نفسها التي جاءت بها، والآن شعرتُ بالتململ الذي دفعني إلى خارج الباب. لا، على الأقل لا يستطيع أحدٌ رؤية أي شيء من الخارج، كان ذلك بمنزلة تهدئة قصيرة. ركضتُ إلى القبو، إلى المكان الذي يضطجع أسفل البلاط المنشق مباشرةً، شعرتُ برأسي يدور. كنتُ واقفة في مياه تصل إلى

كعبيَّ، عندما نزلتُ إلى التربة الطينية. وذلك لم يكن الأسوأ، فالغرفة بأكملها، التي لم أدخلها على الأكثر منذ أسبوع واحد فقط، كانت في ذلك الوقت قد انهارت إلى الأسفل. زوايا مائلة تتدافع ضد بعضها بعضًا، في سقف القبو يوجد عمود خشبيٌّ وحيد يبرز من الطوب. عدتُ إلى الطابق الأول مرتجفةً من الاشمئزاز.

نوبة من البكاء العنيف والمتقطع عصفت بي مجددًا، جررتُ جسدي الثقيل إلى غرفة المعيشة الفارغة وتكوَّرتُ على الأريكة. فكرة بشعة لم تسمح لي ببساطة أن أتحرر منها، التي كنتُ على الدوام أحاول قهرها. كان المنزل هو الشيء الأخير المتبقي من والديَّ. كان بمنزلة عُهدة فشلتُ في الحفاظ عليها. بكيتُ سيولًا، بقرع من إصبعي صار المساء. من الأفضل ألا يرى أحد ذلك، أجل، ما دام لم يرَ أحدٌ شيئًا، أستطيع أن أفعل ما أرغب في فعله. كل شيء هنا. فركتُ عينيَّ من النوم الذي انقضَّ عليَّ، ثم توجهتُ إلى الجراج. منذ هذه اللحظة صارت ذكرياتي ملأى بالثغرات.

على أي حال سرعان ما وجدتُ نفسي على أرضية الحمام الباردة مع صيغة تركيبة الحشو منتشرة أمامي للمرة الثانية. فكرتُ في عنادٍ: *إرثي لن يغوص أبدًا*. ولهذا السبب صرتُ فيزيائية، عالمة فيزياء الوقت، لكي أمنح الأشياء الخلود. بدأتُ في ترديد ذلك الهراء بانتشاء أمام نفسي، بينما كنتُ أعالج المواد التي ما زالت لدي، في حوضي، وأقلبها بواسطة عصا خشبية جلبتها من عدة الجراج. ست عشرة مرة ملأتُ وأفرغتُ ذلك الحوض. وهذا يعني أنني اضطررتُ في أثناء ذلك إلى الذهاب إلى متجر الأجهزة مرة أو بالأحرى عدة مرات، لأشتري المزيد من المواد. في ثقة السائر في أثناء النوم وعقود من التدريب على تناول الحبوب كنتُ أتواصل مع الأرض في كل مرة كنتُ ألاحظ فيها تسربًا ما. عندما أرى شيئًا ما يتحرك في الزوايا، كنتُ أردُّ بصري بعيدًا عنه، وإذا أكلتني حكة، أمتنع عن الحك، وإذا كنتُ أعاود صب المواد في الحوض، فسأنجح على الرغم من انغماسي في التفكير مرة أخرى في صيغتي. ثم حملتُ في الحمولة الواحدة برميلين في برميلين إلى الحديقة، حيث بدأتُ لاحقًا في ملء الحفرة التي تؤدي إلى أسفل المنزل. بالطبع ترجرج ساكبًا نصف الكمية من الجوانب.

لذلك عجنتُ المزيد والمزيد. كانت الأرض تتشربه تحت قدميَّ، فارتميتُ على الأرض، حملتُ كمية أخرى، وحشوتُها من جديد. عندما اقترب مستوى مادة الحشو إلى مستوى الأرض، ارتجلتُ أنابيب الحقن للأماكن التي يصعب الوصول إليها. استخدمتُ خرطوم الحديقة وماسورة مياه، مضخة كهربائية للكرة وخزانًا بلاستيكيًا مُخصصًا لمياه الأمطار. استطعتُ تجريب المضخة في القبو فقط وكنتُ مرتاحة من أنني استطعتُ هناك التقلُّب والتخبُّط ذهابًا وإيابًا بين محاولاتي بعيدًا عن الأنظار الراصدة. أدخلتُ الخرطوم في أعمق شق من الشقوق الموجود مباشرةً أسفل البلاط المُنشق، ثم شغَّلت موتور المضخة وسمعتُ صوت السائل وهو يتدفق تجاه التجويف. (اندهشتُ من نفسي عند العودة إلى الوراء من أنني كنتُ في عمليات تمويهي أمتلك الكثير من الحذر والمهارة الفنية، قبل أن أجد لاحقًا على مكتبي تصميمًا لعدة آلات يحتوي على أدق التعليمات، التي حصلتُ عليها أيضًا من فيليب).

لم يكن ما صنعته مثاليًا، لا على الإطلاق، وعندما كان بحوزتي في القبو لاستخدامه في أول محاولة، دُفعت نصف كمية الحشو إلى الأعلى من جديد. ولكن أيضًا ظل ما يكفي في الأسفل، لإعطائي -نظرًا إلى حجم الفراغ الصغير الموجود أسفل منزلي مقارنةً بالجبل- سببًا للأمل. أجريتُ جولة ثانية وثالثة، فقدتُ الإحساس بالوقت، وسحبتُ الخرطوم من التجويف، ودسستُه في صدع آخر، والآن صارت من جديد عشرة، ربما عشرين، لا، بل بالأحرى ثلاثين دلوًا ملأتها، دون أن أعرف إذا ما كان ذلك كافيًا لغرضي. صار القبو بالنسبة إليَّ طويلًا للغاية، استغرقتُ ساعة حتى أجبرتُ نفسي على صعود السلم وغرقتُ في نومٍ عميقٍ في سريري. فقط في اليوم التالي سأفهم أي عواقب وخيمة قد تترتب على ضعفي.

في وقتٍ قصير قد تبدأ التربة في الدخول في مرحلة الاكتئاب التنفسيّ[1] بسبب البلاستيك، قد تختنق النباتات لأسابيع، وفي الوقت نفسه لن تتمكن الكائنات الدقيقة، التي تصطاد في الطبقة العلوية من التربة، من الغوص مجددًا. فقط عندما يضطرب توازن تربتي، حينها لن يكون للحيوانات التي تعيش هناك -السناجب، العصافير، والقوارض- أي فرصة للعثور على الغذاء

(1) أي سيحدث نقص في التهوية.

مجددًا. ستموت حديقتي، وكل ما أستطيعه هو إخفاء ذلك فقط، عن طريق تمويه مؤقت باستخدام نباتات الأصص. كانت جريمة قتل، أو قل على الأقل إنها جريمة قتل غير متعمد، ذلك الذي فعلتُه. نظرتُ في رعبٍ من النافذة، ما زال كل شيء أخضر.

***

يفسر علماء الرياضيات بنية الثقوب السوداء من نوعية ثقب «رايسنر-نوردستروم» كما يلي: عند الحد الخارجيِّ للثقوب السوداء يقع ما يسمى بالأفق الكوشي، هو حد، تصير الجاذبية خلفه شديدة للغاية، لدرجة تجعل معه النظرية النسبية العامة كما الحتمية غير صالحتين مجددًا. بعد عبور هذا الحاجز تنتهي حينها أي سببية فيزيائية[1]، ولا يعود الماضي مسيطرًا على المستقبل مجددًا. بينما يواصل الوقت تباطؤه عند الاقتراب من الثقب الأسود، فإنه يتحول بعد عبور ذلك الحد إلى نقيضه. يتشكل الاختزال الزمنيُّ الأبديُّ وينهار تاريخ الكون بأكمله في لحظة واحدة. إذا دخل شخصٌ واحد إلى هذا المجال في أي وقتٍ كان، فلن يقدر لسوء الحظ أن يحكي عن مشاهداته لأحد مطلقًا، لأن في اللحظة نفسها التي سيدخل فيها أفق كوشي، فسيُفنى بواسطة شعاع جبار من الطاقة.

***

في 13 من يونيه، يوم الخميس، كنا في منتصف الاجتماع عندما وصلنا اتصال ما. رفعت أنيتا السماعة، وكانت ملامحها تتداعى، بينما كانت تومئ برأسها على الدوام. دون أن نعرف محتوى المحادثة التليفونية تلك، كنا جميعًا قد تركنا تلقائيًّا المستندات من أيدينا واستسلمنا لقوتها المشؤومة. كنا أربعة في الغرفة: أنا، مانفريد رئيس مخزن مواد البناء، كارين المسؤولة عن التمويل، وبالطبع أنيتا، التي أغلقت السماعة وأخبرتنا عن اختفاء طفل.

كان الموضوع عن «ڤاليري شبِتز»، طفلة بالغة من العمر ثماني سنوات، التي لم تظهر في فصلها صباح اليوم بعد سيرها نحو ثمانمئة متر فقط في طريقها إلى المدرسة. قالت أنيتا إن الأسرة تعيش بجانب الخندق المائيِّ المحيط

(1) على سبيل المثال: اصطدام كرة بمجموعة كرات البلياردو يؤدي إلى تفرقها.

بالقلعة، وشعرنا جميعًا، دون أن يضطر أحد إلى قولها صراحةً، بالأحداث البشعة. من الخندق المائيِّ القابع خلف مبنى المدرسة الابتدائية، يوجد ممرٌ زراعيٌّ قصيرٌ للعبور يمر عبر حقل صغير، طوله لا يزيد على خمسمئة متر. ولكن على الجانب الأيسر من هذه الطريق، التي على الأرجح قد سارت الفتاة على امتدادها، توجد حفرة. تلك الحفرة لم تكن مدخلًا رسميًّا، بل عبارة عن نفقٍ رأسيٍّ نشأ فقط من خلال الانهيارات، وقد كنا نحاول السيطرة على ذلك النفق بجانب ما نفعله ودون استعجال خاص. قال مانفريد: «يجب أن نراه».

كان هناك حشد من الناس يُمكن التعرف عليه من بعيد بالفعل، وحقيقة أنهم كانوا هادئين للغاية قد جعلته أكثر إثارة للريبة. خلف مبنى المدرسة الابتدائية كانت هناك عربة رجال الإطفاء المتطوعين، وقد أمَّنوا التجويف الصغير بالمناقل الفولاذية. اندفعتُ وسط رجال الإطفاء المربوطين بأحزمة التسلق بينما ينظرون داخل الحفرة، كما لو كنتُ سأساهم هناك بشيء ما معهم. والآن رأيتُ المدخل في حالة غير مؤمَّنة لأول مرة. من الأعلى كانت القناة ضيقة، لا يمكن لشخص بالغ المرور بداخلها، ولكنها كانت تتسع على الدوام نحو القاع. وأوضح لي القائد، وهو محامٍ يرتدي حذاءً مطاطيًّا يبرز من فوق بنطال بذلته، أنه قد يحتاج المرء لساعات، إذا لم تكن أيامًا، لكي يصل إلى قاع الحفرة. آلة، كان لا بد من الحصول عليها من القرية المجاورة، ستوسِّع تلك القناة، تطحنها، حتى يتمكن رجل إنقاذ بالغ من المرور خلالها. قال بصوت هامس، وتساءلتُ في داخلي للحظة، لمَ أنا من يقول لي ذلك: «وحتى لو استطاع فعل ذلك، فإن الفتاة ستسقط بسرعة رهيبة مئة وعشرين مترًا في هذه الهوة دون رادع. أجل، الشبيكة المعدنية زُحزحت، بالطبع من عواصف الأسبوع الماضي، ونعم، يمكن رؤية آثار الانزلاق، ولكن ما زال لا أحد يرغب في دفع الوالدين إلى فقدان الأمل التام[1]».

اهتز في صوته الخوف من إلقاء اللوم على المجتمع، لم تؤمَّن الحفرة بشكلٍ كافٍ. خلفنا، بالقرب من مبنى المدرسة الابتدائية سمعتُ الأصوات وهي تنادي باسم الفتاة. تلألأت حرارة النهار الصيفي الخالي من السحب فوق الطرق الزراعية، التي كانت تتزايد باستمرار وبصورة أقسى في أثناء حديثنا.

(1) هذا الكلام على لسان القائد، ولكن كُتب بصيغة الكلام المنقول غير المباشر.

وأوضح أحدهم بأنه سيُجلب باقي الأطفال من آبائهم على الفور. خلال الساعات الأخيرة ظهرت مجموعة من المتطوعين للبحث عن الفتاة في الغابة. كنا نعلم منذ وقتٍ طويل، أن ذلك ما هو إلا إجراءات لتأجيل الألم، ومع ذلك فقد قررنا أن نعاون في ذلك.

كنتُ أمشي مضطربة ومأخوذة من وعيي المفاجئ بالشعور بالذنب، كنتُ مثل السائر في نومه ذهبتُ إلى المكان، حيث تعلن قوة الصوت فيه عن نفسها من خلال دينامية جماعية[1]. كنا نسير صامتين على الطريق الصاعدة المؤدية إلى الغابة المحمية، حيث انبسطنا في طابور طويل. ضموني في السلسلة وسرتُ، صارخةً باسم الفتاة مرارًا وتكرارًا، على طول طريق الغابة. انكسر الضوء بشكل غير محسوس عبر قمم الأشجار، لم يكن هناك أي أصوات سوى صوت تكسُّر الأغصان والنداء المتكرر للاسم، الذي فقد أي معنى بداخله: «ڤاليري، ڤاليري، ڤالــــيري، ڤا-ليري، ڤالير-ي». كان في أصوات الآخرين عدائية ما، كما لو كانوا يرغبون في الانقلاب على شخص ما. لم يكن استعلامًا من الغابة عن مكان وجود الطفلة بقدر ما كان الاستعلام عما قد يكون المسؤول عن السبب في اختفائها. شخصٌ ما دس في يدي ورقة بها صورة لوجه الفتاة. كانت بورتريه، مثل تلك التي ينتجها مصورو المدرسة سنويًا، عندما يطلبون من الأطفال أن يقولوا «تشيز» أو «شباجيتي»، ويبقى رأس الطفل، مع الكلمة التي تظل محمولة في الفم، مُجمدًا للأبد. كانت «ڤاليري» في تسريحة ذيل الحصان. وهناك، حيث كان يجب أن تكون الأسنان الأمامية موجودة، ثمة فراغ واسع.

مُجمدة، فكرتُ وتخيلتُ مادة الحشو، التي سنوصّلها عبر جميع القنوات، وهي تتجمع في غضون أسابيع قليلة في لزوجة حول جسد «ڤاليري». ليس فقط حول جسد «ڤاليري»، ولكن أيضًا حول أجساد هؤلاء الذين لا يزالون عالقين هناك. مئات الأجساد، التي استولى عليها التعدين لنفسه، أجساد غاص بداخلها الزمن هناك، وكل الذين قُتِلوا ودُفِعوا بوحشية في الوحل. والآن

(1) يشير إلى نظام من السلوكيات والعمليات النفسية التي تحدث داخل مجموعة اجتماعية.

فوق كل هؤلاء صارت الطفلة، جاهزة للبقاء مُجمدة للأبد في القبضة العنيفة لتقنية مادة الحشو. داهمتني رعدة على الرغم من الحرارة اللافحة.

تنحيتُ جانبًا عن المسيرة، تعثرتُ عبر الشجيرات في طريق الغابة وركضتُ خارجةً منها تجاه منزلي. رغبتُ في الوصول إلى سريري بأسرع ما يُمكن، تعتيم الغرفة والعودة من جديد إلى نفسي. لكن عندما نزلت إلى شارع «يوهان»، كان هناك شيء مختلف: فوجئتُ بوجود الكثير من الناس واقفين في مجموعات في الشارع ويدخنون. دون سببٍ حقيقيٍّ، كان في ذلك شيء لا يدعو للاطمئنان، كما دائمًا أربعة وأربعة، سبعة وتسعة كانوا يحتشدون معًا، على الرغم من أن لا أحد فيهم كان ينطق بكلمة. نظرتُ حولي خفيةً، في ترقب من أن أحدًا منهم قد يجبرني على التوقف. عندما توجهتُ يمينًا في شارع «القمر»، مررتُ بجانب بضعة شباب يرتدون السلوبِت الأزرق وتعجبتُ، لأن ورش تصليح السيارات لا تزال بعيدة للغاية عن هنا. حينها سمعتُ لأول مرة اسم جاري «جلوترزات».

في منزلي انحلَّ عني تخدير الشارع دفعةً واحدة. شربتُ بيرة في وضح النهار، وهو ما لم أفعله من قبل قط، لأنعش نفسي، وبينما كنتُ أتابع عرض المحاكم[1] الممل في التليفزيون والستارة الفينيسية مُغلقة، والمجرم ذا الخدود المتوردة والمنتفخة الشبيهة بمراهق يسمع نتيجة اختبار الأبوة DNA، غفوتُ.

استيقظتُ من جديد فقط عندما كانت الشمس مشطورة بالفعل على حافة المنزل المقابل. بعد بضع ثوانٍ استغرقتُها لنفض النوم عن عيني، فتحتُ النافذة. على بُعد بضعة شوارع كان يمكن سماع ضوضاء، كما لو كانت محمولة لي من أقاصٍ بعيدة. سرعان ما ارتطم بالستارة الفينيسية[2] التي لا تزال مُغلقة صياح يتزايد علوه على الدوام، الذي بدا أنه يقترب قادمًا من الشارع الرومانيِّ. فصلتُ بأصابعي شرائح الستارة الفينيسية عن بعضها بعضًا. من اليسار، لا يزيد على مئة متر من منزلي، رأيتُ الآن من نافذة غرفة

---

(1) برنامج إذاعي يعرض المحاكم الحقيقية أو المُعاد تمثيلها، وقد حظي بشعبية كبيرة في ألمانيا.

(2) شيش النافذة، عبارة عن ستارة شرائحية مصنوعة من البلاستيك أو المعدن.

المعيشة شخصًا انحنى مع الناصية، ثم اثنين، ثم ثلاثة، ثم أربعة، ثم عشرة أشخاص. بعضٌ منهم جروا شِكارة ثقيلة من الجوت بأربعة أحبال وراءهم. تهاويتُ على ركبتيّ بشكلٍ غريزيٍّ واختبأتُ أسفل حافة النافذة. وكان لا بد لي من معرفة ما يجري. قبل أن يصلوا إلى منزلي بقليل، كنتُ قد طلعتُ من جديد من اختبائي وشاهدتُ المجموعة وهي تمر. أتذكر الفزع النقيَّ الذي اجتاحني، لأنني كنتُ خلال هذه الثواني القليلة، التي احتاجها الموكب للمرور من منزلي، قد رأيتُ الكراهية الخالصة والواضحة في لغة جسدهم. لم يحاول أحدٌ إخفاءها، والبعض منهم كان يمسك في يده بعِصي تركوها تُجر خلفهم على الأسفلت. وشخصٌ آخر حمل طاقيته المسطحة بعيدًا عنه، كما لو كان قد لوَّثها بالخطأ.

أصابتني دوخة. ما قد اعتبرتُه من موقعي كيسًا، ترك وراءه أثرًا في الأسفلت. فكرتُ وشعرتُ بالتعب: دم، دم، *لا بد أنه سال من جسد ما*. كنتُ أحاول بشكل ميؤوس منه للغاية استعادة التقاط أنفاسي، لدرجة أنني لم ألاحظ الوقت وهو ينقضي. بلى، لقد رأيتُ قميص كاروهات وجثة ثقيلة وضخمة. من ناحية أخرى كنتُ في حالة سُكرٍ بسيطة، لذا لم أستطع استعادة الصورة بوضوحٍ في ذاكرتي. لاحقًا عندما خرجتُ إلى الشارع، لأنني لم أعد قادرة على احتمال الجلوس في أفكاري الخاصة، لم يكن هناك شيء على الأسفلت.

18

عندما حسبنا، أنه لا يزال يتبقى سبعون يومًا حتى موعد الحفل، كنا جميعًا، ونحن نجلس حول الطاولة، فاقدي الأمل، من أن المدينة قد تتجاوز هذه المحن خلال أقل من ثلاثة أشهر فقط. وحتى لو نجح ذلك، فما زلنا لن نكسب المزيد أيضًا، ولأنني تركتهم يقتنعون بأننا لن نحرز أي تقدم، فلا نزال أيضًا لا نملك مادة دعم. ومع ذلك كان هناك استثناء وحيد: بدت الكونتيسة بأنها في أفضل حالاتها المعنوية. كان على الطاولة حلوى البرالين[1]، شوكولاتة باهظة، وأنا أعلم أن الكونتيسة اشترت نصف كيلو منها ودائمًا ما كانت تأكلها بمفردها. ونحن الآخرون كنا نستهلك القهوة المُفلترة.

قالت وفتحت أمامنا ورقة بها تصميم: «لقد تحدثتُ مع مهندس سيصمم لنا هذا الموجود هنا. قطار الموت في هذا الفراغ».

اعتادت الكونتيسة أن تشير إلى الحفرة على سبيل التلطيف باسم *الفراغ*، هكذا كما لو كانت فُرِّغت الأرض قصدًا بصورة مُخطط لها، لكي تُزوَّد الآن باختراعاتها.

- سيتمكن من بناء ذلك مقابل ثلاثة ملايين يورو. هل لا يزال ذلك ضمن حدود ميزانيتنا، يا فيليب؟

وجَّهت الكونتيسة لي، كما اعتادت دائمًا أن تفعل، هذا السؤال ليلًا عند نحو الساعة الثالثة صباحًا، ودفعتني من حالة النوم للحظة، قبل أن أعود للغفو من جديد وأنا أشعر بالغيظ من أنني لم أسحب الخط الأرضيَّ من الحائط كما كنتُ أفعل في أغلب الأوقات.

---

(1) يختلف شكلها من بلد لآخر، هناك ثلاثة أنواع رئيسية منها: الفرنسية، البلجيكية والألمانية.

قال فيليب بحذر: «لا أعتقد ذلك».

وصمت الباقي.

أصرَّت الكونتيسة: «أنا أعتقد أنه ممكن».

وأشارت كإثباتٍ على كلامها إلى الورقة، التي بموجبها من المفترض أنه سينطلق في حركة رأسية بحمَّالات فولاذية إلى داخل الأرض. أظهر الرسم الأوَّلي أشخاصًا يصرخون من السعادة في أثناء الحركات اللولبية بداخل الأنفاق الرطبة. أي أحد كان يستطيع التعرف على الفخر والثقة الموجودين في يديها المرفوعتين على بُعد أمتار قليلة فقط من حائط النفق.

تابعتْ: «يمكننا أن نوفر الأموال عند مواضع أخرى. أنا لستُ على دراية كافية بخطوط الكهرباء ذات الجهد العالي، ولكن من الواضح أننا مضطرون إلى سحب بعضٍ منها، هل يمكنك فعل ذلك في أسرع وقتٍ ممكن، يا سيد لوريت؟ من المفترض بالطبع أن نبدأ بكل شيء على الفور».

ساد صمت مزعج من جديد، قبل أن يجيب شخص ما.

قال مانفريد لوريت أخيرًا: «يا كونتيستنا الفاضلة، هذا مستحيل. فنحن قد لا نحصل على شهادات الأمان، كما لا نملك المواد المالية وبالإضافة لذلك حدث انهيار هنا وهنا. (أشار إلى مواضع الحمَّالات الفولاذية) الهبوط المتواصل للأرض شديدٌ بصورة ملحوظة. وقد يغرق قطار الموت في غضون أيام قليلة».

- حسنًا، يجب إذن أن نجد حلًّا.

اختتمت الكونتيسة كلامها، كما لو أن ما قيل للتو كان تأكيدًا لتصميمها.

كانت المدينة قد صارت بمرور الوقت عبارة عن قطعة واحدة من الأطلال. لم يعد من الممكن إنقاذ شبكة الطرق المُنظمة، كانت القطع المشوهة التي وصلت إلى الطريق التي تسير فوقها السيارات مرتفعة للغاية ولا يُمكن التغلب عليها، لدرجة أنه لا يمكن لنا أبدًا الوصول إلى السوبرماركت دون الدفع الخلفيِّ. في وسط المدينة على وجه الخصوص داهم التحول الذي حدث بصورة مفاجئة تمامًا بعض السائقين، لذلك كانوا يقودون بداخل الأماكن الهابطة، ولكن لم يعودوا قادرين على الخروج منها، وتركوا سيارتهم خلفهم،

فظلت إلى الآن في منتصف الطريق، كما لو كانت قد تملَّكها عطل الزمن. كان أداء السكان في التناسي واضحًا للغاية، إذا صار رصيف المشاة مفقودًا خلال يوم أو ذلك الرصيف، الذي لا يزال هناك، منخفضًا عن مستوى الشارع بمقدار متر، ففي اليوم التالي نجد حبلًا يمر موازيًا للرصيف مربوطًا بين عمودَي الإنارة، الذي يتشبث به الجميع في طريقهم اليومية، كما لو كان ذلك كله طبيعيًّا للغاية، عيش حياة مثل حياة المعسكر الرئيسيِّ لجبل إيڤرست.

كان النزل، الذي جُمع بالكامل حول الساحة الرئيسية المُدمَّرة، مُعرضًا لخطر الانهيار، وهو ما لم يمنع أحدًا من الاستمرار في التردد عليه. في الغرف الخلفية كان طلاء الغرف مثبتًا بواسطة عِصي البلياردو وفجأةً كان كل نزل يشتري أعدادًا متزايدة من آلات السلوت[1]، لتمويه يُدر ربحًا على الشقوق في الجدران. في الصباح دخل شرطي إلى المباني المُخرَّبة وأخرج الناس منها لأسباب تتعلق بالسلامة الأمنية العامة للمباني والسكان، بحلول الظهر كانت مملوءة من جديد على آخرها. عندما تشكَّلت أكوام ضخمة للغاية من الأطلال، وهذا ما كان حتميًّا أصلًا، صبَّ مكتب البلدية كميات هائلة من التربة في مواضع التآكل المخروطية وشكَّلوا منها أحواض زرع أسطوانية الشكل، زُرعت لاحقًا بأزهار الداليا.

بالتوازي مع هذه الانهيارات أستطيع أن أتذكر بشكل خاص الشيء الصغير. عندما بصقتُ معجون الأسنان ليلًا في حوضي، كانت الدوامة، التي من المفترض أن تتشكَّل في المنتصف وفقًا لقوانين الطبيعة، قد تحطمت مثل دائرة ممزقة. وعندما اختفى السائل في وقتٍ ما بداخل المجرى المائيِّ، شعرتُ بجوربيَّ مبتلَّين، لأن في ليلة وضحاها تكوَّن صدع في الحوض.

مرة أخرى، كنتُ أمشي في شوارع البلدة ليلًا، وفجأةً علا صوت تزييق ما، كما لو أن شخصًا ما وضع العتلة[2] على العالم. بقيتُ بلا حراك في الظلام، مقتنعة بأنني مَن تخيلتُ ذلك فقط، حينها دُفع بأبواب الحديقة الحديدية، كما لو مسَّتها يد غير مرئية، خارجةً عن مفاصلها بفعل قوة متوترة وانفتحت

(1) آلة قمار.

(2) أداة لخلع المسامير.

متأرجحة. أولًا باب واحد، ثم الثاني على بُعد خمسين مترًا في الأسفل، ثم الثالث أو الرابع في أسفل الشارع، حتى امتلأ الهواء بطقطقة المعادن.

ولكن كان الرعب الأكبر هو البقعة الوحيدة التي لم تتأثر بالهبوط المتكرر: حديقتي. لا يزال لم يلاحظ أحدٌ الكثير، ولكن بدءًا من الكانيولا الموجودة على واجهات المنزل، التي من خلالها كنتُ أحقن مادة الحشو، كان العشب يتزايد باستمرار في اخضراره، وكانت رؤوس الورود، التي زرعتُها فيها في حالة نصف يائسة، كانت مُعلقة على الأرض، وكانت شجرة التنوب الضخمة في أثناء ذلك تحتضر ببطء تدريجيٍّ. صليتُ بألا يلاحظ أحدٌ غيري ذلك، وكنتُ أسقي كل شيء أربع مرات في اليوم.

قالت الكونتيسة: «حسنًا. لا يتبقى سوى شيء وحيد كان علينا جميعنا أن ننتظره».

وشدَّت الشريط المطاطيَّ لدفتر ملاحظاتها المُغلَّف بجلد العجل، كما لو أنها إطلاق نار، طلقة البداية. انحل شريط المطاط للأسفل، وارتجفتُ، بالطبع كانت تقصدني بذلك، كل يوم كانت تقصدني، وكان الجميع الآخرون كذلك أيضًا، عندما كانوا يمرون عليَّ متسللين خلف مكتبي بتوتر وغضب مكبوت، بينما كنتُ أؤدي عملي في التنكر والاختباء.

قال شتوكر رئيس مصلحة المباني وخبط على راحة يده عدة مرات بورقة التصميم الملفوفة: «أجل، سيدة شڤارتز، كيف إذن ترين الوضع؟ سيكون من المستحسن بالنسبة إلينا إحراز تقدم في مسألة مادة الحشو».

قلتُ بإيجاز غير مريح: «أنا على وشك تحقيق النجاح».

أجاب شتوكر بنبرة غاضبة واضحة: «هذا جميل جدًّا، سيدة شڤارتز، ولكن كان لا بد لذلك أن يحدث يومًا ما أيضًا. ربما لا تدركين تمامًا أي تكاليف ناجمة عن ذلك التأخير».

- بدءًا من اليوم وخلال أسبوع سأحصل على نموذج أولي.

بدأ مرة أخرى في التحدث: «يجب أن نطلب مركبات التعبئة، وتدريب العمال عليها، الأمر الذي بالتأكيد سيستغرق نصف سنة».

أضافت الكونتيسة، التي اعتادت أن تدافع عني في أكثر المواقف غرابةً، إلى كلامه: «نعم نعم، سيدة شڤارتز ستفعل ذلك بالفعل».

تابعت الكونتيسة: «سيعود المال للتدفق إلينا من خلال السياحة. الفنادق تستعد بالفعل. أليس ذلك صحيحًا، يا سيدة رايش، لو استنفدنا السعة التي لدينا بأكملها، فيمكننا حينها تحقيق ربح ماليٍّ مفرط؟».

قالت السيدة رايش، التي تُمثِّل في حلقتنا قسم السياحة: «حسنًا، أجل، لو».

انتهى الاجتماع، وكنا نلهث كما لو كنا بعد أحد سباقات الماراثون. لم يعد هناك شك في أننا، باستثناء الكونتيسة، قد وصلنا إلى نهاية طاقتنا. كنا قد ثبتنا إدارة فعالة لأي تشتت يحدث ومارسنا هذه السلطة بأعين مُغلقة في إجلال واحترام.

كما يحدث كل يوم بعد انتهائي من وقت العمل كنتُ أعبئ حقيبة كتف كنتُ قد جلبتُها معي إلى القصر بالوثائق التي كنتُ أنوي العمل عليها أمام التليفزيون وفي الصباح سأجُر جسدي المتثاقل من جديد عبر الطريق الشاهقة إلى القصر. على الرغم من أنني كنتُ أنقل جميع الأوراق التي بدت أنها مهمة لأبحاثي الخاصة بهذه الطريقة منذ أشهر، فإنني كنتُ على الدوام قَلِقة، عندما أمُرُّ على الكهرمان، وكنتُ من باب الاحتياط أدس كل ورقة في حقيبة الأوراق الخاصة بالعمل.

كانت أمسية صيفية فتيَّة جميلة شبيهة بالأحلام، حيث حُمِلَتْ صرخات الشباب إلى أعلى الجبل، كانوا غارقين في سعادتهم بالإجازة، قضوا النهار بأكمله في ملعب كرة القدم. في هذه الأوقات انقضَّ عليَّ شعور العزلة المؤلم بأقصى قوته، كما لو أن لطف الطقس يرغب في إدخالي في حالة من الرضا، لم أكن قادرة على الإحساس به. فكرتُ: *لكن ما الذي تغيَّر؟ على أي حال سوف أذهب قريبًا*. وفتحتُ أبواب بيتي. هناك كان عليَّ أن أشقَّ طريقي مارةً بأكداس من الصناديق، مثل شخص يعاني من اضطراب التخزين القهريِّ[1] يعيش في بيت عبارة عن أنظمة من الممرات التي تضيق على الدوام. على

(1) الإفراط في تكديس وتجميع المقتنيات والصعوبة الكبيرة في اتخاذ قرار بشأن التخلص من الممتلكات الشخصية غير الضرورية.

العكس من غرفة المعيشة، كان كل شيء قد أُفرغ منذ وقت طويل. منذ ما يقارب الشهور الثلاثة كنتُ أعيش في غرفة شبيهة بغرفة التخزين. كنتُ قد ملأتُ جدران غرفة المكتب بأكياسٍ مُعبأة، كما لو كان عليَّ خلال كل لحظة القفز في سيارة الهروب المنتظرة أمام منزلي صارخةً. ولكن بالطبع لم يكن هناك حديث عن ذلك. هذا الاستعداد الدائم للانتقال الخياليِّ من بيتي كان في حقيقة الأمر، كما أدركتُ اليوم، فعلًا تعويضيًّا عن أنني لم أفعل أي شيء منذ وقتٍ طويل جدًّا.

كنتُ أحاول عبثًا خلال الأسابيع الماضية استعادة سيارتي التي ظلت في الورشة لمدة سنتين ونصف في انتظار التصليح. لم أستغرب ذلك الأمر قط. ولكن عندما دخلتُ إلى الورشة الأسبوع الماضي ووجدتُ سيارتي في الحالة نفسها بالضبط التي سلَّمتُها فيها إليه، أدركتُ أنها لا يمكن أن تكون مجرد صدفة. اضطررتُ إلى المناداة ثلاث مرات قبل أن يأتي ماريو بخطوات واسعة، وهو رجل مُصاب بآثار الجدري، هذا ما عرفتُه أيضًا بجانب ذلك كونه عامل مضخَّة البنزين. للحظة تملكتني حيرة بخصوص الكلمات التي يمكن أن أستخدمها لأطلب بها سيارتي، بعدما اختفيتُ لمدة ثلاث سنوات تقريبًا. عندما استدرتُ، بينما كان ماريو لا يزال يحفر باحثًا بلا مهارة في الكمبيوتر، لاحظتُ أن سيارتي كانت الوحيدة في صالة الورشة بأكملها، وأنها كانت لا تزال في الموضع نفسه الذي تركتُها فيه، على رافعة السيارات. كان البارومتر[1] محشورًا في الإطارات بلا أي دافع، لم يحدث شيء. في اللحظة التي لمستُ فيها جناح السيارة[2]، وقع مفتاح الصوامل على الأرض. تجوَّلتُ في المكان ورأيتُ ماريو، حيث كانت أصابعه وكأنها تتظاهر بوجودها على لوحة المفاتيح، كان الوضع شبيهًا بجلسة تصوير لعازف بيانو. حتى لا يكسر هذه المهزلة، قال ماريو أخيرًا، كما هو متوقع: «ربما خلال أسبوعين».

أومأتُ بالإيجاب.

عندما وصلتُ إلى بيتي بعد زيارة الورشة، بدأتُ في حزم أشيائي، كان وجودها في الطرقة قد أعطاني شعورًا بالأمان بأنني في حالة اتخاذ القرار لن

---

(1) جهاز لقياس الضغط الجوي.

(2) الجزء الذي يغطي العجلات الأمامية والخلفية للسيارة.

أحتاج أكثر من عشرين دقيقة لأترك كل شيء خلفي. سواء كانت الكونتيسة هي مَن تدخَّلت حتى لا تُصلح سيارتي، أو ما إذا كانت هذه هي التقاليد العامة، أنه لم يفكر أحدٌ من قبل في الانتقال من جديد، فأنا لم أعد أبالي بكل هذا منذ وقتٍ طويل. لم تعد حياتي تطيق أي ألغاز أخرى. جلستُ على مكتبي الفائض عن آخره تقريبًا، كان مملوءًا للغاية لدرجة عطَّلتني عن العمل لوقت طويل. لسنين كنتُ لا أفعل شيئًا سوى عمل مُفكك الشفرات: إيجاد أنماط، مجموعات دلالية ما ذات معنى في الأوراق الرسمية، فقط لكي أعود للشك من جديد في كل هذا مع حدس المُحقق. وجدت إحدى وسبعين حالة، كما أسميها. خمس وعشرون حالة اشتُريت فيها قطع الأراضي من قِبل عائلة الكونت في عام 1950، وسبع وأربعون صفقة أُجريت عام 1962 بعد محاكمة شلاف. لم يعد هناك قطعة أرض لم تُشتر تقريبًا. جميع الحالات الإحدى والسبعين نُسقت وزُوِّدت بمواد مُثبتة صحتها وجاهزة للتسليم. ولكن لمَن أصلًا تُسلَّم؟

ثم في بعض الأيام كان يعود كل شيء للانهيار من جديد فوق رأسي. كنتُ أسأل نفسي في أشد اللحظات قتامة، ما هو الفرق الذي يُحدثه أصلًا أربعة وثلاثون شخصًا ميتًا أو مئتان أو ألفان، إنه شيءٌ تدريجيٌّ، فلأي غرض إذن كنتُ أغوص في ذلك؟ ما المغزى من إيجاد المكان الموجودين به، والأسماء ومن ثم هوية الذين دفنوهم؟

ما الفرق الذي تُحدِثه معرفتي عن الكونتيسة، التي اكتشفتُ منذ وقت طويل شيئًا بشأنها وهو أنها لم تكن كونتيسة وأن عائلتها كانت فقط لها مسارًا مهنيًّا في مجال الصناعة قبل سبعين عامًا وأنها ارتقت فقط من خلال عملٍ بيروقراطيٍّ غير متوقع في الملكية؟ ما الذي يعنيه أصلًا أن تكون كونتيسة حقيقية، إذا كانت كل الدماء النبيلة في الأساس شيئًا خياليًّا ومبتكرًا؟

كانت القصة قد صارت مجنونة. كنتُ أعرف بشكلٍ حدسيٍّ، ما الذي حدث، ولكن كنتُ على الدوام غير قادرة على إثبات ذلك، ولا حتى أمام نفسي. كان ذلك معركتي اليومية. كان الأمر واضحًا للغاية: لا يمكن أبدًا لعشرة رجال وحدهم قتل ثمانمئة عامل سُخرة، ومن البديهيِّ لم يكن على سبيل المصادفة البحتة وجود الجثث لاحقًا في حدائق الناس.

والشيء الساخر يكمن في ما يلي: كل الوثائق التي احتجتُها لأستطيع إثبات متى حدث بالضبط ما قد حدث، كان والداي قد استعاراها وجلباها إلى فيينا. بمرور الوقت بدأتُ أقتنع بأنهما كانا يُجريان بحثهما عن الشيء نفسه الذي كنتُ أبحث بشأنه، وكنتُ أحتاج لنتائجهما. بعد صراع طويل اتخذتُ قراري في النهاية بالكتابة إلى خالتي. والآن كنتُ في انتظار المواد منذ عدة أسابيع بالفعل، وما زالت لم تأتِ قط.

لا شيء يناسب الحواف، مراحل الانتقال ظلت بالية ومهترئة. عندما أُزيلت الأنقاض بسرعة كبيرة أو عندما تُخطِّيَت بضعة أسابيع في قصة كانت سابقًا في سردٍ زمنيٍّ كرونولوجيٍّ[1] بالكامل، عندما صارت الكلمات ملأى بالفجوات وغير دقيقة، نسختُ المستندات وبدأتُ في التفكُّر فيها مليًّا. كان لدي الحاجة الجامحة إلى الاتهام، ولكن حتى ذلك لم يكن شيئًا، على الدوام تقريبًا لا شيء. لكن كان هناك شيءٌ أقل مما ينبغي، اختفاءٌ ما. كان من المفترض أن أكون قادرة على إثبات الأشياء لكي أُسلِّمها إلى الصحافة، التناقضات وحدها لم تكن كافية. بعد عشر دقائق من النبش في الزحمة، كنتُ بجانبي تمامًا. كنتُ على وشك تسليم المواد إلى الصحفيين، ولكنني كنتُ متخوفة من العواقب. كنتُ على وشك المغادرة، ولكني كنتُ مُتلبِّدة بصورة هائلة بداخل تلك المدينة. اتخذتُ جميع الاحتياطات الوقائية اللازمة، ولكن الحياة بعد مغادرة جروس أينلاند بدت لي شبيهة بموجات من الضباب، لم أستطع تخيُّل أي شيء بداخلها.

نظرتُ إلى الساعة وأدركتُ أنني لمدة ساعتين كنتُ أفعل أشياء عبثية لا تؤدي لشيء. لم يعد هناك أيضًا شيء لفعله، كل شيء أُفرِغَ في الصناديق، وعلى الرغم من أنني لم أكن أتطلع إلى ذلك بقلبٍ فَرِحٍ، ولكني شعرتُ بالارتياح بطريقةٍ ما، عندما توجهتُ عند الساعة السابعة مساءً تقريبًا إلى لهوي الاجتماعيِّ.

(1) تأريخ الحوادث وفقًا لتسلسل وقوعها، أي بشكلٍ خطيٍّ.

19

في صباح اليوم التالي فاجأتني دقة جرس باب بيتي في أثناء الاستحمام. عندما رن الجرس أيضًا للمرة الثانية والثالثة، ربطتُ أخيرًا المنشفة وسرتُ إلى الباب بشعرٍ لا يزال يقطر ماءً. كان فيليب فقط، رغب في تنبيهي بشأن العمل.

قلتُ: «يا إلهي، لقد كنتُ للتو تحت الدش».

وكنتُ على وشك صفق الباب بشدة مرة أخرى، ولكنه حَشرَ قدمه بينهما.

قال وكان تعبير وجهه جادًّا للغاية: «إنه شيء مهم».

- لا أحتاج لمحاضرة أخلاقية، عندي اليوم إجازة. هل اشتكت الكونتيسة من ذلك؟

- لقد استعدتِ سيارتك كما أرى.

- أوه نعم، الآن عندما تعود الطرق من جديد صالحة للمرور، أعتقد أن ذلك لن يضر أحدًا.

قلتُ مُتجنبةً نظرته: «ما الخبر؟».

كانت سيارتي، بشكل مفاجئ وخلافًا لكل التوقعات، واقفة ذات صباح أمام بابي، وكنتُ أتأكد يوميًا عند العودة إلى المنزل، بأنها لا تزال موجودة هناك. كنتُ لم أزل لا أستطيع فهم أنها كانت موجودة في ممتلكاتي وأن مفاتيح سيارتي تُشخشخ في حقيبتي جاهزة للإقلاع. والأكثر من ذلك: منذ بضعة أيام كنتُ أتدرب، كما أسمي ذلك تدريبًا، على الجلوس خلف عجلة القيادة يوميًا لبضع دقائق. كنتُ أصبر على البقاء هناك في حالة تشنج جسديٍّ كامل، اليد

فوق المعشق، كما لو أن سيارتي ستنطلق رأسيًا خارجةً من الجراج وتغادر هذه الأجواء. لحسن الحظ بدا فيليب غير مهتم بشأن سيارتي.

- لا أريد شيئًا محددًا، كنتُ فقط في طريقي للعمل فرغبتُ في سؤالك شيئًا ما.

وخطا خطوة من قدمٍ إلى أخرى وتنحنح. قال أخيرًا على نحو غير متوقع: «حديقتك».

ثم أوقف كلامه من جديد على الفور.

- ماذا بشأن حديقتي؟

وفجأةً قلَّت قوة أصوات المنطقة المحيطة.

- لدينا جميعًا هناك في المكتب في الأعلى[1]، أجل لا يهم. أعتقد أنه هناك أفضل مكان يمكن رؤيتها منه. ولهذا كنتُ سأسألك شيئًا بشكلٍ شخصيٌ مرة أخرى. لكي أكون صادقًا، لقد كنتُ مصدومًا عندما أدركتُ ذلك.

مثل متسابقَي مئة المتر[2]، اللذين يفصل بينهما فقط مقدار شعرة، لم يكن قد رأى أحدٌ كيف أن الطبيعة في حديقتي كانت تتسابق مُندفعةً بسرعة إلى شريط نهاية الصيف حيث الجفاف. ولكن بحلول نهاية شهر يوليه، عندما انتشرت الأشرطة البرتقالية في جميع المروج لتدفعها برقةٍ بعيدًا عن دورة حياتها لهذا العام، كانت أرضي قد جفَّت من الحرارة بالفعل. كنتُ أسقيها وأسقيها، ورششتُ النباتات بقطرات المياه الضئيلة، لتبريدها من الأعلى، ولكن كان الأمر ميؤوسًا منه. في خضرة المدينة كانت هناك بقعة صفراء قريبة للبياض، كما لو أن شخصًا ما أطفأ سيجارة ضخمة في الطبيعة وخلَّفت وراءها نسيجًا ميتًا. تعاملتُ مع تحريات الجيران بارتباكٍ، حيث ادَّعيتُ بأنني استخدمتُ سمادًا غير مناسب، ولكن سرعان ما أصبحت العواقب وخيمة للغاية بحيث يتعذر معها الاستمرار في حججي. تجاه أرضي كانت تنمو الشكوك في هدوءٍ. عندما استيقظتُ ذات صباح، كانت شجرة الزيزفون الموجودة في حديقتي نفضت عنها جميع الأوراق في نفس واحد أخير، وكنتُ أدفع بها في

(1) يقصد قصر الكونتيسة.

(2) مسابقة الـ 100 متر هي أقصر مسافة سباق تقام منافساتها في المضامير المفتوحة.

الأكياس، قبل أن يستطع أحدٌ ما رؤية ما أفعله. قبع فوق كل شيء رائحة عفن لا يُمكن تجاهلها، ولكن مَن قد يلاحظ ذلك في مدينة تلتهمها حفرة هائلة؟ كنتُ أشعر بالخجل من مادة الحشو، ندمتُ على ذلك، ولكن الآن لم يعد من الممكن تغيير شيء.

كان الحدث الأكثر ترويعًا حينما كنتُ ذات يوم بعد العمل سأحمل طردًا عبر المدخل الخلفيّ، وأخذتُ عبر الفناء الخلفيّ الطريق التي، في واقع الأمر كنتُ أتجنبها منذ وقتٍ طويل، كنا في نهاية الصيف في يومٍ خالٍ من الرياح، ومع ذلك كانت هناك حركة غريبة في المروج. كانت الأعشاب الجافة منذ وقتٍ طويل تتمايل ذهابًا وإيابًا. عندما انحنيتُ إلى الأسفل لأرى ما الذي يُثير مثل هذه الحركات المتموجة، أدركتُ أن المرج الأصفر بأكمله كان يعج بالديدان: ديدان نجت بنفسها من الأرض الفارغة من الهواء، ديدان تتلوى في ضياعٍ بين السماء والأرض.

استلقيتُ على الأريكة في صدمة. سمَّمتُ الطبيعة لأنقذ بيتًا لا يمكن إنقاذه على أي حال. منذ ذلك الوقت وانتابني خوفٌ من ذلك، عندما كنتُ أجلس للعمل، عندما آكل، عندما كنتُ أبدو فقط من الخارج بأنني أقضي وقتًا ممتعًا، ولكن قبل كل شيء عندما كنتُ أنوي الذهاب للتمشية، مثلما كنتُ أفعل ذلك سابقًا في كثير من الأحيان. ثم صارت الخيانة أكثر ما يرهقني. هل أحببتُ هذا البلد حقًّا من قبل؟ أجل، بالطبع أحببته، وكان الشيء الأكثر أهمية وما زال هو أنني لم أُسلِّم مادة الالتئام[1]. لقد كانت بقعة صغيرة للغاية، التي لمسها السم. ومع ذلك طاردتني خيانتي مثل طفل شقيٍّ وقح، وشعور متواصل بالذنب تجاه كل زرع غض. عندما كنتُ أمُرُّ على شجرة ما، أنظر حولي خفية، كما لو أنه من غير المسموح أن يضبطنا أحدٌ ما معًا.

- كنتُ أظن أن بيننا شيئًا ما متبادلًا.

كانت هذه أول مرة يتحدث بها فيليب معي بهذه الطريقة. تبخَّر استعداده الظريف للمغازلة، بينما صمتُّ أنا، انقضى وقت الأكاذيب منذ زمن.

(1) أي مادة الحشو.

تابع: «أرغب في أن أكون صادقًا معكِ. لا أعرف لمَ تفعلين ذلك، لكنها أنانية مفرطة منكِ».

قلتُ وسمعتُ نفسي كيف بدا ذلك مثيرًا للسخرية: «لا أستطيع تنفيذ رغبتكَ».

- جميعنا بالأعلى نعلم أنكِ وجدتِ مادة الحشو.

***

مسكتُ أنيتا بذراعٍ واحدة في المكتب، بالطريقة نفسها التي يتلقَّف بها شخصٌ ما الكرة، التي يراها من طرف عينه مسرعةً نحوه. حدث ذلك بصورة لا إرادية تقريبًا، لهذا السبب لم أعرف في اللحظات الأولى كيف من المفترض أن أشرح هذه الإيماءة.

سألتْ: «هل هناك شيء؟».

أومأتُ بالإيجاب أولًا ثم بالنفي بانتباه مشتت.

- كنتُ سأسألكِ إذا كنتِ تحبين الذهاب معي ربما لشرب البيرة، مثلًا الآن.

قالت: «لم ننتهِ بعد».

على الرغم من أنها كانت قد علَّقت معطفها على ذراعها مُستعدةً للانطلاق.

بعد أن تبين أنني أخفيتُ مادة الحشو، فتر الجو بشكل ملحوظ في المكتب بعد الانفجار الذي كان لا بد لي من توقُّعه. والشيء المثير للاستغراب أن الكونتيسة كانت أول مَن سامحني، وذلك، على الرغم من أن قصتي بأنني رغبتُ في اختبار المادة بنفسي كانت غير معقولة ومملوءة بالثغرات. ومع ذلك، بعد أن قالت بضع جُمل صارمة بشأن خطيئتي، فقد تركت الموضوع تمامًا. أكثر من أي شيء آخر بدت سعيدة لأن الأمور بإمكانها الاستمرار الآن. من ناحية أخرى أشعرَني زملائي في العمل بأنهم لم يصدقوا كلمة واحدة مني. على الرغم من ذلك قضينا الساعات الإضافية الضرورية الآن بصمتٍ ولأول مرة شعرتُ بأن خمول الجروس أينلانديين المتمثل في تفادي المعارك مناسبٌ لي. أما علاقتي مع أنيتا ظلت محافظةً بوضوح على المسافة، وعلى

الرغم من أننا كنا نصل إلى المكتب عند الساعة الثامنة صباحًا وأحيانًا لا نتركه قبل العاشرة مساءً، فلم نكن نتحدث معًا بحق خلال الأسابيع الماضية.

قلتُ مُصرَّةً: «تعالي، سنشرب البيرة. لم يعد بإمكاننا فعل شيء مثمر اليوم على أي حال».

كانت الساعة قبل التاسعة مساءً بقليل.

قالت أنيتا: «بيرة واحدة».

وهزت رأسها نفيًا على الرغم من تلك الموافقة. سرنا في الطريق الهابطة إلى المدينة في صمتٍ طوال عشر دقائق كئيبة، بينما كنتُ أتنحنح على الدوام وأتنفس بصعوبة لكي أبدأ في التفسير، ولكنني كنتُ أتراجع عن ذلك دائمًا في اللحظة الأخيرة وسألتُ فقط عندما كنا نحيد: «إلى اليسار؟ أم الآن إلى اليمين، أليس كذلك؟».

على الرغم من أنني كنتُ أعرف الطريق. فقط عندما وصلنا إلى وسط المدينة، امتلكتُ الشجاعة. قلتُ في النهاية: «كان الأمر صعبًا للغاية».

سألت أنيتا: «حسابات اليوم بعد الظهر؟».

وأومأتُ بالإيجاب على الرغم من أنني كنتُ أقصد بهذا الأمر مادة الحشو.

قلتُ أخيرًا بلا أي ترابط: «هناك الكثير من الأجندة الضريبية التي يجب وضعها في الاعتبار، لهذا السبب، إنه شيء مؤسف بأنني لم أحكِ لكِ في وقت مبكر أكثر عن مادة الحشو».

صمتنا للحظات.

- هل تتذكرين عندما كنا نطبخ في منزلي، قبل شهرين؟ لقد ادَّعيتِ بأنك لم تحرزي أي تقدم على الإطلاق.

بالطبع كانت على حق. كنتُ أسير بهدوء بجانبها على طوال الشارع كما لو أنني زائدة عن الحاجة.

تابعتْ: «والآن، عندما أمعن التفكير في ذلك، (وأخذت نفسًا عميقًا لتبدأ عنفًا لفظيًّا) كنتِ تؤدين في هذه الليلة مسرحية كوميدية رخيصة ومُنظَّمة لإقناعنا. «أشعر بأنني بلا كفاءة كوني عالمة فيزيائية»، قلتِ ذلك. وكنتُ مع ذلك أواسيكِ».

قلتُ على الرغم من أنه لم يوضح شيئًا مطلقًا: «كان يوم الجمعة».

- لقد أفرغتِ كأس النبيذ بطريقة ميلودرامية وحدَّقتِ إلى الحائط، يا روت، كان ذلك يستحق الأوسكار. ربما حتى بكيتِ؟ أعتقد أنك بكيتِ.

أجبتُ بصوتٍ خافت، لأننا كنا بالقرب من الميدان بالفعل: «لا، لم أفعل ذلك».

- انهمرت الدموع الكثيرة والحقيقية من عينيكِ. وأعطيتكِ مناديل السفرة لأنه لم يكن هناك مناديل أخرى، أتتذكرين؟

- لا.

- ذلك أيضًا لا يهم. العشرات من أراضي الناس ومنازلهم معرضة لخطر الانهيار، لأنك فقط أخفيتِ ذلك. بالطبع يمكنك أن تكوني غير مكترثة، لقد أمَّنتِ بيتكِ في الوقت الصحيح.

كنتُ مدهوشةً من الثوران المفاجئ لغضب أنيتا، التي كانت سابقًا رقيقة للغاية وخجولة. قلتُ: «الأمر ليس بهذه البساطة. ألا ترين ما الذي حدث لحديقتي؟».

بالتدريج كنتُ أستعيد رباطة جأشي.

- هذا أمرٌ ثانويٌّ! ما الذي يُفيد بشأن حديقة، إذا كانت على عمق مئة وخمسين مترًا في الجبل؟

بالطبع كان لديها الحق. ومع ذلك كنتُ أجاهد في سبيل إجابة.

- لقد أحببتُ الطبيعة هنا يا أنيتا، وما الذي حدث بسبب مادة الحشو اللعينة هذه؟ هل يمكن أن تنحصر النتيجة بين خيارين فقط، اندثار أي مناظر طبيعية أو أن تظهر ميتة؟ ألا يوجد وطن أصلًا أو أن يوجد متعفنًا؟

بينما كنتُ أقول ذلك، كنا نجلس كلانا في مقهى «فرانكرايش».

قالت أنيتا: «كان بإمكاني المضي قدمًا مع العمل الذي حمَّلتِنا مسؤوليته. ولكن حقيقة أنكِ كذبتِ عليَّ وأنا صديقتك هو أمر لا يُغتفر».

قالت واستدارت بأدبٍ مبتسمةً للنادل. ذلك ما دفعني للانفجار: «ولكن الجميع هنا يكذب باستمرار. لا يوجد إنسانٌ واحدٌ صادقٌ، هنا يفعل كل واحد ما يرغب في فعله».

قلتُ بينما أُلقي بخلل الأسنان من الطاولة. وانكسر الكوب الذي كانت خلل الأسنان به مُصدِرًا دويًا مخشخشًا، وللحظة نظر جميع مَن كانوا في المقهى إلى طاولتنا.

قالت بصوتٍ هامس: «حسنًا، من فضلكِ، اشرحي لي الأمر».

صحتُ بسرعة في غرفة البار: «معذرة، هناك شيء على الأرض!».

قالت أنيتا بفارغ الصبر: «أنا أسمعكِ».

ضحكتُ باصطناع لأُظهِر عدم رغبتي في البوح بدوافعي: «كان عليكِ الوثوق بي أكثر، ولكن لم تسِر الأمور ببساطة هكذا. أنتِ حتى ربما لن تصدقي ذلك أبدًا أيضًا. كان لدي بعض الأمور التي لا بد من تقييمها».

كنتُ أثرثر بحيوية وبكلام ملتوٍ غامض، بينما كانت النادلة راكعة على الأرض بالمكنسة لتلتقط القطع المكسورة.

قالت وأخذت سُترتها: «وجودي هنا هو سخافة، أنا ذاهبة الآن».

كنتُ أتأرجح في حيرة بين الخيارات المتاحة. كانت هذه أنيتا، صديقتي. وأيضًا كانت ابنة جروس أينلاند، نشأت في مهابة الكونتيسة والجبل.

قلتُ أخيرًا: «حسنًا، ولكن سنذهب هناك في الزاوية».

وجلسنا إلى طاولة بعيدة في الركن. فكرتُ مليًا في الطريقة التي يجب أن أبدأ بها الكلام. قلتُ ولاحظتُ شظية زجاج مغروسة في نعل حذائي: «قد يبدو ذلك الآن غريبًا، ولكنني كنتُ أُجري التحقيقات منذ عام».

- الجميع يعلم أنك تحملين المستندات إلى منزلكِ لأجل حفل الذكرى الخاص بكِ.

نظرتُ حولي: «لقد جمعتُ أحداثًا معينة كانت في جروس أينلاند، ليس لها علاقة مباشرة مع والديَّ من فترة النازية».

- أحداث، تخص مَن؟

- الحفرة. إنها عن الجرائم.

سألتْ أنيتا باضطرابٍ: «جرائم في حق الحفرة؟».

قلتُ مُشددةً على الحروف: «في الحفرة، بالطبع. جرائم قتل لم تُحل».

وقعت شظية الزجاج على الأرض مُصدِرةً صليلًا.

- الآن كيف، في الداخل؟ ولكن الممر الرئيسي للحفرة عموديٌّ، كيف من المفترض أن يُقتل أحدٌ هناك؟

حاولتُ الحفاظ على هدوئي: «المكان الدقيق لا يهم على الإطلاق. الحفرة مجرد شيء يخدم التخفي. أنصتي إليَّ».

على نحو مفاجئ كنتُ متوترة للغاية، لدرجة أنني اضطررتُ إلى شرب نصف زجاجة البيرة دفعة واحدة. كانت هذه هي أول مرة أُعبِّر بها عن هذه الفكرة بصوتٍ عالٍ، وبدت لي غريبة وهي تخرج من فمي: «أنتِ تعرفين أن عمَّال مُعسكر الاعتقال النازي جُلبوا إلى هنا، أليس كذلك؟ ما يقرب من ألفَي شخص في أوقات ذروة النازية».

قالت أنيتا: «الكل يعرف ذلك، حتى إنه موجود في سجل التاريخ المحليّ».

- ألف ومئتا شخص منهم ساروا من جديد في طريقهم إلى «ماوتهاوزن»، وإلى هنا كل شيء على ما يرام. كما يُقال فقد قتل الحراس الباقين. ولكن عُثر على نحو خمسين شخصًا فقط في المقبرة الجماعية في شارع «يوهان».

كررت كلامها، كما لو أن محادثتنا وقعت في حلقة زمنية مفرغة: «وهذا أيضًا يعرفه الجميع، حتى إنه موجود في سجل التاريخ المحليّ. هذا كله لا شيء جديد فيه».

- أين ذهب الأشخاص السبعمئة والخمسون الباقون؟ كنتُ أُجري الأبحاث عن ذلك منذ زمن غير قصير.

كنتُ أتصبب عرقًا كما لو كنتُ في حمام الساونا.

- منذ متى وأنتِ تهتمين أصلًا بالتاريخ المحليّ؟ (ضحكت أنيتا، كما لو من خلالها تكسر التوتر ثم لوَّحت بيديها في جميع الأنحاء) ربما هربوا؟ مَن يمكنه أن يكتشف ذلك الآن؟

كنتُ سأُجيب بشيء، ولكن في اللحظة التي أُحضِر بها طبقان من الشنيتزل، لا أتذكر أنها قد طلبتهما. رفعتُ يدي في اضطراب واضح لكي آتي بالنادلة. بدت أنيتا أنها ارتاحت أخيرًا بأنني كنتُ صامتة لوقتٍ قليل.

- روت، من فضلكِ لنتوقف عن الشجار. أنتِ لن تظلي هنا إلى الأبد، لماذا إذن نفتح القصص القديمة؟ يجب على الآخرين الاهتمام بشأن جروس أينلاند.

أخذتُ قضمة من الشنيتزل الذي لم أرغب فيه إطلاقًا، عندما لم تظهر النادلة على الإطلاق.

تابعتْ: «هناك ما يكفي من الأشياء الأخرى في العالم، أشياء أهم وتحدث الآن، ألا تستطيعين الاهتمام بها فقط لمرة وحيدة، على سبيل التغيير؟ لو كنتُ في مكانك لكنتُ انشغلتُ أكثر بباقي العالم وبأسراره».

قلتُ: «منذ معرفتي بكِ وأنتِ لم تغادري جروس أينلاند ولا ليوم وحيد لتنشغلي بما تسمينه ببقية العالم».

أجابت أنيتا باختصار: «أجل، وهذا أيضًا لأنني لدي عائلة. ما أرغب بقوله هو: أن كل شخص في المدينة -كل فرد- فكر كثيرًا بما يكفي في الحفرة».

أكلت هي أيضًا الشنيتزل، كما لو لم يكن بالأمر شيء غريب. فكرتُ: *ربما قُدِّمت لنا بسبب تغيير المقعد*.

بدأتُ مرة أخرى في التحدث: «حسنًا على أي حال، لا بد من التحدث بشأن بعض الأمور. والآن حتى، قبل عملية الملء اللعينة».

قالت الآن بنبرتها اللطيفة المعتادة، وهو لطف، لا أنوي رد فعل تجاهه: «ليس مسموحًا لأحد أن يجبر شخصًا ما على فعل شيء. الحرية هي أعظم خير للبشرية».

- هل تتذكرين والدَي هوتماخر شلاف؟ في الستينيات عُثر على جثث لديهما. بعد ذلك رغبت الشرطة التحقق من قطع أراضٍ أخرى ولكن اشتُريت جميعًا من قبل المقاطعة.

قاطعتني أنيتا للمرة الثانية: «يجب تقديم المساعدة فقط في الموضع الذي يطلبه الشخص أيضًا».

ما الذي أرادت توصيله لي فعلًا بهذا التحصين[1] اللفظيّ الخالي من المعنى؟ كان شعوري بالغضب يتزايد مع كل دقيقة.

- جميع الأراضي العامة، بالإضافة إلى المنازل الخاصة. عندما أرسلت السلطات خطابًا يُعرب عن رغبتهم في إجراء التحقيقات في أي مكان، عندها اشترت عائلة الكونت هذه الأراضي بعد شهرين. إذا كانت المستندات التي وجدتها متطابقة، فقد وجدتُ بالإجمال إحدى وسبعين حالة من هذه الحالات. إحدى وسبعين!

كانت أنيتا بينما تستمع لي قد عادت من جديد إلى لا واقعيتها. قالت في آخر الأمر: «أنتِ بارانويد تمامًا. (منذ أن ذكرتُ المقاطعة، وصارت تتحرك ذهابًا وإيابًا فوق مقعدها، علاوةً على ذلك فقد كانت في قلقٍ تام) أكان ذلك ضروريًا أن تختلقي عالمك ذاك قبل الحفل مباشرةً؟».

- اشتُريت إحدى وسبعون قطعة أرض الواقعة بالضبط حيث توجد الأفرع الجانبية للحفرة. ولن أسمح ببدء عمليات الملء قبل أن يُوضِّح سبب حدوث ذلك. هذا ليس خيالًا.
- ولماذا الآن؟
- أي الآن؟
- أنك تنبشين في القصص القديمة. ما الذي تتوقعينه إذن من ذلك؟ ترغبين في جذب الانتباه، أليس كذلك؟ لمَ لمْ تقولي ذلك عندما حدث هذا؟

كانت تتحدث بعنف وبشدة رهيبة لدرجة تناثرت معها قطعة من مربى عنب الثور من شفتيها عبر الطاولة وصولًا إلى البلوفر خاصتي.

قلتُ «لأنه كان قبل خمسة وثلاثين عامًا من ولادتي».

- نعم، بالطبع يمكن قول ذلك بسهولة. هل تعلمين؟ أعتقد أنك كنتِ على حق منذ قليل، الطبيعة لا يمكن أن تقدم لكِ شيئًا. بالقدر نفسه الذي يمكن أن يقدمه الناس هنا، جيرانك وأصدقاؤك.

أجبتُ: «كنتُ أقصد شيئًا آخر تمامًا بذلك».

---

(1) حركة خاصة في الشطرنج.

اختتمتُ الحديث بكلمة غير مناسبة: «أجل».

تنفستُ بعمقٍ، ودفعتُ بقية الشنيتزل المملوء بالدهون في فمي وبدأتُ من جديد في التحدث: «هل كنتِ تنصتين إليَّ أصلًا؟ الموضوع هو أنه من المحتمل قد أُلقي بالجثث في الحفرة. الموجودة في الملكيات التي تخص... (همستُ، لأنني افترضتُ بأنها لم تزل لا تدرك ببساطة شديدة الشيء المهم الخطير) الجميع».

- التي تخص الجميع! جدي -على سبيل المثال- كان في حركة المقاومة. (طردتْ من فمها عظمة، والشيء الغريب أنها كانت موجودة في الشنيتزل) وحتى إذا كان ذلك صحيحًا. ما الذي من المفترض أن يتغير أيضًا؟ ألا ننسى غالبًا أيضًا الأحياء مع كل الثرثرة الفارغة تلك عن الموتى؟

صارت أنيتا بالنسبة إليَّ ولأول مرة غريبة عني.

قلتُ في عنادٍ: «القتل المتعمد لا يسقط بالتقادم».

سحبتْ أنيتا هاتفها من حقيبتها وحدقت إلى شاشته لعدة دقائق.

- ألا تفهمينني إذن مطلقًا؟ والداي أيضًا أجريا الأبحاث في هذه الأمور وثم على نحو مفاجئ ماتا كلاهما. حادث سيارة غامض. وكانا في السابق في تمام صحتهما. ما مدى احتمالية حدوث ذلك بالشكل نفسه؟

سألتْ أنيتا في ذهول: «معذرة؟».

وتراجعت الآن عن الطاولة.

- أنتِ تعلمين ما أقصده. ذلك واضح. كانا يتحدثان مع الكونتيسة في الليلة التي سبقت وفاتهما. ربما حتى عن ذلك.

قالت أنيتا وتلفتت ببصرها في الغرفة بهستيرية: «سأغادر. على أي حال أنا لن أهلك معكِ. ما تدَّعينه هو شيء لا يُقال. والداكِ تعرضا لحادث. إذا لم تكوني بمثل ذلك الجبن، لكنتِ اطلعتِ على تقرير الوفاة منذ وقتٍ طويل. تصبحين على خير».

وبذلك تركتني أجلس وحدي إلى الطاولة.

***

في صباح اليوم التالي استيقظتُ بصداع فرط الكحول، على الرغم من أنني شربتُ زجاجتين من البيرة فقط. لم تكن لدي رغبة في الذهاب إلى العمل، بالإضافة لذلك فقد أدركتُ الآن أنني فقدتُ أعز صديقة لدي. ولكن على الأقل طاب لي قرار اتخذتُه بين عشية وضحاها وذهبتُ بخطواتٍ مُترنحة، حتى قبل أن أُحضّر قهوتي الأولى، إلى الهاتف. اتصلتُ بمقر شرطة الولاية، وأُحِلتُ من قِبل موظفين غير مختصين، ومرهقين بمهامٍ أكثر مما يتحملونه ونجحتُ أخيرًا في الوصول إلى عيادة ولاية «شاييس»، حيث تُحقِّق من بياناتي، ولا شك في أنني منذ وقت طويل لم أسجِّل اسمي. ثم كنتُ على اتصال مع قسم الباثولوجيا[1].

قلتُ: «قبل عامين ونصف طلبتُ منكم تقريرًا لحالة وفاة. (وتنحنحتُ ثلاث مرات في هذه الجملة القصيرة) ولكني بعد ذلك لم أسألكم عنه مطلقًا».

- والداكِ، أليس كذلك؟ (فتشت الطبيبة في الأوراق لبضع دقائق) أجل، مضبوط، قبل ما يقرب السنوات الثلاث. توصل الأطباء الزملاء في ذلك الوقت إلى النتيجة بسرعة شديدة: توفي والداكِ نتيجة الاصطدام. اصطدام نتج عنه جروح داخلية، لم يُتعرَّف عليها في البداية، لأن علامات الاصطدام لم تظهر إلا متأخرًا جدًّا. قال الخبير إن الطحال كان ممزقًا لدى كليهما، وأحزمتهما كانت سيئة للغاية. وانتهى تقرير الوفاة بأنهما ماتا في أثناء حادث سيارة.
- كيف في أثناء حادث السيارة؟ هل قمتم... هل بُحث عن أسباب أخرى للوفاة، أي، هل فُحصوا؟
- حدث انحراف عن وسط الطريق الرطبة وكانت إطارات السيارة مُخصصة للصيف، هذا هو المكتوب هنا.
- قطعًا لا، هل وجدتم السم؟ أقصد، أضرارًا على السيارة؟ اعذريني على السؤال.
- كانت السيارة في حالة سليمة لا بأس بها. بالطبع تحققنا من وجود تسمم، لا، في الحقيقة كان السبب ببساطة في الطريق الرطبة فقط.

---

(1) قسم علم الأمراض.

ليس ذلك فقط -لا أعنيه بهذه الطريقة- ولكن ما رغبتُ بقوله: تعزياتي مرة أخرى.

***

في خضم الاستعدادات للحفل نشأت في المجتمع بأكمله ظاهرة الاختباء، التي -على نحو يدعو للغرابة- نبهتني بها الكونتيسة. قبل شهر واحد من الحفل كتبتْ لي رسالة، ضاعت لاحقًا في فوضى المهام الغريبة التي كانت تُكلفني بها يوميًا. كان من المفترض أن ألقي نظرة على ملف قد وضعته فوق طاولتي، ومن ثم أخبرها برأيي فيه. كان المجلد الذي قصدته الكونتيسة يطفو فوق حوض جميع المهام التي لم تُنجز بعد. فوق الصفحة الأولى المطبوعة وضعت ورقة ملاحظات لاصقة كتبت بخط يدها المُنظَّم بصورة مرحة: «أرجوك انظري فيه، تحياتي الحارة، أورسولا».

كنتُ أُذهل على الدوام عندما تخاطبني بضمير المفرد، أخذت أفرُّ في الأوراق بعيني. كانت وثائق عن قوات الدرك تصف الأحداث في أيامٍ مختلفة، وجدتُ لاحقًا صعوبة شديدة في صنع ترابط بينها. كانت الأحداث كلها تقريبًا تدور حول شُرطيٍّ ما يظل واقفًا أمام منزل لأحد الأشخاص ويقضي الليلة في سيارة خدمته، دون أن يحدث شيء لاحقًا. وكانت دائمًا ما تنتهي الأوراق بمغادرة رجال الشرطة عند الساعة السابعة صباحًا.

عندها فقط رأيتُ مضافًا لبعض الأوراق تقارير خالية من الأحداث مرفقة بالدبابيس. كان النصف الأكبر عبارة عن رسائل بريد إلكتروني مجهولة وفيها وصف دائمًا للشيء نفسه. على سبيل المثال وجدتُ هذا:

«أسكن في شارع «المنتزه» وسأحب كثيرًا أن ألفت انتباهكم لشيء لاحظته يحدث على ممتلكات جيراني منذ بضعة أسابيع. نحو مرتين إلى ثلاث مرات في الأسبوع ينقلون الأشياء باستخدام عربة يد مملوءة عن آخرها إلى مدخل المنجم الموجود في زاوية الشارع الرئيسيّ، وذلك بعد حلول الظلام. فكوا نحو عشرة ألواح الأمان وبدؤوا بعد ذلك بإلقاء الأشياء التي جلبوها معهم في النفق العموديّ، حيث كان صوت اصطدامها مسموعًا من شرفة سطح بيتي».

بدت مثل هذه الأحداث متكررة بوتيرة متزايدة، كانت هناك بلاغات موجهة ضد أشخاص مجهولين، بدا واضحًا أن المتهمين كانوا دائمًا تقريبًا هم أنفسهم الجيران. كانت القصص كلها تدور حول شخص يُفترض بأنه ألقى بكل أنواع الأشياء في الحفرة، وعلى الأغلب يحدث ذلك ليلًا مُتخذًا جميع التدابير الاحتياطية، التي من المفترض أن تضمن له عدم رؤيته. في الواقع لا يمكن لهذا أن يكون مفاجئًا. في غضون أسابيع قليلة اعتقد الجميع بأن ذلك التجويف سيكون مغمورًا بكميات ضخمة تملؤه ستجعل من المستحيل إلى الأبد الوصول مرة أخرى إلى جميع الأشياء الموجودة بداخل الحفرة. لدى الجميع شيء لا بد من التخلص منه، ربما لم يعلموا في السنوات الماضية كيف يتخلصون منه. بينما كنتُ أفرُّ في جبل الاتهامات المتكررة، كنتُ أشعر مع ذلك بالغرابة، في تزامن لا يُصدَّق بدأ الشعب في نقل الأشياء إلى الحفرة.

والشيء الذي أدهشني هو أن الكونتيسة كان لديها أصلًا اهتمام بمعرفة المزيد عن ذلك الموضوع، في الأحوال العادية لم تكن تلك نوعية الأحداث التي تحاول معرفتها من كثب. اتصلتُ بها عندما نظرتُ في جميع المستندات، وأخبرتني بالمزيد من التعليمات: أنه يمكن بالتأكيد تجاهل أمور معينة بقلب مرتاح، ولكن بخصوص أمور أخرى لا بد من معرفة المزيد عنها.

قالت بشكل غامض: «الأمر يعتمد دائمًا على مَن تدور حوله هذه القصص. (وفهمتُ أن الأمر لا يتعلق بجرائم محتملة بقدر ما هو على العكس يتعلق بالحفاظ على الهدوء العام بالقرب من موعد الحفل) ربما فقط ألقي نظرة عليها ذات يوم، يا سيدة شفارتز، عندما يكون لديكِ وقت. بجانب خطابك».

«الخطاب»، صدمتني تلك الجملة. سمحتُ لنفسي بإلقاء خطبة عند افتتاح الحفل. أمرتني الكونتيسة: *ولكن تحدثي أيضًا عن الميتافيزيقيا، من المنظور الفلسفي*.

لأسابيع تصارعتُ مع الصياغات ولم أكتب شيئًا على الورق سوى العنوان: الأرض المائعة.

فكرتُ الآن، *أنه يمكن للخطاب الانتظار*، وغرقتُ في المستندات الرسمية، حيث وضعتُ الأسماء المُرفقة بها في جدول. كان الشيء الغريب هو أن الجميع تقريبًا كان لديه شيء لا بد من التخلص منه. لكن في الوقت نفسه

غالبًا ما أرسل الأشخاص لنا، الذين هم أنفسهم -بناءً على حقائق محتملة- قد ألقوا بأشياء ما بداخل الحفرة، في اليوم التالي بمعلومات واشية للبوليس تندد بجيرانهم. تخيَّلْتُه كنوع من إصلاح عذاب الضمير، الذي أجهد كل شخص منهم ومن ثم طالب بمقاضاة جانٍ آخر على سبيل التعويض.

بغض النظر عن مدى إمكانية تفسير هذه الأشياء، فقد كان لدي حدسٌ ما بإمكانية أن يكون وراء بعض القضايا المزيد من الأشياء المخفية، ومن ثم سرعان ما تطور خيالي بأن شخصًا ما قد ضُبط بالجرم المشهود. على وجه الخصوص ظلت إحدى القصص عالقةً في ذاكرتي، الشيء الذي جعل الأمر يزداد صعوبةً بالنسبة إليَّ لسببٍ ما، هو أن شخصًا ما اتهم ثلاث عائلات مختلفة بأنهم كانوا يتعاونون في نقل الأشياء معًا بداخل الحفرة، في أثناء رحلاتهم الليلية. ومع ذلك، نظرًا إلى أن إحدى هذه العائلات كانت مقربة للكونتيسة، رغبت بألا أُجري الأبحاث فقط في هذه القضية وبدلًا من ذلك اختارت قضية أخرى لأنظر فيها من كثب.

على الرغم من ضرورة الاستيقاظ مبكرًا في صباح اليوم التالي، فقد قررتُ إجراء رحلة قصيرة إلى المنزل الذي أُبلِغ عنه لدى البوليس في الليلة السابقة فقط. كان مبنىً معزولًا في حارة «كورن»، كُتب أن لديهم ثلاثة أطفال وكلب، وقد تخيلتُ في طريقي ما يمكن لمثل هؤلاء الناس أن يلقوا به في الحفرة. لذلك عند نحو الساعة التاسعة مساءً جلستُ في زاوية ميتة من المنزل المقصود، على بُعد مئة متر أسفل الشارع، حيث كان لا يزال الأسفلت دافئًا وانتظرتُ حدوث شيءٍ ما يُغير مجرى الحياة. كنتُ أراقب العائلة وهي في كامل رقتها العذبة وراء باب الشرفة المُضيئة: الزوجان المُحبان، اللذان قبَّلا بعضهما بعضًا قُبلة مملوءة بالثقة، والطفل، الذي نام من نفسه على ذراع أمه، والصبي الصغير، الذي رفعه أبوه من خصره ورمى به في الهواء.

وأخيرًا انطفأ الضوء، وأشعلتُ سيجارة. كان التدخين يخفف بصدق من حدة مشاعري ويُنظمها. حدقتُ إلى دأب الظلام وكنتُ أدور بفكري. من بين كل هؤلاء الناس، الذين كانوا بلا شك مشغولين بإلقاء تلك الأشياء، التي رغبوا في التخلص منها وكان لا بد أيضًا من ذلك، في الحفرة، في تلك الهوة التي بلا قاع، والتي لهذا السبب لم يستطع جهاز الاستشعار إيجاد طريقه فيها

قط، ومع ذلك من بين كل هؤلاء الأشخاص ظل شبه مستحيل أيضًا ضبط شخص واحد بالجرم المشهود أبدًا. والأكثر من ذلك: فمن المحتمل أيضًا أن جميع سكان جروس أينلاند دائمًا ما كانوا يفعلون ذلك بالطريقة نفسها، ربما لعقود، إن لم يكن لقرون، وفكرة أنني هنا أقف بالمرصاد، لم يكن سوى هراء.

نهضتُ مفزوعةً عند طلوع الفجر. كانت مؤخرة عنقي تؤلمني ومثانتي مملوءة ورأيتُ حفرة من الاحتراق في قميصي، فانتصبتُ. لا بد وأنني بعد فترة وجيزة من اتخاذ وضعيتي قد دخلتُ في نوم عميق شبيه بالغيبوبة، حتى إن الألم لم يدفعني للاستيقاظ منه قط، إذ يمكن رؤية جروح احتراق صغيرة على بطني. في ضوء الفجر الرماديّ عدتُ للنظر من جديد: كانت الأنوار مُطفأة.

على الرغم من أنني بعد ذلك التأديب الذي عانيتُه كان بإمكاني ترك الموضوع تمامًا، ظل الموضوع يشغلني أيضًا خلال الأسابيع التالية، لا بد من وجود سبب لهذه السرية المُتكتمة. كنتُ أذهب أيام السبت إلى المدخل الجانبيّ القريب من منزلي وفحصتُ، بينما كنتُ أتشبث بالفروع، قطعة الأرض المسطحة التي تؤدي إلى الداخل. في الواقع كان هنا أيضًا كمية ضخمة من الكراكيب والخردة، وكانت في عمقٍ ضخمٍ بداخل النفق العموديّ، بحيث لا يمكن لأحد الوصول إليه. لذلك عدتُ إلى المنزل وصنعتُ لنفسي صنارة صيد من عصا ومشبك ورق، كانت العلبة محشورة في الأسفل تمامًا، وكادت تتآكل من الرطوبة، ولكنني نجحتُ في مناورتها لإخراجها بعد عدة محاولات. علاوةً على ذلك فقد اشتبك في خطافي المثير للشفقة قطعة قماش. فتحتُ أولًا كيس القماش ووجدتُ بداخله خاتمين من الذهب، خاتمَي زفاف بلا شك، لأنه كان منقوشًا بداخل واحدٍ منهما «أوليڤر ويوليا»، وعلى الآخر «يوليا وأوليڤر». فكرتُ: *يوليا وأوليڤر هايدنرايش، زوجان شابان تطلَّقا قبل بضعة أشهر قليلة*. كنتُ لا أزال مُتأثرة بحميمية هذه الأشياء الأولى، بينما كنتُ أفتح العلبة، صورة لشاب من متلازمة داون يضحك ممسكًا برسمة في يده. كنتُ أعرفه هو أيضًا: كان «فريتز»، ابن «لِيلي رانك» رئيسة جمعية البقالين. وأسفلها كان المزيد من الصور الفوتوغرافية وأخيرًا الرسمة التي كان يحملها بيده في الصورة الأولى. كان الأمر يدور هنا حول الاعتراف بالذنب الشخصيّ

الخالص: وضعت «لِيلي رانك» ابنها، هذا ما عرفته من إلفريده، في دار الرعاية في التسعينيات ومنذ ذلك الوقت لا تتحدث عنه إلا لمامًا، وقد توفي هناك قبل بضعة أشهر. أحسستُ بالإزعاج، فالشيء الذي يُلقيه المرء في الحفرة، كانت أشياء، شعر المرء تجاهها بالذنب. فكرتُ: فلا عجب، *كان لدى الجروس أيلانديين* علاقة *أسطورية تقريبًا بما أسفل الأرض*. وشعرتُ بالإحباط بينما ألقي بالعلبة كما بكيس القماش في الحفرة. وهكذا اختفى الأثر.



20

في السنوات التالية صار ما يكتبه يوهان كيناجل يزداد امتلاءً بالثغرات. وقد بررتُ ذلك على هذا النحو: كان لمرض السل غير المُشخَّص، الذي شكَّل بداخل أعضائه العضوية أكياسًا صغيرة مغلقة تاركًا صحته في حالة اختراق متزايد على الدوام، تأثير مشابه في استمرارية تسلسل أفكاره. غالبًا ما كان يظل مُقيدًا بالسرير بسبب الحمى لأيامٍ، فترات غارقة في انطباعاته حول فوضى سوائل الجسم، والهذيان المبتل بالعرق، ومواضع القيح المفتوحة، قبل أن يعود من جديد بتفاؤل جديد بالإعجاب إلى ملاحظاته عن مراقبة طائر نادر. ولأنني كنتُ أدرك أن حياته ستنتهي بموتٍ مبكر، كنتُ أقرأ أوصافه بشعور أنني مربوطة بمصير الهالك لا محالة.

في عام 1944، عام إقامته قبل الأخيرة في جروس أينلاند، حكى كيناجل عن مرحلة وضعتني في حالة من التفكير المكثف والمجهد لوقتٍ طويل. كان كثيرًا ما يحكي في السنوات السابقة عن عمليات تفتيش المنازل من قِبل قوات الأمن الخاصة النازية[1]، وهو شيء لم يكن بالطبع مميزًا في الرايخ الألماني بأكمله، ويمكن للجميع، الذين ينظرون من النافذة من وقتٍ لآخر مراقبة ذلك. ولكن عند ذلك الجزء الذي كتبه بالتحديد اختلفت بوضوح نبرته ووصفه عما قد أبلغ عنه حتى الآن.

عندما وصلتُ إلى المنزل البارحة، (وقد طلبت مني «تروده» أن آتي في موعدي المحدد، لأنها حصلت على لحوم طازجة من «جلوجنتِز»)، رأيتُ

(1) يسمى أيضًا بقوات الشوتزشتافل أو وحدات الـ «إس إس».

بالفعل من شارع «يوهان» نحو عشرين رجلًا من قوات الأمن الخاصة النازية يقفون بالقرب من المنزل السابق لعائلة «آل شڤارتز» ويصيحون لبعضهم بعضًا بالأوامر. كان «هاينريش» واقفًا بالقرب من عمي، وكان يسود الأجواء صخب حاد. كان هناك مكتب، مثل الذي يُستخدم في المدارس، في وسط الشارع، وسألتُ نصف مازح، ما إذا كنتُ مُعاقبًا بالجلوس في المدرسة، ولكن عمي كان جادًّا للغاية وأرسلني إلى حجرتي.

كان الضابط، الذي يقود عمليات تفتيش المنازل، من فيينا هو أيضًا، وكان يقضي الصيف في جروس أينلاند، حيث بُني عدد كبير من الڤيلات خلال السنوات الأخيرة لأصحاب المناصب القيادية في قوات الأمن الخاصة النازية. كان اسمه «كارل هاينريش». كان صديقًا لعم كيناجل وضيفًا مُعتادًا في البيت. كان يوهان يصفه حتى الآن بذلك المزيج من الرهبة والرغبة في التجنب، الذي كان يُكِنُّه لجميع مرتدي الزي الموحد. عندما كان جالسًا معهم إلى طاولة الأكل، كان يجيب عن جميع الأسئلة بإخلاص وبإسهاب، ومع ذلك ذهب إلى غرفته بأسرع ما يمكن، ليقرأ كتابًا. كانت الساعة تقترب من السابعة مساءً عندما أرسل عمه كيناجل إلى المنزل.

ومن غرفة نومه راقب الأحداث في الأسفل وكتب يومياته. كان يصف منزل عائلة «آل شڤارتز»، الذي كان خاليًا لمدة تزيد على العام بل وحتى كان مُغلقًا ومُسمَّرًا، والآن يتعرض للتفتيش من قِبل قوات الأمن الخاصة النازية. وكيف كان يُلقى من النوافذ التي فُتحت بالقوة باستخدام الأزاميل، الكتب والأثاث، وكسر الرجال النوافذ وألواح الأرضية الخشبية بمؤخرة بنادقهم وأفرغوا محتويات صناديق المجوهرات على الأسفلت. بعد ساعةٍ غنيةٍ بالأحداث انتهى الأمر. بدا أنه لم يُعثر على شيء يستحق الذكر، ودلل رجل من وحدات الـ «إس إس» رأس أمي البالغة من العمر سنةً بالمسح، كانت واقفة بجانب السور بقدمين مرتعشتين، على مرأى من جدتي، التي كانت تمزح مع الرجال. قاد جدي الضابط إلى حجرة المعيشة، بالضبط عند الموضع الذي جلستُ فيه بينما أقرأ هذه الأسطر. وسرعان ما استُدعي كيناجل من جديد إلى الأسفل وكان العشاء جاهزًا موضوعًا على الطاولة، كما لو أنه لم يحدث شيء. فقط

في الخارج كانت لا تزال أصوات من الطقطقة والقعقعة مستمرة، إذ شملت عمليات التفتيش التامة جميع منازل البلدة، إذ يُلقى بالأشياء في الشارع مُحدِثةً انفجارًا على الأسفلت. وفي هذه الأثناء كان هناك عدد ضخم من الناس مشغولًا برمي الأنقاض المتكوِّنة نتيجة لذلك وكل الأشياء، التي بدا أنهم لا يحتاجون إليها في الحفرة، كما قال كيناجل.

كان هو نفسه يراقب على وجه الخصوص خلال الأيام التالية جدي، الذي كان مكدودًا بصورة غير مناسبة من تلك الليلة التي رغم ذلك لم يحدث فيها شيء على الإطلاق. ظل في اليوم التالي في المنزل بدلًا من الذهاب إلى العمل وأيضًا في اليوم اللاحق لذلك، وعندما كان يترك المنزل، كان يعود إليه على الفور، كما لو كان يرغب في التأكد من أن أحدًا لم يدخل إلى أملاكه في ذلك الوقت القصير الذي ذهب فيه. أنا نفسي لم أُقِم لهذه الأوصاف وزنًا كبيرًا. ولكن لاحقًا بعد بضعة أيام وصف كيناجل مرحلة ليلية لفتت انتباهي.

ربما بسبب الومضات الساخنة[1] التي كانت غالبًا ما تهب في ذلك الوقت ليلًا لم يستطع كيناجل النوم والتفَّ في بطانيته المبتلة بالعرق إلى وعاء ***ليسعل حتى النهاية***، كما وصفها. في تلك اللحظة سمع ضوضاءً وخرج إلى الشباك. في الأسفل، في الفناء أمام المنزل، رأى جدي جوزيف شالا ***واقفًا في توتر شديد. كان لابسًا الزيَّ الرسميَّ لحطاب الخشب كاملًا ويدخن غليونًا، كما لو كان ينتظر شيئًا. استمر ذلك لأكثر من ساعة، كان يُعيد حشو غليونه ثلاث أو أربع مرات، ولأنني كنتُ أعاني من الأرق، كنتُ أراقب ذلك ببساطة.*** في أثناء القراءة كان لدي شعور بأن كيناجل كان مسرورًا في البداية لأنه رأى جدي، ربما كان استيقاظ شخص آخر قلل لدى الصبي المريض شعوره بالوحدة.

بعد فترة وجيزة وصف شيئًا، قد قرأته أنا بنفسي عدة مرات، دون أن أستطيع شرحه لنفسي: الطريقة التي اختفى بها شالا، عندما أنهى تدخين غليونه لعدة مرات متكررة، في المنزل وعاد للظهور بعد بضع دقائق، كتب كيناجل: «***مثل شخص في معركة***». حمل على ظهره كيسًا ثقيلًا، وارتحل

(1) هي شكل من أشكال الومضات بسبب انخفاض مستويات هرمون إستراديول، عادة ما تكون عبارة عن الشعور بالحرارة الشديدة مع التعرق وسرعة ضربات القلب.

الآن، وهو يحمله إلى حدود الغابة، هناك، حيث كان في ذلك الوقت لا يزال الأسفلت ينتهي في المستنقع. كان في الناحية المؤدية إلى المنجم، وقد ذكره كيناجل على حِدة لهذا السبب، إذ كان هناك حظر صارم بالاقتراب مسافة خمسمئة متر تقريبًا من المدخل. كان مُحاطًا بالسياج، كما وجدتُ خلال أبحاثي في الخرائط، وعلى الناحية الأخرى كانت التخشيبات الخاصة بمعسكر الاعتقال النازي. بعد نحو ساعة، مكتوب في المذكرات، عاد جوزيف شالا إلى البيت دون الكيس. كان يوهان كيناجل مقتنعًا تمامًا بأنه كان في داخل الكيس شخص ما.

كنتُ أمعن التفكير لفترة طويلة فيما إذا كان من الممكن أن يكون الأمر على هذا النحو فعلًا. هل أخفى شالا شخصًا ما، في الغرفة تحت الأرض، وهل يمكن أن يكون ذلك الشخص هو جدي الثاني؟ ولكن الأهم من ذلك: ما الذي حدث بالضبط بعد مداهمة الشرطة؟ هل كان جدي خائفًا وإذا كانت الإجابة نعم، فهل اتخذ حقًا مثل ذلك القرار ذي العواقب الوخيمة، كما يُنبئ بذلك تقرير كيناجل؟

بالطبع كان هناك عدة تصورات لوضع هذه القصة في منظورها الصحيح: من ناحية فقد كانت رواية كيناجل المشحونة، حتى لو كانت هي نفسها صادقة وساذجة أيضًا، ملأى بالأخطاء المنطقية، والتغاضي عن الحقائق والمغالاة في تفسير أصغر الأحداث. لأن مؤلف هذه السطور هو صبي وحيد يبلغ من العمر ستة عشر عامًا ومتعطش للتجارب، الذي يتوق في برجه العاجي إلى الأحداث من مختلف الأنواع. بالإضافة إلى ذلك فقد كان يعاني بالفعل خلال ذلك الوقت من مشكلات صحية خطيرة ونوبات حمى شديدة، التي قد تكون ذات تأثير في قدرته على الحكم. ثانيًا، حتى لو افترضنا أن ذلك كان تقريرًا مكتوبًا بلغة منمقة أدبية مستندًا إلى أحداث واقعية، فسيظل نطاق الأحداث هائلًا. ربما أراد أن يرى شيئًا محددًا فيه. كما ينطبق عليَّ أنا أيضًا بالقدر نفسه جنون التفسير ذلك: كانت المعلومات، التي رغبتُ في اكتسابها بلا شك، قد جعلته -إذا جاز التعبير- بلا قيمة.

***

أتذكر آخر ثماني وأربعين ساعة قبل الحفل كقطعة واحدة.

أول ما لا يزال حاضرًا في ذهني هو الموسيقى وكيف كانت فرقة آلات النفخ تسير في استعراض عسكريٍّ أمام منزلي، موكب لا يُصدق، طويل بصورة بالغة، وشبه مستمر للنهاية، الذي لن يتوقف أبدًا حتى اليوم التالي عن عزف «راديتزسكي مارش». استيقظتُ مبكرًا في الصباح وقضيتُ ساعة أو اثنتين مُستلقيةً على ظهري في السرير، كما لو كانت الإجابات عن جميع الأسئلة التي لم تُقَل مُعلقة على سقف حجرتي، التي لا بد لي الآن من مواجهتها. كانت المدينة بأكملها تردد صدى المئات من الموسيقيين، الذين كانوا يتدربون حتى آخر ثانية على شكل مسيرتهم. كانت الستائر ترفرف، وكنتُ أتصبب عرقًا من القهوة الأولى لليوم الأخير في جروس أينلاند، بينما كنتُ أرتدي وأحمل بضعة أشياء إلى السيارة.

في الخارج كانت تسود الأجواء روح الصخب، التي سرعان ما مسَّتني أنا أيضًا. كانت الأجواء ملأى بالحركة الحماسية، لذلك قررتُ فعل تمشية قصيرة.

يبدو أن السكان جميعهم كانوا في مثل هذا الوقت مستيقظين ونشيطين ويدعمون بعضهم بعضًا في مهامهم العديدة. عرضت ربات البيوت القهوة والكعك في الشوارع مع لافتة كُتب فوقها «تناولها مجانًا»، والناس، الذين كانوا بالعشرات مشغولين بتثبيت الأكاليل على عواميد النور، ساعدوهم. وجماعة آخرون كانوا يحملون مجموعة كاملة من أثاث غرف المعيشة إلى الشارع: أريكة، كراسي وكراسي الفوتيه، حتى تستطيع مجموعات المسرح الجلوس في منتصف الشارع بين أوقات التدريب والدخول في حوار مع المسؤولين حول الجعة. كان كل شيء في حالة سُكر خفيف ومخيمًا برقة، والمحادثات مُبطنة بالقطن، والوجوه لينة. ركض الأطفال في ملابسهم المُفصلة لهم حديثًا عبر الملاعب ولعبوا كرة القدم، بالضبط في الأماكن التي كان غير مسموح فيها على الإطلاق لعب كرة القدم، وبدا الأمر وكأن جميع المحظورات في العالم قد مُحيَت. أسرعتُ خطاي لأعود من جديد إلى المنزل قبل أن يوجه أحدهم لي حديثًا.

ما كان عليَّ فعله بعد الاستيقاظ، هو إنهاء تجهيزاتي عالية الكفاءة. حزمتُ جميع ما قد أحتاجه لرحيلي، في حقيبتَي سفر وصندوق يُمكن وضعهم في صندوق العربة. أما باقي الأشياء الأخرى فودَّعتها داخليًّا، بالأمس كنتُ ألف

في دوائر عبر منزلي وتخليتُ عن كل قطعة بألمٍ ظاهر، ولكني في النهاية متأكدة من صحة قراري. كنتُ قد حفظتُ الطريق التي سأسلكها غدًا لمغادرة المدينة: شارع «يوهان»، ثم المروج، طريق «جماينجروبين»، شارع القصر، ومن ثم طريق الغابة المحفوظة جيدًا خلف القصر. باقي الطرق الأخرى كانت إما في حالة سيئة للغاية بحيث لا يمكن القيادة عليها، وإما مملوءة بالحراس مثل الطريقين الجديدتين اللتين أُنشئتا حديثًا لأجل أتوبيسات السفر. نظمتُ في الأسابيع الأخيرة ما يسمى بشؤوني الخاصة. سينتقل المنزل، كما تأكدتُ من هذا الحق في القانون وكما أكده لي مرة أخرى موثق عقود في فيينا، إلى ملكية الممرضة إلفريده، التي كانت تعيش بصورة نهائية منذ أسبوعين في مأوى مؤقت للطوارئ. من ناحية أخرى دفنتُ خطتي لتوديع معارفي وأصحابي الموجودين هنا من خلال الخطابات، بعد محاولاتي الفاشلة، لا بد وأن يكون قطعًا لجميع العلاقات. كان لدي دائمًا الشعور بأن شخصًا ما سيُبقيني، ولن يسمح لي بمغادرة ذلك المكان، بعد أن قضيتُ ثلاث سنوات هنا. على الرغم من أن أحدًا لم يفعل شيئًا من هذا قط. ومع ذلك حبستُ الأوراق في صناديق في الطابق العلويِّ وخبأتُ المفتاح لآخذه معي.

غدًا في الثامنة، حيث من المفترض أن ألقي خطابي، فكل ما سأفعله: هو ألا أُلقيه. وبدلًا من ذلك خططتُ، بينما جميع الصحفيين والضيوف في أماكنهم، فسأعلن بصوتٍ عالٍ وواضح الكلام الذي أعلم بأن لا أحد يرغب في سماعه. كان تقريري مملوءًا بالثغرات، لكنه صادم. هل كان صادمًا؟ ستكون الثغرات غير ذات أهمية اليوم في ذلك المساء، إذا ما سارت الأمور كما خططتُ لها. المطبوعات التي أعددتُها للصحفيين الموجودين مُلقاة الآن جاهزة على مكتبي الذي كان في السابق فارغًا تمامًا.

ولكني ما زلتُ لا أعلم مطلقًا كيف من المفترض أن أُسلِّمهم هذه المطبوعات بطريقة تكاد لا تُلاحظ. لم يكن ذلك عدم اليقين الوحيد، فيما إذا كان شخصٌ ما سيدفعني بعيدًا عن الميكروفون أو ما إذا كنتُ سأُنهي ما رغبتُ بقوله، سيظهر ذلك حينها، ولكن المؤكد أنني بعد وقوع ما قد يحدث، يجب أن أركب السيارة هاربةً في أول فرصة. سأدفع نفسي خلال الحشد، وربما قد أضطر إلى الجري، ولكن لمَ قد يتبعني شخصٌ ما أصلًا؟ أنا لم أفعل شيئًا غير

قانونيٌّ. على مفترق الطرق، ليس بعيدًا عن منزلي، أُنشئت محطة للوجبات الخفيفة، وعُلِّقت للتو أعداد لا تُحصى من براميل النبيذ على الخطافات. حييتُ عددًا من النساء، اللواتي أعرفهن من الرؤية المتواصلة، وتعبيرًا عن شكرهن حصلتُ على قطعة جاتوه كما كوب بيرة «تسفيكل» دُس في يدي، أفرغتُه في فمي بامتنان وعلى عجل. ثم صعدتُ إلى القصر وأجريتُ بضع مكالمات لم تزد على مجرد أسئلة للتأكد من عدم نسيان أي شخص ما يجب أن يفعله غدًا، قبل أن أعود في الطريق الهابطة إلى المدينة ظهرًا. الغريب: كان كل شيء جاهزًا ومع ذلك كانت توجد آلاف الأشياء التي يجب أن تُنجز. سُوِّيَ كل شيء بوضوح وفي الوقت نفسه لا شيء.

صرخ أحدهم لي: «أهلًا يا روت، إنني أتطلع بشوق لأدائك غدًا!».

فرفعتُ يدي حتى قبل أن أرى مَن ذلك الشخص. ضحكات آتية من بعيد. وبعد ذلك عاد الصوت نفسه للظهور. شعرتُ بأننا كنا في أكثر ساعات السنة ازدحامًا، وفي الوقت نفسه في أكبر عطلة رسمية، فلم يباشر أحدٌ عمله، إلا إذا كان مهمًّا لتقدم الجميع في ذلك اليوم. انتشرت هذه الأجواء فوق كل شيء مثل سجادة مخملية، في نعومة، بدت أنها أعادت رسم كل شيء من جديد.

على العكس كانت الحقيقة هي أن الكثير من الأسئلة التي كنا نطرحها منذ أشهر ظلت دائمًا بلا جواب، لم نكن نعلم ما إذا كان مضمونًا سلامة الزوار أو ما إذا كان سينهار الأسفلت في اللحظة نفسها التي يسير فيها جميع السياح المُعلن عنهم خلال بوابة المدينة. ولكن نظرًا إلى أنه لم يكن هناك شيء مؤكد، فقد مشينا لاستقبال الغد بثقة السائرين خلال النوم.

تسلحتُ بجرعة خفيفة من الليثيوم[1] من أجل موجة أخرى من التعاملات الاجتماعية. كنتُ أرتجف عندما أصافح السياسيين، أرتجف عندما أوزع ترخيصات العمل للأكشاك، وأرتجف عندما تحركت عربات الشحن وركنت في ملعب كرة القدم لأجل الغد. بالإضافة إلى ذلك فقد كنتُ متوترة للغاية من الغد، وليس فقط بسبب الكشف عن نواياي. مع ذلك ما زلتُ أشعر بأنني مسؤولة عن كل ما قد يمكن أن يفشل، وحتى فكرة أنني في تلك اللحظة سأكون قد هربتُ بالفعل، فلن يغير ذلك من شعوري شيئًا. أو هل أرتجف

(1) دواء يستخدم من أجل علاج الاضطراب ثنائي القطب.

من فكرة هروبي تلك، وأن الكوارث المحتملة لن تغير في فكرتي شيئًا؟ هل سيكون جميع السكان مصدومين مما سأقوله، أو قد يمزقونني بالكلام كوني جالبة للشؤم؟ مؤخرًا كان لدي شعور بأن جميع سكان جروس أينلاند بدلًا من أن يكونوا مألوفين أكثر، قد صاروا على العكس لغزًا لا يُمكن اختراقه. لا يمكن أبدًا التنبؤ برد فعلهم.

الآن على سبيل المثال، عندما كنتُ أسير في المدينة، كنتُ كل ما أراه هو وجوه ضاحكة. قبل أسبوعين فقط كان يتزايد الغضب العام بالقدر نفسه في اجتماع مجلس البلدية، لدرجة تبدو معها السعادة السائدة الآن مُقبضة. ولدهشتنا الكبيرة فقد حضر الاجتماع عدد ضخم من الجروس أيلانديين.

حتى عندما تنحنح العمدة أربع أو خمس مرات، لم يرغب الحشد المحموم في غلق أفواههم. لهذا السبب ضرب براحة يده على الميكروفون عدة مرات، إيماءة ظلت حاضرة في ذاكرتي. ما قد جعل الناس في حركة لفظية هو تعدد الأصوات في تأثير نظرية النوافذ المُحطمة[1]، دائمًا عندما ينوي أحدهم البقاء هادئًا، يستمر الآخرون في التحدث للحظات، والشخص الذي رغب في واقع الأمر بأن يصمت، سيُخيل إليه بأنه يمكن له الرد مرة أخرى على ما قد قيل للتو دون أي ضرر. عندما صرخ العمدة في النهاية بلهجة آمرة في الميكروفون ليصمتوا بعد بضع دقائق من محاولات الترويض الفاشلة، ساد الصمت للحظات.

قال بعد ذلك: «اجتمعنا اليوم لمناقشة الحفل الذي سيُقام في غضون أسبوعين. (وفجأةً باغته الصمت) وكما تعلمون جميعًا بالطبع أننا أصدرنا مرسومًا إلزاميًا يقضي بأن جميع سكان جروس أينلاند لا بد لهم من أداء دورهم، بعد أن كان لدينا عدد قليل للغاية من المتطوعين لتنظيم هذه الساعات الضخمة والصعبة بالتأكيد بالنسبة إلى مجتمعنا. لم يكن هناك الكثير ممن

---

(1) تقول النظرية إن الجريمة هي نتاج الفوضى وعدم الالتزام بالنظام. إذا حطم أحدهم نافذة زجاجية في الطريق العامة، وتُركت دون تصليح، فسيبدأ المارة في الظن بأن لا أحد يهتم، ومن ثم فلا يوجد أحد يتولى زمام الأمور، ومنه ستبدأ نوافذ أخرى في التحطم على ذات المنوال.

رفضوا فعل ذلك، ولكن لا يزال عدد كبير منهم. والآن أُصدِرت عقوبة لعدم الامتثال».

تحت خطاب العمدة كانت تغلي بالفعل الهمهمات، كانت تنتقل في هذه اللحظة من شرارة إلى أخرى كما لو كانت في نقاط حرائق صغيرة ومختلفة.

واصل العمدة المتعرِّق بغزارة حديثه: «لذلك نطلب منكم بألا تتضايقوا منا، إذا ما كُلِّفت بعملٍ غير مريح أو بإحدى مهام التنظيف والإخلاء. كانت هذه هي المهام التي لم يُسجل بها أحدٌ اسمه، ولا بد لنا أيضًا أن نهتم بذلك تحت مسمى نظافة المجتمع. ودون تأجيل أو تأخير. (تصفير، وفي الوقت نفسه قلة منهم مَن قاموا وسجَّلوا أسماءهم في القوائم الموجودة بالفعل) على سبيل المثال، لا يزال هناك قدر كبير من ما يسمى بفائض البيانات في مجال الـ ...».

ولكن كانت هذه هي نهاية الكلام وقاطعه أول شخص من الجمهور. صرخ أحدهم: «ولكن ماذا عن الخطر المحدق بأطفالنا؟ بل المحدق أصلًا بجميع الذين سيعملون؟».

وقد دفعني ذلك لأنهض ولأرى مَن الذي تحدث، لأن مثل هذه التصريحات لم تكن تُسمع قط حتى الآن في هذه المدينة المُخدَّرة. ولكن مهما يكن ذلك الشخص، فقد ارتدَّ منذ وقتٍ طويلٍ إلى محيط الغضب المتصاعد بصورة جماعية، الذي بدأ يزيد بالضيق.

قال العمدة: «لا أعرف ما الذي تقصده، نحن نتصرف بنزاهة حسب علمنا وضميرنا. لا يمكننا إجراء أولًا عمليات الملء، كما يعتقد البعض، ومن ثم الحفل، إذ سيصبح حينها جميع ما خططنا له بلا ضرورة على الإطلاق».

- المدينة تبدو كقطعة أطلال. ماذا ستفعل إذا مات أحدهم؟ وماذا عن الذي حدث في «هيملسجروندين»؟

سؤال متوقع، ولكن الانهيار الحتمي للعمدة قد بدأ. الحادث الذي وقع في «هيملسجروندين»، جنوب المدرسة الابتدائية، سيصبح مُضحكًا تقريبًا، إذا لم يكن قد أدى إلى إصابات خطيرة لبعض الأطفال. هناك تدربت مجموعة راقصين من الطلاب -الذين كان من المفترض أن يتدربوا على رقصة

بالشرائط على لحن من أحد أعمال «جوستاف مالر[1]» في مزيج جريء من الأساليب- على جدولهم الفنيِّ، عندما حدث الشيء غير المتوقع. كانت الفتيات يرتدين القبعات المُزينة بشرائط ذهبية وكانت مربوطة بالشرائط الحمراء المُعلقة على سارية مايو. كان من المفترض أن تُجدل الشرائط الحمراء بمرور العرض مع الشرائط البيضاء الخاصة بالصبيان، وهذا يعني، أن جميع الأطفال كانوا بشكل أو بآخر مُثبتين على الجذع وحُثُّوا على الرقص على ألحان «في الصباح سرتُ عبر الميدان[2]»، عندما انهارت قاعدة السارية الخرسانية في حالة من التراخي المفاجئ للمادة الصخرية.

اندفعت القطعة الخشبية، التي كان الأطفال مُقيدين بها، عموديًّا إلى الأسفل بداخل الأرض، وخلال ثانية كانت الفتيات يتقاذفن ناحية بعضهن بعضًا بسبب القبعات التي كانت موضوعة بإحكام على سقف جماجمهن. أما الصبيان، الذين تلقوا تعليمات بعدم ترك الأشرطة تنزلق من أياديهم، قد لُحِق بهم في منتصف حركات رقصة جبال الألب «شوهبلاتلر» التي ليس لها أي سبب واضح. بعد أن رُشِفَت سارية مايو إلى الأسفل واختفت في حفرة لا يبلغ عرضها 25 سنتيمترًا، ولكن على الأقل لم يتعرض شخص واحد من الأطفال للمصير نفسه، وذلك لأن الحفرة كانت ضيقة للغاية بالنسبة إلى الجسد البشريِّ. كانت هناك إصابات طفيفة كارتجاجات بسيطة في المخ، ولكن لأول مرة أثار ذلك الحادث المفاجئ التهيج الشديد.

قال العمدة: «كان ذلك نتيجة لسوء التخطيط ولن يتكرر ذلك مرة أخرى. (ولوَّح بيده إلى الصف الأول، حيث كان فيليب واقفًا) خبيرنا الإحصائي...».

ولكن كان الناس يصيحون هنا وهناك مثل تلاميذ أشقياء. فوجئتُ حتى بوقوف الممرضة إلفريده، رافعةً يدها بزاوية يمنى مشيرةً بسبابتها إلى المنصة: «لدي قلق كبير بشأن الطريقة التي سينظر بها المحيط العام إلى مجتمعنا، إذا لم يتغير شيء. ما الذي سيقوله الناس عنا، عندما يحضر الصحفيون المدعوون وجروس أينلاند مُعلقة باعوجاج؟ لطالما كنا في واقع

(1) مؤلف موسيقي نمساوي.

(2) لحن من تأليف جوستاف مالر.

الأمر مكانًا نظيفًا، صالحين وجميلين. (كررتْ) حقيقة أن كل شيء الآن مُعلق باعوجاج، لم يكن هذا يناسبنا على الإطلاق».

تصفيق متقطع ومنفرد.

صالحون، فكرتُ ونظرتُ إلى المجتمع الصالح... المُجتمِع اليوم.

أذن العمدة مثل مدرس في مدرسة ثانوية وسط فوضى صاخبة لشخصٍ كان يجلس في الخلف تمامًا رافعًا يده، ليُكافئه على أسلوبه المتحضر: «عليكَ أن تفهم ذلك باعتباره عادة نوعًا من العلامات التجارية. نحن لسنا مُعلقين -كما يُقال- باعوجاج على الإطلاق، فسيُحسَّن ذلك فنيًا. سيُفهم ذلك في وقت لاحق أيضًا. أجل؟».

قال رجل أعرفه من كثرة رؤيته: «أنا أيضًا أرى ذلك. لا يجب على أحد أن يحكم علينا من الخارج، لا يمكنه أبدًا على الإطلاق فعل ذلك. (وأضاف، كما لو أن هذا لا يتعارض مباشرةً مع ما قد قاله للتو) وإذا حكم علينا شخص من الخارج، حينها سيكون فقط بالطريقة التي نريدها».

علت صيحات الاتفاق. والآن حتى أولئك الذين ليسوا شجعانًا تمامًا شعروا بأنهم مجبرون على الصراخ بأشياء تُقال. على الرغم من أن الأصوات كانت على القدر نفسه من الاضطراب لدرجة أن حتى بالنسبة إلى مراقب غير مُتدرِّب كان لا بد وأن تبدو له بأنها تتوعد بازدياد حدتها، قمتُ ومشيتُ. كنتُ ميتة من شدة التعب وكنتُ أعلم، بأن هنا لا يوجد شيء حقًّا قد تزداد حدته، وأن الجروس أيلانديين قد أخمدوا بالفعل قبل الحدث الحقيقيِّ وانهار كل شيء بداخل نفسه مثل رغوة الحليب التي أُزيلت من الموقد. حدث الشيء نفسه بعد يوم.

بقدر ما كان المخبأ تحت السطح يغلي ويفور، بقدر ما كان الخارج كسولًا بطريقة مُحببة واحتفاليًا، حيث فيه يُسحر كل شخص الآخر ويُدخله في سبات. أنا أيضًا استسلمتُ لهذا السحر، عندما كنتُ أسير في الجانب السفليِّ من المدينة، بدت لي كل تلك الأشهر والسنوات السابقة على أنها علامة مؤكدة على الانهيار، وفجأةً تحوَّلت في عيني إلى مشهدٍ تاريخيٍّ.

كانت عربات الشحن راكنة بالفعل بجانب الاستاد. عشر سيارات بسعة اثنين وثلاثين ألف لتر، وشاحن توربيني إضافةً إلى خرطوم بطول اثني عشر

مترًا، سيُوصَّل بالهيكل المجوف تحت الأرض عند نقطة إرساء محددة. وفي منتصف ملعب كرة القدم خُصصت مساحة هائلة لخطابات حفل الغد. مرَّ أنبوب سميك متصلًا بالفوهة الرئيسية أسفل ساحة السوق، بداخل الأرض بطريقة فعالة علانيًا، وكما هو الحال عند ثقب برميل الجعة[1] فسيُكسر بما يشبه واصلة معدنية ويلفها حوله، التي ستبدأ الضخ. كانت مساحة العرض لهذا العبث مسرحًا ضخمًا بمساحة ألف وخمسمئة متر مربع، التي تغطي بارتياح ثلث مساحة الملعب، وواضح تمامًا أنها أكبر بمساحة قدرها مئة متر مربع من قاعة الاحتفالات النمساوية[2]. اختفى العشرات من التقنيين خلف الماكينة الفخمة وبنوها.

مدير مخزن مواد البناء «شتوكر»، قفز من شاحنة وتوجه نحوي. عندما وقفتُ أمامه، رأيتُ كم كان مُستنزفًا للغاية مثلما أشعر أنا تمامًا، وأنه كان موسومًا بليالي الأرق حتى إنه احتاج لبرهة قبل أن يدرك أصلًا هويتي. قال ودفع طاقيته إلى الخلف: «كل شيء جاهز، يا روت، البارحة اختبرنا مواضع الإرساء. السيارات تفي بما وعدت به».

قامت الكونتيسة بنفسها بتمويل السيارات، وهو ما قد اعتبرته استثمارًا مُخالفًا للمنطق، خاصةً أنه لن يحتاج أحدٌ لهذه المركبات مرة أخرى.

قال في خمول: «هل ستذهبين لاحقًا إلى هناك؟ إلى مصانع التقليب؟ سمعتُ أنه سيكون مشهدًا مؤثرًا حقًا».

هززتُ رأسي نافيةً. في عشر حظائر أُعيد بناؤها وتحويلها إلى مصنع في جميع أنحاء المدينة تُقلَّب مادة الحشو، التي ستنقلها السيارات ليلًا.

سألتُ: «إلى مَن يُمكنني منح خطابي للغد؟».

قال وضيَّق عينيه كما لو كان لا بد له أولًا من إجبار صورة مزدوجة على التداخل: «غدًا. بسبب الغد، أجل، مضبوط. سنفعل ذلك بالترتيب: أولًا سيتحدث العمدة، ثم الكونتيسة، ثم أنا، وبعدها أنتِ. وهذا يعني، فقرتكِ ستبدأ عند الساعة الثامنة».

---

(1) عادة شائعة لافتتاح المهرجانات الشعبية.

(2) مبنى في فيينا ويعد أكبر مركز للفاعليات في النمسا.

كررتُ بتوتر وأعطيتُه ورقة: «الثامنة. هذا سيكون خطابي».

قال ومرَّ بعينيه سريعًا على النص، الذي لم يكن لدي أي نية مطلقًا لقراءته له: «حسنًا. خطاب عن جروس أينلاند وطبيعتها، يعجبني ذلك. بالتأكيد أفضل مما كتبته. سنُعد الميكروفون غدًا في الصباح الباكر، جيد؟ سماعة رأس؟».

هززتُ رأسي بإيماءة الموافقة وربَّتُ على كتفه قبل أن أعود لصعود درجات الاستاد مرة أخرى.

بعد وصولي للمنزل تحققتُ ثلاث مرات من أن الأبواب والنوافذ مُغلقة بإحكام وسرتُ عبر جميع الغرف للتأكد من عدم دخول أي شخص فيها في أثناء غيابي. بالطبع لم يكن هناك شيء غريب، ثم جلستُ على الأريكة وانتظرتُ. قالت إنها ستُهاتفني عند الساعة الثالثة مساءً، ولكن الآن تطول الدقائق وتتمدد، وعندما رن جرس الهاتف أخيرًا، بدا لو أن ذلك قد حدث من العدم.

قلتُ: «مرحبًا. شكرًا لاتصالك».

أجابت خالتي بلطفٍ وكأنها لا ترغب في فزعٍ حيوان صغير: «لا مشكلة، يا روت. شكرًا لصبرك. هل سنرى بعضنا بعضًا حقًا في فيينا الأسبوع القادم؟».

نظرتُ حولي مرة أخرى أخيرة، للحظة شعرتُ بالخوف من أن أحدًا ما قد يكون قادرًا على سماع جوابي: «أجل. هل تحققتِ من الأمر؟».

قالت، بصوتٍ مسموع متبرئةً من برهاني: «أجل لقد فعلت. اسمعي، يا روت، كيف من المفترض أن أصوغ ذلك؟ والداكِ قد أخذا معهما إلى فيينا المستندات التي استعاراها، وقد وجدنا المجلدات أيضًا في كومة الأوراق تلك في الميراث».

- وماذا؟ أين تلك الأوراق؟

صمتت خالتي لبرهة.

- لقد مر وقت طويل ملعون بالطبع، هذا كل شيء. كنتُ مضطرة أولًا إلى النظر في قائمة الميراث، وأنتِ ربما لا تعلمين ذلك، ولكن لفَّنا حينها هذا الغموض بشأن الميراث. خاصةً وأننا لم نستطع إيجادكِ، في ست سنوات يحدث الكثير بالطبع.

قلتُ: «ثلاث».

على الناحية الأخرى كان صمت.

- ست، يا روت، أنتِ مختفية منذ ست سنوات.

قلتُ بحدة: «هراء».

وبدأت في عد السنوات على أصابعي، ولكن لم يعد شيء يتوافق مع شيء، ثم واصلت خالتي التحدث، كما لو أنها ستقضي على الخلاف قبل أن ينشأ. قالت: «هذا أيضًا لا يهم. على أي حال لقد وجدنا بالفعل الأوراق، حتى لو كنا لأجل ذلك اضطررنا إلى تفتيش جميع الصناديق في المستودع».

- وثم، هل يمكنك إرسالها لي؟

تشبثتُ بسطح الطاولة، لأنني كنتُ لا أزال أشعر بالدوار من دواء الليثيوم.

- روت، هذا لن يساعدكِ كثيرًا. لأنها كانت فارغة. هذا غريب جدًّا.

- ماذا تقصدين بفارغة؟ لمَ يستبقيان لديهما مجلدات فارغة؟

- لا أعلم يا روت، أنا لا أعرف حتى ما الذي كانت تحويه هذه الأوراق في الأصل، ولكنها لم تكن المطبوعات الأصلية، كانت مجرد قصاصات بيضاء في أغلفة. أخشى من أن والديكِ قد تخلصا بالفعل من المستندات قبل وفاتهما.

21

لم تستيقظ القرية باكرًا في الخامس عشر من سبتمبر، بل لم تستيقظ على الإطلاق، لأنها لم تنم قط. كان الجميع مستيقظين بالفعل عندما سارت فرقة آلات النفخ في الساعة الخامسة صباحًا للإعلان عن بدء الاحتفالات. سرَّعت القهوة المُفلترة من الأحداث اليومية، التي كانت ستبدو من الأعلى وكأنها وميضٌ فوضويٌّ ومتناثر في شذرات، أبقى الكافيين كل شيء في مساره الصحيح، حتى قبل أن يتمكن الإدراك من مواكبة كل ما يحدث. كان الجميع في ميعادهم الدقيق، وبدوا في حماسة تامة من الخارج، ولكن ذلك لا يمكن أن يخدعني دافعًا بي بعيدًا عن الظروف الحقيقية.

كان لدى الجميع أكياس تحت أعينهم وذلك الخمول المصاحب للساهرين المتمثل في تأخر ردود الأفعال، الذي يجعل الخطوات مُتثاقلة. بين قمم الأشجار كانت تُرى، إذا ما نظر أحدهم من الأعلى من منظور الطيور، قبعات فرقة الأوركسترا وهي تتأرجح بلا كلل على رؤوسهم، لأن الجميع كانوا يتنقلون بفارغ الصبر من قدمٍ إلى أخرى. كانت القرية غارقة في صور مزدوجة من شدة الإنهاك، عندما وصلت الأتوبيسات المُحمَّلة بالسياح على الطرق الممهدة حديثًا آتيةً من الشمال والغرب. حُرِّر الناس من أنابيب الألومنيوم وتجمهروا بالآلاف عند الساعة الثامنة صباحًا في الفناء الأماميِّ المُستصلح إضافيًا خارج سور المدينة. حيث مجموعة من المُنظِّمين استبقوهم في الخارج، مستمتعين بالطعام المُعلب والروح الصافية الحسنة. في هذه الأثناء، كان في الداخل، في المدينة، مئات الرؤوس محشوة بمئات المهام، حريصين على أدائها وتشغيل آلية منظومة التروس فيها، التي زيتوها لوقتٍ طويل، والكل كان ينظر إلى مئات من وجوه ساعات اليد التي كانت على أرساغ المئات من الأيدي المرتعشة من التوتر والتي صار اهتزازها حتى غير مقروء. وعلِق بالسماء صوت ذاك الطنين الغريب الذي نعرفه من فاعليات الماراثون، كما لو

أن هناك طيارة هليكوبتر في الهواء لا يمكن رؤيتها في أي مكان. المحادثات من ألف فم وتوتر عشرات ملايين الألياف العضلية الدقيقة جعلت كل شيء يتأرجح. ثم، في الثامنة والنصف بالضبط، كانت طلقة البداية، وتفجَّر كل شيء.

من الغابة خرجت الفرقة الموسيقية المكونة من خمسمئة شخص، وفي مقدمتها رئيس الفرقة الموسيقية «هاوسبريشت»، واندلع الحشد، الذي بدا أنه لم يكن في الحسبان، في قول «Ah»، «Oh» بصوت مسموع بوضوح. والآن سار خروجًا من الحارة تجاه وسط المدينة، أكثر من أربعة آلاف من السياح خلف الفرقة الموسيقية بإخلاص مُطيع. في الطريق عبر صفوف المنازل كانت تلقي العائلات من الطوابق العليا الحلوى وكعك «الكرابفن» الصغير الملفوف بورق السيلوفان. كان لدى الجميع حتى الأطفال واجباتهم. دُفع تشتت الجسيمات البشرية شيئًا فشيئًا إلى المدينة، وكانت تلج بداخل كل شق، كل شارع، كل مكان فارغ، حتى يمتلئ كل شيء إلى آخره، كما سيكون مصير الحفرة أيضًا قريبًا. انشق الحشد متفرقًا على ممرات الغابة كما لو على الأسطح الكارهة للماء. وكانت كتل من مئات الأشخاص تنجرف عبر الدوامات الماصَّة التي كانت تسحبهم في طريقها، تدفقوا في مضامير السباق تحت الأرض، إذ يمكن في الظلام الدامس أن يصطدم كل شخص بالآخر، بينما تقطر التربة على رأس أحدهم الأوساخ. أو يصلون إلى محطة الهدم الموجودة في الجنوب، حيث يمكن لهم استعارة مطرقة مقابل رسوم استعارة لتُهشِّم المبنى المُحطم من عمليات الهبوط المتكررة بيديك ولتكسر الأثاث والنوافذ والطوب المُهشَّم لمدة خمس دقائق.

أما في الشمال فأكثر ما كان يحرك الأحواض البشرية، منبع المياه الشافي في المغارة الصغيرة لمريم العذراء، وبداخلها كان يبارك ثلاثة قساوسة بمساعدة كبيرة من عشرين فردًا من الأيبودياكون تيارات السياح المتدفقة بلا نهاية. كان حدث المُباركة في النافذة يستغرق نحو خمس ثوانٍ لكل شخص، ثم يقودون الحشد في دوائر للخروج من الغرفة الأرضية الشبيهة بخرطوم.

من ناحية أخرى، إذا ما نظر أحدهم في وقت الظهيرة بعيدًا عن نقطة مبنى فرقة المطافئ، فسيمكنه مراقبة العائلات الفردية وهي تتحرك في داخل زلزالٍ اجتماعيٍّ متنوعٍ. الأمهات يتدافعن مزدحمات على مكتب التسمية: مؤسسة، حيث يمكن للناس تسمية المداخل الجانبية الصغيرة للحفرة

بأسمائهم أو باسم عائلاتهم، لكي يحملوا إلى منزلهم بفخر واعتزاز شهادة التسمية الجديدة للأنفاق. توجه الآباء، بينما أبناؤهم على أكتافهم، مع جميع أقاربهم إلى عرض الآلة، حيث تُعرض الخراطيم المُهمهمة بصوت ذكوريٍّ، التي تنفجر في الأرض بضغط قدره خمسون طنًّا في الثانية وسرعة حقن قدرها مئتان وخمسون كيلومترًا في الساعة. وكان الأطفال يوجهون آباءهم لأماكن «البحث عن الذهب»، حيث يترقبون على نار الإمكانية المثيرة لاكتشاف غير مسبوق أبدًا. الجميع خضع لحركات الآخر ممسكين بأيدي بعضهم بعضًا، لكي، كما قيل، لا يفقدون بعضهم بعضًا.

ولكن إذا وقفتَ في مستوى النظر نفسه أو على ارتفاع قدره نحو متر مثلي الآن، ستتمكن أخيرًا من رؤية مصير كل فرد في ذلك الترجرج. لنفترض وجود امرأة من ضواحي المدينة التي ليست بعيدة للغاية، ربما في الخمسين من عمرها، تتأرجح وتتقلب بين الخيارات في ارتياب، وهذا، على الرغم من أن لا شيء من هذه الخيارات يناسبها أصلًا، ربما كانت خائرة القوى -مثلي تمامًا بالمناسبة- من الانطباعات المُكثَّفة للغاية. للحظة بدت وكأنها تنبذ الكل، ومع ذلك نظرت حولها ولم تستطع رؤية شيء سوى أشخاص يصرخون بحماس. هزَّة سرت في أنحاء جسدها، استدارت للحظة في دائرة وأول ما وجدته عيناها كان لافتات الطريق تجاه قرية الحرفيين.

سألتني: «معذرةً، هل يمكن لأي شخص المشاركة هناك أيضًا؟».

بينما كنتُ أنتظر على منصة الخطابة الصغيرة، حيث من المفترض أن أقود منها موكبي الاستعراضيَّ الذي يقترب موعده. كان عليَّ استعادة تركيزي لبرهة، حتى أثبت بصري من جديد على هذا الوجه المُقرَّب.

أجبتُ: «أجل، يمكن ذلك. يجب أولًا تسجيل اسمك هناك على الفور، وقت الانتظار سيستغرق نحو ثلاثين دقيقة».

كنتُ طوال الصباح أترقب حدوث انهيار للتربة البالية منذ زمن بسبب الحجم الهائل للأشخاص فقط. ولكن لم يحدث شيء.

ثم حان وقت ما يسمى بالاستعراض الصغير، موكب من أطفال يعزفون آلات النفخ وفنانين من المفترض أنهم متنكرون في ملابس لأشخاص

فلكلورية، («حورية نهر الدانوب[1]»، «رامبيل ستيلتسكين»[2]، و«حية الزيزفون»[3]). البعض حاول، كما قيل لهم قيادة دراجة أحادية في زيهم التنكريّ، ولكنهم استمروا في السقوط من دراجتهم الأحادية وتسببوا أيضًا في سقوط من وراءهم. وكان الأطفال في أثناء ذلك يعزفون في نشازٍ. كان مشهدًا مُحزنًا، حيث سقط منه الآن فرديناند وهو يتصبب عرقًا ووجهه مصبوغ إلى البياض. على الرغم من أنبوبة الأكسجين التي ربطها اليوم على ظهره، قفز إلى الأعلى نحوي وعانقني متشبثًا برقبتي وكادت استدارة كرشه تدفعني بعيدًا عن منصة الخطابة.

لهث قائلًا وعيناه تتسعان في وجهي، كما لو كان يحبس دموعه لأطول وقت ممكن: «روت، أليس كل ذلك رائعًا للغاية؟ لقد عشتُ حياتي بأكملها هنا ولم أشهد قط شيئًا بمثل هذه الروعة على الإطلاق».

وافقتُه برأسي وأشرتُ له بإيماءة من رأسي بالعودة إلى الصف. كنتُ سأنتظر وصول القطار، لكي أقدر على التسلل إلى البيت دون أن يلاحظني أحدٌ بعد ذلك عندما يُسمح لي بأخذ استراحة الغداء. ولكن فرديناند تشبث بي مثل نبات الشوك مُسمَّرًا حولي.

- إنني مُتلهف لسماع خطابكِ الليلة. هل أنتِ متحمسة؟

قلتُ وأنا أزيل يديه عن كتفي: «لكن لا».

كنتُ أشعر بالذنب، كان شيئًا طفوليًّا، وكنتُ أعرف أنني يجب أن أنتزع هذا الشعور مني.

قال فرديناند وضحك: «بعد ذلك سنشرب البيرة، حسنًا؟ ولأول مرة يجب علينا ألا نخاف من أن شيئًا ما قد ينهار في أثناء ذلك من تحت كروشنا».

- أجل، إذن في وقتٍ لاحق، الآن ربما ما زلتُ أشعر بالتوتر من لحظة ظهوري على المنصة.

---

(1) في الأساطير النمساوية هي حورية بحر طيبة تساعد البحارة وتحذرهم من اقتراب الفيضان حتى يكونوا بأمان.

(2) شخصية خيالية ظهرت ضمن قصص الأخوين جريم، وتحكي عن قزم يحوِّل القش إلى ذهب.

(3) كائن أسطوري عبارة عن مزيج من الثعبان والتنين، ولكن ليس لديه أجنحة، وأحيانًا يُصوَّر بأرجل.

فكرتُ: كنتُ كاذبة رهيبة، وقفزتُ من مكاني المرتفع للإشارة إلى مغادرتي.

سمعتُ فرديناند يُناديني من بعيد: «روت! انتظري!».

عندما كنتُ قد بدأتُ أحفر لنفسي طريقًا عبر الحشد، صارفةً وجهي بعيدًا ولم تكن يدي المرفوعة سوى تحية خلَّفتها ورائي.

وصلتُ المنزل مُتصببةً عرقًا من الإجهاد. بدت لي الآن السيارة المركونة في الفناء الخلفيِّ لتتخفى من الأنظار كإحدى مركبات منطاد الهروب من ألمانيا الشرقية، وهي مركبة غير قانونية على الإطلاق لا يُفترض لأحد أن يراها. هنا فقط واليوم لم يكن جزء الهرب هو الأكثر إشكالية. سرتُ للمرة الأخيرة عبر المنزل، ولكن الوداع كان قد تم منذ زمن. كان جميع الألم الناجم عن مغادرة المكان الوحيد، الذي شعرتُ به ذات يوم بأنه بيتي، قد صار خلفي منذ زمن.

كانت المجلدات تنغزني بشكلٍ مؤلمٍ في لحمي أسفل قفصي الصدريِّ، وفي اللحظة نفسها، بينما كنتُ لا أزال عند إطار الباب، انفجر قلبي فجأةً. آخر حبة «زانكس»، ولكنها لم تُهدئني، أي الحبة الثانية، ثم مغادرة المنزل، للمرة الأخيرة، الأبواب مُغلقة بالمفتاح، ورميتُ المفتاح إلى الداخل من خلال فتحة البريد في الباب. كان ذلك الوداع الأخير والنهائي.

ثم جلستُ على درجات السلم وأخذتُ نفسًا عميقًا وأخرجتُه. حتى هذه اللحظة كان كل شيء سهلًا للغاية، وبدا كل ما سيأتي بأنه لن يكون أكثر تعقيدًا، سأنتظر حتى يبدأ العرض الليليُّ، وقبل ذلك بقليل سأكون قد سرتُ عبر صفوف الصحفيين لأعطيهم واحدًا من تلك المجلدات. ولكنهم سيعرفون، مهما كانت تلك المعلومات غير كاملة دون كتب والديَّ، الحقائق التي جمَّعتُها، عن اختفاء سبعمئة وخمسين شخصًا والمواقف القانونية الخاصة بملكية المنجم، وعمليات التفتيش الفاشلة وتواطؤ القرية، عن النبلاء، الكونتيسة و«جلوترزات». عندما تكون الساعة الثامنة مساءً، سأصعد المسرح وسأطلب من الصحفيين إلقاء نظرة على الصفحات الأولى العلوية في المجلد، ومن ثم أبدأ في إلقاء خطابي الفعليِّ. يبدو ذلك يسيرًا للغاية

مشيتُ في شارع «يوهان»، وهو شارع شديد الانحدار، وكان الاتجاه الوحيد الذي لم أقابل فيه أي سائح، وتمنيتُ الآن في واقع الأمر بأن أقدر على الاستراحة لساعة أو اثنتين في الطبيعة، للاختفاء، قبل مجيء المهمة

الأكبر نحوي. والآن بدأت الفكرة في مطاردتي، كنتُ أرتجف بينما أفكر في جميع معارفي وهم يشعرون بالصدمة في أول الأمر، ثم بالتقزز، بعد ذلك سينظرون إليَّ في فزعٍ، بينما أدمر الحفل الذي كانوا يعملون لأجله بجهدٍ لسنوات. الحفل، الذي كان يراه الجميع بدايةً جديدةً لنصف عقد صُبغ بالكوارث الشخصية، لذلك في نهاية المطاف، ذلك الحفل، الذي من المفترض أن يرد صورة المدينة الصحيحة إلى مكانها في الفضاء العام مرة أخرى. هززتُ نفسي لفترة وجيزة، كما لو أن شخصًا ما كان يمسك رقبتي بيديه الباردتين، كنتُ منهوكة القوى تركتُ نفسي أخيرًا أسقط في المرج الموجود على أعلى نقطة في الهضبة. الشمس على وجهي، والطنين في الأسفل في الوادي كان شبيهًا بحفيفٍ أبيض. لا معنى له، مُخدِّر، ومهدئ تقريبًا.

كنتُ قد أغلقتُ عيني لبضع لحظات قليلة فقط عندما جلس أحدٌ ما بجانبي. شعرتُ بأني أُزعجتُ، سُرقت مني آخر لحظة في خلوتي السعيدة، التي كنتُ سأحظى بها لوقتٍ طويل لا يمكن حتى التنبؤ به. أدرتُ رأسي ناحيته وذُعرت. كان بائع الأقنعة، جلس على المرج وركبتاه متشابكتان وينظر إلى القرية المستلقية في الأسفل.

قال: «كنتُ أفكر فيكِ اليوم. (وانتظر حتى اعتدلتُ في جلستي، قبل أن يواصل حديثه) هل تتذكرين كيف تقابلنا قديمًا؟ في نزل «شجرة الزيزفون ذات الألف عام»؟».

قلتُ بخمولٍ واعتدلتُ في جلستي: «أتذكر. لا بد وأنه قريب من هنا، ولكني مع ذلك لم أذهب إلى هناك قط».

– لا، إنه يبعد أكثر من مئة كيلومتر.

قلتُ: «هذا ليس ممكنًا. (وانتزعتُ قليلًا من النجيلة من الأرض. كانت السيقان الندية والمتشابكة معًا تتدلى أمام عيني) كان أبي يحكي لي دائمًا بأنه كان يقضي الصيف هناك وهو طفل على مسافة يسيرة وقريبة من منزله».

قال بائع الأقنعة واسترخى بجسده على النجيلة: «لا بد وأنك أسأتِ الفهم».

صمتنا لبرهة ونظرنا إلى الأسفل على المدينة المُغطاة بحشد من الرؤوس المتحركة بسرعة وخرق أزياء التنكر الملونة التي امتدت كبحر مُنقَّط على الأرض المُتكسِّرة.

قال بائع الأقنعة وأشار إلى الوادي: «سمعتُ أنكِ مُنقذة المدينة. سيلتحم كل شيء من جديد في قطعة واحدة كاملة».

- أجل، ربما. أتعلم، أحيانًا أسأل نفسي إن كان من المفترض عليَّ رفض عرض العمل لدى الكونتيسة.

- ماذا يعني هذا؟ لقد أحدثتِ تأثيرًا عظيمًا.

قلتُ وأدركتُ كم بدا ذلك كحكمة رخيصة: «من ناحية يعيش الخير لشخصٍ ما على حساب استغلال الآخر».

قال بائع الأقنعة موافقًا على كلامي: «صحيح. ولكن قولي لي: أنتِ فيزيائية نظرية، إذا كانت ذاكرتي صحيحة. لا بد وأن ذلك كلَّفك الكثير من الجهد لتطوير مادة البناء».

- نعم، كما تعلم. (ضحكتُ) في البداية لم أكن أنوي أن آخذ هذا الموضوع على محمل الجد. لم يكن ذلك في الواقع شيئًا أكثر من الصدفة.

احمرَّ وجهي، نظرتُ إلى الأرض، وكنا نستمع لبضع دقائق إلى موسيقى آلات النفخ.

قلتُ في لحظةٍ ما: «كنتُ عادةً ما أضطر إلى التفكير في كلامنا. هل ما زلت تتذكر كيف كنت تحكي لي عن جولاتك الاستكشافية في «أرض أرنهيم»؟ عن الأجداد وتحركاتهم في زمن الحلم؟ أحيانًا كان يبدو لي كما لو أنني طوال السنوات الخمس الماضية لم أتحدث مع أشخاص حقيقيين من لحم ودم. (كنتُ أنتزع النجيلة في انتظام بطيء من الأرض وألقي بها بعيدًا بينما كنتُ أغرق في أفكاري متسائلةً عما قد قلته للتو) لكن فقط مع الأجداد. دائمًا مع الأجداد. وعندما لم أعد قادرة على تحمُّل ضياعي هذا في الوقت، وجب عليَّ التفكير فيكَ. في حكاياتك عن أستراليا. العالم الروحي والجسدي يتحدان معًا في عملية خلق مستمرة للحاضر، في زمن الحلم، في المكان، حيث يمكننا التواصل فيه مع أسلافنا، ألم تقل ذلك؟».

الآن، حيث كانت مغادرتي وشيكة على الأبواب، اجتاحني مع ذلك الألم، وكنتُ أجد مشقة في كبح دموعي. تابعتُ: «طوال هذه السنوات كان لدي شعور بأن الطبيعة من حولي ترغب في أن تقول لي شيئًا ما، هذه الطبيعة التي من المفترض أنها غير واعية، قد تتمكن من أن تُلقي ضوءًا على جذوري المُقتلعة في العراء. لقد تصارعتُ معها -يا إلهي، يبدو ذلك جنونيًا- وكنتُ

أشعر وكأن ذلك المكان هو قدري. ثم بقيتُ هنا. (أخذتُ نفسًا عميقًا) أليس ذلك مثيرًا للسخرية، أنني وجدتُ موطني بسرعة شديدة نسبيًا، في مكان مُهدد على الدوام بالغرق بداخل الأرض؟».

قال بائع الأقنعة وكركر: «يمكن للمرء أن يضرب جذوره في الأرض بشكل أفضل في الأماكن، حيث الكثير من الأشياء تتعفن في التربة».

كان الأطفال يصرخون فرحين على إحدى ألعاب الملاهي الخاصة بالموالد، التي كانت قريبة منا، آلة شبيهة بمضرب البيض، حيث كانوا مربوطين بها مع أولياء أمورهم، التي كانت تُطيِّرهم في الهواء ذهابًا وإيابًا في حركات غزل سريعة.

- أو الوقت، هل ما زلتَ تتذكر ما قلتَه لي قديمًا؟ أن كل شيء بالنسبة إلى «الأبوريجنيين» استعارة وأن الزمن الكرونولوجي يضيق أكثر فأكثر عند نقطة وحيدة ويصير مدببًا؟ لفترة طويلة اعتقدتُ بأنني قادرة على التعامل كوني فردًا مميزًا في الوقت الحاضر وأنه يمكن لي أن أكون مُستقلة تمامًا عن الآخرين جميعهم. ولكنك كنتَ على حق، لا نستطيع المضي قدمًا دون الاصطدام بالماضي.

انفجر بائع الأقنعة في ضحكٍ صاخب: «هل قلتُ ذلك؟ ولكنه بالنسبة إليَّ كان يومًا مثيرًا للشفقة للغاية. لا أعرف، كنتُ أعتبر ما أحكيه مجرد ترهات فلسفية فلكلورية، لأقنع الناس بشراء أقنعتي. الأصالة، هذا هو الشعار الذي يُثير اهتمام العملاء. سأخبرك بشيء لا يجب عليَّ قوله. لم أكن قط في «أرض أرنهيم»، لدي متجر للأقنعة في «مِستلباخ[1]» وهناك أصنع أقنعتي. ولكن لا تخبري أحدًا أبدًا بذلك».

تركتُ ساق زهرة «الحوذان» تفلت مني في منتصف الرمية، والآن تتأرجح على ركبتي. قلتُ بصوتٍ هامس وأشرتُ إلى حقيبة الظهر الموجودة خلفنا: «الأقنعة ليست حقيقية؟».

قال وضحك مرة أخرى: «وما الحقيقي إذن؟».

والآن رأيتُ بأنه لم يكن قط شخصًا أسطوريًا أو مملوءًا بالأسرار، بل كان مجرد شخصٍ ريفيٍّ كبير في السن. كان وجهه غليظًا وينم عن حيرة ما، مع تجاعيد حول العين ولغد على الرغم من بنيته النحيفة. في ضوء الشمس

(1) مدينة موجودة في شمال شرق نمسا السفلى.

الساطع رأيتُ طبقة من المكياج الرخيص على وجهه. اجتاحني رعب غير مفهوم من الطريقة المفاجئة التي بدا معها هو وكل شيء من حوله تافهًا ومبتذلًا. رأيت الوجوه الخشبية التي تتدلى في الريح متأرجحةً، الأقنعة الإفريقية وأقنعة كرنفال الغابات السوداء، الأقنعة الساحرة المنحوتة على الخشب بطريقة بدائية، التي اعتقدتُ أنها تعود إلى مئة عام، بينما نصَّاب ما قد صنعها في «مِستلباخ». فقط في «مِستلباخ». دفعني ذلك للنهوض على قدمي، كما لو أنني أخيرًا رأيتُ الحقيقة خلال هذا الوهم البصريِّ.

- هل ستذهبين؟ هل ما زلتِ مُضطرة إلى التحضير لخطابك الليلة؟

ركضتُ إلى أسفل الهضبة دون أن أجيب، سرتُ عائدة إلى الشارع بسرعة كبيرة وفي ساحة السوق حملني الحشد المبتهج الذي لم أعرف سببًا واضحًا لابتهاجه، إلى شارع «مارجاريتِن» وترنحتُ بين الأنهار البشرية. لم أعد قادرة على تحرير نفسي من مجموعة تتمثل في وفد ضخم ذي قوة سحب، الذي جرَّني إلى ركن في ساحة الكنيسة، حيث خبطتُ بظهري سارية مايو. تخلَّصتُ من الحشد بكل قوتي وهربتُ إلى شارع المدرسة. كنتُ أرتجف بجسدي كله بينما أنظر إلى الناس وهم يفقدون ثباتهم في المركز وكجسيمات فردية يُدفعون تجاه الملعب. وهذا يعني أن العرض الليليَّ على وشك البدء. سألتُ شخصًا ما عن الوقت: السادسة والنصف. شعرتُ بالأدوية تبدأ في التلاشي ببطء بداخل مجرى دمي الذي يزداد سخونة على الدوام، ودفعتُ يدي إلى جيبي، ولكنني كنتُ قد تركتُ أدويتي في سيارتي.

ثم سمعتُ من بعيد شاحنات المزج وهي تسير وركضتُ بعيدًا عن الصوت تجاه المدرسة، كما لو أنهم سيطاردونني، كما لو أنهم يرغبون في ملئي بدلًا من الحفرة. خلف المبنى بدأتُ في استرداد أنفاسي من جديد، ثم تملكني الشعور مع ذلك مرة أخرى، رأيتُ أمامي النفق الأفقيَّ الذي سقطت بداخله الفتاة الصغيرة قبل عام وكان مُسيَّجًا حوله شريط بالأحمر والأبيض لمنع الاقتراب. لم يُعثر عليها قط، وفي خلال ساعات قليلة سيفيض جسدها ويُحاط بمادة الحشو. تسببت لي هذه الفكرة برهاب لا يمكن وصفه تجاه الأماكن المغلقة، ولكن في هذا الجو الخانق نما القرار أخيرًا. دفعتُ بكل قوتي واحدة من قطع الخشب التي كانت منتشرة فوق تلك القناة مثل غطاء حلة، ونظرتُ في هذا العمق. حتى بعدما مسحتُ دموعي، لم يكن هناك شيء يُمكن التعرف عليه. أخذتُ الحقيبة المصنوعة من القماش التي كانت مُعلقة

على كتفي وتفحصتُ من جديد ما بداخلها: المستندات الأصلية، المطبوعات، وخطابي. ثم رميتُها ومعها كل شيء، ما قد كان عمل الليالي خلال السنوات الثلاث الماضية، في الحفرة. المجلدات، التي حررتُها لأجل العامة، انفتحت وانتشرت، واختفى محتواها الأبيض في الظلام. جميع الأوراق، التي ملأتُها بمستندات جميع القضايا التي لم تُبحث بخصوص العثور على الجثث -أي بآخر شيء كان يمكن أن يجعل إعادة فتح القضايا مُمكنًا- كانت قد اختفت في غضون ثوانٍ قليلة. ظننتُ أنني سمعتُ صوت الاصطدام، وللحظة شعرتُ بالفزع من نفسي، ولكن سرعان ما تبخَّر ذلك الشعور. شعرتُ بأنني تحررتُ من كابوس مرعب وثقيل وانتصبتُ واقفةً من جديد.

عندما كنتُ الآن في طريقي إلى وسط المدينة، لاحظتُ بأن رؤية الناس الذين يمشون بخطوة الاستعراض العسكريِّ نحو الملعب لم تعد تُسبب لي أي مشكلة. صرخ أحدهم باسمي، لم أستوعب مَن كان ذلك، ولكنني استطعتُ الالتفاف إلى الخلف والإجابة بينما أسير: «أجل، أنا آتية الآن، قل للآخرين إنني مضطرة إلى تبديل ملابسي بسرعة».

اخترقت وسائد الصوت، مجموعة الآلات الموسيقية المختلفة، ودون أن تكون قادرة على إيقافي، كنتُ بالفعل في المنزل وقفزتُ في سيارتي. شغَّلتُ الموتور وقدتُ وناقل الحركة على السرعة الأولى على طوال الشوارع التي حفظتها عن ظهر قلب: شارع «يوهان» - المروج - طريق «جماينجروبن» - شارع القصر. تسببت وعورة الأرض في دفع المصد عن سيارتي بينما كنتُ أحيد إلى أول طريق الغابة، تمامًا كما حدث ذلك قبل سنوات عند وصولي إلى هنا. ومثلما حدث ذلك قديمًا ما زلتُ أستطيع -على الرغم من الصعوبات- الانتقال مرة أخرى إلى طريق الغابة ودفعها من جديد ببطء لا متناهٍ على الطريق غير المُمهدة.

***

«الماضي حقيقيٌّ تمامًا مثل الحاضر. ومن ثم فهناك اعتقاد بأنه مثلما أنت الآن تجلس في الوقت الحاضر تقرأ هذه الورقة، كذلك -على سبيل المثال- يجلس الإمبراطور «نيرون[1]» في الماضي ويشاهد مصارعة «غلادياتر[2]».

(1) خامس وآخر إمبراطور الإمبراطورية الرومانية.

(2) هو رجل سيف ومصارع شرس يخوض لعبة الموت مع أشرس الحيوانات المفترسة وأقوى المقاتلين لإمتاع الجمهور.

وكما أنت تفكر الآن بينك وبين نفسك: «أنا أجلس الآن في الحاضر». كذلك الإمبراطور «نيرون» يفكر بينه وبين نفسه: «أنا أجلس الآن في الحاضر». (ترينتون ماريكس، دراسات أوكسفورد في الميتافيزيقا، Vol. 2).

يحجب وهم الحاضر حقيقة أن كل إنسان يطفو عند نقطة ما اعتباطية على المناظر الطبيعية لجميع الاحتمالات ويظن نفسه في نزعته المركزية الأنانية بأنه على نقطة «أرخميدس» الثابتة[1]. ومن ثم يظن بأنه من مكانه العاجي المرتفع يُمكنه رؤية الأشياء بنظرة شاملة، بينما يمنع التموضعُ على المكان الشاهق نفسه النظرة الشاملة. ومع ذلك فلا مفر من النظر في الطبيعة -جنبًا إلى جنب، مع جميع من سبقوك ومن سيأتون بعدك- جنبًا إلى جنب، مع جميع الأشياء التي هي ضمن الطبيعة.

***

الآن فقط، شعرتُ باليأس على المنحدر الحاد بينما كنتُ أمعن التفكير في أنني الآن على وشك مغادرة جروس أينلاند بشكلٍ فعليٍّ، أجل، كان هذا أيضًا فعل مقاومة، فكرتُ، في أن فيليب الآن على وشك الإعلان عن اسمي وأنني لن أظهر من بين الجمهور حتى يضعوا إعلانه في الاعتبار. بدت التربة أنها ترغب في أن تتعارض مع خطتي للمرة الأخيرة، كانت تترجرج مُندفعةً نحوي وهي مُغطاة بورق بداية الخريف. كان قد انسلَّ صوت بداية الموسيقى المؤلفة خصيصى لهذه الليلة من أسفل الوادي. وهذا يعني أن أحدًا ما قد لاحظ اختفائي وواصل خطة اليوم، كان يُسليني تخيُّل الكونتيسة وهي تتساءل مع نفسها عن سبب عدم وجودي هناك، وخصوصًا عندما تدرك لاحقًا بأنني لن أعود مجددًا أبدًا. *الصمت*، رفض *الكلام*، فكرتُ من جديد وأخذتُ أول طريق سريعة مُتعرجة بين الجبال، كان ذلك أعلى وأبعد فعلٍ تمرديٍّ قد وصلتُ له. سأنسحب ببساطة من جروس أينلاند، ما يسمى بوطني سأوليه ظهري، ومن ثم لن يتبقى شيء مني، أي باستثناء الأطنان والأطنان من مادة الحشو التي تُضخ الآن في الأرض. إذا لم يوافق شخصٌ ما تصرفات مجموعة ما، حينها يجب عليه أن يجد مجموعة جديدة تُشبهه، حتى يتمكن من محو هذه المشكلة، أجل، المشكلات لا تتطلب حلًّا، بل تبخرًا تامًّا، إبادة.

(1) يستخدم مصطلح نقطة أرخميدس في الفلسفة بأنه الحقيقة الوحيدة المطلقة، وقد استخدمها ديكارت في فلسفته، فتعد جملته «أنا أفكر إذن أنا موجود» هي نقطة أرخميدس لديه.

كانت الشمس قد غابت عندما وصلتُ إلى أعلى نقطة في التل وصارت التربة المائعة أكثر لزوجة على نحو مفاجئ. فكرتُ في رهبة: *مادة الحشو*، وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن ممكنًا، فقد ظننتُ أنني شعرتُ بالتجمد. تخيلتُ الغابة التي كانت قريبة مني للغاية وهي تُقتل في تلك اللحظة بسبب وهن في نشاطها العصبيّ، دون أن يلاحظ أحدٌ ذلك. ستُحشى الجذور بهذه المادة، الآن في الحال، بينما أقود على الطريق الصاعدة آخر أمتار المنحدر، حيث قبل ثلاث سنوات اصطدمت بسيارتي في داخل أرض هابطة على هذا المنحدر. شعرتُ على إطارات سيارتي -كما لو كانت على أجزاء من جلدي- بالحبيبات الصلبة بينما تطفو على الأرض الطحلبية الرطبة والمائعة. كانت حركة سيارتي التي تشبه السباحة الحرة تتحسن أكثر فأكثر، إذ بدت الذرات أنها تتحد وتتكتل وصارت القشرة الأرضية للعالم -التي كانت تسترسل في الانجراف منذ زمن الدهر الجهنمي[1]- صلبة.

هدأت الحركة الموجية لجبال الألب، وأدى محرك سيارتي عمله ودفعني للأمام دون أي عوائق. كل ما كان يتجول ويضطرب بداخل الأرض، هذه العملية الأبدية من الخلق والانهيار، أوقِفت بضربة من مادة اصطناعية. كنتُ على وشك التوغل بداخل طريق الغابة المحمية، وكان القصر بعيدًا للغاية خلفي حيث يجب أن أكون قريبة بالفعل من الطريق الزراعية. قبضت مادة الحشو المُتصلِّبة على الأعشاب من الأسفل، على الكائنات الدقيقة، على المفاصل الرقيقة والخشنة للعالم ودفعتها بإحكام في حركة لولبية في حاضرٍ أبديٍّ، صندوق عرض، حيث بداخله ستُحبس جروس أينلاند وجميع سكانها إلى الأبد. أظن أنني لو نظرتُ مرة أخرى إليها، فسيكون كل شيء مقتولًا والعشب لن يكون أكثر من مجرد خطوط متشابكة ومتداخلة من الخيوط الصفراء البالية.

ولكن عندما كنتُ أقود على الحافة الأخيرة للمنحدر التي ما زالت تفصلني عن الأرض الخرسانية، استدرتُ ورأيتُ اللاشيء. كان الحفل قد صار وهمًا بعيد المنال، بعيدًا جدًا، للدرجة التي لا يمكن معها سماع موسيقى المولد وهي تحوم في الطبقات الهوائية. الآن عندما ترجلتُ من السيارة بدت قمم الأشجار في ضوء المساء وكأنها مرسومة على لوحة من قماش. بحثتُ عن سبب وحيد للنظر أبعد من ذلك وللعودة مرة أخرى إلى المدينة التي منحتني

(1) أول دهر في تاريخ الأرض.

بيتًا، ولكن لم يكن هناك سبب. صارت ملامح المدينة مثل أي مكان آخر، لم يكن فيها شيء يُمكن إيجاده سوى موتيف بطاقة بريدية أخرى. بالإضافة إلى ذلك فقد توقف ارتجافي، لأول مرة منذ سنوات شعرتُ بالصفاء التام. ركبتُ سيارتي، التي كانت تالفة بصورة أقل مما كنتُ أخشى، ووضعتُ، بحذر أكبر، ناقل الحركة على السرعة الثالثة. كان يمكن لأي أحد أن يعتقد بأن هذه هي المرة الأولى في حياتي التي أقود بها سيارة على طريق فيدرالية. لم أكن معتادة على تشغيل الراديو، كنتُ خرقاء للغاية مثل طفل صغير، وعندما تمكنتُ أخيرًا من تشغيله، اندهشتُ من أنه لا يزال يعمل، وصدح صوت موسيقى البوب العالية للغاية بطريقة لا يمكن احتمالها من مكبر الصوت.

أغني لكِ أغنية، ثم تسألينني، هل ترغب في الرقص معي، أظن أنني معجب بكِ(1).

أغلقتُ الجهاز على الفور. أخذتُ الطريق التي تركتها قبل سنوات، حيث استحوذت عليّ فيه شهوة جامحة تجاه المدينة. فكرتُ: *سأجلس الليلة بالقرب من قناة «الدانوب»، على الحافة الخرسانية المستقيمة للنهر، وسيتدفق الناس بجانبي من جميع الجنسيات مع مكبرات الصوت وصناديق البيرة في أياديهم.*

عندما أمسكتُ الخيط من جديد في المكان الذي فقدته فيه، كانت جروس أينلاند بالنسبة إليّ لا شيء أكثر من مجرد حلم غريب.

عندما زوّدتُ سرعة سيارتي برفق إلى مئة كم/ساعة، شعرتُ بالأسفلت الثابت تحتي. الأرض، التي كنتُ أتحرك فوقها، لم تعد تشكل أي عقبة لمواصلة تحركي. كل شيء كان متوقفًا.

كما لو كنتُ أتأكد من أن أحدًا لا يقترب مني من الخلف، نظرتُ لمرة أخيرة في المرآة الخلفية، لم يكن هناك شيء يتأرجح، كل شيء كان في مكانه، وأنا أخيرًا في مكاني. الغابة، التي عشتُ خلفها لوقتٍ طويل، كانت تتفرع على جانب واحد، تتقلص وتفسح مجالًا لأرض زراعية كبيرة ومحروثة بوضوح، حيث خلفها كُتبت قصة «فيينا».

لا شيء يمكن أن يبقى في الظلام.



---

(1) مقطع من أغنية لأندرياس جابالير.

الأرض المائعة

"مخيف، مشوق، مجنون ويصعب تصديقه –ببساطة أدب رائع".

- بيان لجنة التحكيم لجائزة الكتاب الألماني (القائمة القصيرة).

"تتجاوز رافائيلا إيدلباور كل الحدود وتتقدم نحو المناطق التي لم تُكتشف بعد في الأدب".

- بيان لجنة التحكيم لجائزة Rauriser Literaturtage.





رافائيلا إيدلباور

كاتبة ولدت في فيينا عام 1990، ودرست فنون اللغة في كلية الفنون التطبيقية، كما درست الفلسفة بجامعة فيينا، وفي عام 2017م حصلت على منحة من صندوق الأدب الألماني مدةً عام، وشاركت عام 2018 في جائزة باخمان وفازت بجائزة الجمهور، كما أدرجت روايتها "الأرض المائعة" ضمن القائمة القصيرة لجائزة الكتاب النمساوي وجائزة الكتاب الألماني عام 2019م، وفازت روايتها "ديف" بجائزة الكتاب النمساوي عام 2021.

أعمال أخرى للكاتبة:



الأرض المائعة



يموت والدا الباحثة الفيزيائية "روت" في حادث غامض، فتبحث في الأمر وتحاول معرفة حقيقة إذا ما كانا قد ماتا في حادث سيارة طبيعي أم هناك سر في وفاتهما. فتعود إلى مسقط رأسهم، البلدة الصغيرة، لتحاول تبيُّن ما حدث في الماضي وكيف أثر ذلك على الحاضر.

تقابل هناك الكونتيسة، بشخصيتها الغريبة وسيطرتها على المجتمع كله، وتكتشف العديد من الأسرار حول وجود حفرة شاسعة في الأرض وكيف يهدد ذلك الحياة بأكملها ولا يريد أحد التحدث عن الأرض المائعة التي تتهاوى تحت أقدام الأفراد والبيوت.

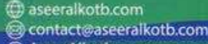


غلاف: عبد الرحمن الصواف


9 789779 922355






aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb